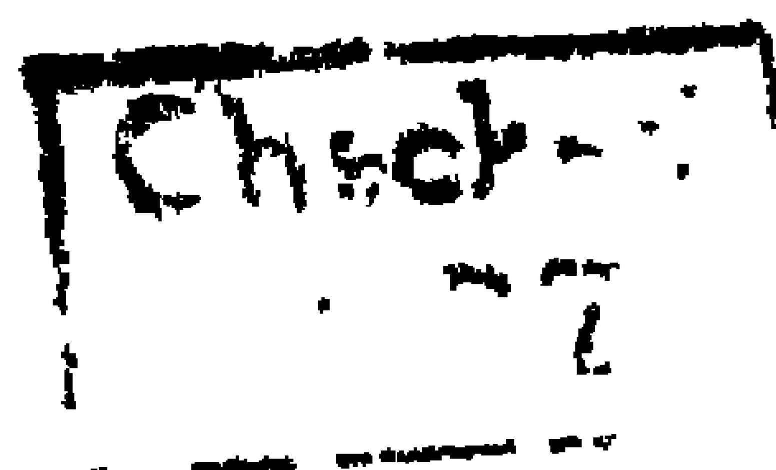
السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ٦/١٣/٩





كتاب الالمام

بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية

لمحمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندرانى

(المتوفى بعد سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٢ م)

الجزء السادس



تحقيق

الدكتور عزيز سوريال عطية

من مخطوطة القاهرة

طبع

باعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية

تحت إدارة

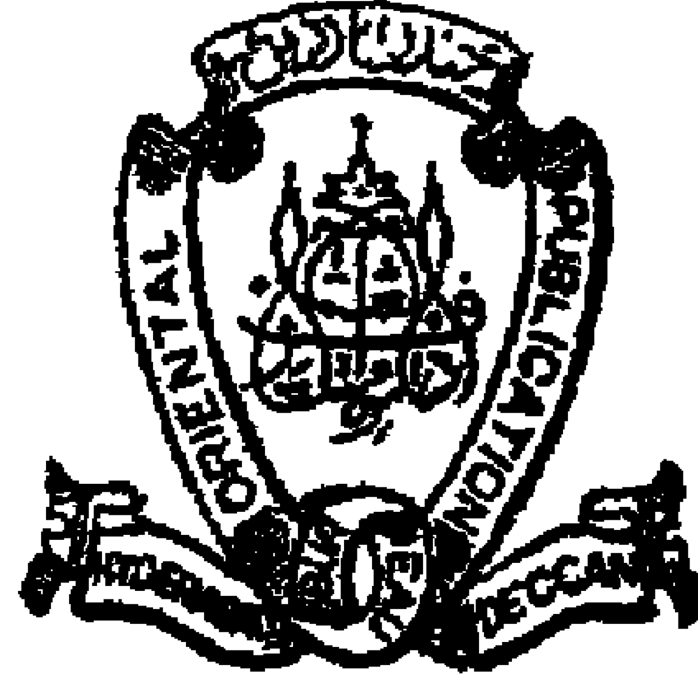
بروفسور السيد عبد الوهاب البخارى مدير دائرة المعارف العثمانية

الطبعة الأولى

بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند

١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م

السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ٩/١٣/٦



كتاب الالمام

بالإعلام فيما جرت به الأحكام و الأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية

لمحمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندرانى

(المتوفى بعد سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢ م)

الجزء السادس

تحقيق

الدكتور عزيز سوريال عطية

من مخطوطة القاهرة



طبع

باعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية

تحت إدارة

پروفسور السيد عبد الوهاب البخارى مدير دائرة المعارف العثمانية

الطبعة الأولى

بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند

١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

[عود إلى ذكر دخول السلطان الأشرف شعبان ثغر الإسكندرية -[1]]

نعود إلى ذكر صفة دخول السلطان الملك الأشرف شعبان ثغر الإسكندرية ، و ذلك أنه دخل من باب رشيد ، فسار بالمحجة العظمى ، و قد اجتمعت الرجال و النساء و العبيد و الإماء لرؤيته ، فصاروا يدعون له ، و النساء صرن يزرغتن[2] فرحا به لشبابه و حسنه و جماله ، و هو راكب فرسا أشهب[3] ، تدوس سنابكه شقق الحرير المفروشة على الأرض ، و أمراؤه يمشون بين يديه ، و الشاويشية تزعق ، و المغنون[4] بدفوفهم[5]

---

(١) العنوان مشتق من النص ، و ليس بالهامش . انظر ما قبل وما بعد في هذا ، و راجع الفهارس .

(٢) كذا في الأصل ، ولعله : يزعزغن ، زغزغ بالرجل : هزئ به و سخر منه .

(٣) في الأصل : أشهبا .

(٤) في الأصل : و المغنين .

(٥) في الأصل : بدفوفها .

يضربون[١]، و الشعراء على ضرب الرباب يشعرون[٢]، و الشبابة تشبب[٣] لها صوت مطرب ، فطربت الأسماع على حسن الإيقاع ، وتمايلت الأبدان كتمايل الأغصان و الأفنان ، لحسن سماع تلك الألحان ، و قرت العيون بمشاهدة جمال السلطان ، و صارت الشبابة تشبب بغير جارحة لسان ، بل كلما نفخ فيها الإنسان ، أزيلت الأحزان . كما قال بعضهم / فى شبابة كالعنابة حيث قال :

و مقطوعة موصولة شقها النوى[٤] تخبر أخبارا بغـــير تـكلم
تراها إذا هاج الهوى فى فؤادها تذيع من الأسرار كل مكتم

[٥]و كان الجفناوان يحجبان[٥] السلطان ، و هما مملوكان بيض الألوان ، راكبان [٦]فرسين أشقرين[٦]، عليهما أقبية الحرير الأصفر بطراز الذهب ، و على رؤسهما كوافى[٧] الذهب المزركشة ، متساويان فى سيرهما ، لا يتعدى الواحد الآخر ببعض خطوة ، و الغاشية المتوجة بالطائر الذهب المشبه بالحمامة بيدى رجل ماش يديرها بأعلى رأسه يمينا و يسارا ، يقدمه غاشية ثانية مرصعة بالذهب بيد رجل آخر . و على عنق فرس السلطان رقبة

(١) فى الأصل : تضرب .

(٢) فى الأصل : تشعر .

(٣) فى الأصل : تشب .

(٤) نقلت الكلمة من الشطر الثانى للأول .

(٥ - ٥) فى الأصل : وكانت الجفناوات تحجب .

(٦ - ٦) فى الأصل : فرسان أشقران .

(٧) جمع كوفية توضع فوق الكتفين .

من ذهب مرصعة بأنواع[1] الجواهر، و السلطان عليه قباء أخضر بفرو قاقون أبيض، و الجنائب ذوات الرقاب و الكنابيش الذهب المزركشة المكللة بأحجار الجواهر تساق خلف مركوبه نحو خمسين جنيبا.

و كان السلطان إذ ذاك سنه دون الستة عشر، و وجهه من حسنه كالقمر، فلم يزل سائرا بالمحجة إلى مسجد أبي الأشهب، فعطف عطفته و مر على دار ابن الجباب إلى جمار القصارين إلى الصادر إلى أن خرج من باب البحر الذى يلي البلد، فنثر عليه مقابل دار العدل و دار الطراز دنانير كثيرة التقطتها الناس. ثم سار و خرج من باب البحر الثاني ثم الثالث، فشاهد البحر الملح و المينة، بها مراكب الفرنج. و في ذلك اليوم لم يبق بالإسكندرية [2]إفرنجى تاجر[2] و لا [3]علج غلام[3] إلا و تحصن بالمراكب خوفا من السلطان.

ثم إن السلطان شاهد قلاع السور و أبراجه التى تلي البحر مزينة بالعدد من الأسلحة و الأتراس و الشطفات الحرير الملونة، و الأعلام التى تخفق بالرياح، تبتهج لرؤيتها الأبصار و ترتاح الأرواح. ثم إن السلطان شاهد المكان الذى صعدت منه / العلوج السور و الخندق الجديد الذى أنشأه ١٤٢/ الف
الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم، و لم يكن قبل في ذلك المكان خندق[4]، بل كان الإنسان يأتى ماشيا إلى أن يلتصق بالسور.

(١) زيد هنا: الذهب. و لا محل للكلمة فى السياق و هى مشطوبة فى النص.
(٢ - ٢) فى الأصل: افرنجيا تاجرا.
(٣ - ٣) فى الأصل: علجا غلاما.
(٤) فى الأصل: خندقا.

ثم شاهد السلطان أيضا الخندق الغربي المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالمطرق . ثم إنه دخل الإسكندرية من الباب الأخضر، و سار إلى أن اجتاز بضريح الشيخ الصالح الفقيه العالم العلامة أبي بكر الطرطوشي. ثم منه إلى رحبة الجامع الغربي إلى دار السلطان المجاورة له، و قد امتلأت الطرقات بالناس، يدعون له كبيرهم و صغيرهم، ذكرهم و أنثاهم.

فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب و فتح له الباب الأول و الثاني مما يلي البلد، و سار به وزيره سيف الدين الأكز المتقدم ذكر ولايته بالإسكندرية بين السورين إلى أن أتى بـه دار الطراز، فترجل و دخلها صاعدا سلمها إلى أن أتى مواضع أنوالها و استعمالاتها، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة، و البدلات المطبقة، المتخذة لحريم السلطان، المختلفة الألوان.

قال بعضهم: حدثني أحد مماليك السلطان الخاصكية، و كان بيني و بينه معرفة من القلعة بالقاهرة، أن السلطان لما طلع دار الطراز، قلع قلوبته و أقبيته، و تخفف حتى صار في ملوطة و قبع بوفرة، و جعل يطوف على الأنوال يبصرها، و يدخل رأسه تحتها، لينظر أسفلها، و يتفرج على الصناع كيف ينسجون، و إلى مكاكيهم كيف يرمونها و لها يرجعون، و يرفع رأسه يشاهد في أعلى الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادي و لها يحطون، و كيف تصنع الطيور المنسوجة و الدالات و الشاذرونات و غيرها بتلك الخيطان الطالعة

و الهابطة إلى أن يكمل كل طار و غيره، فلم يزل طائفا[1] يتفرج على نوع حتى اجتاز بشيخ كبير السن / ينسج بمنواله، يموج تارة عن يمينه، و تارة عن شماله، يرميه لمكوكه فى باطن مسديته، فيظهر بذلك نسج بديع، كزهر الربيع. فقال السلطان له: العافية يا أبى! فلم يرفع الشيخ رأسه إليه، و لا نظر له بعينيه، و لا دعا له بالرد عليه. بل صار مقبلا على نسجه ناظرا إلى سير مكوكه و رجعه. فتعجب السلطان من مكابدته على شيخوخته، و بديع تفرسه فى صنعته مع سكتته. و كان ينبغى للشيخ حين كلمه السلطان أن يدعو له، و يسأله معروفه ليرتفق به. فما كان يخيب سؤاله، لأنه لولا رق له لكبرسنه و جهده فى العمل ما كلمه، و لا كلمه إلا لخير يصله منه إليه، لشفقته عليه. فإن كان سكوت الشيخ خوفا منه و هيبة، لم يحصل له إلا الخيبة، كما قيل فى منثور الحكم «من هاب خاب، و من جسر أيسر». و كان ينبغى للشيخ أن يقول: بقيت بقاء الدهر! أمرك نافذ! و سعيك مشكور! و حكمك منصف! و مكنت فى حفظ البسيطة مثل ما تحكم فى أمصار فرعون يوسف! فالله المسؤل فى حراستك بعينه، و إمدادك بتوفيقه و عونه! و ذاتك و أدواتك اللطيفة، و أدواتك الشريفة، مستودعة لمن لا تضيع عنده الودائع، و لا تخيب عنده الصنائع! لحضرتك السامية مخصوصة بأتم سلام، و تحية و إكرام! أنصف الله بك المظلوم! و أغاث بك الملهوف! و أيدك بالتثبيت و وفقك للصواب! سددك الله بالتوفيق و أنطقك بالصواب! و جعلك عصمة للدين، و حصنا للمسلمين!

(١) فى الأصل: طايف.

أعانك الله على ما قلدك ! و حفظ لك ما استعملك ، بما يرضى من فعله سددك الله و أرشدك ! و أدام لك أفضل ما عودك ! زادك الله شرفا فى المنزلة ، و قدرا فى قلوب الأمة ، و زلفى عند سلطانك ! نصر الله بعدلك المظلوم ! و كشف بك كربة الملهوف ! و أعانك على اتباع الحق ! متع الله أبصارنا برؤيتك ، و قلوبنا بدوام نعمتك ! من الله علينا بطول مدتك ! و هنأنا بالنعمة سلامتك !

فكان السلطان حينئذ يتهج بهذا الكلام ، و يمده بالإكرام و الإنعام ، و ذلك لمقالته ، و كبره و شيخوخته . قالت العرب « لا فرق بين الإنسان و بين البهيمة إلا تخالف الصورة » و لذلك قيل « الصمت منام العقل ، و النطق يقظته ، و المرء مخبوء تحت لسانه ، و إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره » انتهى .

نعود و إن كان سكوت الشيخ عن جواب السلطان زهدا فيما فى يدى السلطان ، و رغبة فيما عند الله تعالى ، فهو كما قال بعضهم هذه الأبيات :

لا تخضعن لمخلوق على طمع فان ذلك وهن منك فى الدين
و استرزق الله مما فى خزائنه فانما الرزق بين الكاف و النون
و اعلم بأنك لا تزداد خردلة إلا باذن الذى سواك من طين

و إن كان سكوت الشيخ راحة له من كلام ، فهو كما قال بعضهم حيث قال :

لقد فاز باللذات من هو أخرس و خصص بالراحات من لا يسمع

و إن كان سكوت الشيخ أنفــة عن ذل السؤال ، فهو كما قال بعضهم حيث قال :

يا لهف نفسي على شيئين لو جمعا   عندي لكنت إذا من أسعد البشر
كفـاف عيش كفاني ذل مسألة   و طـاعة الله حتى ينقضي عمري

و إن كان سكوت الشيخ خوفا من المنــة و عار السؤال ، فهو كما قال بعضهم حيث قال :

لنقل الصخر من قلل الجبال   أحب إلى من منن الرجال
يقول الناس كسبك فيه عار   و كل العار في ذل السؤال

قال الأصمعي : رأيت أعرابيـا في طريق مكة يسأل النـاس و لا يعطونه شيئا و معه صبي صغير ، فلما أعياه الأمر قال : يا بني ! ما أراني إلا محروما . فقال الصبي : يا أبت ! المحروم من أملتـه فبخل ، ليس من سألته فلم يعط . فعجب الناس من فصاحته على صغر سنة . و تدافع الناس عليه بالهبات و الكساء ، فاستغنى في ساعة واحدة بكلمة واحدة ـ انتهى .

/ و إن كان سكوت الشيخ طلبا للقناعة و عدم الالتفات إلى مخلوق ، ١٤٣/ب
فهو كما قال بعضهم حيث قال :

عزيز النفس من طلب القناعه   و لم يكشف لمخلوق قناعه
أفادتني القنـاعة كل عــز   و هــل شيء أعز من القناعه
فصيرهـا لنفسك رأس مال   و صير بعدها التقوى بضاعه

كان بعض العلماء يشتي بقميص واحد مع شدة البرد في بلاده فقيل له : لو تدفأت[1] شيء يقيك من البرد ! فيقول : بي علة تمنعني من

(١) في الأصل : تدفئت .

لبس المحشو، يحى بهـا علة الفقر، ولا يكشف حاله لأحد، فأقبلت عليه الدنيا عند كبره إلى أن صار له[1] مال كثير[1] فى وقت خمود شهوته، وضعف معدته، فكان يقول : قبح الله النعمة أتت حيث لا ناب ولا نصاب – انتهى .

نعود – وان كان سكوت الشيخ رضى منه بالفقر وغنى النفس، فهو كما قال بعضهم:

إن الغنى هو الغنى بنفسه ... وليس الغنى بملكه وبماله
وكذا الفقير هو الفقير بنفسه ... ليس الفقير بدلقه ومقاله

ولبعضهم أيضا :

اطلب الدنيا إذا سهلت ... واترك الدنيا إذا امتنعت
تطلب النفس الغنى عبثا ... والغنى للنفس إن قنعت

وإن كان سكوت الشيخ أنفة وغير مبالاة بمخلوق فى الدنيا، فهو كما قال بعضهم :

إن القناعة عز من ظفرت بها ... جعلت موطوءه رجلى جبهة الأسد

وان كان سكوت الشيخ وصمته عن الجواب خوفا من زلة تقع منه بين يدى السلطان تجرى على لسانه من غير قصد منه لها، فهو كما قال بعضهم فى الصمت سبعة آلاف خير، وقد اجتمع ذلك فى سبع كلمات، كل كلمة منها بألف، أولها : الصمت عبادة، والثانية : الصمت زينة من غير

(١) فى الأصل : مالا كثيرا .

حلى ، و الثالثة : الصمت هيبة من غير سلطان ، و الرابعة : الصمت حصن من غير حافظ ، و الخامسة : الاستغناء عن الاعتذارات ألا يعتذر إلى أحد ، / و السادسة : الصمت راحة الكرام الكاتبين ، و السابعة : الصمت ١٤٤ / الف ستر[1] لعيوبه .

و لما طلب السلطان الملك الناصر حسن[2] بن السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون[3] تاج الدين موسى بن الخازن ناظر الإسكندرية ، فلما حضر بين يديه داخل قصره ، قبل الأرض و وقف صامتا ، فسأله السلطان عن الإسكندرية و ما اجتمع له بها من الأموال فى تلك السنة ، فكان جوابه أن قال : المملوك رجل من العوام ، لا يحسن مخاطبة الملوك ، و يختى المملوك أن يتكلم بكلام يقع منه من غير معرفة لما لا يوافق مخاطبة مولانا الملك ، فيكون هلاك المملوك فيه . فقال السلطان : حينئذ تكلم بما تعرفه ، فنحن لا نؤاخذك بخطأ يقع منك حسب اعتذارك بما اعتذرت به . فتكلم الناظر المذكور حينئذ بما اقتضته مصلحة السلطان ، فخلع عليه ، و أبقاه على وظيفته كما كان - انتهى .

فلنرجع إلى ما كنا فيه آنفا من أمر السلطان الملك الأشرف شعبان - ثم إن السلطان المذكور شاهد ما فى دار الطراز بالإسكندرية من عمل

---

(١) فى الأصل : سترا .

(٢) الناصر حسن من المماليك البحرية سلطنته الأولى ٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥١ م و الثانية ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١ م .

(٣) فى الأصل : قلوون .

زراكش و رقوم و ثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختار منها ثيابا يستصحبها معه ، و ترك الباقى إلى حين تكملة نسجه . ثم إن السلطان رأى زير ماء عليه قادوس فخار أحمر يشرب به صناع دار الطراز من الزير المذكور ، ملأ بيده و شرب منه .

حدثنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف البغدادى معلم دار الطراز لما سألته و قلت : بلغنى أن السلطان ملأ بنفسه بقادوس فخار على زير بدار الطراز [تشرب به منه صناع القزازة -[1]] و شرب منه . فقال : نعم ، عاينته يشرب من الزير المذكور ، و أن الصناع احتفلوا بذلك القادوس
ب و سموه / قادوس السلطان ، و صاروا يقولون[2] : اسقونا بقادوس السلطان ، و صار له بينهم مزية و رفعة قدر و عظم شأن . فقلت فى ذلك القادوس بيتين مقصورين و هما هذان[3] :

صار للقادوس ذكر عند ما — شرب السلطان منه وارتوى
فحوى فخرا [جميلا -[4]] دائما — بجميل[5] الذكر ما بين الورى

ثم إن السلطان خرج من دار الطراز ، و أتى دار الصناعة . فرأى

(١) العبارة المحجورة ساقطة من الأصل ووردت فى هامشه بقلم المراجع .
(٢) فى الأصل : يقولوا .
(٣) فى الأصل : هذين .
(٤) زيدت الكلمة من السياق لاستقامة الوزن .
(٥) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

ما

ما فيها من الشوانى الفروانية، و المجانيق الشيطانية، فرموا بها قدامه، فاستحسن رميها، و رجع من بين السورين إلى أن دخل الإسكندرية من الباب الأخضر، و سار إلى قصر السلاح . فدخله و شاهد ما فيه من الأسلحة الكثيرة المدخرة من عهد الملوك السالفة بقاعات القصر المذكور، فرسم بأن يعمل له به أيضا قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعات الملوك بهم، فبنيت و جعلت له فيها من السلاح الحديد شيء كثير، فكان عمله لذلك حسنة كاملة، و نعمة شاملة . و قد قيل فى هذا :

لست أرى للزمان سيئه و هده من فعاله الحسنه
بل وجهه أبيض يضيء سنا و هذه فوق خده حسنه

و هذا القصر المذكور الحاوى للسلاح المذكور حرسه الله تعالى من الفرنج حين ظفرهم بالإسكندرية، بعد أن أتوا إلى بابه مشاة و خيالة، ألهمهم الله تعالى بمنه وكرمه أنه جامع[1] للسلمين يصلون به، و يتعبدون فيه، فكفوا عن كسر بابه و دخولهم إياه، و لو فهموه أحرقوه بعد أن كانوا يحملون[2] منه العدد الكثيرة و الأسلحة المتينة . و لكن الله تعالى بفضله و إحسانه أعمى أبصارهم و بصائرهم عنه بزعمهم أنه [3]مسجد جامع[3] لصلاة المسلمين . / و منعهم الله أيضا لأنهم لم يتعرضوا لخراب شيء من ١٤٥/الف جوامع إسكندرية ومساجدها و صوامعها خشية إخراب المسلمين لكنائسهم

---

(١) فى الأصل : جامعا .

(٢) فى الأصل : يحملوا .

(٣-٣) فى الأصل : مسجدا جامعا .

التى هى بالديار المصرية و الشامية ، لأن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان رسم فى أيام دولته بهدم كنائس النصارى ، فهدم منها بمصر و الإسكندرية و الصعيد و البحيرة و الشام كثيرا ، و لذلك لما ظفروا بالإسكندرية ، امتنعوا من خراب مساجدها ، خوفا مما تقدم من خراب حل كنائس النصارى ، فامتنعوا من ذلك خوفا من خراب بقيتها ـ انتهى .

[خبر المئذنة و اليهودى ـ[1]]

فلنذكر الآن خبر مئذنة قصد هدمها اليهود بالمكر و الحيل ، فغرموا المال الجزيل ، و بقيت المئذنة على حالها لم تهدم ، فحصل لهم الخزى و النكال بعدم هدمها ، و غرامة المال . و ذلك أن مسجدا بسرنديب[2] من أرض الهند بناه رجل يسمى خالد بن أحمد أصله من الأبلة[3] . وكان فى وقته وجه للمسلمين مالا يبنى به للمسجد مئذنة عالية ، والى جانب المسجد كنيسة لليهود كبيرة مليحة ، فاذا صعد المؤذن الى المئذنة يؤذن ، أشرف على الكنيسة و من فيها ، وكذلك كل من صعد عليها غير المؤذن يشرف عليها ، أو يشاهد ما يعمل فيها ، فأعيى اليهود أمر المئذنة ، وكان أحد اليهود موسرا ، فأراد إعمال الحيلة فى هدمها . فقال للملك : إن تحت هذه المئذنة كنزا نجده فى كتبنا ، فظن[4] الملك و عز على بانيها أن تخرب . فوقع بينه و بين اليهودى خطاب طويل إلى أن قال

(١) عنوان القصة غير وارد بالهامش .

(٢) سرنديب أوردها ياقوت فى معجم البلدان ج ٣ ص ٨٣ - ٨٤ بقوله : « هى جزيرة عظيمة فى بحر هركند بأقصى بلاد الهند » والمقصود جزيرة سيلان .

(٣) الأبلة مدينة على الضفة اليمنى من نهر الدجلة قريبة من البصرة .

بانيها خالد بن أحمد: أنا أهدمها، فان كان تحتها كنز، فللملك من مالى مائة ألف قلنز[1]، و إن لم يكن تحتها شيء، بناها اليهودى و عليه للملك مائتا ألف قلنز. فلما سمع اليهودى / ذلك توقف و جرى بينهما ١٤٥/ب خطب طويل إلى أن وزن اليهودى مائة ألف قلنز، و لم تهدم المئذنة، فكانت حيلة اليهودى سبب ذلك المال. و صار[2] المسلمون يصعدون[3] على المئذنة فى كل وقت، و يلعنون[4] اليهود و ينادون عليهم: يا نسل الخنازير و القرود! و يكشفون أحوالهم فى كنيستهم، و يشتمونهم حين زمزمتهم، فصار اليهود من خوفهم منهم [5]مقهورين خرسا[5] لا ينطقون.

قال الأصمعى: كان أعرابى على البحرين ولاه ابن هبيرة، فانكسر عليه بعض خراجه، فأمر بجمع اليهود، و كانوا كثيرا بها، فجمعوا له. فقال لهم: ما علمكم و ما قولكم فى عيسى ابن مريم؟ قالوا: قتلناه و صلبناه. قال: و الله لا تفارقونى حتى تؤدوا إلى ديته. فأخذ منهم الدية و زادها فى خراجه.

---

(١) قلنز ــ كذا فى الأصل، و لم نعثر على الكلمة فى المراجع المعروفة فى العربية، و واضح أنه يعنى بها ورنة أو عملة.

(٢) فى الأصل: صارت.

(٣) فى الأصل: تصعد.

(٤) فى الأصل: تلعن.

(٥-٥) فى الأصل: مقهورون حرس.

و كان أبو العاج على حوالى البصرة، فأتى برجل من النصارى، فقال: ما اسمك؟ قال: عمّور. قال: اسم ثلاثة و جالية واحدة! لا و الله العظيم! فأخذ منه ثلاث جوالى و قال: عمور - اشتق منه ثلاثة أسماء: عمر و عمرو و عامر.

[صفة أبنية الهند و غير ذلك - [1]]

و إذ قد ذكرنا المئذنة بأرض الهند، فسأذكر ما قيل فى صفة أبنية الهند إن شاء الله تعالى - ذكروا أن الأمطار كثيرة بأرض الهند، فلذلك أبنية الهند بالساج و القنا و غيرهما من الخشب، و فيهم من يبنى بالآجر و اللبن، فيبنى الواحد حائطا مثل السور[2]، و يبنى داخله الأبنية بالخشب و يسقفه، و يجعل على السقف [3]لبنا كبارا[3] بالطين، ثم يملسه بالنورة و المغرة، و يدلك دلكا ناعما. و تلك النورة ترسب و تخمر خمسة أشهر و ستة بالماء، و ربما نقع الهليلج و البليلج و الأملج، و جعل فيه المشاق، و منهم من يطبخ جلود الجواميس حتى تتهرأ، ثم يصب ذلك فى النورة أيضا، فيكون مثل الغراء، و تصقل صقلا ناعما حتى تطرد المطر.

و العرب تعمل حول بيوتها حاجزا[4] من الرمل يحاط بها ليمسح

(١) العنوان مشتق من النص و غير وارد بالهامش.
(٢) فى الأصل: النسور - كذا.
(٣-٣) فى الأصل: لبن كبار.
(٤) فى الأصل: حاجر.

ماء

ماء المطر . و إذا كانت بيوت العرب من وبر أو صوف فهو خباء، و إن كانت من شجر فهو خيمة، و إن كانت[1] من شعر فهي مظلة، و إن كانت من أدم فهو طراف رقبة . و العرصة : / كل موضع متسع لا بناء ١٤٦/الف فيه . و عقر الدار : أصلها . و العقار : الأرض و الضياع . و قاعة الدار : ساحتها . و بحوحتها : وسطها . و الجناب : فناء الدار : و الوصيد : الباب، يقال : أوصدت الباب - إذا أغلقته . و البهو : الفضاء المتسع بين يدى البيت . و الصرح : البناء المرتفع . و الفدن : القصر . و المحاريب : الغرف، واحدها محراب . و البناء المشيد : هو المطلى بالشيد، و الشيد : الجص، فأما المشيّد - بالتشديد، فهو البناء المرتفع المطول، يقال : شيدت [البناء] - إذا علّيته .

و القرية : كل مكان اتصلت فيه الأبنية و اتخذ قرارا، و جمعها قرى، و يقع ذلك على المدن و غيرها . و الأمصار : المدن الكبار، واحدها مصر . و المدرة : القرية و المدينة، يقال : فلان سيد مدرته . و الكفور : الخارج عن المصر . واحدها كفر - بفتح الفاء، يقال «رجل قروى» إذا كان من أهل القرى، و «بدوى» إذا كان من أهل البادية - انتهى .

و بأرض الهند الحيوان المعروف بالكركدن، له فى مقدم جبهته قرن واحد، و هو دون الفيل فى الخلقة . و أكبر من الجاموس، يميل

(١) فى الأصل : كان .

إلى السواد ، و هو [1]يجتر كما تجتر[1] البقر ، و الفيلة تهرب منه ، و ليس فى أنواع الحيوان أشد منه ، و ذلك لأن أكثر عظامه صم ، لا مفصل فى قوائمه ، لا يبرك و لا ينام ، و إنما يكون الشجر و الآجام يستند إليها عند نومه . و الهنود تأكل من لحمه لأنه نوع من البقر و الجواميس ، و قرنه أبيض ، فى وسطه صورة سوداء فى ذلك البياض ، إما صورة إنسان أو صورة طاوس بتخطيطه و شكله ، أو صورة سمكة ، أو صورته فى نفسه ، أو صورة نوع من الحيوان مما يوجد فى تلك الديار . فينشر هذا القرن . و يتخذ منه المناطق بالسيوف على صورة الحلية من الذهب و الفضة . فتلبسها[2] ملوك الصين ، و خواصها تتنافس فى لبسها[3] ، و تتالغ فى إعانها ، فتلغ المنطقة ألفى دينار إلى أربعة آلاف دينار ، فيها / معاليق الذهب . و ذلك فى نهاية الحسن و الإتقان . و ربما يقمع بأنواع من الجوهر بقضبان الذهب ، و وجوه[4] تلك الصورة مكتنة بسواد . و قد زعم الجاحظ أن الكركدن يحمل به فى بطن أمه سبع سنين ، فيرعى ثم يدخل رأسه إلى بطنها[5] ، و هذا عجيب - و الله أعلم . ب

و بالهند نهر يجرى من عيون بجبال الهند و السند ، و هو نهر حاد

(١-١) فى الأصل : يشتر كما يشتر .

(٢) فى الأصل : فتلبسه .

(٣) فى الأصل : لبسه .

(٤) فى الأصل : وحود .

(٥) كذا فى الأصل ، و فى حياة الحيوان الكبرى : و قد أنكر الجاحظ هذا .

الانصباب و الجريان ، عليـه يعذب أكثر أهل الهند أنفسهم[1] بالحديد و تغرقها زهدا فى الدنيا و رغبة فى التنقل عنها . و ذلك أنهم يقصدون[2] موضعا فى أعالى هذا النهر المعروف بالكنك[3] ، و هنالك جبال عالية ، و أشجارها عارية[4] ، و رجال جلوس ، و حدائد و سيوف منصوبة على تلك الشجر و قطع من الخشب ، فتأتيهم الهنود من الممالك النائية ، و البلدان القاصية ، فيسمعون كلام رجال قد رتبوا على هذا النهر ، و ما يقولون من ترهيبهم فى هذا العالم ، و الترغيب فيما سواه ، فيطرحون أنفسهم من [5]أعلى تلك الجبال العالية ، على تلك الأشجار العارية[5] ، و السيوف المنصوبة ، فيتقطعون قطعا ، و يصيرون إلى هذا النهر أجزاء متفرقة ـ انتهى .

[عود إلى خبر الملك الأشرف بالإسكندرية[6]]

نعود إلى بقيـة خبر السلطان الملك الأشرف شعبان ، دخوله الإسكندرية ـ و ذلك أنه صلى العصر من يوم الجمعة بمسجد القصر المتقدم ذكره ، و ركب و خرج من باب السدرة ، و قصد وطاقه المضروب

---

(١) فى الأصل : انفسها .

(٢) فى الأصل : يقصدوا .

(٣) نهر الكنك أى الجنج (Ganges) .

(٤) فى الأصل : عدية .

(٥-٥) الجملة مكررة فى النص .

(٦) العنوان مشتق من النص .

بالموضع المعروف بالسرية[1] شرقى ظاهر الإسكندرية ، بات به و أصبح يوم السبت مقيما نهاره ، فكانت الرجال و النساء و العبيد و الإماء يتفرجون بوطاقه و بايوانه الخام المنصوب . و الإيوان المذكور من أحسن ما يكون من الخام الناصع البياض . وهو شاهق فى الهواء ، مزخرف بأنواع التقاصيص[2] الملونة ، و أرضه مفروشة[3] بالبسط ، و السلطان حينئذ فى خيمة منتدة عنه ، كبيرة تسمى بالمدورة . / و كانت العوام بالقاهرة انتصروا[4] للسلطان الملك الأشرف شعبان فى حركة المماليك الأجلاب المتقدم ذكرهم فى هذا الكتاب ، لما قصدوا أذى السلطان مع الأمير أسندمر الخاصكى المتقدم ذكره ، فاستجاشت العوام و قتلوا الأجلاب ، و جعلوهم[5] مطرحين على التراب ، و هم غلف بغير ختان ، فعلم بذلك أنهم نصارى بعيدون[6] عن الإيمان . فصارت العوام عند السلطان فى أعز مكانة ، يحبهم لنصرتهم له ، و قيامهم معه ، فصاروا له جيشا ملتزمين الطاعات من غير جوامك و لا إقطاعات . بل أخلصوا له القلوب - زيد منهم و عمرو ، ليبالوا رضى الله تعالى بطاعة ولى الأمر .

١/ الف

---

(١) كذا فى الأصل . و جائز أن تكون « السرتة » .

(٢) فى الأصل : التقاقصيص - كذا .

(٣) فى الأصل : مفروش .

(٤) فى الأصل : انتصرت .

(٥) فى الأصل : حملوهم .

(٦) فى الأصل : بعيدين .

ولما

فلما نصحت العوام للسلطان، ألقى الله فى قلبه محبته لهم فى جميع البلدان، حتى أهل الإسكندرية نالوا من إحسانه أن نثر عليهم الذهب فالتقطوه وكل منهم مما حصل له منه أخذه وذهب، نال به السبب، وتركهم يتفرجون بايوان ملكه، ويشاهدون جمال حسنه، من غير طرد ولا منع، فما منهم إلا من افتتن برؤية وجهه الحسن. ولسان حال كل منهم يقول حيث يقول:

أورد لثامه على وجنته لم يفتتن[1] العالم فى خلقته
لكن قصد النفوس تقذله طوعا وتجيبه إلى طاعته

ثم لما رحل السلطان عنهم، صار لسان حالهم يقول:

بأى فاعرناه[2] القلوب صبابة وعارية العشاق ليس لها رد

وكان رحيله من السرية ظاهر الإسكندرية ليلة الأحد المسفر صباحها عن السادس من جمادى الأولى[3] سنة سبعين وسبعمائة[4]. وأقامت الإسكندرية بعد رحيله يومين مريبة. فالله تعالى ينصره على الدوام! وأن يجعل جزيرة قبرس فى أيامه فى قبضة الإسلام! وقد قلت أبياتا فى دخول السلطان الإسكندرية. وهى هذه الأبيات:

---

(١) فى الأصل: لم تفتتن، وكانت بالشطر الأول فنقلناها للثانى.

(٢) فى الأصل: فاعرفاه.

(٣) فى الأصل: الأول.

(٤) يقابل هذا التاريخ ١٦ يناير سنة ١٣٦٩ م.

دخل الأشرف للثغر ضحى   جمعة فابتهج الثغر به
ملك سلطانه فاق على   جمع ملوك شرقه وغربه
دخل الأشرف للثغر فقد   ضاء بالنور الذى صار به
وجميع الجيش يمشى تحته   والرجال والنسا بقربه
وهو كالبدر المنير ينجلى   فى القنا الأخضر محفوف به
راكب أشهب فى سرج له   ذهب[1] كنبوشه من ضربه
١/ب والجواهر التى قد رصعت   فى خلال سرجه وركبه
ورقاب خيله من ذهب   ما لها فى دهرها من شبه
والغواشى للسروج تنحلى   بطيور ذهب تسمو به
فتن العالم لما أن رأوا   طلعة السلطان [قد-[2]] هاموا به
قد غدت أعينهم باهتة   لجمال ما له من مشبه
ملئت قلوبهم حباله   فعدوا سكرى بخمر حبه
ثم صاروا [هم-[2]] كشبه نسوة   بالجمال اليوسفى همن به
فالمليك الأشرف الزاكى الذى   عدله شرقه وغربه
دخل الثغر حقيقا وبه   قام صلى جمعة لربه
ورأى السعد بثغر باسم   ريقه من شنب كعذبه
فجنود[3] الثغر كالأسد التى   كشرت أنيابها كغضبه

(١) وردت الكلمة بالشطر الأول ونقلناها للشطر الثانى .
(٢) زيدت لاستقامة الوزن .
(٣) فى الأصل : فخاود .

يبتغى حربا لكلب قد غدا   كافر الطلعة ممكور به
فهو إن جا كرة ثانية   داخلته خيفة بقلبه
من جيوش الثغر مما قد يرى   لأسود زحفوا لحربه
رسم السلطان أن يبنى له   قاعة فى القصر من عزم به
ليصير ذكره كذكر من   ملكوا[1] من قبل و اهتموا به
بنيت قاعته و امتلأت   من سلاح كامل سُقت به
ثم بعد العصر من ثغر غدا   لوطاق فائق بات به
و أقام السبت فى سرية   فى أمان مع لطف ربه
رحل الأشرف منها قاصدا   نحو مصر فى جنود حزبه
اسمه شعبان قد بورك فى   اسمه كالشهر مسعود به
ربنا احفظه بعز دائم   ما حدا الحادى لعيس ركبه
أخرب اللهم فى دولته   قبرسا[1] بتركه و عربه

فلنذكر ما قيل فى هذا الاسم المبارك إن شاء الله تعالى - و هو أن السلطان الملك الأشرف اسمه شعبان لبركة شهر شعبان ، فان شعبان خمسة أحرف: ش ع ب ا ن . أما الشين فشرف فى الدنيا و شرف فى الآخرة ، و العين علو فى الدنيا و علو فى الآخرة ، و الباء بركة فى الدنيا
و بر فى الآخرة . و الألف أمانة فى الدنيا و ألفة فى الآخرة ، /و النون ١٤٨ / الف
نماء فى الدنيا و نور فى الآخرة . عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الأول فى النص .

صلى الله عليه و سلم : أ تدرون لأى شيء سمى شعبان؟ قالوا : الله و رسوله أعلم ! قال : إنه يتشعب فيه [1]خير كثير[1] لرمضان .

و فى شهر رمضان سنة إحدى و سبعين و سبعمائة [2] ولد للسلطان الملك الأشرف شعبان ولد سماه رمضان لبركة شهر رمضان و تلوه لشعبان ، فصار اسما على مسمى ، فحصل برمضان بن شعبان الملك المذكور الخير و السرور ، و زينت له سائر بلاد مصر و الشام . فليلة نصف شعبان ليلة مباركة ، و كذلك ليلة القدر و ليلة عرفة .

فلنذكر ما قيل فى تلك الليالى الثلاث إن شاء الله تعالى - قال بعض العلماء : اعتبرت هذه الليالى الفاضلات ، ليلة نصف شعبان ، و ليلة سبع و عشرين من رمضان - و هى ليلة القدر ، و ليلة عرفة ، فجملتها [3] لا تزال متواخية ، إن كانت واحدة منها الجمعة كان الكل الجمعة ، و كذلك غير الجمعة من الأيام . و هى ثلاث [4] ليال متواخية ، فان ليلة شعبان فيها قسمة الأرزاق ، و ليلة القدر فيها نزول الملائكة و الروح بكل أمر ، و ليلة عرفة و هى الليلة التى ما رأى الشيطان نفسه أصغر و لا أحقر و لا أغيظ منه فيها من تنزل الملائكة .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : رجب شهر الله تعالى ، و شعبان شهرى ، و رمضان شهر أمتى . قيل : يا رسول الله !

(١ - ١) فى الأصل : حيرا كثيرا .

(٢) يقابل هذا التاريخ مارس - أبريل سنة ١٣٧٠ م .

(٣) مصححة بالهامش ، و فى النص . بجملتها .

(٤) فى الأصل : ثلاثة .

ما

ما معنى قولك : شهر الله ؟ قال : لأنه مخصوص بالمغفرة ، و فيه تحقن الدماء ، و فيه تاب الله على أنبيائه ، و فيه [1]أنقذ أولياءه[1] من يد أعدائه [و -[2]] لمحبته له و مواظبته[3] على صومه ، و لما ورد أن آية الصلاة نزلت عليه فيه . و أما قوله عليه السلام : رمضان شهر أمتى ، فلعموم البركة ، و شمول الرحمة و المغفرة لأمته فيه ، و شهر شعبان شهرى ، لأن الأرزاق تتشعب فيه ، و إنما سمى رجب ، لأن الملائكة / ترتج فيه بالتسبيح و التحميد ١٤٨ / ب
و التمجيد ، و إنما سمى رمضان ، لأن الذنوب ترمض فيه . و قال ابن عباس فى رجب : سمى أصم ، لأن الملائكة تصم آذانها لشدة استماع أصواتها بالتسبيح و التقديس ، و سمى الأصب أيضا ، لانصباب الرحمة فيه - و الله أعلم .

و قيل : مثل رجب كمثل الريح ، و مثل شعبان كمثل الغيم ، و مثل رمضان كمثل المطر ، و الحسنة فى سائر الشهور الواحدة بعشر ، و فى رجب بتسع و تسعين ، و فى شعبان بمائة ، و فى رمضان بألف . و يقال : خص رجب بالمغفرة ، و شعبان بالبركة ، و رمضان بالتضعيف ، و ليلة القدر بإنزال الرحمة ، و يوم العيد بالقبول من الله تعالى ، و يوم عرفة بالرضى و الكمال ، و يوم عاشوراء بالنجاة و الفضيلة ، و يوم الجمعة بالدعاء و الإجابة . و قيل : رجب شهر الاستغفار ، فان آدم عليه السلام ألهم فيه الاستغفار

(١-١) فى النص : انقدوا أوليائه .

(٢) زيدت الواو على الأصل لاستقامة العبارة .

(٣) فى النص : و مواضبته - بالضاد بدل الظاء .

حتى تيب عليه فيه، و شعبان شهر الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم، لأن آية الصلاة نزلت فيه.

و روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: إن الله عز و جل يطلع إلى عباده ليلة النصف من شعبان. فيعتق رقابا، و يحط عقابا، و يعطى رغابا، و يغفر الذنوب إلا الشرك و الإصرار و الحسد و البغي. و فى حديث آخر: و يكتب الموت من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل يتزوج و تحبل له امرأته و يولد له و أنه من الموتى.

و عن عكرمة فى قوله تعالى[1] "فيها يفرق كل امر حكيم" قال: فى ليلة النصف من شعبان يدبر الله أمر السنة، و ينسخ الأحياء من الأموات. و يكتب حاج بيت الله، فلا يزيد فيهم أحد و لا ينقص منهم أحد.

و روى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم: إذا كان ليلة النصف من شعبان. فقوموا ليلتها، و صوموا نهارها، فان الله عز و جل ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء فيقول: ألا مستغفر أغفر له! ألا مسترزق أرزقه! حتى يطلع الفجر. و يقال: إن زمزم تحلو[2] تلك الليلة، و تتصل بها عين سلوان التى بالقدس الشريف. و كان الناس فى قديم الزمان يبذلون المال على تحصيل شيء من مائها فى تلك الليلة لما يكون فيها من الزحمة و غلبة الأقوياء للضعفاء و أصحاب الجاه على غيرهم.

(١) قرآن كريم سورة ٤٤ آية ٤.
(٢) فى الأصل: تحلو - كذا بالخاء المعجمة.

و روى عن النبي الله صلى عليه و سلم أنه قال «من اغتسل ليلة النصف من شعبان لم يزل طاهرا سنتـــه كلها» . و قال عليـه السلام «ان لله تعالى فى هذه الليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب» . و عن أنس بن مالك قال «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم فى رمضان يفطر قبل أن يصلى على رطبات ، فان لم يكن رطبات فتمرات ، فان لم يكن تمرات حسا حسوات ماء» . و عن سالم بن عامر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال «من لم يجد التمر فليفطر على المـاء» ـ حديث صحيـح . و عن معاذ قال «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أفطر[1] قال : اللهم ! إنى [لك -[2]] صمت و على رزقك أفطرت[3]» . و أفضل المياه ماء زمزم ، فاذا أفطر عليه الصائم ، قال : اللهم اجعله علما نافعا ، و رزقا واسعا ، و شفاء من كل داء و سقم ، و اغسل به قلبى و املأه من خشيتك ، و ارزقنى الإخلاص و اليقين و المعافاة فى الدنيا و الآخرة . ثم ليقل بعد شرب ماء زمزم أو غيره من المياه : ذهب الظمأ و ابتلت العروق و ثبت الأجر إن شاء الله تعالى ـ رواه ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم . عن سهل [4]بن سعد[4] الساعدى أن رسول الله صلى الله عليـه و سلم قال «تسحروا / فان فى السحور بركة» ـ متفق على صحته . و فى ١٤٩ / ب

---

(١) فى الأصل : فطر .

(٢) زيد من مراجع الحديث .

(٣) فى الأصل : فطرت .

(٤-٤) تكرر ما بين الرقمين فى الأصل .

طريق : فانه مبارك . و عن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « فصل[1] ما بين صيامنا[2] و صيام أهل الكتاب أكلة السحر » ـ أخرجه مسلم . و روى « ان الله و ملائكته يصلون على المتسحرين[3] » . و دخل بعض أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم و هو يتسحر فقال : هلم الغداء المبارك !

و يستحب أن يتسحر بالتمر لما روى أن النبي صلى الله عليه و سلم قال « نعم سحور المؤمن التمر ! » . و لقوله عليه السلام « تسحروا و لو بتمرة و لو بحبات زبيب » . و روى عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال « تسحروا و لو بالماء » . و يستحب تأخير السحور لما روى أنس عن[4] زيد ابن ثابت قال « تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ثم قمنا إلى الصلاة » و عوض الله المؤمنين فى الصيام السحور بدلا من الغداء فيقومون[5] به على عادتهم . و قال النبي صلى الله عليه و سلم « قولوا كل ليلة من رمضان : اللهم ! سلم لنا رمضان و سلم رمضان منا حتى ينقضى عنا و قد غفرت لنا و رحمتنا و رضيت عنا » . و قال النبي صلى الله عليه و سلم « ثلاث ليال من فاتته فقد فاته خير كثير : ليلة النصف من

---

(١) من مرجع الحديث ، و فى الأصل : فضل .
(٢) من مرجع الحديث ، و فى الأصل : الصيام .
(٣) فى الأصل : المسحرين .
(٤) فى الأصل : بن ، و الصواب ما أثبتناه من طريق الحديث .
(٥) فى الأصل : فيقولوا .

شعبان، و ليلة سبع و عشرين من رمضان، و تسع[1] و عشرين منه «. فانها الليالى المعظمة عند الله تعالى، فاغتنم العشر الآخير من رمضان، فان فيه تمام الفضائل و كمال المفاخر، و انتبه لأمرك قبل أن ترتهن بعملك فى قبرك، و تزود من العمل الصالح لطول سفرتك، فكأنك فى حفرتك، و اغتنم هذا العشر، فيه ليلة القدر، فقد ذهب فى أكثر العمر. و قيل فى ذلك:

أعيناى لم لا تبكيان على عمرى تناثر عمرى فى يدى و لا أدرى
إذا كنت لم تزرع و أبصرت جاهدا ندمت على التفريط فى زمن البذر

لقد فاز العاملون، و خسر الغافلون، فوا أسفا / يخرج رمضان عنا ١٥٠ / الف
و ما غنمنا! وكأننا بالموت و قد هجم علينا و ندمنا.

قد تولى الشهر عنا ليت شعرى هل قبلنا
هل ترى يقبلنا الا له على ما كان منا
معشر الصوّام فاسكوا أى شىء راح منا
شهر نــور و ضياء فيه صلينا و صمنا
كل شهر فيه نعطى كل ما شئنا و رمنا

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: يوم عيد الفطر يوم الجوائز، إذا خرجوا [إلى -[2]] المصلى أعطوا جوائزهم. قال ابن الأنبارى: معنى يوم العيد اليوم الذى يعود فيه الفرح، و أصله العود، لأنه من

(١) فى الأصل: تسعة.
(٢) زيد و لا بد منه.

عاد يعود ، و يوم الزينة يوم العيد ، لتزين الناس فيه بلبوسهم وكسوتهم . و قال عياض : سمى العيد عيدا لأنه يعود و يتكرر فى أوقاته ، و قيل : يعود بالفرح و السرور على الناس . و قيل : تفاؤلا . و يستحب أن يرجع الناس من العيد فى طريق غير الطريق الذى أتوا منها اقتداء

، بالنبى عليه السلام . و اختلف لأى شىء مر عليه السلام على غير الطريق ، قيل : ليسأل عن أمر الدين ، و قيل : لينال بركته هؤلاء كما نالها الأولون ، و قيل : ليكثر خطاه ، و قيل : ليكثر فى أعين الكفار لأنه حيثما مال مال معه الناس ، و يتفقد المساكين ، و قيل : لتنال الأرض التى رجع عليها ما نالت الأولى ، و قيل : إن اليهود لعنهم الله

١ كمنوا[1] لهم كمينا . و كتب بعض الشعراء للصاحب بن عاد فى يوم عيد يقول حيث يقول[2] :

أيا من عطاياه تعطى[3] الغنى إلى[4] راحتى مَنْ نأى أو دنا
كسوت المقيمين فى عيدهم كسىً لم يجد مثلها ممكنا
و حاشية الدار يمشون فى ثياب من الخزّ إلا أنا

١ فقال الصاحب : قرأت فى أخبار معن بن زائدة الشيبانى أن رجلا قال له : احملى أيها الأمير ! فأمر له بناقة و فرس و بغل و حمار وجارية ، ثم قال له :

---

(١) فى الأصل : كست .
(٢) فى الأصل : قالوا .
(٣) فى الأصل : يعطى .
(٤) نقلت الكلمة من الشطر الأول للثانى .

لو علمت أن الله تعالى خلق مركوبا غير ذلك لحلتك عليه، و قد أمرنا لك من الخز بجبة و دراعة[1] و قميص و سراويل و عمامة و منديل و مطرف / و كساء و رداء و كيس، ولو علمنا لباسا غير هذا لأعطيناك . ١٥٠/ب
ثم أمر بادخاله إلى الخزانة ، فقبض جميع ما ذكره الصاحب رحمه الله تعالى - انتهى .

نعود ؛ فلنذكر الآن خبر دخول ملكين الإسكندرية و ما عملا فيها إن شاء الله تعالى - فانظر يا هذا إلى السلطان الملك الأشرف شعبان ملك الديار المصرية و الشامية ، كيف دخل الإسكندرية و شاهدها ظاهرا و باطنا من غير أن يدخلها الملوك السالفة غير الظاهر . قيل : إنه من عهد الملك الظاهر بيبرس[2] لم يدخلها ملك من ملوك الإسلام غيره ، فالله تعالى يمده بنصره و يؤيده فى نهيه و أمره ، و يحفه بتأييده و إسعاده ، فقد أنعم عليه بكرمه و ورثه ملك آبائه و أجداده ، و أنطق لسان حاله بما قيل فى أمثاله ، حيث قيل :

بنت آباؤنا شرفا قديما فنحن لما بنوه مشرّفونا
أخذنا مجدنا عنهم و كانوا عن الآباء قدما يأخذونا
وأدّبهم أوائلهم وكانوا لنا عند الأمور مؤدبينا

---

(١) فى الأصل : ذراعة .

(٢) الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى من المماليك البحرية ، وحكمه ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ/١٢٦٠ - ١٢٧٧ م .

فمهما كان من خير فانا ورثنا[1] عن أوائل أوّلينا
وإنا مورثون كما ورثنا عن الآباء إن متنا بنينا

ثم انظر يا هذا إلى ملكين دخلا الإسكندرية بجيوشهما مسلم وكافر، فالكافر أخرب ودمر، والمسلم بنى وعمر. ولم يعلم أن ملكا كافرا دخلها من حين فتحها عمرو بن العاص[2] إلى آخر سنة سبع وستين وسبعمائة[3] إلا ريير بطرس[4] صاحب قبرس لعنه الله. ولم يعلم أن ملكا مسلما دخلها بعد دخول الظاهر بيبرس إلا الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون. فكان دخول الكافر فيها يوم الجمعة ثاني عشرى المحرم الحرام سنة سبع وستين وسبعمائة[5]. ودخول المسلم فيها يوم الجمعة رابع جمادى الأولى سنة سبعين وسبعمائة[6]. فالكافر قتل بعض أهلها، وأسر منهم، وشتت شمل باقيهم. والمسلم آواهم وحفظهم ونثر الدنانير عليهم. فالكافر كسرهم كسرة شنيعة، والمسلم جبرهم وجعل قلوبهم / على الألفة[7] مجموعة. فالكافر فروا من بين يديه،

(١) فى الأصل: ورثناه. ولا يستقيم ميزان الشعر إلا بحذف الهاء لخدمتها. والضمير يصبح مستترا.

(٢) إمارته ١٣ - ٣٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م.

(٣) يقابلها ١٣٦٦ م.

(٤) بطرس الأول لوسنيان، وحكمه ١٣٥٩ - ١٣٦٩ م - انظر الفهارس.

(٥) يقابل هذا التاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٣٦٥ م.

(٦) يقابله ١٥ ديسمبر سنة ١٣٦٨ م.

(٧) فى الأصل: الألف.

و المسلم قربوا منه، يدعون له و ينظرون إليه ، و يشاهدون ملبوسه الأخضر الذى عليه . قال بعضهم فى شاب حسن عليه ثياب خضراء حيث قال :

و غصن بان مزهر خده بالورد[1] و الأجفان من نرجس
يرشقنا من لحظه أسهما يرسلها من حاجب كالقسى
أشبه غصن البان قدّا كما أشبهه فى خضرة الملبس

[ذكر أخبار الملوك و ما يصلح لهم -[2]]

ذكر أخبار الملوك و ما يصلح لهم من العدل و العلم و ما يتجنبونه[3] من الجور و الظلم ، نسأل الله التوفيق ! قال الله تعالى[4] : "و لو دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض" يعنى لو لا أن الله تعالى أقام السلطان فى الأرض ، يدفع القوى عن الضعيف ، و ينصف المظلوم من الظالم ، لأهلك القوى الضعيف ، و تواثب الخلق بعضهم على بعض ، فلا ينتظم حال ، و لا يستقر لهم قرار ، فتفسد الأرض و من عليها ، ثم امتن الله على الخلق باقامة السلطان ، فقال الله تعالى[4] : "و لكن الله ذو فضل على العلمين " - يعنى فى إقامة السلطان ، فيأمن الناس به ، فيكون فضله على الظالم كف يده ، و على المظلوم أمانه و كف يد الظالم عنه .

و روى كثير بن مرة قال : قال النبى صلى الله عليه و سلم : « السلطان

---

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الأول الثانى .

(٢) العنوان وارد بأول النص .

(٣) فى الأصل : يتجنبوه .

(٤) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٥١ .

ظل الله فى أرضه ، يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فاذا عدل كان له الأجر و على الرعية الشكر ، و إذا جار كان عليه الإصر و على الرعية الصبر » . قال الشيخ أبو العباس المرسى فى قول النبي صلى الله عليه و سلم « السلطان ظل الله فى الأرض » : يعنى إذا كان عادلا ، فأما إذا كان جائرا ، فهو ظل النفس و الهوى - انتهى .

نعود - و ينبغى للسلطان أن يكون عالما شجاعا عادلا ، فانه إذا كان عالما ، ثبتت الحكمة فى أيامه ، و إذا كان شجاعا ، كثر جهاده ، و طالت مدته ، و إذا كان عادلا ، حسنت الأعمال على يديه .

و ينبغى للسلطان أن لا يرغب فى جمع المال من وجه ظلم ، فان استعمل الظلم و الاستكثار و الشره ، زال ملكه سرعة . و إذا أقام
ب السلطان بالعدل و الحق ، ملك سائر رعيته ، / و ظفر بأعدائه ، و إن ظفر الملك بعدوه على حسب عدله فى رعيته ، و بكونه فى حروبه على حسب جوده على عساكره . قال بعض الملوك لرجل من الصالحين : عظنى ! فقال : انصح الله فى عباده ، و لا تخنه فى أمانته ، و اعبد الله باليقين ، تكن إماما من أئمة الدين ، فان من تعدى حدا من حدود الله فهو ظالم ، و الظالم لا يكون إماما . قال الله تعالى[1] : " انى جاعلك للناس اماما قال و من ذريتى قال لا ينال عهدى الظلمين ". قال أبو الحسن الشاذلى : شيئان قل ما ينفع معهما كثرة الحسنات : السخط لقضاء الله ، و الصفح عن عباد الله . و اعلم أن صلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود ، و تاج الملك عفافه ، و حسنه إنصافه ، و صلاحه كفافه ، و ماله رعيته .

(١) قرآن كريم سورة ٢ آية ١٢٤ .

وفى حكم الهند: صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة لعظيمة الخطر، وإنها شبيهة[1] بالجبل الوعر، فيه الثمار الطيبة، والثعابين المهلكة، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد. واعلم أنه إنما يستطيع صحبة السلطان أحد رجلين: إما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره، ويسلم بمصانعته، وإما مغفل مهين لا يحسده أحد. وقالت حكماء الهند: لا ظفر مع بغى، ولا صحة مع نهم، [ولا ثناء مع كبر ولا شرف مع سوء أدب، ولا بر مع شح، ولا احتساب محرم مع حرص، ولا ولاية حكم مع عدم فقه، ولا سودد مع انتقام، ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وازدراء. قوله: لا صحة مع نهم –[2]]، فالإقلال من[3] الطعام، ينشط المحبوب من المنام، وتدوم معه سلامة الأجسام. ومن أحسن تدبير الملك أن تأمن أهل السلامة عقوبته، ويجازى أهل الدعارة بنزول نقمته. والأمور التى تشرف بها الملوك ثلاثة: إقامة سنة الله بالعدل، والشفقة على الرعية، وعمارة البلدان المعطلة.

لما ولى بهرام بن بهرام مملكة فارس، أقبل على القصف واللهو واللذات والنزه والصيد، لا يفكر فى نفسه ولا فى رعيته، حتى خربت البلاد فى أيامه، وقلّت العمارة، وخلت بيوت الأموال. فلما أن كان فى بعض الأيام، ركب إلى بعض متنزهاته وصيده، فجنه الليل وهو يسير نحو المدائن. وكانت ليلة قمراء فدعا بالموبذان وهو كالقسيس عند النصارى لأمر خطر بباله، فجعل يحادثه، فتوسطوا فى مسيرهم بين خرابات كانت من أمهات الضياع، قد خربت فى ملكه، لا أنيس ١٥٢/ الف

(١) فى الأصل: شبيه.

(٢) الجملة المحجوزة ساقطة من النص ووردت فى الهامش بخط المراجع.

(٣) فى الأصل: مع.

فيها إلا اليوم، و إذا بوم يصيح و آخر يجاوبه من بعض تلك الخرابات. فقال الملك: أ ترى أحدا من الناس أعطى فهم هذا الطائر المصوت في هذا الليل؟ فقال الموبذان: أنا أيها الملك ممن خصه الله بذلك! قال له: فما الذى يقول هذا الطائر؟ و ما الذى يقول الآخر؟ فقال الموبذان: هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى و يقول لها: أمتعيني بنفسك حتى يخرج بيننا أولاد يسبحون الله تعالى، و يبقى لنا في هذا العالم عقب يكثرون الترحم علينا. فأجابته البومة: إن الذى دعوتني إليه هو الحظ الأوفر، و النصيب الأكبر في العاجل و الآجل، إلا أني أشترط عليك خصالا إن أعطيتنيها، أجبتك إلى ذلك. فقال لها الذكر: و ما الذى تطلبينه مني؟ قالت: أن تعطيني من خرابات أمهات الضياع عشرين قرية مما خربت في أيام هذا الملك السعيد. [فقال له الملك: فما الذى قال لها الذكر؟ قال الموبذان: كان من قوله لها: إن دامت أيام هذا الملك السعيد –[1]] أقطعتك منها ألف قرية، فما تصنعين بها؟ قالت: إن في اجتماعنا ظهور النسل و كثرة الأولاد، فنقطع كل واحد من أولادنا قرية من هذه الخرابات. فقال لها الذكر: هذا أسهل أمر مما سألتنيه، و أنا ملىء بذلك ما حيي الملك. فلما سمع بهرام الكلام من الموبذان، عمل في نفسه، و استيقظ من نومه، و أفكر فيما خوطب به، فنزل من ساعته، و نزل الناس بنزوله، و خلا بالموبذان فقال: أيها القيم بأمر الدين، و الناصح للملك، و المنبه على ما أغفله من أمور ملكه، و أضاعه من شؤون بلاده

(١) الجملة المحجوزة ساقطة من الأصل و وردت في الهامش بقلم المراجع.

و رعيته

ورعيته! ما هذا الكلام الذى خاطبتنى به؟ فقد حركت منى ما كان ساكنا. [فقال الموبذان -[١]] صادفت من الملك السعيد وقت سعد العباد والبلاد، فجعلت الكلام على لسان الطائر عند سؤال الملك إياى عما سأل. فقال له الملك: اكشف لى عن هذا الغرض، ما المراد منه؟ فقال: أيها الملك! إن الملك لا يتم إلا بالشريعة، / والقيام لله ١٥٢/ب بطاعته، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك. قال بهرام: أما ما وصفت لى فحق، فأبن لى عما إليه تقصد، وأوضح لى فى البيان. قال: نعم أيها الملك! عمدت إلى الضياع فأقطعتها الخدم وأهل البطالة، فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها، واستعجلوا المنفعة، وتركوا العمارة والنظر إلى العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف على الرعية وعمار الضياع، فانجلوا عن ضياعهم وتغربوا عنها، فقلّت الأموال، وهلكت الجنود والرعية، وطمع فى ملك فارس من أطاف بها من الملوك والأمم، لعلمهم بانقطاع المواد التى بها تستقيم دعائم الملك. فلما سمع ذلك من الموبذان، أقام فى موضعه ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين، فانتزعت الضياع من

(١) العبارة ساقطة من النص، ولزومها واضح لاستقامة السياق وتسلسل العبارة.

أيدى الخاصة و الحاشية ، و ردّت إلى أربابها ، و حملوا على رسومهم السالفة ، و أخذوا بالعمارة ، و قوى من ضعف منهم ، فعمرت البلاد و أخصبت ، و كثرت الأموال عنـــد الجباة ، و قويت الجنود ، و انقطعت مواد الأعداء ، و أقبل الملك يباشر الأمور بنفسه ، فحسنت حاله ، و انتظم ملكه ، حتى كانت تدعى بالأعياد مما عم الإنسان من الخصب . فانظر إلى العدل كيف يعمر البلاد ، و يطمئن العباد ! و انظر إلى عدمه كيف أخرب القرى ، و حل العرى ، حتى صارت منبوذة بالعرا !

قال أبو أمامة الباهلى : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لو يعلم الناس ما للزارعين عند الله لكان الناس كلهم زراعين . قالوا : يا رسول الله ! و لم ذلك ؟ قال : إن الله يغفر لهم الذنوب جميعا إلا الشرك بالله . قالوا : و لم ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم / يعملون فى معايش بنى آدم ، /الف
إن الله إذا أراد أن يخرج الزرع ، جعل فيه البركة و الرحمة .

و ينبغى للسلطان أن يحرص كل الحرص على عمارة الأرض من جباية الأموال بالرفق و مجانبة الجور ، فان العلقة تنال من الدم بغير أذى و لا سماع صوت ما لا تناله البعوضة بلسعها و هول صوتها .

و لما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر ، استعمل عليها ابن أبى سرح ، فحمل من المال أكثر مما كان يحمل عمرو . فقال عثمان : يا عمرو ! أ شعرت أن اللقاح درت بعدك ؟ فقال عمرو [1] فانكم أجعتم [1] أولادها ، و من جاوز فى الحلب حلب الدم ، و إذا استقصى العجل مص أمه ، رفسته .

(١-١) فى الأصل : بأنكى أجعتن .

و قال جعفر البرمكى: الخراج عمود الملوك، وما استغزر بمثل العدل، و لا استنزر بمثل الظلم، و أسرع الأمور فى خراب البلاد تعطيل الأرضين، و هلاك الرعية، و إعسار الخراج، و التحامل بالجور، و مثل السلطان إذا حمل على أهل الخراج عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه و يأكله، فهو إن شبع من ناحية، ضعف من ناحية، و ما أدخل على نفسه من الجوع و الضعف أعظم مما وقع فى نفسه من ألم الجوع، و اعلم أن بيت رجال خير من بيت مال.

قال بعض الملوك لولده: يا بنى! لا تجمع الأموال لتقوى بها على الأعداء، فان فى جمعها تقوية الأعداء - يعنى إذا جمعت المال، أضعفت الرجال، فيطمع فيك الصديق، و يثب عليك العدو، و إنما مثل الملك فى مملكته مثل رجل له بستان فيه عين ماء معينة، فان هو قام على البستان، فأحسن تدبيرها و هندس أرضها، و غرس أشجارها، أينعت ثمارها، و زكت بركاتها، فكانوا جميعا فى أمان، لا يخافون فقرا و لا شتاتا، و إن هو رغب فى غلتها، و حبا ثمرتها، و لم ينفق فيها ما يكفيها، و لا ساق لها [من -[1]] الماء ما يرويها، رغبة فى الغلة، و مضنة بالمال، ضعفت عمارتها، و رقت[2] أشجارها، و قلت ثمارها، و ذهبت ١٥٣/ب
غلتها، و محق الدهر ما جنى من غلتها، و افتقر القوم و تشتتوا و هلكوا. و مثل الملك فى جمع المال ليقوى بـه على عدوه مثل طائر ينتف ريشه

---

(١) زيد لاستقامة العبارة.

(٢) فى الأصل: رق.

و يمص أصولها ، و يأكل ما نعم منها و لذ له طيبها . أعجبه خصب جسمه على ذلك و قوته على عدوه، فلم يزل على ذلك حتى خف ريشه و سقط إلى الأرض فأكلته الهوام و الحشرات .

و فى أخبار بعض الملوك أن وزيره أشار عليه بجمع الأموال، و اقتناء الكنوز ، و قال : إن الرجال و إن تفرقوا عنك اليوم ، فمتى احتجتهم عرضت عليهم الأموال فتهافتوا عليك . فقال له الملك : هل لهذا من شاهد ؟ قال : نعم ، هل بحضرتنا الساعة ذباب ؟ قال : لا ، قال: فأمر باحضار جفنة فيها عسل ، فحضرت فتساقط عليها الذباب لوقتها . و استشار السلطان بعض أصحابه ، فنهاه عن ذلك و قال : لا تغتر بالرجال ، فليس فى كل وقت أردتهم حضروا . قال : هل لذلك من دليل ؟ قال : نعم ، إذا أمسينا أخبرتك . فلما أظلم الليل قال للملك : هات الجفنة . فلما حضرت الجفنة لم تحضر و لا ذبابة واحدة .

وكان بعض السلاطين بمصر يقال له بلدكور ، كان يجمع الأموال، و لا يحفل بالرجال . فقال له بعض أصحابه : إن ملك الشام يتواعدك ، و كأنك به و قد قدم عليك ، فاستعد بالرجال ، و أنفق فيهم الأموال ، فأومأ إلى صناديق موضوعة عنده و قال : الرجال فى الصناديق – يعنى الأموال ، فغزاه ذلك الملك فى مصر و قتله و تسلم الصناديق و الملك . فكان رأى الملك بلدكور المقتول رأيا فاسدا ، لأن الرجال لا يقدر يقيمهم فى الوقت إذا دهمه العدو و لا يجمعهم عند حاجته ، إنما يكونون[1]

---

(١) فى الأصل : يكون .

أحيانا

أحيانا / مجتمعين، و شرذمة ملفقين، ليس فيهم دفاع و لا ممارسة ١٥٤/ الف
للحروب..

و من السير المروية فى هذا الباب أنه لما فتحت العراق، جيء بالأموال إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال خازن بيت المال: أدخله بيت المال. قال عمر: لا و رب الكعبة! لا تروى تحت [سقف -[1]] بيت حتى أقسمه، فعطى فى المسجد بالأنطاع، و حرسه رجال من المهاجرين و الأنصار. فلما أصبح نظر إلى الذهب و الفضة و الياقوت و الزبرجد و الدر يتلألأ فبكى. فقال له العباس أو عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين! و الله ما هذا يوم بكاء، و لكنه يوم شكر و سرور! إذ قد حصل للمسلمين أموال الأكاسرة ملوك الفرس. فقال: إنى و الله ما ذهبت حين ذهبت، و لكنه و الله ما كثر هذا فى قوم إلا وقع بأسهم بينهم! ثم أقبل على القبلة و رفع يديه و قال: اللهم! إنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا، فانى أسمعك تقول "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون[2]". ثم قال: أين سراقة بن جعشم - أعرابى[3] من بنى مدلج؟ فأتى به أشعر الذراعين دقيقهما، فأعطاه سوارى كسرى، فقال: البسهما. ففعل. فقال: قل: الله أكبر! فقال: الله أكبر. فقال: قل: الحمد لله الذى سلبهما كسرى و ألبسهما سراقة بن جعشم أعرابيا من بنى مدلج. و إنما

---

(١) الكلمة ساقطة من النص و أضيفت بالهامش.

(٢) قرآن كريم سورة ٧ آية ١٨٢.

(٣) فى الأصل: أعرابيا.

ألبسهما سراقة، لأن النبي صلى الله عليه و سلم قال لسراقة - و نظر إلى ذراعيه: كأني قد لبست بهما سوارى كسرى. و لم يجعل له السوارين.

قال الحسن بن علي الأسدي: أخبرني أبي قال: وجدت في كتاب اللغة القبطية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف من أموال

١٥/ب مصر بحق الخراج مما يؤخذ بوجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل/والإنصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة بعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للعاملين و تقوية لحالهم من الذهب العين، أربعة[1] و عشرين ألف ألف و مائة ألف دينار، من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد، و حفر الخلج، و الإنفاق على الجسور، و سد الترع، و إصلاح المسنّيات[2]، و تقويه ما يحتاج إلى تقويته من غير رجوع عليه، لإقامة العوامل و التوسعة في البلدان و غير ذلك من الآلات و أجر ما يستعان به لحمل البذار، و سائر نفقات تطبيق الأرض ثمانية آلاف ألف دينار. و لما ينصرف في أرزاق الأولياء و المرسومين و لمن في جملتهم من الشاكرية و الغلمان و أشباههم و عدة جمعهم مع ألف كاتب موسومين للدواوين. سوى أتباعهم من الخزان و من يجرى مجراهم مائة ألف ألف و أحد عشر ألف ألف و ثمانية آلاف ألف دينار. و لما ينصرف للأرامل و الأيتام من بيت المال، و إن كانوا محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من

(١) لفظة «أربعة» مكررة في النص.

(٢) في الأصل. المسنت، و المسناة: ما يبنى في وجه السيل، ج مسنوات ومسنيات.

بر فرعون أربعمائة ألف دينار . و لما ينصرف فى كهنة[1] برابيهم[2] و ببائر مواضع صلواتهم مائة ألف دينار . و لما ينصرف فى الصدقات مما يصب صبا ، و ينادى : برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة إلا حضر ، فيحضر لذلك من حضر ، و لا يرد أحد ، و الأمناء جلوس ، و إذا أراد إنسان لم يجر رسمه بأن يأخذ أفرد بعد قبضه ما يقبضه حتى إذا فرق المال و دعوا له بطول البقاء ، و دوام العز و النعماء ، و أنهوا إليه بحال تلك الطائفة ، فيأمر بتغيير[3] شعثها بالاستحمام و اللباس . ثم يمد السماط فيأكلون بين يديه و يشربون ، و يستعلم[4] من كل واحد سبب فاقته ، فان كان ذلك من آفة الزمان ./ رد عليه مثل ما كان ، و إن كان عن سوء رأى و تدبير[5] ١٥٥/الف
غير مستقيم ضم إليه من يشرف عليه ، و يأخذ بالأدب و المعركة إلى أن يصلح له ، و ذلك مائتا ألف دينار . فتكون جملة النفقات على ما تبين من تفصيلها تسعة آلاف ألف و ثمانمائة ألف دينار ، و يحصل بعد ذلك ما يتسلمه يوسف عليه السلام ، و يجعله لفرعون فى بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف و ستمائة ألف دينار .

و قال أبو زهير : كانت أرض مصر أرضا[6] مدبرة حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها و أفنيتها فيستجرونه كيف شاءوا ، و ذلك قول

(١) فى الأصل : كهلة . (٢) جمع بربه وهى المعبد .
(٣) فى الأصل : تتعير . (٤) فى ظ : يستعمل .
(٥) فى الأصل : تدبر .
(٦) فى الأصل : ارض .

فرعون[1] "اليس لى ملك مصر و هذه الانهر تجرى من تحتى افلا تبصرون". وكان ملك مصر ملكا عظيما، و لم يكن ملك[2] أعظم من ملك مصر . وكان الجنان بحافتى نيلها متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، و الزرع من أسوان إلى رشيد . و كانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما دبروه من جسورها و حافاتها، و الزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها . و ذلك قوله تعالى[3]: " كم تركوا من جنت و عيون و زروع و مقام كريم * و نعمة كانوا فيها فكهين ". و المقام الكريم: المنابر كان بها ألف منبر .

[قصة الوزير نظام الملك -[4]]

فلنذكر الآن ها منقبة فى مثلها يتنافس العقلاء، و يرغب فيها الملوك و الوزراء . و هى أن الوزير نظام الملك المعروف بخواجا بزيك قد وزر بالعراق لأبى الفتح ملك الترك، ابن ألب أرسلان[5]. و كان وزر لأبيه من قبله ، فقام بدولتهما أحسن قيام، فشد أركانها، و شيد[6] بنيانها، و استمال الأعداء، و والى الأولياء، و إستعمل الكماة، و عم إحسانه

---

(١) قرآن كريم سورة ٤٣ آية ٥١ .

(٢) فى الأصل: ملكا .

(٣) قرآن كريم سورة ٤٤ آية ٢٥ - ٢٧ .

(٤) العنوان مشتق مما يلى فى النص و ليس بها مشه .

(٥) فى الأصل: البار سلان .

(٦) فى الأصل: شد .

العدو و الصديق، و المبغض و الحبيب، و البعيد و القريب ،حتى[1]ألف الملك بجبرانه[1] /، و ذل الخلق لشأنه[2] . وكان الذى مهد له ذلك باذن الله تعالى ١٥٥ / ب
و توفيقه أنه أقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، فبنى دور العلم للفقهاء، و ابتنى المدارس للعلماء، و أسس الرباطات للعباد و الزهاد و أهل الصلاح و الفقراء. ثم أجرى لهم الجرايات و الكساوى و النفقات، و أجرى الدراهم و الخبز لمن كان من أهل طلبة العلم، مضافا إلى أرزاقهم، وعم بذلك سائر أقطار مملكته. فلم يكن من أوائل الشام، وهى بيت المقدس إلى سائر الشام الأعلى -وهى ديار بكر- و العراقين و خراسان و أقطارها إلى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم طالب علم أو متعبد فى زاوية إلا[3]و كرامته شاملة سابغة عليه. وكان الذى يخرج من بيوت الأموال فى هذه الأبواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة. قال: فوشى به الوشاة إلى أبى الفتح الملك، و أوغروا[4] صدره عليه و قالوا: إن هذا المال المخرج من بيوت الأموال تقيم به جيشا يركز فى سور القسطنطينية، فخامر ذلك قلب الملك أبى الفتح. فلما دخل عليه قال له: يا أبت! بلغنى أنك تخرج من بيوت الأموال فى كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا. فبكى الوزير نظام الملك و قال: يا بنى! أنا شيخ كبير أعجمى، لو نودى علي فيمن يزيد فما أبلغ خمسة دنانير، و أنت

(١-١) فى الأصل: الى الملك بحرانه . (٢) فى الأصل: الساه .
(٣) فى الأصل: و أعروا . (٤) نقلناه من « بعد مائة يوم » إلى هنا لاستقامة العبارة .

شاب حسن، لو نودى عليك فيمن يزيد، فما تبلغ خمسين دينارا، و أنت مشتغل فى لذاتك، منهمك فى شهواتك، و أكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك، و جيوشك الدين[1] تعدهم للنوائب إذا حشدوا كالحوا عنك بسيف واحد طوله ذراعان، و قوس لا ينتهى مرماه ثلاثمائة ذراع. و هم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى و الخمور و المزمار ١٥٦/الف و الطنبور، و أنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل / على أقدامهم، صفوفا بين يدى ربهم، فأرسلوا دموعهم، و أطلقوا بالدعاء ألسنتهم، و مدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك و لجيوشك، فأنت و جيوشك فى خمارتهم تعيشون، و بدعائهم تثبتون، و ببركاتهم تمطرون و تزرعون و ترزقون، تخرق سهامهم إلى السماء السابعة بالتضرع كما قال الشاعر الملسان فى هذا حيث قال:

سهام الليل صائبة الوقوع   إذا رميت بأقواس الخضوع
تصيب بها المقاتل حيث كانت   و تنفذ فى الجواشن و الدروع

فلما سمع الملك كلامه بكى و قال: شاباش يا أنت شاباش! أكثر لى من هذا الجيش. فقال: بارك الله فيك يا ولدى! إذ قبلت النصيحة، فان الملك يزول، و يبقى الواحد الذى لا يزول ملكه. و مما قيل فى [هذا[2]] المعنى:

أما و رب السكون و الحرك   إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل و النهار و لا   دارت نجوم السماء فى الفلك

---

(١) فى الأصل: الذى.
(٢) ساقطة من الأصل.

إلا لتنقل السلطان من ملك إذا انقضى عمره إلى ملك
و ملك ذي العرش دائم أبدا[1] ليس بقاض و لا مشترك

و سأذكر بعض مناقب هذا الوزير المذكور - كان الوزير نظام الملك من خيار الوزراء ، اشتغل بعلم القرآن و التفقه على مذهب الشافعي ، و سمع الحديث و اللغة و النحو ، و كان عالى الهمة ، فحصل من ذاك طرفا . ثم ترقى فى المراتب حتى وزر للسلطان ألب أرسلان ، ثم بعده لولده . و بنى المدارس النظاميات ببغداد و نيسابور[2] و غيرهما ، و كان مجلسه عامرا بالفقهاء و العلماء بحيث يقضى معهم عامة أوقاته . فقيل له : إن هؤلاء يشغلونك عن كثير من المصالح . فقال : هؤلاء جمال الدنيا و الآخرة ، و لو أجلستهم على رأسى ما استكثرت ذلك . و كان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيرى و أبو المعالى الجوينى ، قام لهما و أجلسهما فى المسند ، / و إذا دخل عليه أبو على الفاريدى ، قام ١٥٦/ب
و أجلسه مكانه ، و جلس بين يديه ، فعوتب فى ذلك فقال : إن القشيرى و الجوينى إذا دخلا على قالا : أنت و أنت ! فأزداد تيها ، و أما الفاريدى فانه يذكرنى عيوبى فأنكسر و أرجع عن كثير من الذى أنا فيه . و كان نظام الملك محافظا على الصلوات فى أوقاتها ، لا يشغله بعد الأذان شغل عنها ، و يواظب على صيام الاثنين و الخميس . و له الأوقات البارة ، و الصدقات الدارة . و كان يعظم الصوفية تعظيما زائدا ، فعوتب فى

---

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الثانى فى الأصل إلى الشطر الأول بحكم الوزن .
(٢) من مدن فارس القديمة الشهيرة ، ذكرها ياقوت فى معجم البلدان (ج ٤ ص ٨٥٧- ٨٦٠) و هى من ولاية همذان من دولة الفرس .

ذلك . فقال: إنى كنت أخدم بعض الأمراء، فجاءنى فقير يوما فقال: «اخدم من تنفعك خدمته، و لا تخدم من تأكله الكلاب غدا». فلم أفهم ما يقول، فاتفق أن ذلك الأمير سكر تلك الليلة، و خرج فى أثناء الليل و هو ثمل، و كانت له كلاب تفترس الغرباء بالليل، فلم تعرفه و مزقته، فأصبح و قد أكلته الكلاب. قال: فأنا أطلب مثل ذلك الفقير.

و قال أيضا: رأيت ليلة فى المنام إبليس، فقلت: ويحك! خلقك الله و أمرك بالسجود له مشافهة فلم تسجد، و أنا أسجد فى كل يوم مرات، فأنشأ يقول:

من لم يكن للوصال أهلا فكل إحسانه ذنوب

ثم إن الوزير نظام الملك مات قتيلا . و ذلك أنه خرج مع السلطان من أصبهان قاصدا بغداد، فاجتاز فى بعض الطريق بقرية بقرب من نهاوند[1] فقال: قد قتل ههنا خلق من الصحابة، فطوبى لمن دفن عندهم! ثم إنه لما أفطر، جاءه صبى فى هيئة متظلم، و هو يستغيث و معه قصة. فلما انتهى إليه ضربه بسكين فى فؤاده و هرب، فعثر بطنب الخيمة، فأخذ فقتل[2]. و مكث الوزير ساعة و جاءه السلطان يعوده، فمات

(١) من مدن فارس الشهيرة بحدوث وقعة العرب و الفرس سنة ١٩هـ/٦٤٠م التى فيها انهارت الدولة الساسانية.

(٢) المعروف أن نظام الملك اغتيل فى ١٠ رمضان سنة ٤٨٥هـ/١٤ اكتوبر سنة ١٠٩٢م ما بين أصفهان و بغداد بمكان يقال له صحنة خارج همدان بلاد فارس.

و هو

و هو عنده، و دفن عند قبور الصحابة رضى الله تعالى عنهم . و لما بلغ موته أهل بغداد، جلست الرؤساء للعزاء ثلاثة أيام، و رثاه الشعراء، منهم مقاتل بن عطية، فقال/ هذه الأبيات: ١٥٧/ الف

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه إلى الصدف

ثم قتل أيضا ولده فخر الدولة، و كان صائما . و ذلك أنه كان يوم قتل رأى تلك الليلة فى منامه الحسين بن على بن أبى طالب و هو يقول: عجل إلينا و أفطر عندنا الليلة . فأصبح متعجبا . و كان نوى الصوم بعد الرؤيا، فأصبح صائما، و أشار إليه بعض أصحابه لما ذكر لهم الرؤيا ألا يخرج ذلك اليوم من منزله . فما خرج إلا فى آخر النهار، فرأى شابا يتظلم و فى يده قصة، فقال له: ما شأنك؟ فناوله القصة، فبينما هو يقرأها إذ ضربه بخنجر قتله، و أخذ إلى السلطان سنجر فقرّره فأقر على جماعة . فقتل و قتلوا أيضا .

و لما قتل الوزير عبد الله بن عباس بن مرداس بتعصب حاشية الملك عليه، قال بعض الشعراء يعنف قاتليه بهذه الأبيات:

و الله و الله لا أفلحتم أبـدا بعد الوزير ابن عباس بن مرداس
إن جاءكم حليل[1] فاقطعوا رحلى[2] أو جاء منكم رئيس[3] فاقطعوا رأسى

(١) فى الأصل: حليلا .
(٢) فى الأصل: أحلى .
(٣) فى الأصل: رئيسا .

[عود لما قيل فى العدل و الجور –[1]]

نعود إلى ما قيل فى العدل و الجور إن شاء الله تعالى – كان الخليفة الظاهر[2] بالله عاقلا وقورا أديبا عالما محسنا عادلا ، رد مظالم كثيرة ، و أسقط مكوسا كان أحدثها أبوه من قبله ، و سار فى الناس سيرا حسنا ، حتى أنه قيل : لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أعدل منه ، و وضع عن أهل بلد سبعين ألف دينار ، كان أبوه الناصر لدين الله[3] من قبله زادها عليهم فى الخراج ، وكانت صنجة[4] بيت المال تزيد على صنجة البلد نصف دينار فى كل مائة دينار ، إذا قبضوا ، و إذا صرفوا[5] لم يصرفوا إلا بصنجة البلد . فكتب الخليفة الظاهر إلى الديوان " ويل للمطففين ﴿ الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴿ / و اذا كالوهم او وزنوهم يخسرون ﴿ الا يظن اولئك انهم مبعوثون ﴿ ليوم عظيم ﴿ يوم يقوم[6] الناس

---

(١) العنوان مشتق من النص و ليس بالهامش .

(٢) هو الخليفة العباسى ،خلافته ٦٢٢ – ٦٢٣ ﻫ / ١٢٢٥ – ١٢٢٦ م ، و أبوه الناصر – انظر الحاشيه التالية .

(٣) وخلافته ٥٧٥ – ٦٢٢ ﻫ / ١١٨٠ – ١٢٢٥ م .

(٤) الصنجة : الميزان الذى توزن به الأشياء بما فى ذلك دنانير الخراج توقيا من قصها .

(٥) فى الأصل : اصرفوا .

(٦) ورد بعده كلمة « فيه » ولم تكن فى القرآن فحذفناها .

لرب العلمين[1] " . فكتب إليه بعض الكتاب : يا أمير المؤمنين ! إن تفاوت هذا كان فى العام الماضى خمسة و ثلاثين ألف دينار . [فأرسل ينكر عليه و قال : هذا يترك و إن كان تفاوته ثلاثمائة ألف دينار و خمسين ألف دينار - [2]] فقطعت تلك الزيادة كلها ، و رجع القبض و الصرف بصنجة البلد ، و كسرت الصنج الزائدة . فانظر إلى ظلم الوالد ، و انظر إلى عدل الولد ، كل منهما يجازى بما فعل فى الآخرة ، من عمل صالحا فلنفسه سعى ، و من أساء فعلى نفسه جنى .

قال أرسطاطاليس : إن الملك الذى يعمر بيوت أمواله بخراب بلدانه مثل « المطين[3] » سطح بيته من أساس حيطانه ، فاذا نزل المطر على الأساس ، وقع الأصل و الرأس . فالذى يظلم و يحكم بهواه و لا يدركه الشفقة على من سواه ، فهو الظالم لنفسه ، المتردد فى لبسه ، قد خاب من الكرامة ، و حظى بالندامة ، و ما له عذر عند الله تعالى يوم القيامة ، قال الشاعر :

يا من يجور على العباد و يظلم الله ينظر ما فعلت و يعلم
تبدو بأثواب حسان للورى بيض و قلبك بالجهالة مظلم
كم جاءك الملهوف يشكو كربة و أتى لبابك صاغرا يتذمم
فتركته يذرى دموع جفونه حزنا و أنت بماله تتنعم

(١) قرآن كريم سورة ٨٣ آية ١ - ٦ .
(٢) الجملة المحجوزة ساقطة من الأصل ، ووردت فى هامشه بخط المراجع .
(٣) من الطين .

و كان فى بنى اسرائيل رجل من العباد المجتهدين فى العبادة، الموصوفين بالزهادة، و كان إذا دعا ربه أعطاه و أثابه، و كان سياحا فى الجبال، قواما لليال. و كان الله تبارك و تعالى قد سخر له سحابة تسير معه حيث يسير، تسكب له عليه ماء نميرا فيتوضأ و يشرب إلى أن اعتراه فتور فى بعض الأوقات، فأزال سحابته، و حجب إجابته، و كثر لذلك حزنه و نحيبه، و طال كمده و وجيبه. و ما زال يشتاق إلى ما كان من الكرامة الممنون بها عليه، فيبكى و يتأسف، و يتحسر و يتلهف، فنام ليلة من الليالى، فقيل له: إن شئت أن ترد عليك سحابتك، فصل إلى الملك الفلانى / فى مدينة كذا و كذا، و اسأله أن يدعو لك، فان الله عز و جل
١ / الف يرد سحابتك عليك، و يسوقها إليك. قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل لتلك المدينة التى ذكرت له فى المنام. فدخلها و سأل عن الملك، فأقبل إلى قصره، فاذا عند باب القصر غلام قاعد على كرسى عظيم و عليه كسوة هائلة، فوقف الرجل إليه و سلم عليه، فقال الغلام: ما حاجتك؟ قال: أنا رجل مظلوم، جئت لأرفع للملك نازلتى. قال: إنه لا سبيل إليه لأنه قد جعل لأهل المسألة يوما يدخلون عليه فيه، و هو يوم كذا و كذا، فسر راجعا حتى يأتى ذلك اليوم. قال: فأنكر الرجل على الملك حجبته عن الناس و قال: كيف يكون هذا وليا من أولياء الله تعالى و هو على مثل هذه الحالة! فلما كان اليوم الذى ذكره الغلام البواب، أتى إليه فوجد عند الباب أناسا[1] ينتظرون الإذن لهم بالدخول. قال: فوقف إلى أن خرج وزير عليه ثياب عظيمة

(١) فى الأصل: ناسا.

و بين

و بين يديه رجال ! فقال : يدخل أرباب المسائل ! قال : فدخلوا ، و دخل العابد فى جملتهم ، فوجد الملك جالسا على سريره و بين يديه أرباب مملكته على مقاديرهم . فوقف الوزير و جعل يقدم واحدا بعد واحد حتى وصلت النوبة إلى العابد . فلما قدمه الوزير و نظر إليه الملك ، قال له الملك : مرحبا بصاحب السحابة ! اقعد حتى أفرغ لك . قال : فتحير الرجل من قوله ، و اعترف بمزيته و فضله . فقضى الملك بين الناس و فرغ منهم ، ثم قام فقام الوزراء وأرباب المملكة ، وأخذ الملك بيد العابد وأدخله إلى قصره . فوجد على باب قصره أسود عليه ثياب و فوق رأسه أسلحة وعن يمينه وشماله دروع[1] وأتراس معلقة ، فقام إلى الملك وفتح باب القصر ، فدخل الملك والعابد معه وسارا[2] . فاذا بين يديه باب قصير خلق بال ، ففتحه الملك و دخل إلى دار خربة ، و بناء مائل ، / ثم دخل إلى بيت ١٥٨/ب
ليس فيه إلا سجادة و قدح للوضوء و حوص فيه ماء ، فجرد الملك ثيابه ، و لبس جبة خشنة من الصوف الأبيض ، و جعل على رأسه قلنسوة لبد . ثم قعد وأقعد العابد ، و نادى : يا فلانة ! فقالت : لبيك ! قال : أتدرين من ضيفنا فى هذا اليوم ؟ قالت : نعم ، هو صاحب السحابة . فقال : اخرجى ، لا عليك[3] ! فخرجت ، فاذا امرأة كأنها الخيال ، و كأن وجهها الهلال ، عليها جبة صوف و قناع صوف . فقال : يا أخى ! إنه كان لى فى هذا [البيت] آباء كرام . يتداولون المملكة و يتوارثونها

(١) فى الأصل : زروع .
(٢) فى الأصل : و سار .
(٣) أى لا عليك حرج .

كابرا عن كابر إلى أن ماتوا و وصل الأمر إلى، و بغض الله لى الدنيا، فأردت أن أسيح فى الأرض، و أترك الناس ينظرون لأنفسهم، فخفت عليهم من دخول الفتنة، و تضييع الشرائع، و تشتيت شمل الدين، فبايعونى مكرها، و تركت أمورهم على ما كانت عليه، و جعلت لكل رأس منهم و عائل جرايته بالمعروف، و لبست ثياب الملك، و أقعدت العبيد على الأبواب إرهابا لأهل الشرور، و ردا عن أهل الخير، و إقامة الحدود، فاذا فرغت من ذلك كله، دخلت منزلى، فأزلت ثياب الملك و لبست ما أسأل عنه، و هذه ابنة عمى وافقتنى فى الزهادة، و ساعدتنى على العبادة، و نحن نعمل من هذا الخوص بالنهار ما نفطر عليه بالليل منذ أربعين سنة. فأقم معنا يرحمك الله حتى نبيع خوصنا، و تفطر معنا، و تبيت عندنا، ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى. فلما كان عشية النهار إذا بغلام خماسى قد دخل فأخذ ما عملاه من الخوص، و صار به إلى السوق فباعه و اشترى منه خبزا و إداما و أتى به. قال: فأفطرت معهما، و بت عندهما. فقاما من نصف الليل يصليان و يبكيان. فلما كان عند السحر قال: اللهم! إن هذا الرجل أتانا / يطلب ردّ سحابته عليه، و أنت على ذلك قدير، اللهم! أره إجابته واردد عليه سحابته. قال: و أمنت زوجته على دعائه، فاذا السحابة قد نشأت فى السماء، فقالا لى: البشارة! قال: فودعتهما و انصرفت، فانصرفت السحابة تتبعنى كما كانت. فأنا بعد ذلك لا أسأل الله شيئا بحرمتهما إلا أجابنى و أعطانى. و قد قيل فى ذلك: ب

و إن لربى صفوة من عباده قلوبهم فى روض حكمته تجرى

و أبدانهم قد أسكنت حركاتها . . . لما فى صدور القوم من خالص اليسر
تراهم صفوفــا خــاشعين لربهم . . . و أنفسهم مجموعـة الهم و الفكر
صفوا فدنوا ثم استقرت قلوبهم . . . بحيث يرون الغيب بالغيب كالجهر
فهم حجج المولى على الخلق كلهم . . . لدعوتهم سكب السحائب بالقطر[1]
يضيء ظلام الليل حسن وجوههم . . . فتربو على الأقمار والأنجم الزهر

نعود - ثبت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : مـا من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيـامة مغلولة يده إلى عنقه ، أوثقه الجور أو أطلقه العدل . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : من ولى ولاية أحسن فيها أو أساء ، أتى يوم القيامة و قد غلت يمينه إلى عنقه ، فان كان عدل فى حكمه ، أطلق من أغلاله ، و جعل فى ظل عرش الرحمن ، و إن كان لم يعدل فى حكمه ، غلت شماله إلى يمينه ، فيسبح فى عرقه حتى يغرق فى جهنم .

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس . فانه أوسط الجنة و أعلى الجنة . و فوقه عرش الرحمن ، و منه تفجر أنهار الجنة . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منار من نور الرحمن . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : الذين يعدلون فى حكمهم و أهلهم و ما وُلّوا . و قال طاووس اليمانى : ١٥٩ / ب
خير الناس منزلة عند الله إمام مقسط ، و شر الناس منزلة عنـد الله يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل الجور فى عدله .

قال بعض الصالحين : إذا دخل الرجل المؤمن الجنة يفتح الله تعالى

(١) فى الأصل : كالقطر .

عليه من العلم ما يراه أعظم من نعيم الجنة ، و الإيمان هو الإذعان للحق على سبيل التصديق له باليقين . و الإحسان يجزى الحسنى فى الإيمان و الإسلام . و التقوى جعل النفس فى وقاية من سخط الله تعالى ، و ذلك بقمع الهوى و السعة فى علم الحق و فعل الخير . [و البرّ - [1]] مشتق[2] من البَرّ أى السعة من الأرض ، و هو المعبر عنه بانشراح الصدر و اطمئنان القلب . و الإخلاص أن يقصد الإنسان بما يفعله وجه الله متعريا من الالتفات إلى غيره . و لما كان الإيمان و الإسلام و التقوى متلازمة ، قال فى الجنة: " اعدت للمتقين " ، و فى موضع آخر : " اعدت للذين آمنوا " ، و فى موضع آخر[3] : " و من يسلم وجهه لله و هو محسن " - الآية .

و ينبغى للسلطان أن لا يشارك رعيته فى متاجرهم ، بل يدعهم يتجرون و يعيشون فى أيامه بالربح ، فان عمل تاجرا أوقف حالهم ، فانهم لا يقدرون يزايدون و كلاءه فى السلع خوفا و جزعا ، فيصير الربح له دونهم ، فيحصل لهم الضرر لعدم شرائهم لما يتبلغون به ، و يحصل للبائعين[4] لتلك السلع الضرر لبخس الثمن ، التى لو تركت لتزايد الناس فيها لرغبتهم فى شرائها ، و أيضا ففى ذلك سقوط قدر الملك و إزراء بحسن اسمه ، فيقال : صار الملك كأحد الباعة .

قال بعض الحكماء : إذا شارك السلطان الرعية فى متاجرهم هلكوا ،

---

(١) زيد ما بين الحاجزين للسياق .

(٢) فى الأصل مشتقا .

(٣) قرآن كريم سورة ٣١ آية ٢٢ .

(٤) فى الأصل : للتابعين .

و إن

و إن شاركوه فى حمل السلاح ، هلك . دخل محمد بن السماك الواعظ السوق فقال : يا أهل السوق آسوقكم كاسد ، و بيعكم فاسد ، و جاركم حاسد ، / و مأواكم ١٦٠/ الف
النار . و قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : إذا لم يكن التاجر فقيها ، ارتطم فى الربا ـ يعنى غرق فى الربا ـ ثم ارتطم ، ثم ارتطم . و قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من لم يتفقه فى الدين ، فلا يتجر فى سوقنا . قيل : كان للملك كسرى هرمز بن سابور[1] وزير ، فكتب إليه كتابا يذكر فيه أنه وصل من جانب البحر تجار معهم اللؤلؤ و الجواهر النفيس القيمة ، و أنى ابتعت منهم برسم الخزينة السلطانية بمبلغ مائة ألف دينار ، و الآن فقد حضر فلان التاجر و هو يطلب الجواهر بربح كثير ، فان رغب الملك فليرسم بما يراه . فكتب كسرى هرمز جوابه فقال . مائة ألف دينار و مائة ألف دينار و أمثالها ليس لها فى أعيننا خطر لنرغب فيها بوجه من الوجوه ، و إذا عملنا عن التجارة ، فمن يعمل الإمارة و السلطنة ! فانظر أيها الوزير الجاهل لنفسك و لا تعد لمثل هذا الكلام . و لا تخلط فى أموالنا درهما واحدا و لا دانقا فردا من أرباح التجارات ، فان ذلك يسقط قيمة الملك ، و يزرى بحسن اسمه ، و يصير سبة فى حال حياته .

و حكى أن سلطان مدينة قيصور بأرض الهند إذا عزم المركب على السفر من مدينته ، يسأل تجاره و نواتيه[2] : هل لكم عند أحد دين ؟

---

(١) جائز أن يكون المقصود سابور الأول ، وحكمه من ٢٤٠ إلى ٢٧٢ م ، والذى وليه بعد موته كسرى هرمز . (Hormisdas)

(٢) فى الأصل : نواتيته .

هل بقى لأحدكم فى بلادى درهم واحد ؟ فمن بقى له شىء عند أحد قضاة السلطان من ماله أخذ[1] أضعافه من ذلك . هذا كله حتى لا تذم بلاده ، فيصير من عليه دين للتجار الغرباء يبادر فى وفائه حتى لا يوفيه السلطان و يأخذ من الذى هو عليه بعد سفر التجار أضعافه . و مدينة قيصور هذه من جزيرة رامى بها القم الجيد . و ذكر أن الأشجار بقيصور و نواحيه مشتبكة جدا و أكثر ثمارها سموم .

عن أبى العباس الموصلى قال : كنا ليلة عند الشيخ عبد القادر الكيلانى ببغداد . فجاءه الخليفة المستنجد بالله[2] أبو المظفر يوسف ، فسلم عليه و استوصاه و وضع / بين يديه مالا فى عشرة أكياس يحملها عشرة ١٦٠ / ب من الخدم . فقال له الشيخ : لا حاجة لى فيها . فأبى الخليفة إلا قبولها ، فأخذ الشيخ كيسا منها فى يمينه ، وآخر فى يساره ، ثم عصرهما فسالا دما . فقال : يا أبا المظفر ! أما تستحى من الله تأخذ دماء المسلمين و تقابلنى بها . فغشى على الخليفة . فقال الشيخ : و عزة المعبود ! لو لا حرمة اتصاله – يعنى الخليفة – برسول الله صلى الله عليه و سلم لتركت الدم يجرى إلى منزل قصره . و قال له الخليفة المذكور يوما : أريد أن أرى شيئا من الكرامات ليطمئن قلبى . قال : ما تريد ؟ قال : أريد تفاحة من الغيب . و لم يكن أوان التفاح بالعراق . فمد الشيخ يده فى الهواء فاذا فيها تفاحتان . فأعطاه واحدة ، وكسر الشيخ الأخرى ، فاذا هى بيضاء يفوح منها رائحة المسك . ثم كسر الخليفة التى فى يده ، فاذا فيها دودة . فقال الخليفة :

---

(١) فى الأصل : و أخذ . – وواضح أن الواو زائدة من السياق .

(٢) الخليفة العباسى و خلافته ٥٥٥ – ٥٦٦ هـ / ١١٦٠ – ١١٧٠ م .

ما هذه الدودة؟ فقال الشيخ : يا أبا المظفر! لمستها يد الظالم فدودت . و اعلم أن مثل السلطان العادل مثل ياقوتة نفيسة رفيعة فى وسط العقد، و مثل الرعية مثل سأر الشذر، فلا تلحظ العيون إلا الواسطة، و إنما يبصر المقلبون و ينتقد الناقدون الواسطة، و إنما يثنى المثنون على الواسطة، فكلما حسنت الواسطة غمرت سأر الشذر.

كتب أردشير[1] أحد ملوك فارس كتابا يقول فيه: «من أردشير ملك الملوك إلى الكتاب الذين بهم تدبير المملكة، و الفقهاء الذين هم عماد الدين، و الأساورة الذين هم حماة الحرب، و الحراثين[2] الذين هم عمار الأرض، سلام عليكم، و نحن كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها. لا تستشعروا الحقد فيدهمكم عدوكم، و لا تحبوا الاحتقار[3] فيشملكم القحط، و كونوا لأبناء السبيل مأوى تؤووا غدا فى المعاد، و تزوجوا فى الأقارب فانه أمسّ فى الرحم و أقرب للنسب، و لا تركنوا إلى الدنيا، فانها لا تدوم لأحد، / و لا تهتموا لها فلن يكون إلا ما شاء الله، ١٦١/ الف
و لا ترفضوها فان الآخرة لا تنال إلا بها». و كان لغته و لغة قومه

---

(١) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس. و وردت الكلمة فى الأصل «أزدشير» بالزاى.

(٢) فى الأصل : الحراثون.

(٣) كذا فى الأصل، و لعله : الاحتكار.

الفهلوية ، و هي من اللغات التي لم يبق لها مترجم . و كانت وصيته لابنه سابور « يا بني ! إن الدين و الملك أخوان ، لا غنى بواحد منهما لصاحبه ، فالدين أس ، و الملك حارسه ، و ما لم يكن له أس فمهدوم ، و من لم يكن له حارس فضائع » .

قال عبيدة السلماني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما بال أبي بكر و عمر رضي الله عنهما اطاع الناس إليهما ، و الدنيا أضيق عليهما من شبر ، فاتسعت عليهما [1] ، و وليت أنت و عثمان الخلافة و لم ينطاعوا لكما [2] ، و لا امتنعت و صارت عليكما أضيق من شبر . فقال : لأن رعية أبي بكر و عمر مثلي و مثل عثمان ، و رعيتي أنا اليوم مثلك و شبهك .

حكي أن بعض الملوك وجد الملك لذيذا ، فشاور وزراءه ، فقال لهم : بم دوام الملك ؟ قالوا : بطاعة الله و لزوم العدل ، فقال : لازموني بما فيه طاعة الله و العدل ، فمكث أربعمائة سنة ملكا ، فأتاه إبليس فقال له : من أنت ؟ قال : ملك من ملوك الأرض ، فقال إبليس : بل أنت إله ! لو كنت ملكا لكنت مت كما تموت ملوك بني آدم . فتخيل ذلك في نفس الملك ، فجمع أرباب دولته و رعيته ، و خطب خطبة ذكر فيها أنه إله لا ملك ، و قال : لو كنت ملكا لمت كما ماتت ملوك الأرض ، و إنما أخفيت عليكم أمري ، فما فرغ من كلامه حتى ارتعش و اضطرب

(١) في الأصل : عليهم .

(٢) في الأصل : لكم .

من مكانه، و سلط الله عليه بخت نصر[1] البابلي، قتله و أخذ من خزائنه وقر سبعين سفينة مملوءة ذهبا . شعر :

لما رآه عدوه لم يستطع ثبتا[2] وحل القلب منه [في -[3]] ذهول
لم يغن عنه ويحه سلطانه و سريره و التاج و الإكليل

/ و اعلم أن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة و القيام لله بطاعته، ١٦١ / ب
و لا قوام للشريعة إلا بالملك، و لا عز للملك إلا بالرجال، و لا قوام للرجال إلا بالمال، و لا سبيل للمال إلا بالعمارة، و لا سبيل للعمارة إلا بالعدل، و العدل هو الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الله تعالى، و جعل لهم قيما و هو الملك . و قال عمرو بن عبيد للمنصور: إنك لا ترضى من الله إلا بالعدل عليك فاعدل على من دونك . و قال: إن الله عز و جل قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك ببعضها . و ينبغي للسلطان أن ينصف المظلوم من نفسه، و يتقي الله في أمره، و إذا رأى الحق، انقاد له و عمل به، كما قال الربيع بن زياد: ما رأيت رجلا قط أربط جأشا و لا أقوى جنانا من رجل رفع إلى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور[4] أن عنده ودائع و أموالا[5] لبني أمية، فأحضره و قال :

---

(١) المقصود بنوخذ نصر الذي حكم بابل سنة ٦٠٥ - ٥٦١ ق . م . و استولى على القدس مرتين سنة ٥٩٧ ق . م و سنة ٥٨٦ ق . م .

(٢) نقلنا الكلمة من الشطر الأول إلى الثاني .

(٣) أضفنا الكلمة ليستقيم ميزان الشعر بدون اختلاف المعنى .

(٤) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

(٥) في الأصل : اموال .

أخرج لنا عما تحت يدك من ودائــــع بنى أمية و أموالهم . فقال: يا أمير المؤمنين! أ وارث أنت لبنى أمية ؟ قال: لا . قال: فوصى لهم فى أموالهم و رباعهم؟ قال: لا . قال: فما مسألتك عما فى يدى من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إليه فقال: إن بنى أميـــة ظلموا المسلمين، و أريـد أن آخذ ما ظلموا المسلمين، فأجعله فى بيت مال المسلمين. فقال: يا أمير المؤمنين! يحتاج إلى إقامة البيّنة العادلة على أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه و ظلموه دون غيره، فقد كان لبنى أمية أموال غير أموال المسلمين. فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه فقال: صدق يا ربيع! ما يجب على الشيخ شىء فاصرفه.

فانظر إلى المنصور كيف ظهر له الحق فتبعه، و لم يظـلم الرجل
١/الف فى أخذ شىء منه قهرا. و ينبغى للملك أن يتواضع لعظمة الله / و لا يتجبر و لا يتكبر، فيخـاف عليه إن تجبر أو تكبر وقوعه فى الكفر، كما وقع فيه الوليد [١] بن يزيـــد بن عبد الملك بن مروان بتكبره و تجبره، و ذلك أنه فتح المصحف ليأخذ فيه فألا، فطلع له فى أول ورقـــة اختارها [٢] "و استفتحوا و خاب كل جبار عنيد ه من ورائه جهنم و يسقى من ماء صديد ه" - الآية. فغضب الوليد من ذلك، و تكبر و تجبر و نصب المصحف غرضا و رماه بالسهام إلى أن مزقـــه، و هو يقول

(١) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس.

(٢) قرآن كريم سورة ١٤ آية ١٥ و ١٦.

هذه الأبيات :

أ توعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد

و كان الملك الرستمى من المتكبرين المتجبرين ، فحضر عنده قوم من التجار ، فحضرت الصلاة ، فنهض ليصلى ، و نهضت التجار للصلاة ، فقال لهم : ما لكم و لهذا ! و ما أنتم منه ! الصلاة ركوع و سجود و خضوع و إنما فرض الله الصلاة يريد المتكبرين و المتجبرين و الملوك الأعاظم مثلى و مثل فرعون ذی[1] الأوتاد و نمرود و كسرى أنو شروان .

قال أبو الليث السمرقندى: من جلس مع ثمانية أصناف من الناس زاده الله ثمانية أشياء: من جلس مع السلطان زاده الله الكبر و قساوة القلب ، و من جلس مع الأغنياء زاده الله حب الدنيا و رأى الرغبة فيها . و من جلس مع الفقراء زاده الله الشكر و الرضى بقسمة الله تعالى ، و من جلس مع النساء زاده الله الجهل و الشهوة ، و من جلس مع الصبيان زاده الله اللعب و المزاح ، و من جلس مع الفساق زاده الله الجرأة على الذنوب و تسويف التوبة ، و من جلس مع الصالحين زاده الله الرغبة فى الطاعات ، و من جلس مع العلماء زاده الله العلم و الورع – انتهى .

[ما قيل فى الكبر و مقته –][2]

و سأذكر ما جاء فى الكبر و مقته فى الناس إن شاء الله تعالى –

---

(١) فى الأصل : ذو .

(٢) العنوان من النص و غير وارد بالهامش .

عن أبى هريرة عن هناد قال: / قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: قال الله عز و جل: الكبرياء ردائى و العظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار - خرجه الترمذى . و عن علقمة عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر - خرجه مسلم . و عن إياس بن [سلمة بن -[1]] الأكوع عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا يزال العبد يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين، فيصيبه ما أصابهم - خرجه الترمذى . و عن عمرو بن شعيب عن أبيه [عن جده -[2]] عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن [فى -[2]] جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار[3]، يسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال - خرجه الترمذى . عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم[4] جهنم، أو[5] ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب
عنكم عبية الجاهلية، إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى، كلهم بنو آدم ١

(١) زيد ما بين الحاجزين من تهذيب التهذيب .

(٢) زيد من الترمذى - القيامة .

(٣) جمع نار .

(٤) من الترمذى، و فى الأصل: فى .

(٥) من الترمذى، و فى الأصل « و » .

و آدم خلق من تراب - خرجـه الترمذى . و عن أبى هريرة قال : إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية و فخرهـا بالآباء . عن أبى مالك الأشعرى أن النبى صلى الله عليـه و سلم قال : أربـع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يـتركونهن : الفخر فى الأحساب ، و الطعن فى الأنساب ، و الاستسقاء بالنجوم ، و النياحة . و قال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة و عليها سربال من قطران و درع من جرف - خرجه مسلم . / عن أبى بن كعب قال : انتسب رجلان على عهد النبى صلى الله ١٦٣/الف
عليه و سلم فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان - حتى عد تسعة - فمن أنت؟ لا أم لك ! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : انتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان - حتى عد تسعة - فمن أنت ؟ لا أم لك ! قال : أنا فلان بن فلان ابن الإسلام ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : ائت هذين المنتسبين [فقل لهما - [1]] أما أنت أيهـا المنتهى - أو المنتسب - إلى تسعة فى النار ، أنت عاشرهم فى النار ، و أما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة . فأنت ثالثهم فى الجنة .

كان الملك يزدجرد [2] أحد ملوك فارس فظا خشن الجانب ، شديد الكبر ، فاجتمعوا و دعوا الله عليه ، و سألوه تعجيل الفرج منه ، فذكر أنهم رأوا فرسا أقبل حتى وقف ببابه . فأطاف الناس متعجبين من حسنه ، فأخبروه بذلك ، فقام فنظر إليه فأعجبه فأمر بإسراجه و إلجامه ،

(١) زيادة يقتضيها السياق .
(٢) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

فلما أسرج مسح وجهه و ناصيته و استدار حوله فركضه ركضة[1] أصاب بها كبده فقتله، ثم ملأ الفرس فروجه فلم يدرك. و أما بهرام جور فغاص هو و فرسه فى حمأة فى بعض أيام صيده فلم يظهر كما أخبر.

و اعلم أن الكبر هو نظر العبد إلى نفسه بعين العز و الاستعظام، و نظره إلى غيره بعين الاحتقار. و كل من رأى نفسه خيرا من خلق الله تعالى فهو متكبر. قال الشاعر يرد على المتكبر كبره بالتعنيف حيث قال:

من أين لك الكبر من[2] أين ألست من مخرج السبيلين
أبوك بالأمس كان من علق و جيفة أنت بعد يومين

١٦٣/ب / رأى بعضهم رجلا يمشى و يتبختر فى مشيته، فقال له: ما هذه المشية التى لم يمشها غيرك؟ قال: أو ما تعرفنى؟ قال: نعم، أعرف، أولك نطفة مذرة، و آخرك جيفة قذرة، و أنت فيما بينهما تحمل العذرة. فخجل الرجل من كلامه و مضى.

دخل بعضهم إلى بعض القضاة فقال: أيها القاضى! إن فلان بن فلان قال لى: يا خراء! فقال له القاضى: لست بخراء، و إنما أنت ظرف للخراء، فخجل من كلامه و انصرف - انتهى.

فينبغى للملوك و أرباب المناصب التواضع لعظمة الله تعالى، و أن يكثروا من الحمد و الشكر لله تعالى الذى خولهم فى أرضه، و أسبغ

(١) المقصود رفسه رفسة.

(٢) فى الأصل: و من. و الواو زائدة و ينكسر باتيانها وزن البيت.

عليهم نعمه ظاهرة و باطنة ، أن يجتنبوا الظلم و المعاصى لئلا يقعوا بعد العز فى الذل ، كما وقع فيه بعض خلفاء بنى أمية . و ذلك أن عبد الله ابن مروان الجعدى خرج هاربا من بنى العباس عند انصرام دولة بنى أمية ، فهرب هو و من معه من أصحابه بعد زوال ملك أبيه مروان[1] ، و قد صار بعد العز الضخم فى الذل و الهوان ، فطلبوا أرض النوبة ، فلما قدموها افترشوا أثاثهم و أقاموا ثلاثة أيام ، قال عبد الله بن مروان : فبينما نحن كذلك إذ أتانا ملك النوبة ، و قد بلغه أمرنا ، فدخل علىّ رجل أقنى طوال حسن الوجه ، فقعد على الأرض ، و لم يقعد على فرشنا ، فقلت : ما منعك أن تقعد على ثيابنا ؟ قال : لأنى ملك ، و حق على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه . ثم قال لى : لم تشربون الخمور و هى محرمة عليكم ؟ قلت : اجترأ على ذلك عبيدنا و أتباعنا ، لأن الملك زال عنا . قال : فلم تطأون الزرع بدوابكم ؟ و الفساد محرم عليكم فى كتابكم . قلت : ذهب الملك عنا و قل / أنصارنا ، فانتصرنا بقوم ٦٤ من العجم دخلوا فى ديننا ، فسلبوا[2] ذلك على الكره منا . قال : فأطرق مليا و جعل يقلب يديه و ينكت فى الأرض و يقول : عبيدنا و أتباعنا دخلوا فى ديننا ، و زال الملك عنا ! يردد ذلك مرارا . ثم قال : ليس ذلك كما ذكرت ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم ، و ركبتم ما عنه نهاكم ، فسلبكم العز و ألبسكم الذل بذنوبكم . و لله فيكم نقمة لم يبلغ غايتها ! و أخاف أن يحل بكم العذاب و أنتم ببلدى فيصيبنى معكم !

(١) و هو مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية و خلافته ١٢٧ - ١٣٢ هـ / ٧٤٤ - ٧٥٠ م . (٢) فى الأصل : فلبسوا - كذا .

و إنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم إليه و ارتحلوا عن بلدى. قال: فارتحلنا عن بلده. فانظر إلى تواضع هذا الملك و جلوسه على التراب تواضعا لعظمة الله تعالى إذ رفعه.

خرج الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: ما نقصت صدقة من مال، و ما زاد الله رجلا بعفو إلا عزا، و ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله. و خرج النسائى - عن عبد الله بن عباس - قال: كان عبد الله بن عباس يحدث أن الله أرسل إلى نبيه ملكا من الملائكة و معه جبريل، فقال الملك: إن الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا و بين أن تكون ملكا! فالتفت رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى جبريل كالمستشير، فأشار جبريل بيده أن تواضع! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: بل أكون عبدا نبيا. فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا. و قال النبى صلى الله عليه و سلم: من تواضع لله رفعه الله، و من تجبر قصمه الله. فينبغى للؤمن التواضع، و لا ينظر لأحد من المسلمين إلا و يرى أنه خير منه، و أن الفضل له عليه، / ١٦٤/ب فان رأى صغيرا قال: هذا لم يعص الله و أنا عصيته، فلا شك أنه خير منى، و إن رأى كبيرا قال: هذا عبد الله قبلى، و إن رأى عالما قال: هذا قد أعطى ما لم أعط، و بلغ ما لم أبلغ، و علم ما جهلت، فكيف أكون مثله! و إن رأى جاهلا، قال: هذا عصى الله بجهل، و أنا عصيته[1] بعلم، فحجة الله علىّ أوكد، و ما أدرى بم يختم لى. و إن رأى كافرا قال: لا أدرى

(١) فى الأصول: عطيته.

عسى أن يسلم و يختم له بخير العمل ، و ينسل باسلامه من ذنوبه كما تنسل الشعرة من العجين . و أما أنا فسى أن يضلني الله بالكفر و يختم لي بشر العمل ، فيكون غدا من المقربين و أنا من المبعدين .

قال صاحب كتاب « نتائج الأفكار » : إن خادما لعبد الله بن عمر أذنب ، فأراد عبد الله أن يعاقبه على ذنبه ، فقال : يا سيدى ! أ ما لك ذنب تخاف من الله فيه ؟ قال : بلى ، قال : بالذى أمهلك إلا ما أمهلتنى ! فتركه ، ثم أذنب العبد ثانيا ، فأراد عقوبته ، فقال له مثل ما تقدم ، فعفا عنه . ثم أذنب الثالثة فعاقبه و هو لا يتكلم . فقال له عبد الله بن عمر : ما لك لم تقل كما قلت فى الأوليين؟ فقال : يا سيدى ! حياء من حلمك مع تكرار ذنبي ، فبكى ابن عمر و قال : أنا أحق بالحياء من ربى ، أنت حر لوجه الله ! ثم قال : كيف السبيل إلى ترك ذنب كان على العبد فى اللوح المحفوظ مخطوطا ، و إلى ضرب قضاء كان به العبد مربوطا — انتهى .

نعود إلى أخبار الملوك — قال أفلاطون الحكيم : الملك كالنهر تستمد منه الأنهار الصغار ، فان كان عذبا عذبت ، و إن كان ملحا ملحت . فضل الملوك فى الإعطاء ، و شرفهم فى العفو ، / وعز هم فى العدل . ١٦٥
إذا قال السلطان لأصحابه : هاتوا ، فقد قال : خذوا و اطلبوا .

قيل لبعضهم : أ تحب أن تكون سلطانا ؟ فقال : و الله ما أرضى ذلك لنفسى ! قيل : و لم ؟ قال : يكثر بغيي ، و يتشعب ظلمى ، و يضرب على يدى ، و لا أترك أمشي وحدى .

و ينبغي للجالس بمجلس السلطان أن لا يخاصم من ظلمه إذا طالبه

الخصم بحقه ، بل يكرم خصمه بذلك المجلس الذى تشرف بجلوسه فيه . كما قيل : إن عمارة بن حمزة لما دخل على أبي جعفر المنصور و جلس فى مجلسه ، فقام رجل إلى المنصور فقال : مظلوم يا أمير المؤمنين ! قال : من ظلمك ؟ قال : عمارة بن حمزة هذا الجالس بمجلسك غصبنى ضيعتى . فقال المنصور : قم يا عمارة و قف مع خصمك ! فقال : يا أمير المؤمنين ! ما هو لى بخصم ، قال : وكيف ذلك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! إن كانت الضيعة له لم أنازعه فيها ، و إن كانت لى فهى هبة منى إليه ، و لا أقوم من مجلس شرفنى أمير المؤمنين بالجلوس فيه وأقف فى أدنى منه بسبب ضيعة ! فقال المنصور : أحسنت فيما قلت ! و قال للخصم : اذهب و تصرف فى ضيعتك كيف شئت .

و كان بعض سلاطين المغرب يسير يوما و بين يديه الشرط يمشون إذ نظر إلى جماعة من التجار ، فقال لوزيره : أ ما تحب أن أريك ثلاث طوائف ! طائفة لهم الدنيا والآخرة ، و طائفة لا دنيا و لا آخرة ، و طائفة دنيا بلا آخرة . قال : وكيف ذلك أيها الملك ؟ قال : فأما الذين لهم الدنيا و الآخرة فهؤلاء التجار يكسبون أقواتهم ، و يصلون صلاتهم ، و لا يؤذون أحدا . و أما الذين لا دنيا و لا آخرة فهؤلاء الشرط الذين بين أيدينا يمشون . و أما الذين لهم الدنيا بلا آخرة فأنا و أنت و سائر السلاطين . قال بعضهم فى المعنى :

أربعـــة منها القلوب نافره أحوالهم بين الورى ظاهره
فواحـــد دنياه مبسوطة ليست له من بعدها آخره
/ و آخر دنياه مقبوضـــة إن لـــه آخرة وافره ١٦٥/ب

و آخــر قــد نال كلتيهما قــد جمع الدنيا مع الآخره
و آخر أخرم ما فيهــا ليست له دنيا و لا آخره

و فى منثور الحكم : بئس الزاد إلى المعاد ظلم العباد ! حكى أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور قال : ما أحوجنى أن يكون على بابى بأربعة لا يكون على بابى بأعف منهم ! قيل : ما هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : هم أركان الملك و لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ، فان نقص منه قائمة واحدة عابته ، أحدهم قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، و الآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، و الثالث صاحب خراج يستقضى فلا يظلم الرعية . فانى غنى عن ظلمهم ، ثم عض على إصبعه ثلاث مرات يقول فى كل مرة : آه آه ! قيل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة ، فقد روى أن من مات غاشا لرعيته ، حرم الله عليه الجنة .

و عن أبى حنيفة أنه دخل عــلى ابى جعفر المنصور ، فقال : يا أبا حنيفة ! أعنا على أمرنا ، أى تصير قاضيا . قال أبو حنيفة : لا أصلح لهذا . قال : سبحان الله ! أعنا على أمرنا . فقال : يا أمير المؤمنين ! إن كنت صادقا عندك فقد أخبرتك أنى [لا] أصلح لهذا الأمر ، و إن كنت كاذبا فلا يحل لك أن تولى كاذبا .

روى ابن عباس قال : لما حج النبى صلى الله عليه و سلم حجة الوداع ، أمسك[1] حلقة باب الكعبة ثم هزها و بكى ، فنهض إليــه أبو بكر و قال : يا حبيبى ! لا أبكى الله لك عينا ! فقال له : يا أبا بكر !

---

(١) فى الأصل : مسك .

و كيف لا أبكى و هذه آخر حجة لنبيكم و ليس لى حجة غيرها ، و إنما بكائى على فراق الكعبة و توديع المسلمين ، فليبلغ الحاضر الغائب عنى ما أقوله ، أمثالكم كورق بلا شوك إلى أربعمائة سنة ، ثم يأتى ١٦/ الف زمان منكم و أناس شوك بلا ورق ، حتى لا يرى فيهم / إلا سلطان جائر ، و غنى بخيل ، و عالم راغب فى المال ، و عابد مراء ، و فقير كذاب ، و تاجر فاجر ، و صانع خائن ، و شيخ غافل ، و شاب تائه ، و صبى وقح ، و امرأة بلا حياء . فنهض سلمان الفارسى و قال له : يا حبيبى ! يا رسول الله ! متى يكون هذا الزمان على أمتك ؟ قال : يكونون[١] فى ذلك الزمان يصومون و يصلون و يقرأون القرآن ، و يتمردون على الرحمن ، و لا قلب لهم إلا قلبان ، إما خلى من الإيمان ، و إما كشبه الشيطان ، تكون ألسنتهم أحلى من العسل ، و فعالهم مثل ريح البصل ، قلوبهم تبكى على سوء فعالهم . فعند ذلك نهض عكاشة و قال : يا حبيبى ! يا رسول الله ! متى يكون هذا الزمان على أمتك ؟ قال له : يا عكاشة ! إذا وهنتم علماءكم ، و شاورتم نساءكم ، و افتخرتم بأنسابكم ، و طففتم مكيالكم ، و دخل الربا فى أسواقكم ، و جعلتم الدنيا فوق رؤسكم ، و العلم و القرآن خلف ظهوركم ، و الغيبة فاكهتكم ، و النميمة نصيحتكم ، و عيوب الناس مجالسكم ، و لم يوقر صغيركم كبيركم ، و لا يرحم غنيكم فقيركم ، و ترك الفروج السروج ، و تأكل القضاة الرشى ، و تشهد الشهود

---

(١) فى الأصل : تكونوا .

بالزور

بالزور، و يخفى الحق و يظهر الباطل، و يشيد البناء، و تظلم العبيد و الإماء، و يحكم بالجور، و يزهد فى العلم، و تأكل الأم من كسب فرج ابنتها، و يرى المؤمن منهم ذليل، و المنافق بينهم عزيز، و يكون فى ذلك الزمان الأمير كالأسد، و القاضى كالذئب، و التاجر كالثعلب، و الفاسق كالكلب، و المؤمن كالشاة؛ فيا لها من شاة بين أسد و ذئب و كلب و ثعلب! و مما قيل فى معنى ذلك [1]هذان البيتان[1].

زمان مصيبة و زمان جور و ظلمة ظلم[2] أشرار الخوارج
و ضعف الشرع و الدين المعلى و حرجة داخل و دخول خارج

و اعلم أن المشى إلى السلاطين الظلمة، و الأمراء الجائرة، من غير ضرورة تواضع و إكرام لهم، فهو تكثير لسوادهم، / و إعانة لهم على ظلمهم ١٦٦ ا و جورهم، و ما ذلك إلا سبب لطلب مالهم، فهو[3] سعى إلى حرام. قال النبى صلى الله عليه و سلم: من تواضع لغنى ذهب ثلثا دينه. هذا فى غنى صالح، فما ظنك بالغنى الظالم!

فينبغى للملك أن يكون متقيا للظلم، كافا يده عن الأذى و الجور، لا يأخذ أحدا بغير جرم، و لا يتعدى إلى هتك حرمة. فإن فى هتك الولايا البلايا. كما حكى أن ملكا هتك ولية، فحصل له بهتكها بلية. و ذلك

(١-١) فى الأصل: هذين البيتين.
(٢) فى الأصل: أظلم.
(٣) فى الأصل: فهى.

أن بعض الملوك كان عادلا فى رعيته، محسنا [فى -[1]] قضيته، فكانت رعيته فى دولته فى سعادة و نعمة بسبب عدله فيهم، فمات و لم يترك غير ابنة واحدة، و كانت جميلة كبيرة المروءة، كثيرة الصدقات، من سألها أبرته و من طلب منها شيئا أعطته. و ترك لها أبوها من المال كثيرا، فكان كل [من -[1]] قصدها وصلته من نعمها. فولى الملك بعد أبيها ملك ظالم جائر غاشم، فقصد الملك بناء مسجد، فسخر الناس فى بنائه، و منع البنائين أجرتهم، فسألوه الصدقة عليهم بها أو ببعضها، فأعطاهم بعضها من المظالم، فشاع الخبر بأن المسجد لم يبن إلا بالمال الحرام. فشق ذلك على ابنة الملك المتوفى، فركبت إلى بعض أمورها، فاجتازت بالمسجد المذكور، فوجدته كامل البناء، و تأسفت كيف بنى بالظلم و إعطاء الأجر من المظالم، فكتبت على حائطه هذا البيت:

بنى مسجد الله من غير حله   فكان بحمد الله غير موفق

و مضت إلى حال سبيلها. فبلغ الملك كتابتها على حائط مسجده ذلك البيت: الشعر، فبلغ منه كل مبلغ، و اغتاظ منها غيظا شديدا. و كان بلغه كرمها و كثرة صدقاتها، فجعل يدبر حيلة يكيدها بها، / فأرسل إليها ١٠/الف
بعض رجاله يسألها رمانة لزوجته الحامل اشتهتها، كادت تموت إن لم تأكلها، و أن يقول لها: ما وجدتها بدرهم و لا بأكثر منه. و لم يكن الرمان إلا ببستان الملك، و قد مضيت إلى خولى البستان و سألته أن

---

(١) الكلمة ساقطة من الأصل

يتصدق برمانة أو بثمنها ، فلم يرض ، و أنت فصدقاتك كثيرة ، و لعل أن تنفذي إليه و تأخذي لي[1] منه رمانة ، و ما أظنه يرضى ، و أريد من فضلك و إحسانك أن تتصدقي و تركبي إليه تأخذينها[2] لي منه ، فاني أعلم أنه لا يعطيها لرسولك أبدا . فاذا رآك آتيته بنفسك ، فيستحي منك وتمنى بها عليّ ، و إن لم يرض أن يعطيها لك إلا بالثمن الكثير ، فما لك فيه سعة ، و أنا أرجو أن لا يخيب الله سعيك ، و يعظم لك أجرك ، و يعوضك خيرا عما تنفقينه[3] لوجه الله تعالى . و كان الملك قدم القول مع الخولي : اذا أتتك بنت الملك ، و دفعت لك في كل رمانة ألف دينار لا تبيعها لها أبدا ، و قل لها : ما أعطيك[4] رمانة إلا أن تمكنيني من نفسك ، فان رضيت دفعت لك ما تختاريه من الرمان . ثم إن الرجل لما سألها الرمانة لزوجته ، رقت لحاله و تضرعه و حال زوجته التي اشتهتها ، فأخذت معها مالا و مضت إلى البستان و هو يتبعها ماشيا[5] خلف دابتها ، و هو يبتهل بالأدعية الصالحة لها ، فكلما سمعته يدعو لها تؤمن على دعائه ، و تشفق عليه ، و ربما بكت بسبب انكساره و خضوعه فقالت : و الله لا أرجع من مقصدي هذا حتى أجبر كسر هذا المسكين الدليل الحقير و لو بلغت

(١) في الأصل : له .

(٢) في الأصل : تاخذيها .

(٣) في الأصل : تنفقيه .

(٤) في الأصل : أعطيكي .

(٥) في الأصل : ماش .

الرمانه ألف دينار ! فلما وصلت إلى البستان قالت له : اطلب لى الخولى . ١٦٧/ب / فأحضره، فقالت له : أعطنى رمانة من بستانك ، فامتنع فعاودته فامتنع ، فقالت له : أما تعطى لابنة ملك رمانة سألتكها ؟ قال : لا و الله ! فقالت : خذ دينارا و أعطنيها . قال : لا . قالت : خذ دينارين . قال : لا . فما زالت تدرجه إلى عشرة دنانير و هو يقول : لا . قالت : فما تطلب فيها ؟ قال : أطلب نفسك لا مالك . فلما سمعت ذلك منه ، لعنته و شتمته و سبته و ولت راجعة ، فتعلق الرجل بذيلها و قال : سألتك بالله إلا ما حييت ثلاثة أنفس من الموت . إن لم تحصل الرمانة هلكت زوجتى و ولدى الذى فى بطنها ، و هلكت أنا بعدهما من وجدى بها . و صار يدعو لها و يتضرع و يلقى نفسه إلى الأرض و يتمرغ على التراب ، و يبكى و يستغيث و يقول : ادخلى فىّ و فى زوجتى [و ولدى -[1]] الجنة ، و خذى لى منه رمانة . فرق قلبها ، و دمعت عينها شفقة عليه . ثم قالت : ويلك يا هذا! أعصى الله تعالى و أبارزه بالمعصية و أفتضح مع فلاح ! فقال : أنا و الله ما أنم عليك و لا أفوه بكلمة ، و لا أظهر حالك لأحد ، و الله تعالى يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيئات ، ثم قابلى سيئتك بحسناتك ، قال الله تعالى[2] " ان الحسنت يذهبن السيئت " و قال النبى صلى الله عليه و سلم : أتبع السيئة الحسنة تمحها . و إنى و الله كاتم لسرك ، و أقول كما قال الشاعر حيث قال :

---

(١) الكلمة ساقطة من النص و واردة بالهامش .

(٢) قرآن كريم سورة ١١ آية ١١٤ .

و لها

ولها سرائر فى الضمير طويتها   نسى الضمير بأنها فى طيه

وإن تكلم الخولى بشىء ما سمع منه، لأنه يستحيل أن يكون فلاح[1] يتصل ببنت ملك. ولم يزل يسليها بعذوبة كلامه، والخولى يراودها عن نفسها حتى رضيت، فواقعها الخولى وأعطاها رمانا / كثيرا، ١٦٨/أ فدفعته للرجل الذى قصدها. ثم ان الخولى أطلق بطاقة كانت عنده بواقعتها، فلما وصلت البطاقة إلى السلطان على جناح الطائر، رسم الملك أن يكتب سريعا تحت البيت الذى[2] كتبته هى على حائط المسجد هذا البيت لتجوز تقرأه فى رجوعها من البستان وهو هذا:

كطعمة الرمان من كسب فرجها   فليتك لا تزنى ولا تتصدق

فلما رجعت المرأة نظرت بيتا من الشعر كتب تحت بيتها الذى كانت كتبته، فتقدمت إليه، فلما قرأته علمت أنها احتيل عليها، فوقعت مغشية عليها لما حصل لها من القهر، فحركت وإذا بها قد ماتت! فعوقب ذلك الملك بالسلب من نعمته وزوال مملكته بعد، وقوى [خصمه[3]] عليه، وأوصل شره إليه. وذلك لهتكه تلك الولية، فقابله الله فى نفسه بالبلية. وحصل بعد الملك فى الأسر، وبعد العز بالذل والخسر.

حكى أن رجلا من بنى إسرائيل كان ينادى: من رآنى فلا يظلمن أحدا! وإذا هو قد وقعت الآكلة فى ذراعه إلى عضده، فسئل عن

(١) فى الأصل: فلاحا.

(٢) فى الأصل: التى.

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل، ولزومها واضح من السياق.

حاله فقال: بينا أنا أسير على شاطئ البحر فى بعض سواحل الشام إذ مررت برجل صياد قد اصطاد سبع حيتان ، فأخذت منه حوتا و هو كاره بعد أن ضربت رأسه، فعض الحوت إبهامى عضة يسيرة، فوقعت الآكلة فى كفى ثم ساعدى ثم عضدى . فخرجت أسير فى البلاد أريد قطع عضدى إذ وقعت إلى شجرة فأويت إلى ظلها فنمت، فقيل لى فى المنام: لأى شيء تقطع أعضاءك! رد الحق إلى أهله. فجئت الصياد فقلت: يا عبد الله! أنا عبدك و مملوكك فأعتقنى، فقال: ما أعرفك . فأخبرته الخبر،
١٦٨/ب فبكى و تضرع / و قال : أنت فى حل من ضربك و من الحوت الذى أخذته منى ظلما . فلما قال ذلك، تناثر الدود و سكن الوجع ، فقلت له : بما دعوت على ؟ قال : لما ضربت رأسى و أخذت الحوت منى ، نظرت إلى السماء و بكيت فقلت: يا رب! أنت عدل تحب العدل، و هذا منك عدل و أنت حق تحب الحق ، و خلقتنى و خلقته ، و جعلته قويا ، و جعلتنى ضعيفا ، فأسألك يا من خلقتنى و خلقته أن تجعله عبرة لخلقك .

و روى أن كسرى أنوشروان كان فى صغره له معلم حسن التأديب ، فعلمه حتى فاق فى العلوم ، فضربه المعلم يوما من غير ذنب فأوجعه ، فحقد أنوشروان عليه ، فلما ولى الملك أمر باحضار المعلم و قال له : ما حملك على ضربى يوم كذا و كذا ظلما ؟ قال: أيها الملك! لما رأيتك راغبا فى العلم ، رجوت لك الملك بعد أبيك ، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم . فقال أنوشروان : "زه ره"[1] ! أى جيد

(١) فى الأصل : راه زاه ـ كذا .

مليح ، و أحسن إليه و أكرمه - انتهى .

[ذكر ملوك الكفار -[1]]

[2]ذكر ملوك الكفار الطغام ، و عبادة التماثيل و الأصنام ،
و ما قيل فى العرابى و الأقرونيات و النواميس و الهياكل
و الأهرام و الطلاسم و غير ذلك من الواردات المستطردات[2]

كان من ذرية قابيل بن آدم عليه السلام ملك جبار يقال له درمشيل ، يعبد الأصنام ، من دون الملك العلام ، و كان أول من شرب الخمور ، و اتخذ القمار ، و صعد على الأسرة ، و أول من أمر بصنعة الحديد و النحاس و الرصاص ، و أول من اتخذ الثياب المنسوجة بالذهب . و كان يعبد هو و قومه الأصنام الخمسة : [3]ودا و سواعا[3] و يعوث و يعوق و نسرا ، و هم أصنام قوم إدريس عليه السلام . ثم إنهم شرعوا فى عمل الأصنام حتى صار لهم ألف صنم و سبعمائة صنم على صور شتى ، فأمر الملك درمشيل أن يتخذ لهذه الأصنام كراسى و أسرة من الذهب مفروشة بأنواع الفراش الفاخرة . و أقام هذه الأصنام على الأسرة متوجة بتيجان الذهب ، مرصعة بالجواهر ، و لها خدام يخدمونها . ١٦٩/ا
فاذا كان يوم عيدهم ، أخرجوا جميع الأصنام يقربون لها القربان ، و يوقدون بين أيديها النيران . فاذ احترق ذلك القربان ، خروا

(١) العنوان مشتق من النص .

(٢-٢) هذا هو العنوان الكامل لما يلى من النص .

(٣-٣) فى الأصل : ود و سواع .

للأصنام سجدا ، ثم يشربون الخمور ، و يضربون الصنوج و يرقصون ، ثم يواقعون النساء مثل البهائم ، فكان جزاء عبادتهم لها غرقهم بالطوفان فى عهد نوح عليه السلام .

و كان الملك جدع بن عمير يعبد هو و قومه صنما له وجه كوجه الإنسان ، و عنق كعنق البقرة ، و يداه و رجلاه كأيدى الخيل ، مغشى بصفائح الذهب ، [[1]مرصع بالجواهر ، فى بيت عرضه [2]وسخ ، مرصع[2] بصفائح الذهب] و الفضة ، مكوكب[3] بالجواهر ، كى يتلألأ تلألؤ النجوم ، مفروشة[4] ، أرضه بالديباج و الحرير . و جعل فى هذا البيت سريرا من العاج و الأبنوس على عرض البيت ، قوائمه من الفضة ، على كل ركن من أركانه الأربعة جوهرة نفيسة . و كان لأبواب هذا البيت ستور سماها ستور العز ، و ذلك الصنم قائم عـلى ذلك السرير ، و جعل عن يمينه و شماله أصناما دونه على كراسى ، و أخدمها أشراف قومه ، فكانت قوم ثمود يعبدون تلك الأصنام ، فلم يزالوا يعبدونها إلى أن أخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

و كان النمرود قد اتخذ أصناما من أنواع الجوهر و الذهب و الفضة و القوارير و الخشب يعبدها هو و قومه .

---

(١) الجملة المحجوزة ساقطة من الأصل . و وردت فى هامشه بخط المصحح .

(٢–٢) فى الهامش : و مسخا مرصعا .

(٣) فى الأصل : مكوكبا .

(٤) فى الأصل : معروش .

و كان

وكان لقوم لوط ملك يقال له سدوم ، قد اتخذ للأصنام بيوتا من خزف وكراسي محلاة بالذهب والفضة ، كانوا يعبدونها من دون الله تعالى .

وكانت أهل الأيكة يعبدون الأصنام ، وملكهم يقال له : عمرو ابن صعب . وكانت تلك الأصنام عدتها ثلاثون صنما : عشرة منها من الذهب مغشاة بالجواهر ، على رؤسها التيجان ، وهي خاصة للملك ولعشيرته ، والعشرون الآخرون من الفضة والنحاس والحديد .

وصنع السامري لبني إسرائيل عجلا من الذهب والفضة ،/ عبدته ١٦٩ /
طائفتهم .

وكان لقوم إلياس صنم[1] على صورة امرأة ، عليه زينة عظيمة ، وعلى وجهه بهجة في نهاية الحسن قد فتن الناس حسن ذلك الصنم .

قال الشيخ أبو العباس المرسي : شكل الآدمي ما عدا أهل العصمة صنمي ، فمن أقبل عليه عبده ومن أعرض عنه وحد . ولما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب حين سيل العرم - كما تقدم ذكره - انخزع بنو ربيعة فنزلوا تهامة فسموا خزاعة لانخزاعهم . ووليت خزاعة أمر الكعبة بعد حرب جرى بينهم وبين أياد ومضر ابني نزار . فكان أول من ولي الكعبة من خزاعة عمرو بن عامر ، فغير دين إبراهيم عليه السلام وبدله ، وبعث العرب على عبادة التماثيل . وكان حين خرج إلى الشام ، ورأى قوما يعبدون

---

(١) في الأصل : صنما .

الأصنام ، فأعطوه منها صنما ، فنصبه على الكعبة ، و قويت خزاعة ، و عم النـاس ظلم عمرو بن عامر ، ففى ذلك يقول رجل من جرهم حيث قال :

يا عمرو لا تظلم بمكة إنهـا بلـد حـرام
سائل بعاد أين هـم فكداك[1] تخترم الأيام[2]
و بنى العماليـق الذى لهم بها كان السوام

و لما أكثر عمرو بن عامر من نصب الأصنام حول الكعبة ، و غلب على العرب عبادتها ، و امتحت الملة الحنيفية منهـم إلا لمما . قال شحنة بن خلف الجرهمى حيث قال :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
و كان للبيت رب واحد أبدا فقد جعلت له فى الناس أربابا
لتعرفن بأن الله فى مهل سيصطفى حولكم للبيت حجابا

و عمّر عمرو بن عامر هذا ثلاثمائة سنة و أربعين سنة ، فلما جاء النبى صلى الله عليه و سلم بالإسلام ، و أمر بعبادة الملك العلام ، جاهد فى المشركين الطغام . و كسر ما كان لهم من الأصنام ، كما قال بعضهم فى مدح النبى صلى الله عليه و سلم حيث قال :

يا خير من عبد الرحمن مجتهدا و راقب الحق إسرارا و إعلانا

(١) فى الأصل : فكذالك .

(٢) بدون تشديد ياء الأيام لاستقامة الوزن.

/ وخير من رفض الدنيا وزخرفها   وحاد عنها و لم يعلى لها شأنا ١٧٠/ الف
كم عزمة لك فى الإسلام ماضية   أقمت فيها لأمر الله برهانا
و كم فللت جموع المشركين و كم   ضربت أعناقهم شيبا و شبانا
بهمة رفعت للدين سودده   و نكّست من أعالى البيت أوثانا

و قال عبد اللطيف التكريتى من قصيدة له يقول فيها :

أقامه الله للدين القويم و قد   وهت عراه وسيف الكفر مسلول
فقام فى نصرة حق القيام إلى   أن عاد جمع الأعادى و هو مفلول
[و أظهر الحق و الأصنام ظاهرة   فى الجاهلية و الإسلام مجهول
وكف بالسيف كف الكفر حين طغى   فعاد من بعد شد و هو مغلول[1]]
و شد[2] رب عرى الإسلام فانتظمت   فما استحالت وعقد الشرك محلول

و كانت ملوك و أمم كثيرة لها أصنام يعبدونها من دون الله تعالى ، تركنا ذكرها لطولها . فلنذكر الآن عاقبة عباد الأصنام و عاقبة اليهود و النصارى يوم القيامة إن شاء الله تعالى .

ذكر مسلم فى صحيحه فى حديث الشفاعة : إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله عز و جل من الأصنام و الأنصاب إلا يتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر و فاجر و غير أهل الكتاب . فتدعى

---

(١) البيتان ساقطان من النص و وردا فى الهامش بخط المراجع .
(٢) فى الأصل : و شدا .

اليهود، فيقال[1] لهم : ما كنتم تعبدون؟ قالوا : كنا نعبد العزير ابن الله، فيقال : كذبتم ! ما اتخذ الله من صاحبة و لا ولد، فما ذا تبغون؟ قالوا : عطشنا يا رب فاسقنا ! فيشار إليهم : ألا تردون[2] ! فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا [فيتساقطون فى النار -[3]] . ثم تدعى النصارى، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله . فيقال لهم : كذبتم ! ما اتخذ الله من صاحبة و لا ولد . فيقال لهم : فما ذا تبغون؟ فيقولون : عطشنا يا رب فاسقنا ! قال : فيشار إليهم : ألا تردون ! فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون فى النار - الحديث إلى آخره . قوله تعالى[4] : "و من الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله و الذين آمنوا اشد حبا لله" . قيل : بأى شيء يعرف أن محبة / المؤمن لله تعالى أشد من محبة الكافر للصنم؟ قيل : بخمسة ١٧٠/ب أشياء : أحدها أن الكافر إذا أصابته شدة تبرأ من معبوده، و المؤمن لا يعرض عن الله تعالى فى الشدائد و المحن . قوله تعالى[5] : "الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله و انا اليه رٰجعون" . و قال بعضهم فى تسبيحه : سبحان من يقتل أولادنا و نحبه ! الثانى محبوب الكافر و معبوده كثير،

---

(1) من مرجع الحديث . و فى الأصل : فقيل .

(2) من مرجع الحديث : و فى الأصل : ترون .

(3) زيد من مرجع الحديث .

(4) قرآن كريم سورة ٢ آية ١٦٥ .

(5) قرآن كريم سورة ٢ آية ١٥٦ .

و محبوب

و محبوب المؤمن و معبوده واحد ، فالكافر يتبرأ من معبوده يوم القيامة . قوله تعالى[١] : " اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا " ـ الآية ، و المؤمن لا يتبرأ من معبوده لا فى الدنيا و لا فى الآخرة . الثالث أن الكافر أظهر محبته لمعبوده من جهة واحدة و هى حبه له ، و محبوبه لا يحب و لا يبغض لأنه[٢] جهله ، و محبة المؤمن من جهتين : يحب مولاه و يحبه مولاه . قوله تعالى[٣]: " يحبهم و يحبونه " . الرابع محبوب الكافر يغيب عنه و يحتجب ، و معبود المؤمن و محبوبه معه فى كل حال . قوله تعالى[٤] : " ما يكون من نجوى ثلثة الا هو رابعهم و لا خمسة الا هو سادسهم " . و الخامس معبود الكافر و محبوبه يحمل[٥] الكافر معه و يكفله ، و معبود المؤمن هو حامله و كافله ، قوله تعالى[٦] : " و هو معكم اين ما كنتم " الآية ـ انتهى .

فلنذكر الآن ما قيل فى الأعمال إن شاء الله تعالى ـ سئل علـى بن أبى طالب رضى الله عنه عن القضاء و القدر و أفعالها هل هى باستطاعة منا ؟ فقال للسائل : هذا بحر عميق لا تدركه . فقال : أخبرنى . فقال :

(١) قرآن كريم سورة ٢ آية ١٦٦ .
(٢) فى الأصل : لأن ـ كذا .
(٣) قرآن كريم سورة ٥ آية ٥٤ والآية " سوف يأتى الله بقوم يحبهم و يحبونه ادلة على المؤمنين " .
(٤) قرآن كريم سورة ٥٨ آية ٧ .
(٥) فى الأصل : و ما يحمل .
(٦) قرآن كريم سورة ٥٧ آية ٤ .

طريق مظلم لا تسلكه. فقال: لا بد أن تخبرني. فقال: اسمع و بلّغ، الأعمال ثلاثة: فرض و طاعة و معصية، فأما الفرض فبأمر الله تعالى و باذن الله و بارادة الله و بقدر الله و بمشيئة الله و بعلم منه، و جرى به القلم، و صاحبه مأجور، و الله عنه راض؛ و أما الطاعة فليست بأمر الله فتكون كالفرض، و لكن باذن الله و بارادة الله و بقدر الله و بمشيئة الله و بعلم منه، و جرى به القلم، و صاحبه / مأجور، و الله عنه راض؛ و أما المعصية فليست ١٧١ / الف بأمر الله و لا باذن الله، و لكن بقضاء الله و بقدر الله و بمشيئة الله و بعلم منه، و جرى به القلم، و صاحبه مأثوم، و الله عليه غضبان.

[ذكر صفة الأهرام و النواميس و الهياكل و البرابى التى صنعها الأوائل وغير ذلك -[1]]

استخرج زمن أبى سليمان عوف بن سليمان قاضى مصر كتاب بالقبطية وجد فى قبر ميت، كان فيه كتب هذا الكتاب فى أول سنة من ملك فليس. استنسخه من صحيفة ذهب بالكتابة الأولى، و ترجمه له أخوان من القبط علما ذلك عن آبائهما[2]. و هو رجل من أهل مصر الأوائل، لم ينج منها من الطوفان غيره، [لأنه أسلم هو و زوجته، و نزل السفينة مع سيدنا نوح عليه السلام[3]] و المترجم من الكتاب: بسم الباقى بعد الأشياء،

(١) العنوان وارد فى أول النص، و ليس بالهامش.
(٢) فى الأصل: آبائهم.
(٣) العبارة المحجوزة ساقطة من النص و واردة بالهامش.

إن الملك سويدين بن سهاول ملك مصر رأى فى منامه رؤيا هالته ، فأحضرنا و أمرنا أن ننظر ما تدل عليه الكواكب مما يحدث فى العالم ، فأقمناها فى مراكزها فى وقت مسألته ، فدلت على أنه تنزل من السماء حادثة إلى الأرض ، فلما بان لنا ذلك أخبرناه به . فقال : ما هو ؟ فنظرنا فى خفى أمورها ، فوجدنا ما يحدث مفسدا للأرض و أهلها ، فلما تم اليقين من ذلك ، أمرنا ببناء الأقروبيات و أعلاما عظاما تكون له و لأهل بيته قبور[1] تحفظ أجسادهم من الفساد ، و يبقى عالمهم صحيحا ، و كتب على حائط الأقرونيات و سقوفها علم غوامض الأمور من دلائل النجوم و عللها ، و سائر الطبائع و تكوينها ، و النواميس العظام و العقاقير و تأليفها ، و غير ذلك مما ينفع و يضر ملخصا مفسرا لمن عرف كتابنا و لغتنا . و أن هذه الآفة محيطة بجميع أقطار الأقاليم إلا اليسير . و ذلك إذا نزل[2] قلب الأسد أول دقيقة من السرطان ، فتكون الشمس و القمر فى أول دقيقة من رأس الحمل فعجب سويدين من قول المنجمين فيما ذكروه من الآفات التى تظهر لهم فى علم النجوم من النار المحرقة لأقطار العالم و غير ذلك من القول . فرسم ببناء ما تقدم ذكره . و مات سويدين و دفن ١٧١ / ب فى الهرم الشرقى . و ملك بعده مصر أخوه وهوجيت ، و مات فدفن فى الهرم الغربى . و ملك مصر بعده ابنه ماوس . و دفن فى الهرم الملون بلونين من الحجارة . و لهذه القبور أبواب فى آزاج مبنية بالحجارة فى

(١) فى الأصل : قبورا .

(٢) فى الأصل : نزلت . و بهامشه : لعله نزل .

الأرض ، كل أزج عشرون ذراعا بذراعهم . و له باب من حجر واحد يدور بلولب ، إذا أطبق لم يعرف أنه باب و صار كالبنيان ، و لا يوصل إليه إلا بالوصول منه ، وفى هذه الأهرام فنون الذهب و الفضة و الكيمياء و حجارة الزبرجد الرفيع و الجواهر الثمينة النفيسة ما لا يحتمله الوصف كثرة . هذا آخر الكتاب الموجود فى القبر ، و ترجم يوم وجود هذا الكتاب يوم الأحد من شهر توت عند طلوع الشمس سنة خمس و عشرين من سنى العرب ، و انتهى ما تضمنه من التواريخ من لدن نسخه بالخط الأول إلى هذا اليوم ، فوجد اثنتين[1] و أربعين و تسعمائة و ثلاثة آلاف سنة ، فعلم أن الكتاب كتب قبل الطوفان بما بين الجملتين . وكانت الرؤيا التى رآها سويدين ملك مصر على ما ثبت فى المصاحف الموجودة بمدينة منف فى خلافة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان[2] [أحد[3] حلماء بنى أمية ، وكانت سبعة مصاحف مترجمة . فذكر قيطون بن كانوس الكاهن يذكر فيها مبادئ الولادات و الخلوق الأولية ، و يذكر الملوك و القاطرين[4] و ما وضعوه من الحكم ، و ما [5]عملوه من الطلسمات ، وكانت بخط اركليوس الكاهن ، فحملت إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان] فسرها له رجل

(١) فى الأصل : اثنين .

(٢) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

(٣) العبارة المحجوزة ساقطة من النص و وردت فى الهامش بخط الراجع .

(٤) فى الأصل : و القاطرون .

(٥) « ما » ساقطة من الهامش .

يهودى

يهودى ، و لم تكن بالخط الكاهنى الصورى ، بل كانت بالخط المعروف بالمرسطى . فلذلك قدر على استخراجها . فكشف لهم اليهودى ما أراد ، و ستر ما أراد ، و قدر منها على كثير ، و عرف الخبر المشهور ، و كيف الوصول إليه ، و أصناف العلوم .

و كان صدر المصحف الأول الجامع لهذه المصاحف : باسم الرب المحيط بالأشياء ، أنا قيطون بن أساوس[١] الكاهن ، كان أبى من خدام الهياكل النورية و المتكلمين عندها بكلام التوحيـــد و الخضوع للآلهة المعظمة المطهرة للأرواح الأنساحية لمن كان يتعبد لها و يقوم / لقراءتها ١٧٢/الف
إلى أن يحجو بها ، و كان إليه مع ذلك خدمة نواويس الملوك ، و كان من وسم بهاتين الحالتين يومأ إليه بالتعظيم ، و يفضل بالتزكية . فلما هلك مرقيوس الملك ، حفر له فى ناووس المملكة أزجا و صفح بالمرمر الأزرق ملونا ، و حفر عند رأس الأزج موضعا يقام فيه أسطوانة التاريخ ، فانتهى الحفر به إلى أرضية من رصاص مطبقة فيها مصاحف الكهنة ، و فيها جثة أبورس الكاهن الذى كان فى زمن أسارس الملك ، و أخذ المصاحف بحق قيامه على الهياكل و النواويس ، و وقف على ما فيها ، و لم يظهر شيئا من علومها . فلما هلك أبى ، صارت المصاحف إلىّ ، فنقلتها بترجمتى لتكون ذخيرة لولدى .

و كان أول ما ترجمه قيطون الكاهن من تلك المصاحف : باسم النور

---

(١) ورد فيما قبل : كانوس .

الذى[1] كانت الأنوار كلها منه، و إليه يعود مظهر الحكماء، و مؤيدهم بالأشباحية العالية و أسماء الآلهة. هذا ما نسخناه و وقفنا عليه من أسرار العلوم، و الذى قدرنا عليه من كتب ساداتنا القاطرين[2] الهادين إلى طريق الحكمة، و وقفنا عليه من أسرار الخليقة و مفاتيح العلوم و أسرار الولادات.

ثم نرجع[3] إلى ذكر الرؤيا - فكان فى جملة ما ترجم من هذه المصاحف أن سويدين الملك رأى الكواكب المعروفة بالسياسانية فى صور طير أبيض، و كأنها تخطف العالم، و تلقيهم بين جبلين عظيمين، و كأن الجبلين انطبقا عليهم، و كأن الكواكب النيرة مظلمة كاسفة كلها. فلما أخبره القاطرون بما تقدم عنهم، أمر أن يختار موضعا لبناء الأعلام. فاختار موضعا بقرب النيل فى الجانب الغربى، و بنيت فيه مدينة و سميت
١٧٢/ب موقة أى مطلب الحكمة، و أمر / الملك بجمع[4] الناس و الفعلة، فجمع سبعة آلاف لقطع الحجارة و حملها، و سبعة آلاف لهندستها و النقش عليها، و أربعة عشر ألف للبناء و عمل قضبان الحديد، و استخراج معادن الرصاص، فكانوا يصبون البلاطة و يجعلون فى وسطها عمود حديد قائم قد ضبط بالرصاص المسبوك، و يركب عليها بلاطة أخرى فى قدها

(١) فى الأصل: التى.

(٢) فى الأصل: القاطرون.

(٣) فى الأصل: ترجع.

(٤) فى الأصل: بجميع.

و هندستها مثقوبة الوسط بقدر دخول القضيب فيها، و يسبك الرصاص و يصب[1] حول البلاطتين معا، حتى بنوا[2] بنيانا طويلا مائـة ذراع و خمسين ذراعا بذراعهم، ليكون ماء الطوفان مع حافته، و هرم البنيان صاعدا، فجعل رأسه عشرة أذرع فى مثله، و عرض كل حائط من تربيع الهرم مثل طوله مائـة و خمسين ذراعا. ثم أحضرهم فقال: انظروا! هل تفسد هـذه الأعلام. فنظروا فوجدوها باقية لا تزول. و قال: انظروا! هل يفتح منها موضع. فنظروا فقالوا: نعم، يفتح من الجانب الشمالى[3]. فقال: حققوا النظر فى علومكم، هل تعرفون الموضع بعينه، و عرفونى إلى متى يكون ذلك، فأخرجوا الموضع و ذكروا أن ذلك لا يكون لأربعة آلاف دورة للشمس. قال: أ فتقفون على قدره؟ فعرفوه، فقال: احملوا فى الموضع الذى يصلون منـه إلى داخل العلم ذهبا بوزن ما ينفقونه. و حث الرجال و الصناع و الفعلة على الفراغ من الأهرام و الأفرونيات. ففرغوا من ذلك فى ست سنين. فمن يدعى موازنتنا فى الملك أو بلوغنا فى القدرة و انتهاءنا من السلطان فليهدمها فى ستين سنة، و ليزل[4] رسمها، فان الهدم أيسر من البناء، و التفريق ١٧٣/ألف

(١) فى الأصل: نصب.

(٢) فى الأصل: بنيا.

(٣) فى الأصل: الشمال.

(٤) فى الأصل: لتزيل.

أيسر من التأليف . و ذكروا أنها كانت مراقل من خوص ، إذا ضربوا بهـا الحجارة قفـــزت من أنفسها و سارت ، و أن ذلك لم يزل متعارفا عندهم .

قال الوصيفى فى تـاريخـه : قال لى رجل قبطى يعرف بابراهيم ، و قد أجرينا شيئـا من هذا الكلام : إنهم أصابوا فى بعض الـكنائس شبيها[1] بالطاق ، سقط منها سلة ففتحت ، فوجدوا فيها مرقلة من خوص ، فعجبوا منها ، و لم يدروا لها معنى ، فطرحوها فى النار ، فكانت تثب فى النار حتى تبلغ سقف الـكنيسة ، فلما رأوا ذلك قطعوها بالسكين . ثم عرفوا الحال فندموا على إفسادها . ثم قال للوصيفى : و لا أدرى هل هى من مراقل الحجارة أو من غيرها ، إلا أن وثوبها من النار عجيب[2] .

و لما قدم أمير المؤمنين المأمون[3] بن هارون الرشيد إلى مصر لينظرها و يشاهدها ، و رأى الأهرام ، أراد هدمها ، فعرفه بعض شيوخ المصريين أن ذلك غير ممكن ، و لا يحسن بمثله أن يطلب شيئا لا يبلغه . فقال : لا بد أن أعلم علم ما فيها . ثم أمر ففتح من الجانب الشمالى لقلة دوائر الشمس على من يتولى ذلك ، فكانوا يوقدون النار عند الحجر ، فاذا احمر رش عليه بالخل ، و رمى بالمنجنيقات حتى فتحت الثلمة التى يدخل منها إلى الهرم

---

(١) فى الأصل : شبيه .

(٢) فى الأصل : عجبا .

(٣) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

اليوم، فوجد بنيانه على ما ذكرنا من الحديد و الرصاص . و وجد عرض الحائط عشرون ذراعا، فلما وصلوا إلى آخر الفتح، وجدوا خلفه مطهرة من حجر أخضر فيها مال على حول الدنانير العراض، و وزن كل دينار سبعة و عشرون مثقالا و ثلثا مثقال، / فقال: زنوا الذهب كله، ١٧٣/ب
فوزنوا الجملة، فوجدوا فيها قدرا معلوما . و كان المأمون فطنا، فقال: احرزوا ما أنفقتم على فتحه، فوجدوه موازنا لما وجدوه من المال، فعجب من ذلك ومن معرفتهم بالموضع الذى يفتح منه على طول الزمان فى المستقبل، و ما يصرف على فتحه، فوضعوا ذلك المصروف بقدر ما انصرف، فازداد المأمون و أصحابه يقينا فى علم النجوم، و ركب المأمون حتى دخل ذلك الموضع، و نظر إلى البيت فوجدوا فيه صنما[1] أخضر مادا يده و هو قائم، و نظروا إلى الزلاقة و البئر، فأمر بنزولها، فنزلوا من درجة إلى درجة حتى أفضوا إلى صنم أخضر و عيناه جزعتان سواد فى بياض كأنهما حدقتا[2] إنسان، فهالهم أمره . و قد رأوا أن له حركة فجزعوا، و جرأه ذلك على طلب مخابئ[3] كثيرة، و وجد المأمون طول كل هرم من الهرمين الكبيرين أربعمائة ذراع بالملكى، و كذلك عرض كل حائط من حيطانهما . و يقال: إنه ليس على وجه الأرض أرفع بناء

(١) فى الأصل: صنم .
(٢) فى الأصل: حدقت .
(٣) فى الأصل: مجابى .

من هذين الهرمين، و هما غربى بلدة[1] يقال لها وسيم[2]، و لا فى العالم حجر موضوع على آخر أعلى منهما . و يقال: إن عمقهما فى الأرض مثل ارتفاعهما فوق الأرض . و ذكر أن أبواب هذه الأهرام لا تفتح إلا بكلام و بقرابين و بخورات، و الصابئة تحجهما من حران[3].

و سأذكر هنا ما قيل فى الصابئين إن شاء الله تعالى - قال مجاهد و الحسن: الصابئون طائفة بين اليهود و المجوس . و قال قتادة: هم قوم يعبدون الكواكب . و قال بعض الفقهاء: إنهم بين المجوسية / و النصرانية . ١٧٤/ الف
و قال بعض الشيوخ: إنهم طائفتان، طائفة تنتحل دين المسيح و تقر بالإنجيل، و هم فى ناحية من أعمال واسط[4] . قال الشيخ أبو بكر الطرطوشى: و لا تؤكل ذبائح الصابئين، و ليس بحرام كتحريم ذبائح المجوس - انتهى .

نعود إلى ذكر ما قيل فى مصحف هرثيل - زعموا أن تاريخه لستمائة سنة من الطوفان، و أن سنديل ملك مصر نظر فى النجوم أن حادثة تكون من السماء مضرة بالعالم، فأمر ببناء أعلام تكون نواويسا

---

(١) فى الأصل: بلدا .

(٢) أوسيم من قرى مديرية الجيزة و هى تابعة الآن لمركز امبابه على الشاطئ الغربى من النيل جوار القاهرة .

(٣) الغالب أنها حران بضم الحاء و تشديد الراء، وردت فى معجم البلدان (ج ٢ ص ٣٣٢) من قرى نيسابور بأرض الفرس .

(٤) واسط وردت فى معجم البلدان (ج ٤ ص ٨٨٨) و هى قرية مشهورة ببلخ و هناك أخرى بنفس الاسم من قرى حلب بسوريا .

تحفظ أجسام الملوك و زبر على تلك الأعلام أسماؤهم[1] و تواريخهم ، و كنز فيها من فاخر الجواهر و الصنعة و طرائف الحكمة و من التماثيل و الذهب الملون و التيجان الفاخرة ما استدل بـه على عظيم ملكهم ، و جعل لذلك طلسما[2] يمنع منه إلى أوقات معلومة يكون ذخيرة لهم ، و كأنهم يزعمون كما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز[3] "ان هى الا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا الا الدهر" ثم إنه وضع أساسها فى وقت السعادة ، و جعل فى أساس كل علم منها صنما ، و كتب[4] فى صدرها دفع المضار و الآفات عها ، و فى يد كل صنم منها كالبوق ، و هو واضعه على فمه ، و فى وسط كل علم منها مشارات موجهة إلى آزاج ضيقة المنافذ ، واسعة المداخل ، تجتذب [5]الرياح إليها[5] ، و إن لم يحس دفعها[6] أهلكته ، و منها ما ينطبق عليه بحكمة متقنة و أمر مبرم . و قيل : إنه عمل تحت الأهرام أسرابا تخرج إلى ناحية الغرب و إلى ناحية الفيوم مسيرة يوم و يومين منها ، و أودعت عجائب كثيرة ، و إن أسفلها مسارب / للماء يجرى إليها من النيل . و قيل : إنه وكل بالأهرام ١٧٤/ب

(١) فى الأصل : اسماهم .

(٢) فى الأصل : طلسمان .

(٣) قرآن كريم سورة ٤٥ آية ٢٤ .

(٤) فى الأصل : كتب .

(٥-٥) فى الأصل : الرياع اليها .

(٦) فى الأصل : دفعه .

روحانيين، فجعل فى الهرم الغربى روحانيا [1] فى صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، لها ذؤابتان، فاذا أرادت أن تستفز الإنسان ضحكت إليه و استجرته إلى نفسها، و قد ذكر ذلك من رآها و قصدها. و وكل بالهرم القبلى روحانيا فى صورة غلام أسود عريان قد رئى من خارجه مرة بعد مرة، ثم يغيب عنهم. و فى الهرم الملون صورة شيخ فى كفه مجمرة كنائسية كأنه يتبخر، و عليه ثياب الرهبان. و كذلك وكل بجميع الأقرونيات، حتى أن مدينة أخميم [2] لا يشك جماعتهم أن روحانى البربا التى بها غلام أسود أمرد معه عصا و لا يستطيع أحد أن يدخل البربا التى بها رجل طويل آدم صغير اللحية أشيب. و أما بربا أبو صير [3] ففيها صورة شيخ أبيض عليه زى الرهبان و فى يده مصحف، و لكل واحد من هؤلاء الروحانيين قربان و كلام يطيع له [4] و يدل معه على علوم البربا و كنوزه.

و فى بعض الأخبار أن قوما قصدوا الأهرام فى خلافة جعفر المتوكل، أحد خلفاء بنى العباس، و كان على مصر حينئذ ابن المدبر،

---

(١) فى الأصل: روحانى.

(٢) من مدن مديرية سوهاج على البر الشرقى و هى قديمة.

(٣) وردت فى معجم البلدان (ج ١ ص ٧٦٠) أربع قرى بهذا الاسم فى مصر و هى بوصير من كورة الأشمونين و أخرى بالجيزة و أخرى بالفيوم و بوصير بناء بالسمنودية.

(٤) فى الأصل: بها.

فنزلوا من الزلاقات و الآبـار ، و طلبوا ان يدخلوا من تلك المضايق التى تخرج الرياح منها ، و حملوا سرجهم فى أوانى الزجاج ، فأتتهم رياح و أخرجتهم و كسرت أوانيهم و أطفأت سرجهم ، و أنهم أخذوا واحدهم فربطوا وسطه بالحبال ، و قالوا له : ادخل ، فاذا كان شىء تكرّهه جررناك ، ففعل ذلك ، فلمـا دخل و أمعن و زاحم الرياح ، انطبق / عليه ذلك النصب و جذبوه و انقطعت حبالهم ، و بقى الرجل فى ذلك ١٧٥/ الف الشق لا يقفون له عـلى خبر ، فاغتموا لذلك و صعدوا هاربين حتى خرجوا من الهرم ، و جلسوا عند باب الثلمة المفتوحة يفكرون فى ذلك الرجل و أمره و أمرهم و ما قدموا عليه ، فانهم كذلك إذ انفجرت من الأرض كالوهدة ، و أثارت لهم ذلك الرجل عريانا مشوه الخلق ميت الدم جامد العينين ، و هو يتكلم بكلام عجيب لا يفقه . فلما فرغ من كلامـه سقط ميتـا ، فازداد تولههم ، و تضاعف جزعهم ، و احتملوه إلى منزله ، فأخذهم الحرس و انطلقوا بهم مع الرجل الميت إلى ابن المدبر ، فسألهم عن أمرهم فأخبروه ، فأمر أن يكتب ذلك الكلام عـلى حسب ما أتقنوه ، و أقام بطلب من يفسره إلى أن وجد رجلا يعرف شيئا من ذلك اللسان ، فاذا معنـاه : هذا جزاء من طلب ما ليس له ، و كشف عـلى ما لا يخفأه ، فليعتبر من رآه . ومنع ابن المدبر من التعرض للأهرام .

و فى خبر آخر أن جماعة وجدوا فى بيوت الأهرام البيوت ، الوسط زلاقة إلى بئر ، فنزلوها و وجدوا سربا ، فساروا فيه نصف نهار

حتى انتهوا إلى حفير عتيق ، و فى عدوته باب لطيف ، يتبينون منه شعاع الذهب و الجواهر ، و من رأس الحفير مما يليهم[1] إلى الباب المحاذى لهم عمود حديد ، قد ألبس محورا من حديد ، يدور عليه و لا يستمسك ، فاحتالوا فى وقوعه و ذهاب حركته . فلم يصلوا إلى ذلك ، فربطوا أحدهم فى حبل و تعلق به ليصل إلى الجانب الآخر ، فدار بـه المحور فتحير و سقط ، فخرجوا منه هاربين لا يلوون .

و دخل نفر بعض الأسراب التى فى الهرم ، فانتهوا إلى صنم أخضر فى صورة شيخ ، و بين يديه أصنام صغار كأنه يعلمهم . و ساروا فوجدوا فوارة تحت قبة ، يقع فيها ماء من أعلى القبة ، فيكون له نشيش شديد كأنه طفوء نار ، و يفيض فيها / فلا يتبين ، و داروا فوجدوا بيتا مسدودا بحجر فيه دوى شديد ، لا يدرى ما هو ، و وجدوا عنده شبيها بالمطهرة الكبيرة فيها دنانير ، عليها[2] صورة أسد من وجه ، و صورة طائر من وجه ، فأخذ بعضهم منها شيئا ، فـلم يقدر على حركة و لا على كلام حتى طرحه من يده .

و كل ما فسد من هذه الأقرونيات و تهدم و تغير - مثل بربا بوصير و بربا سمنود[3] و غيرهما[4] من الهياكل - بتركهم الاستقصاء فى الطالع

(١) فى الأصل : يلهم .
(٢) فى الأصل : على .
(٣) مدينة قديمة على شاطئ فرع دمياط العربى بمديرية الغربية .
(٤) فى الأصل : و عيرها .

وصحته قبل وضع الأساس، وكذلك ما بقى منها، فلقرب الطالع من الصحة، لأن الذين بنوا هذه البرابى كانوا على بعد من الملوك، لم يكونوا بحضرة موضوعة، فيتقنوا النظر كما يتقن فى العمل الأهرام وهم لا يشكون، إنهم لما هدموا بربا سمنود، فحملوا حجارته إلى أشتوم دمياط، ووهبوا بقيته بنى المهندس، وإن اليوم الذى فرغ منه من هدم الحائط الغربى دخل حباسة الإسكندرية وخربها، وكثرت الرمال حتى انقطع البحر فى شهور الصيف، وقد زكا الزرع، وكثر الفار والجراد وأشياء من الفساد كثيرة يطول شرحها. منها أن بعض من دخلها كتب على كفه المحاذية لها صورة من تلك الصور أعجبته فانطبقت عينه حتى أتاه من كتب على كفه الصورة المحاذية لها فانفتحت عينه.

قال الوصيفى فى تاريخه: وأخبرنى من أثق به أنه رأى فيها صورة شيطانين يحوط بهما سلسلة بكتابة، وهما يمسكان طرفيها وبينهما كتابة، فكانت عنده إلى أن عرفها بعض من رآها عنده أنها حرز عظيم. وذكر أنه لو جعل عليها لحما وجوع كلبا أو شيئا من السباع وخلاه عليه لم يقرب منه شيئا. قال: فعجبت ذلك وامتحنته، فوجدته كما ذكر. قال الوصيفى: ورأيت أنا فى بربا أخميم صورة عقرب، فألصقت عليها شمعا، وكان
/ عندى، فلم أتركها فى موضع إلا انحاشت العقارب إليها. وإن كانت فى ١٧٦/ الف
تابوت اجتمعت تحته وحوله، وكنت أتجافى عن حملها خوفا من اجتماع العقارب حولى، وطلبها بعض إخوانى فدفعتها إليه. ورجعت إلى أخميم، فوجدت الصورة قد نقرت وأفسدت - انتهى.

و من المتعارف عند أهل أخميم أنه كان فى البربا صورة شيطان قائم على رجل واحدة ، و له يـــد واحدة قد رفعها إلى الهواء[1] ، و فى جبهته و حواليه كتابة ، و له إحليل ظاهر ملصق بحائط البربا . فكان من احتال لذلك الإحليل حتى نقب عليه و نزعه من غير أن يكسر و علقه فى وسطه ، لم يزل منعظا و يجامع ما أحب إلى أن ينزعـه ، فلم يوجد له فى البربا غـير صورة واحدة كانت قرب السقف ، فاحتيل عليها حتى أخـذ له الإحليل ، فكان يستعمله و أخبر بصحته .

و كان فيها صورة شيطان يسوق كبشا بحبل فى عنقه فى صورة فى صحيفـة رصاص ، و ما حوله من الكتابة . و حمله معه ، و مر على طريق ، الكباش اتبعته .

و كان فيها صورة بومة إذا لصق عليهـا الشمع و جعل فى موضع ، لم تقربه بومة .

و فى بربا أخميم فى البـاب الذى يدخل منه فى عقب الباب على يسار الداخل منه رأس عظيم بلحية عظيمة كبيرة و شعر كثير ، كأنه رأس رومى ، و هو بغير جسد ، فذكروا أن الأوائل كانوا يبخرون ذلك الرأس ببخور لهم معروف ، فكل من بخر وجد عنده دينارا ، فكان فى ذلك معونـــة لأهل المسكنة . قال الوصيفى : و تصفحت موضع الرأس فوجدت آثار البخور بينة فيه . و فى القبة الداخلة التى ينزل إليها من سطح البربا المعروفة بقـــة

(١) هـذا وصف الإلـه « من » (Min) إلـه الخصب و التناسل عند قدماء المصريين و لا زال يرى على حيطان المعابد .

مسطاس بئر ، و لها بخور و كلام ، من تكلم به و سال عن كل أمر أخبر به من البئر بكلام يسمعه و يعقله .

/ و فى بربا قفط[1] صورة رجل جالس فى دائرة و حوله كتابة ، و على ١٧٦/ب جميع دور الدائرة شياطين ، و بأيديهم حراب يرمون بها ذلك الرجل ، و الرجل رافع يده كانه يرميهم . فقيل : إنه من صور تلك الصورة فى صحيفة ذهب و حملها معه و دخل الحرب لم تضره ، و لا عمل فيه حديد و لا غيره ، يعمل ذلك فى أول الهلال ، و يكون المشترى مسعودا ، و حذاء هذه الدائرة من الجانب الآخر دائرة أخرى ، و فيها رجل مكبوب على وجهه ، و حوله شياطين بايديهم حراب يضربونه بها ، و قد شكوها فى جسمه ، فيقال . إنه من صور مثلها فى صحيفة رصاص باسم عدو له و بخرها بشعر جمل فى آخر الشهر و دفنها فى ناووس تحت رأس ميت لحقه كل مكروه ، و لم يزل فزعا ميت القلب ، فان تركت أكثر من ثلاث خيف عليه الهلاك . فاذا أخرجت و غسلت بماء بئر لا تراها الشمس ، و جعل فى ذلك الماء[2] لحم فى قدر جديد ، و يشربها الرجل وجرد تلك الصحيحة زال عنه ما يجده .

و على بربا أخميم طلسم[3] قطعة من حجر فى صورة القلنسوة الطويلة معنقفة الرأس كأنها منقار ، يقال : إن تحتها [4]مالا عظيما[4] . فجهد جماعة

---

(١) من مدن الصعيد الأعلى .

(٢) فى الأصل : اما . (٣) فى الأصل : طلسما .

(٤ - ٤) فى الأصل : مال عظيم .

من الولاة أنفسهم فى قلعها أو كسرها، فلم يطيلوا إلى ذلك، و تكسرت المعاول عليها، و لم ينثلم منها شيء .

و أما الدفائن فقال يحيى بن بكير : كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر لأخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فأتاه رجل متنصح، فسأله عبد العزيز عن نصيحته، فقال : بالقبة الملانية كنز عظيم . قال عبد العزيز : و ما مصدق ذلك ؟ قال : هو أن يظهر لنا بلاط من أنواع المرمر و الرخام عند يسير من الحفر حتى ينتهى بنا الحفر إلى قلع باب من الصفر تحت عمود من الذهب، على أعلاه ديك من ذهب، عيناه ياقوتتان تساويان الدنيا[1]، و جناحاه مضرجان / بالياقوت و الزمرد، الف و براثنه على صفائح الذهب على أعلى ذلك العمود . فأمر له عبد العزيز بنفقة ألوف من الدنانير لأجرة من يحفر من الرجال[2] فى ذلك و يعمل فيه . و كان هنالك تل عظيم، فاحتفروا حفيرة عظيمة فى الأرض، و الدلائل المتقدم ذكرها من الرخام و المرمر تظهر، فازداد عبد العزيز حرصا إلى ذلك و أوسع فى النفقة و أكثر من الرجالة . ثم انتهوا فى حفرهم إلى ظهور رأس الديك، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف لما فى عينيه من الياقوت، و شدة نوره، و اتساق ضيائه . ثم بان جناحاه، ثم بانت براثنه، و ظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع من الأحجار و الرخام و قناطير مقنطرة و طاقات على أبواب

(١) و لعله « الدينار » .

(٢) كذا فى الأصل، و لعله : الرجال، و هو بلغة العامة فى مصر بتشديد الجيم .

معقودة ، و لاحت منها تماثيل و أشخاص من أنواع الصور و الذهب و أخزنة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها و شبكت ، و قفل ذلك بأعمدة الذهب . وركب عبد العزيز حتى[1] أشرف على الموضع ، فنظر إلى ما ظهر من ذلك ، فتسرع بعضهم ، فوقعت قدمه على درج مشبكة من النحاس تنتهى إلى ما هنالك . فلما استقرت قدمه على الدرجة الرابعة ، ظهر سيفان عظيمان عاديان عن[2] يمين الدرجة و شمالها ، فالتقيا على الرجل ، فلم يدرك و جزّياه قطعا و أهوى جسمه سفلا . فلما استقر على بعض الدرج بعض جسمه ، اهتز العمود و صفر الديك صفرة عجيبة أسمع من كان بالبعد من هنالك ، و حرك جناحيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت باللوالب و الحركات إذا وقع على بعض تلك الدرج شيء أو ماسّها ، فتهافت من كان هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفيرة ، و كان فيها من يحفر و يعمل و ينقل التراب و ينصر و يحرك و يأمر و ينهى نحو ألف رجل . فهلكوا جميعا ، / فجزع عبد العزيز و قال : هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل ، نعوذ بالله ١٧٧/ب منه . و أمر جماعة الناس فطرحوا ما أخرج من هنالك من التراب على من هلك من الناس . و كان الموضع قبورا لهم .

و قد كان جماعة من أهل الدفائن و المطالبة و من قد أغرى بحفر الحفائر و طلبة الكنوز و ذخائر الملوك و الأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام ، بأن فيها

(١) فى الأصل : حين . (٢) فى الأصل : من .

مطلبا عجيبا ، فأخبروا الأخشيد محمد بن طغج[1] بذلك ، فأذن لهم فى حفره ، و أباحهم إعمال الحيلة عن استخراجه ، فحفروا حفرا عظيما إلى أن انتهوا إلى أزج و أقباء و حجارة مجوفة فى صخر منقور . فيه تماثيل قائمة على أرجلها من نوع من الخشب . قد طلى بالأطلية المانعة من سرعة البلى و تفرق الأجزاء ، و الصور مختلفة : منها صور شيوخ و شبان و نساء و أطفال ، و أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت و الزمرد و الفيروزج و الزبرجد ، و منها ما وجوهها ذهب و فضة ، فكسرت بعض تلك التماثيل ، فوجد فى أجوافها رمم بالية و أجسام قائمة ، و إلى جانب كل تمثال [منها نوع من الآنية كالبرانى[2] و غيرها من الآلات من الزمرد و الرخام ، و فيه نوع من الطلاء متروك فى ذلك الإناء ـ و الطلاء دواء مسحوق و أخلاط معمولة و لا رائحة له ، فجعل منه على النار ، فظهرت منه أراييح طيبة لا تعرف فى نوع من أنواع الطيب ، و قد جعل كل تمثال ـ[3]] من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم و مقادير أعمارهم و تباين صورهم . و بإزاء كل تمثال من التماثيل تمثال من الحجر المرمر و الرخام الأخضر على هيئة الصنم على حسب عادتهم للتماثيل و الصور ، عليها أنواع من الكتابات ، لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل . و زعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم مذ فقد

(١) تاريخ حكمه سنة ٣٢٣ – ٣٣٤ هـ / ٩٣٥ – ٩٤٦ م .

(٢) جمع برنية أى إناء من خزف .

(٣) الجملة المحجوزة ساقطة من النص و وردت فى هامشه بخط المصحح .

من

من أرض مصر أربعة آلاف سنة . وفيما ذكر دلالة أن هؤلاء ليسوا يهود ولا نصارى، ولم[1] يؤدهم الحفر إلا إلى ما ذكرنا . وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين ومائة[2] . وكان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلى أحمد بن طولون[3] وغيره أخبار عجيبة من الدفائن والأموال والجواهر / وبما أصيب فى هذه المطالب من القبور والخزائن . ١٧٨/الف ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان، وما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض، وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض، وتدعى بالمطالب - والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب - انتهى .

[ذكر الوزراء وأخبارهم -[4]]

وما قيل فيهم، وغير ذلك من الواردات المستطردات - إنما قيل لمدبر الأمور على الملك وزير، من الوزر، وهو الحمل الثقيل، يريد أن يحمل عليه من[5] الأمور مثل الأوزار . قال الله تعالى[6] : " ووضعنا عنك

---

(١) فى الأصل : لا .

(٢) يقابلها سنة ٧٤٥ - ٧٤٦ م . وأغلب الظن أن صحة هذه السنة الهجرية ٣٢٨ بدلا من ١٢٨، لتقع بذلك فى مدة حكم الأخشيد محمد بن طغج سالف الذكر ويقابلها ٩٣٩ - ٩٤٠ م .

(٣) حكم ابن طولون ٢٤٥ - ٢٧٠ هـ ٨٦٨ - ٨٨٣ م .

(٤) العنوان من بداية الكلام فى النص بهذا الباب .

(٥) فى الأصل : مثل . - مصححة بالهامش : لعله من .

(٦) قرآن كريم سورة ٩٤ آية ٢ و ٣ .

وزرك ﴿ الذى انقض ظهرك ﴾" .

و إن السلطان ليس له غنى عن الوزراء ، فلو كان يستغنى عن الوزراء ، لكان أحق بذلك نبى الله موسى بن عمران عليه السلام ، بل سأل الله تعالى فقال[1] : "و اجعل لى وزيرا من اهلى ﴿ هارون اخى ﴿ اشدد به ازرى ﴿ و اشركه فى امرى ﴾" . فكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، يحتاج أجلّ الملوك إلى الوزير ، و كما يحتاج أعز ما كان من الخيل إلى المقرعة . و أسعد الملوك ملك له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، و إن ذكره أعانه . و الوزير عون عند النائبة ، و الوزير مع الملك مثل سمعه و بصره و لسانه و قلبه ، و أول ما يظهر نبل الملك و قوة تمييزه و جودة عقله فى استنجاب الوزراء ، و استيفاد الجلساء ، و محادثة العقلاء . و هذه ثلاثة خلال تدل على أعمال السلطان ، و بهذه الخلال يحمل فى الخلق ذكره ، و يجمل صلاحه . و كذلك وزراؤه تجالس العلماء ، ففى ذلك صلاحهم .

و قال بعض الملوك لوزيره و أراد [أن -[2]] يمتحنه : ما خير ما يرزق العبد ؟ قال : عقل يعيش به . قال : فان عدمه ؟ قال : فأدب يتحلى به . قال : فان عدمه ؟ قال : فاخوان يحملونه . قال : فان عدمهم ؟ قال : فصاعقة / تحرقه وتريح منه .

(١) قرآن كريم سورة ٢٠ آية ٢٩ - ٣٢ .

(٢) غير واردة بالنص .

و كان لبعض الملوك وزيران[1] : أحدهما شاب رأسه قبل لحيته ، و الثانى شاب لحيته قبل رأسه . فأراد أن يمتحنهما ، فقال للواحد منهما : ما بال رأسك شاب قبل لحيتك ؟ قال : لتقدم نباته[2] على اللحية بعشرين ، فلذلك شاب قبلها . و قال للآخر : ما بال لحيتك شابت قبل رأسك و هى متأخرة النبات عن[3] الرأس ؟ فقال : لأنها بمجاورة الصدر ، و الصدر محل الهموم و الأحزان . فاكتسبت منه ذلك بالقرب و الاستئناس ، فلذلك شابت قبل شعر الرأس . فأعجب الملك كلامهما لإقامة حججهما .

و ذكروا من لطائف الوزراء كلاما يشتمل على حكم . فمنها قولهم : خاطر بنفسه من ركب البحر ، و أشد منه مخاطرة من خالط الملوك . ذكروا أن ملكا من ملوك حمير كان متصيدا و معه نديم له كان يقربه و يكرمه ، فأشرف النديم على صخرة ملساء و وقف ، فقال للملك : لو أن إنسانا ذبح على هذا الصخرة ، إلى أين كان يبلغ دمه ؟ فقال : اذبحوه عليها لننظر دمه إلى أين يبلغ ؟ فذبح عليها . فقال الملك : رب كلمة تقول : دعنى .

و اعلم أن الوزير يكثر أعداؤه ، و يقل أصدقاؤه . لأنه لا يخلو فى وزارته من الجور ، كما قيل : إنه لما عزل الوزير أبو شجاع عن وزارته قال بعض الشعراء فى هذا حيث قال

(١) فى الأصل : وزيرين .

(٢) فى الأصل : نباتها .

(٣) فى الأصل : على .

تولاها و ليس له عــدو و فارقها و ليس له صديق

و قيل : وزير السلطان كراكب الأسد تخافه الناس ، و هو لمركبه أخوف ، لأنه إذا غضب عليه السلطان صادره و أخذ أمواله التى جمعها الوزير لنفسه ، و قتله بعد عذابه له ، ليظهر الذى خبأه[1] من المال بالعذاب ، فيهلك تحت العقوبة ، و يصير لغيره أعجوبة . قال الشــاعر / حيث قال : ٨/الف

و موازر السلطان شبه سفينة فى البحر ترعد دائما من خوفه

إن أدخلت من مائه فى جوفها أدخلها و ماؤها فى جوفــه

ذكر الصفدى فى تاريخه : إن الورير علم الدين بن زنبور[2] القبطى لما غضب عليه سلطان مصر ، أمر بمصادرته ، فأخذ منه أوانى ذهب و فضة ستين[3] قنطارا ، و ستين[3] رطلا جوهرا ، و إردبا لؤلؤا و مائتى[4] ألف دينار و أربعة آلاف دينار ، و ستة آلاف حياصة ، و ستــة آلاف كلوبة[5] زركش ، و ألفين[6] و ستمائة فرجية من ملبوسه ، و ثلاثمائة شاس ، و ستة آلاف دواب حلابة ، و ستة آلاف دواب عاملة ، و [7]ألفى رأس[7] جيلا

(١) فى الأصل : أخباه .

(٢) فى الأصل : ابن زيتون . ـ و هذا خطأ بدليل ورود « ابن زنبور » فى ابن إياس ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) فى الأصل : ستون .

(٤) فى الأصل : و مائتا .

(٥) فى الأصل : كلوبة .

(٦) فى الأصل : ألفان .

(٧-٧) فى الأصل : الفان رأسا .

و بغالا

و بغالا ، و خمسة و عشرين معصرة للقصب و الزيت الحار ، و ثلاثة أرادب دراهم، و سبعمائة إقطاع ، كل إقطاع خمسة و عشرون ألف درهم ، و مائة عبد ، و ستين[1] خادما ، و سبعمائة جارية ، و أملاكا[2] قيمتها ثلاثمائة ألف دينار ، و سبعمائة مركب ، و رخاما[3] قيمته مائتا ألف درهم ، و نحاسا[4] قيمته أربعة آلاف دينار . و سروجا[5] و بدلات خمسمائة ، و سبعة آلاف بساط ، و سبعة آلاف نطع ، و [6]مائتى بستان[6] ، و ألف و أربعمائة ساقية ، و متاجر أربعة آلاف دينار . ثم إنه ضرب بالمقارع ضربا كثيرا ، وكان يقول فى حال تلك المحنة « هكذا قدر ! هكذا قدر ! » يكررها مرارا و مات حينئذ من كثرة العقوبة .

قال حكيم الهند : إذا كان الوزير يساوى الملك فى المال و الهيبة و الطاعة ، فليصرعه الملك ، فان لم يفعل ، فليعلم أنه المصروع .

و ليحذر الملك أن يشاور أهل الزيغ فانهم يضلونه[7] مثل / هامان ، ١٧٩/ ب
الوزير لفرعون الملك . و ذلك لما قال له فرعون : إن موسى ذكر لى : إن آمنت بالله فلك الجنه و لك ملكك . فقلت : حتى أشاور هامان وزيرى ،

---

(١) فى الأصل : ستون .

(٢) فى الأصل : املاك .

(٣) فى الأصل : رخام .

(٤) فى الأصل : نحاس .

(٥) فى الأصل : سروج .

(٦ - ٦) فى الأصل : مائتا بستانا .

(٧) فى الأصل : يضلوه .

فما ترى فى ذلك يا هامان؟ قال: بينما أنت إلـه تعبد، فصرت عبدا تعبد. فأنف فرعون و استكبر، فكان من أمر فرعون ما كان، و كان فرعون يفتخر بالماء و يقول: أليس لى ملك مصر، و هذه الأنهار تجرى من تحتى. فأغرقه الله بالماء. فالذى افتخر به هلك به. و أورد قومه النار. قال الله تعالى[1] "يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار و بئس الورد المورد".

و اعلم أن دخول النار بالكفر مضاعف العذاب، و قسمة الدركات بالأعمال و الأخلاق السيئة، و دخول الجنة بالإيمان و تضاعف النعم، و قسمة الدرجات بالأعمال الصالحة و الأخلاق الحسنة، و أن الله تعالى خلق الجنة فحشاها بالنعيم ثوابا لأهلها، و خلق النار فحشاها بالعذاب عقابا لأهلها، و خلق الدنيا فحشاها بالآفات و التعب محنة و ابتلاء. ثم خلق الخلق و الجنة و النار فى غيب منهم لم يعاينوه. و النعيم و الآفات التى فى الدنيا هى أنموذج الآخرة مذاقة، و خلق فى الأرض من عبيده ملوكا أعطاهم سلطانا أرعب به القلوب، و ملك به النفوس. فهذا أنموذج[2] و مثال لتدبيره و ملكه و نفاذ أمره و معاملته، فجعل حبر ذلك كلـه تنزيلا، فوصف الدارين و وصف ملكه و قدرته و تدبيره و منه و صنائعه، و ضرب الأمثال على ذلك. ثم قال[3] "و تلك الامثال نضربها للناس و ما يعقلها الا العلمون". فالعلماء بالله يفهمون عن الله أمثاله. لأن المثل إنما هو صفة

(١) قرآن كريم سورة ١١ آية ٩٨.
(٢) فى الأصل: انموذجا.
(٣) قرآن كريم سورة ٢٩ آية ٤٣.

شيء قد شاهدته، يريك صفة ما غاب عنك / و يبصرك بما تبصره بعينك، ١٨٠ / الف لينفذ بصر قلبك إلى ما لا تبصره عينك، فيعقل قلبك ما خوطبت به من خبر الملكوت و خبر الدارين و معاملة ملك الملوك. فليس فى الدنيا نعمة و لا شهوة إلا و هى أنموذج الجنة و ذوقها. ثم من وراء ذلك فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر. فلو سمى للعباد منها، لم ينتفعوا بتلك الأسماء، لأنهم لم يعقلوها[1] هاهنا و لا رأوها[2]، و ليس لها أنموذج فى الدنيا. و الجنة مائة درجة، و إنما وصف منها ثلاث درجات: الذهب و الفضة و النور، ثم ما وراء ذلك غير معقول و لا تحتمله العقول. وكذلك ما فى الدنيا من الشدة و العذاب فهو أنموذج دار العقاب، ثم من وراء ذلك ما لا يحتمله العقول من ألوان العذاب. كل ذلك يخرج لهم من غضبه، و لأهل الجنة من رحمته، وكل من تناول[3] من عبيده من دنياه مما أبيح، و شكره عليها، أبدل له من الجنة ما رزق[4] هذا فى جنبه، و من تناول مما لم يبح له، فقد حرم نفسه حظها من الدرجات، و من كذب بها حرم الجنة مما فيها أجمع.

و اعلم أن الجنة مطلوبة و النار طالبة، و لهذا تعامل هذه بالطلب، و تعامل هذه بالهرب. فى الحديث: لم أر مثل النار نام هاربها، و لا مثل

(١) فى الأصل: لم يعقلوه.
(٢) فى الأصل: رأوه.
(٣) فى الأصل: تنال.
(٤) الكلمة غير واضحة فى الأصل و هى: بدق – كذا.

الجنة نام طالبها . قال بعض العارفين : الزاهد غريب فى الدنيا لأن الآخرة وطنه ، و العارف غريب فى الآخرة لأن حضرة الله تعالى وطنه ، يمر الزاهد فى المحشر فيعرف بظهور أنواره ، و يمر العارف فى المحشر فلا يعرف لخفاء أسراره - و الله أعلم .

و اعلم أن لأهل الجنة متنزهات يخرجون إليها فى رياض على شاطئ نهر الكوثر ، عليه خيام الدر مضروبة ، الخيمة ستون ميلا فى عرض مثله ، كل خيمة من لؤلؤة واحدة ليس لها باب ، فيها جوار عبقات لم ينظر إليهن ملك و لا أحد من أهل الجنة من الخدام و الحور العين ، و هو قوله عز و جل[1] : " فيهن خيرٰت حسان " و إذا قال الله لهن : حسان ، فمن يقدر أن يصف حسنهن . ثم قال[2] : "حور مقصورٰت فى الخيام " فتلك خيرة الرحمن اختار / صورهن الحسان من بين الصور بدعاء من سحاب الرحمة ، فأمطرت جوارى حسان على مشيئة الكريم ، نور وجوههن من نور العرش ، فضربت عليهن خيام الدر ، فلم يرهن أحد منذ خلقهن الله ، فهن مقصورات فى الخيام . قد قصرن ، أى حبسن على أزواجهن من جميع الخلق . فأهل الجنة يتنعمون فى القصور مع الأزواج و الحور ، يلبثون فى النعمة ما شاء الله ، حتى إذا كان اليوم الذى يريد الله أن يجدد لهم نعمه ، نودى فى درجات الجنان : يا أهل الجنان ! إن هذا يوم نزهة و سرور ، و تفسح وحبور ، فاخرجوا إلى متنزهكم ،

(١) قرآن كريم سورة ٥٥ آية ٧٠ .
(٢) قرآن كريم سورة ٥٥ آية ٧٢ .

فيخرجون

فيخرجون على خيول الدر و الياقوت من أبواب مدائنهم إلى تلك الرياض على شاطئ نهر الكوثر ، فيدنيهم الله إلى منازلهم ، فينزل كل واحد منهم عند خيمته ، فتنصدع الخيمة عن باب ، ليعلم ولى الله أن التى فيها لم يطلع أحد عليها ، وفاء لما قدم الله من الوعد فى دار الدنيا حيث يقول "فيهن خيرٰت حسان" ثم قال "حور مقصورٰت فى الخيام" "لم يطمثهن انس قبلهم و لا جان ." فيستوين معها على سرير النزهة فى تلك الحجال ، فيأكلون و يشربون و يتفكهون و يشتغلون بالخيرات الحسان ، يقضون الأوطار و النهمات ، ثم يتحولون إلى مجالس العقريات الموشّات بألوان النقوش على شاطئ الأنهار فى تلك الرياض ، يركبون الرفارف الخضر و يتكئون عليها ، و هو قوله تعالى[1] "متكئين على رفرف خضر و عبقرى حسان ." و الرفرف هو شيء إذا استوى عليه رفرف به و أهوى به كالمرجاح يمينا و شمالا و رفعا و خفضا ، يتلذذ مع أنيسه ، فاذا ركبوا الرفارف سمعوا صوت إسرافيل بالتسبيح و التقديس ، فلم يبق فى الجنة / شجرة إلا وردت ، و لا باب إلا ارتج و انفتح ، و لم تبق حلقة ١٨١/ الف
باب إلا طنت بأنعام طنينها ، فيوحى الله تعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم و أسمعوا عبادى الذين نزهوا أسماعهم من مزامر الشيطان . فيجاوبون بألحان و أصوات روحانيين . فتختلط هذه الأصوات . فتصير رجّة واحدة . ثم يقول الله : يا داود ! قم عند ساق عرشى ، فمجدنى ، فيندفع داود فى تمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات و يجلها ، و تتضاعف لذة أهل الخيام

(١) قرآن كريم سورة ٥٥ آية ٧٦ .

على تلك الرفارف تهوى بهم، و قد حفت بهم أفانين اللذات و الأغانى، فذلك قوله تعالى[1]: " فهم فى روضة يحبرون * " شغلوا بالنعيم و ألوان الفواكه، و افتضاض العذارى، و ركبوا الرفارف و التلذذ بالأغانى و أنواع السماع و غيرها من اللذات، رزقنا الله الجنة بمنه وكرمه آمين!

قال الشيخ أبو العباس المرسى: يجمع الله تبارك و تعالى الخلائق يوم القيامة، فينادى: أين العابدون؟ فيؤتى بقوم، فيجعلهم فى درجة فوق تلك الدرجة الأولى. ثم ينادى: أين المشتاقون؟ فيؤتى بقوم فيجعلهم [مع —[2]] أولئك. ثم ينادى: من عبدنا جازيناه و أعطيناه، و من خافنا آمناه، و من اشتاق إلينا وصلناه و قربناه. و قال الشيخ عبد العزيز الديرينى فى كتاب قلادة الدر المنثور، فى ذكر و البعث النشور فى وصف الجنة:

جنات عدن لهم ما يشتهون بها
فى مقعد الصدق بين الروض و النهر
بناؤها فضة قد زانها ذهب
و طينتها المسك و الحصباء من درر
أشجارها ذهب منها الغصون دنت
لكل نوع من الريحان و الثمر
أوراقها حلل شفافة خلقت
اللؤلؤ الرطب و المرجان فى الشجر

---

(١) قرآن كريم سورة ٣٠ آية ١٥ و الآية بتمامها " فاما الذين آمنوا و عملوا الصلحت فهم فى روضة يحبرون ".

(٢) زيد لاستقامة العبارة.

/ دار الخلود و جنات النعيم لهم ١٨١ / ب
دار السلام لهـــم مأمونة الغـــير
و جنة الخلـــد و المأوى وكم جمعت
جنات عدن لهم من مؤنق نضر
طباقها درجات عدها مـائــــة
كل اثـنتين كبعد الأرض و القمر
أعلى مـنـازلها الفردوس عـالـيهـا
عرش الإلـه فسل و اطمع و لا تذر
أنـهـارها عسل مـا فيه شائبـــة
و خـالص اللبن الجارى بـــلا غير
و أطيب المـاء و الخمر التى سلمت
من الصداع و نطق اللغو و الهـدر
و الـكل تحت جبال المسك منبعهـا
يجرونه كيف شاؤا غـــير محتجر
فيهـا نواهـــد أبـكار مـزيـــة
عرب تمايلن من عجب بلا خفر
سـاؤنا المؤمنات الصارات عـــلى
حفظ الحدود مع الإملاق و الـكدر
و الحور من زعفران قد خلقن و قد
زان العيون سواد فى سنا الحوَر

كأنهن بدور فى غصون نقا
على كشب[1] بدت فى ظلمة الشعر
فوق الأرائك فى تلك الخيام من ال
در المجوف أقصى منتهى البصر
هذا وكل امرئ يعطى قوى مائة
فى الأكل و الشرب و الإفضا بلا خور
طعامهم رشح مسك كلما عرقوا
عادت بطونهم فى هضم منضمر
لا جوع فيها ولا برد و لا نصب
بل عيشها عن جميع النائبات عرى
فيها الوصائف و الغلمان تخدمهم
كلؤلؤ فى كمال الحسن منتثر
لباسهم سندس حلاهم ذهب
و لؤلؤ و نعيم غير محتجر
و الذكر كالنفس الجارى بلا كلف
و نزّهوا عن جميع اللغو و الهذر[2]
فيها غناء الحور الناعمات لهم
بأحسن الذكر للمولى مع السمر
و أكلها دائم لا شىء منقطع
كرر أحاديثها بأطيب الخبر

(١) فى الأصل : كثيب . (٢) فى الأصل : القدر .

فيها من الخير ما لم يجر فى خلد
ولم يكن مدركا بالسمع و البصر
فيها رضى المالك المولى بلا غضب
سبحانه و لهم نفع بلا ضرر
لهم من الله ما لا شيء يعدله
سماع تسليمه و النور بالنظر
بغير كيف و لا حد و لا مثل
حقا كما جاء فى القرآن و الخبر
و هى الزيادة و الحسنى التى وردت
و أعظم الموعد المذكور فى الزبر[1]

[ذكر القضاة ولمع من أخبارهم -[2]]

و غير ذلك من الواردات المستطردات . قال فخر الإسلام الشاشى : القضاء فرض على الكفاية ، فان لم يكن من يصلح للقضاء غير واحد ، تعين عليه طلبه ، فان امتنع / ألزمه السلطان الدخول فيه ، و إن كان ١٨٢/الف هناك من يصلح[3] للقضاء غيره ، و كان هو مشهورا منتفعا بعلمه ، كره له الدخول فيه - يعنى القضاء - إذا كان له كفاية ، و يختار الإمام أفضلهم و أورعهم ، فان امتنعوا جميعا ، كان له أن يعين واحدا منهم و يجبره على القضاء ، و من تعين عليه القضاء و له كفاية ، لم يجز له أن يأخذ عليه

(١) فى الأصل : الدبر .
(٢) العنوان مأخوذ من النص الذى هو استمرار له ، و ليس بالهامش .
(٣) فى الأصل : لايصلح .

رزقا، و إن لم يتعين عليه حاز له أخذ الرزق عليه . و لا يجوز أن يكون القاضى فاسقا و لا امرأة و لا أعمى . و يكون عالما بطرق الأحكام الشرعية . و يكره أن يكون القاضى حبارا عسوفا ، أو مهينا ضعيفا ، و لا يجوز للحاكم أن يقضى و لا أن يسمع بينة فى غير عمله . و لا يحكم لنفسه و لا لولده و لا لوالديه ، فان اتفق لهما[1] حكومة ارتفعا إلى خليفته، و يجوز أن يستخلف فى الحكم ولده و والده ، و لا يجوز أن يرتشى على الحكم ، قال النبى صلى الله عليه و سلم : لعن الله الراشى و المرتشى فى الحكم. قال القاضى أبو الحصين قاضى معرة النعمان[2] حيث قال :

وليت الحكم خمسا بعد خمس   لعمرى و الصبا فى العنفوان[3]

فما وضع الأعادى قدر شأنى   و لا قالوا فلان[4] قد رشانى

و لا يقبل القاضى هدية من لم تجر عادته بالهدية قبل الولاية . و لا يقضى القاضى و هو غضبان . و إن دعت الحالة إلى اتخاد حاحب ، اتخذ حاجبا أمينا بعيدا من الطمع .

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[5] : لا ينبغى للقاضى أن يستقضى حتى يكون فيه سبع خصال : الحلم ، و الورع ، و النزاهة ، و الصرامة ، و العقل ، و العلم بالسنن ، و الفقه . و كان أمير المؤمنين عثمان[5] بن عفان

---

(١) فى الأصل : لهم .

(٢) قضاء فى سوريا ، محافظة حلب .

(٣) بهامشه العنفوان أول الشباب .

(٤) فى الأصل : فلانا .

(٥) انظر حاشية سابقة و راجع الفهرس .

رضي الله تعالى عنه إذا جلس للقضاء، أحضر أربعة من الصحابة رضي الله عنهم / و استشارهم، فما[1] أفتوه فيه أمضاه . و يقول للتحاكمين : هؤلاء قضوا، لست أنا . ١٨٢

و[2] ينبغي للقاضي أن يكون بصورة من يتهيأ منه القيام لإقامة الحدود و رد المظالم عن المظلوم و غير ذلك من المصالح التي تلي الدين و الدنيا، و لن يتهيأ منه ذلك إلا بخصال سبع : و هي الأمانة و العفة، و الفقه، و العدل، و النصيحة، و الرحمة، و النزاهة، و الصلابة . فأما الفقه فلكي[3] يفارق [به] الجهال، و أما الأمانة فلكي[3] يوثق به فيما يقضي . لأن القاضي إن لم يزد حاله على حال الوديعة المستحفظة لم ينقص منها، و أما العدالة فلكي يفارق بها من يقدم على الفسق و خلاف المروءة من المجون و اللعب، و أما النصيحة فلكي يفارق بها من يقدم على الظلم و لا يبالي بإيقاع الغبن و الخطأ و الغلط، و أما الرحمة فلكي يفارق بها من يقسو قلبه و لا يرحم اليتيم و لا الصغير و لا ينهض بنصر المظلوم، و أما النزاهة فلكي يفارق من يطمع و يتشوق لما في أيدي الناس . و أما الصلابة فلكي يفارق بها حال من يضعف عن استخراج الحقوق و عن الإقدام على[4] ذي السلطان و القهر و الظلم و الاعتداء .

---

(١) في الأصل : فيما .

(٢) زيد في الأصل : لا .

(٣) في الأصل : فليكي . و التصحيح بناء على ما سيأتي .

(٤) في الأصل : عن .

و إذا سئل القاضى عن القضاء كان خيرا له من سعيه فيه . فانه إذا سئل شدد ، و إذا سأل و أرشى عليه ، كان غير موفق – انتهى .

قال بعضهم فى فقيه يبتغى فى القضاء مدة طويلة فمات قبل أن يليه ، حيث قال :

لنا صاحب لم يزل دائما يجد و يسعى إلى أن قضى
يبغى[1] القضاء فما ناله فعند الإياس أتاه القضا

و اعلم أن القضاة فى المشيئة . إن شاء الله أن يعذبهم ، و إن شاء الله أن يغفر لهم ، و إذًا لا يدرى الشقى منهم الذى لا يغفر له بما سبق فى أم الكتاب من السعيد الذى يغفر له بما سبق فى أم الكتاب ، و يشهد لهذا
١/الف / قوله صلى الله عليه و سلم « الله أعلم بما كانوا عاملين » لأنه قيل إن معناه : أعلم بما يعمل بهم ، و قيل : أعلم بما كانوا يعملون[2] لو أدركوا العمل . لأن الله سبحانه و تعالى عالم بما كان و ما يكون ، و لو كان كيف يكون .

فلنذكر الآن ما قاله الوليد بن رشد فى تلخيصه اختلاف أهل العلم فيما يولد عليه الأطفال فى الدنيا ، و ما يصيرون إليه من جنة أو نار فى الدار الأخرى ، و أدل على الصحيح من ذلك على مذهب أهل الحق و السنة المعتصمين بالقرآن و ما يجب أن يحمل عليه ما ورد فى[3] ذلك من الآثار .

---

(١) فى الأصل : يبتغى فى ، وأما ما أثبتناه يستقيم به المعنى و الميزان .
(٢) زيد فى الأصل « و » . (٣) فى الأصل : من .

قال

قال : فقلت : اختلف العلماء اختلافا كثيرا فى الأطفال ، فمنهم من ذهب إلى[1] أنهم يولدون على الإسلام ، و يصيرون فى الجنة ، و استدل على ذلك بقول النبى صلى الله عليه و سلم فى حديث أبى هريرة « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه » فجعل الفطرة الإسلام ، و حمل الحديث على العموم ، إذ قد روى أيضا « ما من مولود إلا و هو يولد على الفطرة » . و منهم من ذهب إلى[1] أنهم لا يولدون على كفر و لا على إيمان ، و أنهم يصيرون إلى ما سبق لهم فى علم الله من شقوة أو سعادة ، فلا تحتم على واحد منهم بجنة و لا نار . و استدل على ذلك بما[2] روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم بصبى من صبيان الأنصار ليصلى عليه . فقلت له : طوبى له ! عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل سوءا و لم يدركه ذنب . فقال النبى صلى الله عليه و سلم « أو غير ذلك يا عائشة ! إن الله تعالى خلق الجنة و خلق لها أهلا ، و خلقهم فى أصلاب آبائهم ، و خلق النار و خلق لها أهلا ، و خلقهم فى أصلاب آبائهم » . و منهم من ذهب إلى أن منهم من يولد على الإسلام ، ١٨٣/ب
و منهم من يولد على الكفر و إن كان أبواه مؤمنين . و استدل على ذلك بحديث عائشة ، و بما روى أن الغلام الذى قتله الخضر كان طبع كافرا . و منهم من ذهب إلى أن أولاد المسلمين يولدون على الإسلام ،

---

(١) فى الأصل : على .

(٢) فى الأصل : ما .

و يصيرون إلى الجنة ، و أن أولاد المشركين يولدون على الكفر ، و يصيرون إلى النار . و استدل بحديث الصعب بن جثامة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال فى أولاد المشركين[1] «هم منهم» [2]أى هم[2] مع الآباء ، و بأنه قال فى أولاد المسلمين[3] «لا يموت لأحد من[4] المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار» ، قالوا : فمحال أن يكون لأبويهم جنة من النار و هم من أهل النار ، و بما أشبه ذلك من الآثار ، فيتحصل فى أولاد المسلمين ثلاثة أقوال : أحدها أنهم فى الجنة . و الثانى أنهم فى المشيئة ، و الثالث أنهم فى النار . و قد قيل : إنه تؤجج لهم يوم القيامة نار ، يقال لهم : اقتحموها ، فمن أطاع و اقتحمها كانت عليه بردا و سلاما ، و أدخل الجنة بطاعة الله ، و من عصى دخل النار بعصيانه . فأما من يقول : إنهم يولدون على كفر و إيمان فلا محال ، و يعلمون أنه محال لاستحالة وجوب الإيمان و الكفر مع عدم العلم و العمل . قال الله عز و جل[5] : ”و الله اخرجكم من بطون امهتكم لا تعلمون شيئا“ فمن المستحيل أن يوصف المولود من بنى آدم قبل أن يعمل بكفر أو بإيمان على الحقيقة ، كما يستحيل أن يوصف بذلك من سواه من الحيوان ، و الذى قال النبى صلى الله عليه و سلم فى

---

(١) وقع فى الأصل : المسلمين - مصحفا .
(٢-٢) فى الأصل : او هم و بانهم - كذا .
(٣) فى الأصل : المشركين - تصحيف .
(٤) زيد فى الأصل : أولاد ، و التصحيح بحذفه من الموطأ للامام مالك .
(٥) قرآن كريم سورة ١٦ آية ٧٨ .

الغلام الذى قتله الخضر «إن الله طبعه يوم طبعه كافرا» فمعناه خلق فى قلبه الكفر حين ميزه وعقله و حكم له عليه بحكمه على ما سبق فى سابق علمه . و كان قتل الخضر إياه لكفره إما بعد بلوغه على ما روى أنه كان رجلا قاطع طريق، و إما ـ و هو صغير يفعل الكفر و يعتقده ـ بشرع كان عليه خلاف شرع الإسلام من وجوب الحد على من لم يحتلم .

و كذلك قول النبي صلى الله عليه و سلم / «كل مولود يولد على الفطرة ١٨٤/ الف فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء[1] - الحديث إلى قوله: الله أعلم بما كانوا عاملين» . أولى و أحسن ما قيل فى تأويله: إن المراد بالفطرة المذكورة فيه الخلقة المسلمة من الآفات المتهيئة لقبول الدين عند بلوغ العقل المميز الذى لو ترك و مر بها[1] لاختار بها الإسلام على غيره من النحل و الأديان لوضوحه و ظهور الحق منه ، فأبواه [إن] كانا يهوديين أو نصرانيين يهودانه أو ينصرانه . أى يحملانه على اليهودية أو النصرانية . و يقولانه إياهما و يسميانه اسمهما ، فيقول بذلك كما تنتج الإبل سالمة الخلقة . فتثقب أنوفها . و تشق آذانها لتعرف بذلك . فيقال : هذه بحيرة ، و هذه سائبة ، فتترك لذلك . و يؤيد هذا التأويل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال حاكيا عن ربه : «إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، فأتتهم الشياطين . فأمالتهم[2] عن دينهم» ، لأن الحنيف فى كلام العرب : المائل . فمعنى الحديث أن الله تعالى

(١) فى الأصل : عجماء . و التصحيح من الموطأ للامام مالك .
(٢) فى الأصل : فاحتالتهم .

خلق عباده مُيّلا إلى قبول الدين بالجبلة التى فطرهم عليها ، فلو لا الشياطين الذين يغوونهم عن الدين لكان جميعهم مسلمين . و هو معنى قول الله عز و جل[١] : "فاقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم" عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو الصادق المصدوق « إن خلق ابن آدم فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يبعث الله عز و جل ملكا فيقول : يا رب ! أ ذكر أم أنثى؟ شقى أم سعيد؟ فما الأجل ؟ و ما الأثر ؟ فيوحى إليه و يكتب الملك حتى أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع أو قيد ذراع فيغلب عليه الكتاب الذى سبق ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، و أن الرجل ليعمل بعمل أهل النار / حتى لا يكون بينه و بينها إلا ذراع فيغلب عليه الكتاب الذى سبق ، ب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » و من نشأ على الكفر و الضلال فأطاع الشيطان ، و كفر بالرحمن ، و عبد الأصنام و الأوثان ، ثم ختم له عند الموت بالإسلام و الإيمان ، فهو ممن سبقت له من الله السعادة . و كتب فى بطن أمه سعيدا . و هذا هو الصحيح فيما يولد عليه الأطفال . و أما ما يصير إليه من مات منهم صغيرا قبل أن يعقل من جنة أو نار . فهذا ما لا مجال فيه للعقل . و لا مدخل فيه للقياس ، و لا ورد فى ذلك [ما -[٢]] يقطع العذر و يوجب العلم من ناحية السمع ، إذ لا طاعات لهم يدخلون بها أيضا فى جملة من أطاع الله . أو وعده الله على دونه بالعقاب الذى

(١) قرآن كريم سورة ٣٠ آية ٣٠ .

(٢) ساقطة من الأصل .

تدل عليه الآثار أن أطفال المسلمين فى الجنة، فنحن نعلم ذلك يقينا لشهادة الآثار المتواترة بذلك على اختلاف ألفاظها و اتفاق معانيها، من ذلك حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال «صغاركم دعاميص الجنة». و حديثه أيضا «أولاد المسلمين فى جبل تكفلهم سارة و إبراهيم عليه السلام، فاذا كان يوم القيامة دفعوا إلى آبائهم» و ما أشبه ذلك من الآثار لا يقطع بذلك فى حق كل واحد منهم لعدم النظر فى ذلك و الإجماع المعصوم لحديث عائشة رضى الله عنها المذكور.

و أما أطفال الكفار فقد روى أنهم فى النار. من ذلك حديث الصعب ابن جثامة المتقدم و ما روى عن عائشة أنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ذرارى المشركين. قال «هم مع آبائهم فى النار إلا أن تترك[1] الوائدة الإسلام فيغفر لها» و ما أشبه ذلك من الآثار.

و قد روى أن أولاد المشركين [فى] الجنة. من ذلك ما روى عن عائشة قالت: سألت خديجة النبى صلى الله عليه و سلم عن أولاد المشركين فقال «هم مع آبائهم فى النار»، و سألته بعد ذلك فنزلت[2] "و لا تزر ١٨٥/ الف
وازرة وزر اخرى" فقال «هم على الفطرة و هم فى الجنة». و قيل: إنهم يمتحنون فى الآخرة، و كل ذلك من أخبار الآحاد [3] التى لا توجب[3]

(١) فى الأصل: تترك.
(٢) أى الآية قرآن كريم سورة ٣٥ آية ١٨.
(٣-٣) فى الأصل: الذى يوجب.

العلم . فلا يصح الحتم عليهم بجنة و لا نار ، و لذلك كره جماعة من العلماء التكلم فيهم .

و روى عن ابن عباس أنه قال : لا يزال أمر هذه الأمة مواتيا و متقاربا حتى يتكلموا فى الأطفال و القدر . و وجه القول منهم على استعمال الآثار إذ هو أولى من حملها على التعارض من طرحها أن تجعل الآثار التى وردت أنهم فى المشيئة . إذ لا يدرى الشقى منهم [من السعيد . كما نقول فى القضاة من المسلمين : إنهم فى مشيئته إن شاء الله أن يغفر لهم ، إذ لا يدرى الشقى منهم[1]] الذى لا يغفر له بما سبق فى أم الكتاب من السعيد الذى يغفر له بما سبق فى أم الكتاب ، و يشهد لهذا ما روى عن النبى صلى الله عليه و سلم قال من قوله « الله أعلم بما كانوا عاملين » لأنه قيل : إن معناه : أعلم بما يعمل بهم . و قيل بما كانوا يعملون [3] لو أدركوا العمل ، لأن الله سبحانه عالم بما كان و ما يكون ، و لو كان كيف يكون . قال الله عز و جل[2] : " و لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه و إنهم لكاذبون " و ما يفعل الله بهم من تعذيب و تنعيم فهو عدل منه و حكم مستقيم ، يفعل ما يشاء ، لا يسئل عما يفعل و هم يسألون ، و يحكم ما يريد لا رادّ لأمره و لا معقب لحكمه . فقد كان له أن يعذب المؤمنين الطائعين . و ينعم الكافرين العاصين ، إذ لا تنفعه الطاعة ،

(١) ساقطة من الأصل ، و وردت فى هامشه بخط المراجع .
(٢) قرآن كريم سورة ٦ آية ٢٨ .
(٣) زيد فى الأصل « و » .

و لا تضره المعصية . لكنه بفضله و رحمته تفضل على المؤمنين بالخلود فى الجنة التى أعدها لأوليائه المتقين ، و حتم على الكافرين بالخلود فى النار التى أعدها لأعدائه - انتهى .

فلنذكر الآن ما قيل فى الشهادات و تحملها و أدائها بمجالس الحكام ، و من تقبل شهادته و من لا تقبل شهادته إن شاء الله تعالى - أما تحمل الشهادة و أداؤها ففرض على الكفاية . فلا تقبل شهادة صبي و لا عبد و لا كافر و لا فاسق ، و لا شهادة من يكثر غلطه ، و لا شهادة من لا مروءة له ، و لا شهادة جار إلى نفسه نفعا / و لا دافع عنها ضررا ، ١٨٥/ب
و لا شهادة الوالد لولده ، و لا شهادة العدو على عدوه ، و لا تقبل الشهادة على الزنى أقل من أربعة من الرجال العدول ظاهرا و باطنا ، و شهود الزنى متى اختلفوا فى موضع الفعل فهم[1] قد قذفوا ، فيحدوا حد القذف ، و يثبت المال و ما يقصد به المال بشاهد و امرأتين و شاهد و يمين ، و ما ليس بمال و لا المقصود منه المال ، و هو ما يطلع عليه الرجال لا يثبت إلا بشهادة رجلين ، كالنكاح و النسب و الطلاق و العتق ، و تقبل فيما لا يطلع عليه الرجال كالرضاع و العيوب التى تحت الثياب شهادة النساء المنفردات ، و لا يقبل أقل من أربع[2] من النساء الثقات ، و تقبل شهادة الاستفاضة فى النسب و الملك و الموت . و تجوز الشهادة

(١) فى الأصل : فيهم .

(٢) فى الأصل : اربعة .

في حقوق الآدميين ، و لا يحكم بشهادة شهود الفرع إلا عند تعذر شهادة شهود الأصل بمرض أو موت أو غيبة .

و العدالة هي ملكة في النفس تمنعها من اقتراف الكبائر و الرذائل المباحة ، و العدالة تعرف بالتزكية ، و التزكية أن يحكم بشهادته أو يثني عليه . قال أبو شجاع أحمد بن الحسين الأصفهاني الشافعي : لا تقبل الشهادة إلا ممن اجتمعت فيه خمس خصال : الإسلام و البلوغ و العقل و الحرية و العدالة . و للعدالة خمس شرائط : أن يكون مجتنبا للكبائر ، غير مصر على القليل من الصغائر ، سليم السريرة ، مأمون الغضب ، محافظا على مروءة مثله . و الحقوق ضربان : حق الله تعالى ، و حق الآدمي ، فأما حق الآدمي فثلاثة أضرب : ضرب لا يقبل فيه [إلا [1]شاهدان ذكران[1] . و هو ما لا يقصد به المال و يطلع عليه الرجال . و ضرب لا يقبل فيه إلا شاهدان ذكران أو رجل و امرأتان[2] ، و ضرب لا يقبل فيه إلا أربع نسوة . و هو ما لا يطلع عليه الرجال كالرضاع و الولادة . و أما حقوق الله تعالى [3]التي[3] لا تقبل فيها النساء هي على ثلاثة أضرب : ضرب لا يقبل فيه -[4]] أقل من أربعة[5] شهود و هو الزنى . و ضرب

(١-١) في الهامش : شاهدين ذكرين .

(٢) في الهامش : امرأة .

(٣) ساقطة من الهامش .

(٤) العبارة المحجورة ساقطة من الأصل ، و وردت في هامشه بخط المراجع .

(٥) في الأصل : اربع .

يقبل فيه اثنان و هو ما سوى الزنى من الحدود، و ضرب يقبل واحد و هو هلال شهر رمضان. و لا تقبل شهادة الأعمى إلا في خمسة[1] مواضع: الموت و النسب و الملك المطلق و الترجمة و ما يشهد بـه قبل العمى. و لا يقبل شهادة / جارّ لنفسه نفعا و لا دافع عنها ضررا - انتهى. ١٨٦/ الف

و إذا شهدت ثلاثة على رجل بالزنى، و امتنع الرابع عن الشهادة أو قصر فيها، حد[2] الثلاثة كما جرى في خبر أبي بكرة لما شهد[3] اثنـان معه على المغيرة بن شعبة بالزنى عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كما تقدم ذكره، و وصفوه فجـاء زياد ابن أبيه و هو الرابع فشهد و قصر عمـا يوجب الحد على المغيرة، فصار الثلاثة قذفة فجلدهم عمر حد القذف ثمانين ثمانين. و روى أنهم لما فرغوا من حلد أبي بكرة قال لهم: أليس قد حلدتموني، فاني أشهد أن المغيرة زان. فهم عمر أن يجلده ثانية، و ظن أنه قد قذف المغيرة قذفا[4] آخر، فقال له علي بن أبي طالب: إن أردت [أن -[5]] تجلده مرة أخرى فارجم المغيرة. يعني أن هذا القول للذي[6]

---

(١) في الأصل: خمس.

(٢) في الأصل: حدوا.

(٣) في الأصل: شهدوا.

(٤) في الأصل: قذف.

(٥) لا توجد بالنص.

(٦) في الأصل: الذي.

جلد عليه، فان كان غيره فقد [1] صار شاهدا رابعا، تمّ به الشهادة الأولى فيجب أن ترجم المغيرة، لأن المغيرة كان محصنا. فرجع عمر إلى قول علي بحضرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لم يكن مخالفا، و هذا من علي عليه السلام فقه دقيق - انتهى.

نعود إلى ذكر القضاة الصالحين و الفقهاء الورعين القائمين بشرعة الدين إن شاء الله تعالى - ذكروا عن الإسكندر أنه كان يتفقد أمر ملكه و عماله بنفسه، فبينما هو يسير متنكرا فى بعض المدائن، فجلس إلى قاض من قضاته أياما لا يختلف إليه أحد فى خصومة. فلما طال ذلك بالإسكندر و لم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضى و هم بالانصراف، فاذا هو برجلين قد اختصما إليه، فادعى أحدهما فقال: أيها القاضى! إنى اشتريت من هذا دارا و عمرتها و وجدت فيها كنزا ذهبا دنانير كثيرة المقادير، و إنى دعوته إلى أخذه فأبى علىّ. فقال له القاضى: ما تقول؟ / قال: ما دفنت و لا علمت و ليس هو لى و لا أقبضه منه. فقالا: أيها القاضى! مر بقبضه، فضعه حيث شئت و أحببت، فقال القاضى: تفران [2] من الإثم و تدخلانى فيه! و الله ما أنصفتمانى! ثم قال القاضى: فهل لكما فى أمر أنصف مما دعوتمانى إليه؟ قالا: نعم. قال للمدعى: ألك ابن؟ قال: نعم. و قال للآخر: ألك ابنة؟ قال: نعم. قال: اذهب فزوج ابنتك من ابن هذا، و جهزاهما من هذا المال، و ادفعا

(١) فى الأصل: فلو.

(٢) فى الأصل: تفر.

فضل ما بقى إليهما يعيشان به، فتكونان قد صليتما بخيره و شره. قال: فعجب الإسكندر حين سمع ذلك، و قال للقاضى: ما ظننت أن فى الأرض أحدا يفعل هذا، أو قاضيا يقضى بمثل هذا! فقال القاضى، و هو لا يعرفه: فهل أحد[1] يفعل غير هذا؟ قال: نعم. قال القاضى: فهل يمطرون فى بلادهم؟ فعجب الإسكندر من ذلك، ثم قال: بمثل هذا قامت السماوات و الأرض – انتهى.

فلنذكر ما قال العلماء فى معناه – قالوا: من اشترى أرضا فوجد فيها حجرا مدفونا، فاختلف هل يكون للبائع أو للمشترى؟ و صحح بعضهم القول بأنه مالك لظاهرها و باطنها، لقوله صلى الله عليه و سلم «من غصب شبرا من أرض طوقه [الله –[2]] من سبع أرضين» – انتهى.

سئل أبو خزيمة رحمه الله على أن يلى القضاء، فامتنع حتى أحضر له السيف و النطع، فأجاب إليه. و كان أبو خزيمة قبل أن يلى القضاء يعمل أرسان الدواب و يبيعها، فأراد ولى الأمر استعماله على القضاء، فوليه بعد خوفه من السيف لضعف قلبه، و لم يحتمل ذلك، و أجرى عليه فى كل شهر عشرة دنانير. و كان لا يأخذ ليوم الجمعة رزقا إذ[3] كان لا يحكم بين الناس فيه، و يقول: لها أنا أجير المسلمين! فإذا ١٨٧/ الف
لم أعمل لهم لم آخذ أجرة. فمر به رجل من أهل الإسكندرية و هو فى مجلسه

(١) فى الأصل: احدا.
(٢) زيد من مراجع الحديث.
(٣) فى الأصل: إذا.

المعد للحكم به[1]. فقال: لأختبرن أبا خزيمة. فوقف عليه فقال: يا أبا خزيمة! احتجت إلى رسن لفرسى. فقام أبو خزيمة إلى منزله فأخرج رسنا فباعه منه ثم جلس يحكم.

و كان عبد الباقى بن يوسف المكى بأبى تراب يحفظ شيئا كثيرا من مسائل الخلاف نحو أربعة آلاف مسألة بأدلتها و المناظرة عليها و غير ذلك من الحكايات و الملح و الأدب، و كان صبورا متنقلا على طريقة السلف. جاءه منشور السلطان بقضاء همذان. فقال: أنا منتظر منشور[2] من الله على يد ملك الموت بالقدوم عليه، و الله! لجلوس ساعة فى هذا المسجد على راحة القلب أحب إلى من ملك العراقين، و تعليم مسألة لطالب أحب إلى من الثقلين. كأنه يذكر الحديث الذى ورد عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة[3] قط».

قال القاضى أبو الطيب: كنا يوما بجامع المنصور فى حلقة، فجاء شاب، فذكر حديث أبى هريرة فى المصراة، فقال الشاب: هذا الحديث غير منقول. فما استتم كلامه حتى سقطت من سقف الجامع حية، فنهض الناس هاربين، وتبعت ذلك الشاب من بينهم، فقيل له: تب، فقال: تبت. فذهبت تلك الحية، فلا يدرى أين ذهبت.

---

(١) فى الأصل: به.

(٢) فى الأصل: منشورا.

(٣) فى الأصل: مرة، و التصحيح من مسند الإمام أحمد ٦/ ٧٥.

وكان أبو نصر المروزى إماما فى القراءات السبع. واتفق أنه غرق فى البحر فى بعض أسفاره. فبينما الموج يرفعه ويضعه، إذ نظر إلى الشمس وقد زالت، فنوى الوضوء وانغمس / فى الماء، ثم صعد، ١٨٧/ب فإذا خشبة فركبها وصلى عليها، ورزقه الله تعالى السلامة بملازمته ومحافظته على الصلاة، وعاش بعد ذلك زمانا. وكان بعض الفقهاء الطاعنين فى السن يصلى قاعدا لعجزه عن القيام، فأنشأ يقول هذه الأبيات :

إليك اعتذارى من صلاتى قاعدا ... وعجزى عن سعى إلى الجمعات
وتركى صلاة الفرض فى كل مسجد ... يجمّع (١) فيه الناس (١) للصلوات
فيا رب لا تمقت صلاتى ونجّنى ... من النار واصفح سيدى هفواتى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بادروا بالأعمال سبعا : هل ينتظر أحدكم إلا غنى مطغيا، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال، فشر غائب ينتظر أو الساعة أدهى وأمر ».

[ما قيل فى صفة الدجال – (٢)]

فلنذكر الآن ما قيل فى صفة الدجال إن شاء الله تعالى – روى الضحاك فى صفة الدجال أنه رجل أشرب، ولا لحية له. رأسه كالقلة العظيمة. طول وجهه ذراعان. وقامته ثمانون ذراعا، وعرض ما بين

(١–١) فى الأصل : ناس فيه. وما أثبته يستقيم به الوزن.
(٢) العنوان من النص ولم يرد بهامشه.

منكبيه ثلاثون ذراعا ، ثيابه و خفاه و سيفه و سرجه و لجام حماره ، كل ذلك بالذهب و الجوهر ، فى يده طبرزين • و هيئة الدجال كهيئة المجوس ، قوسه فارسية ، و كلامه بالفارسية ، تطوى له الأرض و لأصحابه طيا طيا . يطأ مجامعها ، و يرد مياهها . إلا المساجد الأربع : مسجد مكة ، و مسجد المدينة ، و مسجد بيت المقدس ، و مسجد الطور . يخرج من أصبهان ، فاذا نزل [1] دمشق ، خرج إليه منها الأرذلون : الحاكة و الحجامون و أولاد الزنى و الحشاشون و أصحاب الربا . و يمكث على كل بلد ثلاثة أيام ، و يكون القحط و الغلاء فى جميع البلاد . و ينقطع كل ذى ظلف إلا المعز ، عينه الواحدة ممزوجة بالدم / و الأخرى ممسوخة ب كأنها لم تخلق ، يتناول الطير من الجو ، و له ثلاث صيحات يسمعهن أهل المشرق و المغرب ، يركب حمارا أبتر ، مسيرة ما بين أذنيه أربعون ذراعا ، و طول أذنيه مائتا [2] ذراع ، و بين حافره إلى حافره الآخر مسيرة أربعة أيام . يتبعه سبعون ألفا من اليهود . عليهم التيجان و الطيالسة ، يخيل للناس أن يده اليمنى فى المشرق و الثانية فى المغرب ، فتوقف له الشمس فى السماء ، فيقول للناس : إن كان لكم إلٰه غيرى فادعوه حتى يكشف هذه الشمس عنكم ! فيتبعه كثير من الناس . ثم يقول : أنا ربكم الأعلى . ثم يقول : من أطاعنى أدخلته جنتى ، و من عصانى أدخلته نارى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدجال جعد قطط ، أعور العين اليمنى

(١) تكرر فى الأصل .
(٢) فى الأصل : مائتى .

كـأنها عنبة طافية ، و معـــه ماء و نار ، فاؤه نار و ناره ماء . فاذا خرج يكون الناس ثلاث فرق : فرقة تقاتله ، و فرقـة تفر منه ، و فرقة تتابعه ، فمن استحرز منه فى رأس جبل أربعين ليلة أتاه رزقه ، فأكثر من يتبعه من المضلين أصحاب العيال ، يقولون : إنا لنعرف ضلالته ، و لكن لا نستطيع أن نترك عيالنا . فمن فعل ذلك كان منه . و يقولون : نحن نشهد أنه كافر ، و إنما نتبعه لنأكل من طعامه ، و نأكل من شجره ، فاذا نزل غضب الله نزل عليهم جميعا » - انتهى .

[عود لأخبار القضاة - [1]]

نعود إلى ذكر أخبار القضاة و العلماء إن شاء الله تعالى - اعلم أنـه إذا انفرد رجل فى البلد أو القطر شروط القضاء المعتبرة تعين عليه قبول القضاء ، و لم يجز له الهروب عنه كسائر فروض الكفاية إذا تعينت . غير أن هذا النوع من فروض الكفاية مخالف لغيره من الفروض ، و ذلك أنهم قالوا : / إذا عين الإمام جماعة القضاة ، و هناك من يصلح له غيره ، جاز ١٨٨ / ب له الاستعفاء و الهروب . قال بعضهم : سمعـت بعض الأمراء يسأل بعض أفاضل قضاة القضاة عن حاله . فقال له : حالة صفقة ثلثاها فى النار . أشار هذا القاضى إلى ما خرجه النسائى عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم « القضاة ثلاثـة : اثنان فى النـار و واحد فى الجنـة . رجل

(١) العنوان من النص و لم يرد بهامشه .

عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ، و رجل عرف الحق و لم يقض به و جار فهو فى النار ، و رجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو فى النار » .

اعلم أن [1]هذين الرجلين[1] ضعيفان عن رتبة القضاء : أحدهما بفسقه و ظلمه ، و الآخر بجهله . و قد عابت جهلة بنى إسرائيل طالوت فقالوا : أنى يكون له الملك علينا و نحن أحق بالملك منه ، و لم يؤت سعة من المال . فعابوه بخصلتين : الفقر ، و أنه ليس من سبط الملك . فقال لهم نبيهم عليه السلام : إن الله قد اصطفاه عليكم و زاده بسطة فى العلم و الجسم ، فبين شروط الولاة و الممالك ، و بها يفتقر إلى العلم الذى به يحكم ، و إلى القوة التى[2] ينفذ بها الأحكام دون ما ظنه بنو إسرائيل ، و العلم جليل قدره - انتهى .

و لما بلغ علماء ما وراء النهر بمدينة سمرقند[3] و غيرها بناء المدارس ببغداد ، أقاموا مأتم العلم و قالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العلية ، و الأنفس الزكية ، الذين يقصدون العلم لشرفه و الكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم و بعلمهم ، و إذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء أرباب الجهل ، فيكون ذلك سببا لارتفاع العلم ، و كفى بالعلم شرفا أن الله تعالى

(١ - ١) فى الأصل : هذان الرجلان .

(٢) فى الأصل : الذى .

(٣) و هى قديمة مشهورة فى أواسط آسيا .

/١٨٩ وصف به نفسه ، و منح به / أنبياءه ، و خص به أولياءه ، و جعله وسيلة إلى معرفته ، و سببا إلى الحياة الأبدية ، و النجاة من الشقاوة السرمدية ، و الفوز بالسعادة الأخروية ، و جعل العلماء تلو ملائكته بالإقرار بربوبيته، و الاختصاص بمعرفته ، و ورثة الأنبياء ، فالعلم أشرف ما ورث ، و كفاك دليلا على شرفه قوله تعالى[1]: " الله الذى خلق سبع سمٰوٰت و من الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا " ، فجعل الغاية فى ذلك العلم . و قال تعالى[2]: " انما يخشى الله من عباده العلمٰؤا " . و قال تعالى[3]: " و ما يعقلها الا العالمون " . و قال تعالى[4]: " هل يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون " . و ناهيك بهذا شرفا و نبلا[5] . و جاء عن خير البشر محمد صلى الله عليه و سلم أنه قال «طلب العلم فريضة على كل مسلم» . و عن على رضى الله عنه : العلم خير من المال ، العلم يحرسك و أنت تحرس المال ، و المال تفنيه النفقة ، و العلم يزكو بالإنفاق . قال الشاعر حيث قال :

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم و للجهال مال

محبة العالم دين يدان به ، يكسبه الطاعة لربه فى حياته ، و جميل

---

(١) قرآن كريم سورة ٦٥ آية ١٢ .

(٢) قرآن كريم سورة ٣٥ آية ٢٨ .

(٣) قرآن كريم سورة ٢٩ آية ٤٣ .

(٤) قرآن كريم سورة ٣٩ آية ٩ .

(٥) فى الأصل . نيلا .

الأحدوثة بعد وفاته ، و منفعة المال تزول بزواله . العلم حاكم و المال محكوم عليه ، مات خزان المال و هم أحياء ، و العلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، و أمثالهم فى القلوب موجودة . إذا مات العالم انثلم لموته ثلمة فى الإسلام . و قال النبى صلى الله عليه و سلم « العلماء ورثة الأنبياء ، ١٨٩/ب فان الأنبياء لم يورثوا دينارا / و لا درهما ، و إنما ورثوا العلم » . و قال صلى الله عليه وسلم « علماء أمتى كأنبياء نى إسرائيل » . وهاهنا نكتة ، و هى[1] أنه صلى الله عليه و سلم لم يقل : [علماء] أمتى كرسل بنى إسرائيل ، فمن الناس من ظن أن النبى هو الذى نُبِّئ فى نفسه ، و الرسول هو الذى أرسل لغيره ، و ليس الأمر كما ظن هذا القائل ، و لو كان كذلك فلما ذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر فى قوله : علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل . و مما يدلك على بطلان هذا المذهب قول الله عز و جل[1] : " و ما ارسلنا من قبلك من رسول و لا نبى الا اذا تمنى القى الشيطن فى امنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطن ثم يحكم الله ايته و الله عليم حكيم " فدل على أن حكم الإرسال يعمهما[2] . و إنما الفرق ما قال بعض أهل العلم : إن النبى لا يأتى بشريعة جديدة ، و إنما يجىء مقررا لشرع من كان قبله كيوشع بن نون . فانه إنما أتى مقررا لشريعة موسى عليه السلام ، و آمرا بالعمل بما فى التوراة ، و لم يأت بشرع جديد ، و هو ما تضمنته التوراة . فقال صلى الله عليه و سلم

(١) فى الأصل : و هو . قرآن كريم سورة ٢٢ آية ٥٢ .

(٢) فى الأصل : يعمها .

« علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » أى يأتون مقررين و مؤكدين و آمرين بما جئت به ، لا أنهم يأتون بشرع جديد « فان الأنبياء لم يورثوا دينارا و لا درهما ، و إنما ورثوا العلم . » ألا ! إن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه و عالم أو متعلم » و ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » " و قال الذين اوتوا العلم بل هو اٰيٰت بيّنٰت فى صدور الذين اوتوا العلم " و حيثما وقع العلم فى كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم فانما المراد به العلم النافع المخمد للهوى القامع ، الذى تكتنفه الخشية ، و تكون معه الإنابة . قال الله تعالى[1] : " انما يخشى الله ... " .

[فى العود و الطيب و غيره -[2]]

/١٩٠ ز شعرته[3] مخالفة شعرته ، و رائحته على النار تشبه رائحة الورد ، و آخرها كأولها . و هو عبق فى الثياب ، و أحسن أجناس العود الأشباه ، و علامته أن آخر رائحته على النار دخانية . و لا تغرب العود عن

(١) قرآن كريم سورة ٣٥ آية ٢٨ .

و بهامشه : هاهنا خرم بالأصل . و هذا السقط لا نستطيع ملأه لعدم وجود مخطوطات أخرى لهذا القسم من الكتاب .

(٢) العنوان مشتق من النص . و هذا القسم خاص بالمنتجات الطبيعية .

(٣) يلاحظ هنا انتقال المؤلف فجأة إلى موضوع آخر غير سابق .

وطنه ، صار له مزية عند الملوك و من دونهم ، فالنقلة [1]تكسبه محاسن[1] ، كما قال بعضهم :

تنقل المرء فى الآفاق يكسبه   محاسن[2] لم تكن فيها ببلدته
أما ترى بيذق الشطرنج أكسبه   حسن التنقل فيها فوق رتبته

و العود الهندى يقال له المندل . قال بعضهم من أبيات :

و مندل مالت به ريح الصبا   فشم أذيالها عبيقه
عرفا فمتى كررته تخاله   كالمسك يزكو أرجا فتيقه

و قال أيضا :

و شممت فى الأشجار من ذيل الصبا   أرجا يفوق شذاه ريح المندل

سئل النبى صلى الله عليه و سلم فقيل له ، يا رسول الله ! هل فى الجنة عود ؟ فقال : نعم . فقيل : هل يحترق ؟ قال : نعم . قيل : بالنار ؟ قال : لا . فقيل : يا رسول الله ! [كيف يحترق العود غير نار ؟ فقال ـ[3]] : يحترق بنورين : نور العرش ، و نور الجنة .

و قيل : لما أخرج آدم من الجنة بكى عليه كل شى إلا الذهب و الفضة ، فقال الله تعالى لهما : لم لا بكيتما على عبدى ؟ قالا : ما كنا نبكى على من عصاك . قال : لأجعلن بنيه فى دار الدنيا خداما لكما .

(١-١) فى الأصل : تكتسبه محاسنا .

(٢) فى الأصل : محاسنا .

(٣) الجملة المحصورة واردة بالهامش .

و قال للعود : لم بكيت على آدم ؟ قال : رحمته يا مولاى ! قال : لأجعلن بنيه فى دار الدنيا لا ينتفعون بك إلا باحراقك .

قال وهب بن منبه : كان نبي الله زكريا عليه السلام يبيع الطيب فى السوق فقال له نبي الله يونس عليه السلام : ليس ذلك من صفات العباد . فقال له زكريا : أما السوق و البيع و الشراء فانه مباح ، و التاجر فاجر إلا من أخذ الحق و أعطى الحق و اتقى الله عز و جل ، و لم يمدح سلعته . الترمذى عن أنس قال : خدمت النبي صلى الله عليـــه و سلم عشر سنين،
فما قال لى : أف / قط ، و لا قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ و لا لشيء تركته : ١٩٠
لم تركته ؟ و كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس تخلقا ، و لا مسست خزا و لا حريرا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لا شممت مسكا و لا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه و سلم . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح، جاء فى الخبر : من دفع له طيب[1] فلا يرده ، لأنه طيب الريح خفيف الحمل .

و لما أتت إخوة يوسف الصديق عليه السلام بأخيهم بنيامين حين طلبه منهم يوسف ،فأحضروه من عند أبيهم.فلما بلغ يوسف أنهم حضروا بأخيهم، أمر قبل دخولهم به عليه أن يزين مجلسه بالزينة الحسنة،وفرش على سريره،و أمر بأوانى الذهب و الفضة،فملئت مسكا و عنبرا و أنواع الطيب ،و أمر بالأوانى فصففت من ذلك الطيب من بـاب قصره إلى موضع سريره عن يمين

(١) فى الأصل : طيبا .

و يسار . ثم أمر بدخولهم عليه ، فلما دخلوا قدموا بنيامين بين أيديهم ليعلم الملك بوصوله معهم، لما كان أولا حثهم على الإتيان به ، لأنه أخوه شقيقه . فلما دخل أخوهم دخلوا فى إثره ، فلما نظر بنيامين إلى تلك الأوانى مملوءة طيبا ، جعل يأخذ منها و يمسح وجهه و جسده به ، فجعل إخوته يلومونه و يزجرونه و يقولون له : فما أجهلك ! وضعت هذه الأوانى لك و لأحلك حتى تأخذ منها و تتطيب ، أليس هذا سوء أدب ! لأنك لم تتعود الدخول على الملوك، انما تعودت رعى الغنم و صحبتها . فقال لهم بنيامين : يا إخوتى ! ليس الأمر كذلك ، إنما هذا ملك عزيز هو أعز الملوك و أطيبهم نفسا . و قد تعود مس الطيب ، فتغيره أدنى رائحة ، و نحن قوم تغيرت رائحتنا بسفرنا ، فعلت هذا لتزول عنا الرائحة الكريهة . فقالوا له : صدقت و الله ! و أخذوا من الطيب/ و مسحوا به أجسادهم ، /١٩١ الف
و يوسف ينظر إليهم و قد امتلأ سرورا . فلما وقفوا بين يديه ، نظروا إلى بهاء ملكه ، و وقار سلطانه ، و زيادة زيه . فتعجبوا من ذلك ، فقال بعضهم لبعض: لعل هذا الملك غير من كنا لقينا فى سفرتنا الأولى ! قال: ففاتحهم الترجمان بالكلام : يقول[1] الملك : من أنتم و من أى بلد جئتم ؟ فقالوا له : نحن بنو الأنبياء ، الذين أمرتنا بالإتيان بأخينا . فقال : نعم ، عرفتكم و أنتم عندى مكرمون ، فقال : أتيتمونى بأخيكم الذى أمرتكم بالإتيان به . فاستبشروا و عرفوا أنه الملك ، و ذلك لأنه لم يكن يكلمهم إلا من تحت برقع على وجهه مكلل باللآلىء و الجواهر ، ينظر لهم من

(١) فى الأصل : و يقول . - و الواو زائدة .

داخله ، و هم لا ينظرونه . ثم إنهم قالوا له : أيها العزيز ! إنا قد امتثلنا أمرك ، و لزمنا سمعك و طاعتك ، و أتينا بأخينا الذى طلبته منا ، و قد أحضرناه و هو هذا . فأمر بانزالهم و إكرامهم ، فنزلوا بدار الضيافة ، ثم لما كان بعد أيام قلائل ، أمر بطعام فصنع و جعل فى أوانى على موائد عظيمة ، و نصب الموائد أمام سريره ، ثم أمر باحضارهم جميعا ، فحضروا و جلسوا على الموائد فى عز و شرف و كرامة عظيمة ، و الولدان و الوصائف وقوف على رأسهم بالخوان و الأشربة و أنواع الزينة الحسنة ، فلما أرادوا التناول قال الترجمان : الملك يأمركم أن يجلس على كل مائدة أخوان شقيقان . فاقتحم كل أخوين منهم على مائدة . فكان عدتهم عشرة على خمس موائد ، و بقى بنيامين وحده ، لأنه لم يكن له شقيق إلا يوسف ، فتأخر عن الطعام ، و جادت أجفانه بالدموع ، و جعل يبكى و ينتحب و ينادى : يا حسرتاه لفراقك يا يوسف ! و لم يدر أن الذى يبكى لفراقه ، قد جرى القدر بدنوه و تلاقه . فلما رأى يوسف حاله ، وسمع مقاله ، أشفق إليه ! و أقبل بكليته عليه . وقال : ما لك يا غلام ! ١٩١/أ تأخرت عن الطعام ؟ . فقال : أيها الملك ! أمرت أن تأكل أخوين شقيقين على كل مائدة ، وكان لى أخ يسمى يوسف من أبى و أمى ، فلما ذكرته الآن تجددت أحزانى ، و تحركت أشجانى . ثم صاح و وقع مغشيا عليه ، و وقعت الضجة فى منزل يوسف : ألا ! إنه قد مات أحد العبرانيين . فنزل يوسف عن سريره و البرقع على وجهه ، فرفع رأسه و جعله على حجره ، و أقبل يساعده فى البكاء حتى أفاق . فقام يوسف فأمر الخدم و قال :

احملوه إلى السرير حتى يجلس معى عليه . فحملوه و وضعوه الى جانب يوسف . ثم أمر باحضار مائدة من ذهب مرصعة بالجوهر و اللؤلؤ . فوضعت بين يديهما . و جعل يأكل معه ، فعظم ذلك على الإخوة العشرة و قالوا[1] : انظروا لابن راحيل - يعنون أمه - أخوه الأول يوسف قال لنا : أنتم عبيدى ، بزعمه أنه رأى فى منامه أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر له سجودا[2] ، و هذا الأخ الثانى إذا رجع الى كنعان يفتخر علينا و يقول : جلست على سرير الملك ، و أكلت معه على مائدته - و بقية القصة مشهورة . و إنما خلت[3] هذا لما فيه من وضع الطيب فى أوانى[4] الذهب و الفضة[5] عند ذكر الطيب .

فلنرجع الآن الى ذكر أنواع الطيب - من الطيب أيضا الجاوى[6] ، و هو صمغ شجر بأرض جاوة من الهند . و من الطيب أيضا العنبر ، و البحار تقذفه فى أماكن معلومة . و قيل : إنه ينبع من عيون فى البحر الملح ، و يطفو على وجه الماء ، فتقذفه الأمواج إلى الساحل .

---

(١) فى الأصل : قال .

(٢) فى الأصل : سجود .

(٣) فى الأصل : خليت .

(٤) فى الأصل : الاوانى .

(٥) زيد بعده فى الأصل : المذهبة المفضة .

(٦) أى من جزيرة جاوه فى إندونيسيا .

و من

ومن الطيب أيضا المسك، وأفضله التبتي[1]، ولا يكون إلا بالتبت والصين، وإنما فضل التبتي على الصيني لأن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه، وظباء الصين ترعى الحشيش، وأيضا فإن أهل الصين يخرجون المسك من نوافجه ويغشونه، / وأهل التبت يتركونه ١٩٢ محضا لا يغشونه. ومن الطيب أيضا القرنفل. قيل: إنه في جزيرة برطايل[2]. ويشتريه التجار من قوم لا يرونهم، وإنما يضعونه أكواما على الساحل، فتأخذه التجار وتترك هناك العرض. وقيل: إن التجار تترك هناك البضائع على الساحل ويعودون إلى مراكبهم، فإذا كان من غد جاءوا فوجدوا إلى جانب كل بضاعة كوما من القرنفل، فإن رضيه أخذه وترك البضاعة، وإلا أخذ بضاعته وترك القرنفل. وإن أخذهما معا لم تقدر مراكبهم على السير حتى يردوا القرنفل. وربما طلب أحدهم الزيادة فيترك البضاعة والقرنفل، فيزاد فيه. وقيل: إن شجر القرنفل على نهر يعرف بنهر القرنفل هناك، ولم يدخل إليه أحد قط، ولا ذكر أنه رأى شجره. وقد ذكر بعضهم أن الجن يبيعونه من التجار. ويقال: إنه إذا كان رطبا كان حلو المطعم.

---

(١) أي من بلاد التبت بأواسط آسيا.

(٢) لم نعثر عليها في كتب الجغرافيا والرحلات العربية، وربما كانت إحدى جزر جنوب شرقي آسيا. والتجار العرب في العصور الوسطى كانوا يرتادون تلك الجزر بالهند وإندونيسيا.

يأكلون منه فلا يمرضون و لا يهرمون، و أجود القرنفل الكباش السالم من العفونة.

و الزعفران أجوده الحديث العهد الحسن اللون السالم من البياض و الاستحالة و الرمل و الدق و النداوة المفرطة، و يغش الزعفران الشعر بالحلبة المنبوتة، فتنضمر و تصير شبيه الزعفران بالذبول بعد قطع رؤسها، و يعلم غشها بذلك بأن يجعل الزعفران الشعر فى الخل، فان كان مزغولا بالحلبة شربت الحلبة من ذلك الخل و انتفخت، فيعلم أنه مغشوش بها، و إن كان سالما من الغش بها لم ينتفخ من شعر الزعفران شيء[1]. و قال بعض الأطباء: من أكل من الزعفران وزن درهمين و نصف درهم فانه يموت بسرعة.

و الراوند أجوده الطرى، و إذا نشر كان لونه حسن الصفرة،

١/ب / و أردأه النخر و السوس و اللون الأسود، و أفضله القريب العهد بالموضع الذى يجلب منه. و قيل: إن منبته بقعر البحر، و يطول كالسرو، و ليس له ورق و هو تحت الماء، و لم يزل يطول حتى يلحن بعصه كدور الدرهم، ينطق باذن الله تعالى من أصله و يطفو على وجه الماء، تقذفه الأمواج إلى الساحل. فيؤخذ حينئذ.

و البقّم[2] أجوده الغليظ الطرى الحسن اللون، و هو إما أحمر قان[3]

(١) فى الأصل: شيئا.
(٢) بتشديد الباء شجر ورقه كورق اللوز و ساقه أحمر، يستعمل فى عمل الصبغة الحمراء.
(٣) فى الأصل: قان.

بهرمانى[1]، أو صفرة فاقعة ذهبية. و يستدل على طراوته بزهرة[2] اللون و حلاوة الطعم، و أفضله إذا كان أقل عقد و تشقيق.

و الفلفل أجوده النظيف من الدق و التراب و الحصى، السالم من الاحتراق و العفونة. و أما الفلفل الأبيض فهو جنس يخالف هـذا الجنس فى شكله و لونه، و هو يدخل فى الأدوية و لا يدخل فى الأغذية و أفضله ما نبل حبه و قل قشوره.

و الزنجبيل أجوده الطرى الرزين السالم من السوس و العفونـة، و هو يحول و يسوس بسرعة، و حفظه بأن تجعل معه الفلفل و مربى الزنجبيل و مربى الورد. من أخذ منه كل يوم على الفطر نصف أوقية مدة ثلاثة أيام، قويت معدته و صحت، و الضعيف المعدة يتجنب الأمراق فانها ترخيها و تفسدها، و يصلحها اللحم الناشف الأحمر و العسل النحل و التين و الزبيب و الموز، فان ذلك يسخن المعدة، و تقليل شرب الماء يصح المعدة، و كذلك طعام المرى المعرى يصلحها.

اللبان الذكر هو صمغ شجر مدينة عمان. و أجوده المعلق، و هو ما لقط من شجره قبل أن يسقط على الأرض.

المصطكا صفاته المحمودة كصفات اللبان الذكر سواء.

/ دارصينى[3] الطعام و هو القرفة، و أجوده ما كان قطعا كبارا ١٩٣/الف

(١) أى لونه كلون الحناء و هو الحمرة التى تميل إلى الصفرة الصافية.

(٢) فى الأصل: زهرة.

(٣) شجر كالرمان من أصل هندى.

وطعمه حار[1] و رائحته ذكية ، و هو من شر البضائع لأنه يحول سرعة ، فيمر طعمه و رائحته . و كذلك التمرهندى ، و أما الدارصينى الملفوف ، فانه يدخل فى الأدوية أكثر من الأغذيـــة ، و الدارصينى الطيب و هو يسمى قرفة القرنفل فهو يبين برائحته و رقته .

و الزرنب[2] أجوده الحديث النقى السالم من العفونة و الرقه و السوس و الدق .

و اللاذن[3] أجوده الشمعى النقى الصافى ، و هو يبقى المدة الطويلة ، فلا يفسد .

و الكابلى[4] أفضله ما كبر منه و كان خلنجى[5] اللون حديثا ، و علامته أنك تجده إذا كسرته مصمغا[6] ، و أما الأسود فالنظيف منه ، و أما الأصفر فالصافى اللون الحديث ، و الأملج و الشيرملج و البليلج

---

(١) فى الأصل : حارا .

(٢) نبات طيب الرائحة .

(٣) شجر اللاذن ينتج الصمغ الذى يستعمل للضغ و يتخذ منه أحيانا العطر و الدواء .

(٤) و هو الأهليلج الكابلى نسبة إلى كابل يقابله فى المصطلحات النباتية (Myrobolan chebale) .

(٥) من الخلنج و هو نوع من الشجر ذى الرائحة الذكية العبقة و لونه ما بين الحمرة و الصفرة .

(٦) فى الأصل : مصمغ .

فانها

فانها[1] مما تقل المتاجر فيهم . و أصول الطيب خمسة و عشرون صنفا و هى : السنبل ، و القرنفل ، و الصندل ، و الجوزبوا[2] ، و السليخة ، و الزرنب ، و القرفة ، و الزريرة ، و القاقلى . و الكبابة ، و الهال بوا ، و الفاغرة ، و الكافور ، و المحلب ، و الورس ، و القسط ، و الأظفار ، و البنك ، و الصرو[3] ، و اللادن ، و الميعة ، و القنبل ، و قصب الزريرة ، ٥ و الدبانة[4] .

و لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض ، فكان هبوطه بالهند على جزيرة سرنديب[5] ، و عليه الورق الذى حصمه ، فيبس فذرته الرياح فى بلاد الهند . فيقال - و الله أعلم : إن علة كون الطيب بأرض الهند

(١) فى الأصل : فانهم .

(٢) من مفردات ابن البيطار ، و فى الأصل : جوزتوا .

(٣) أى السرو .

(٤) لم نحاول الإفاضة فى البحث عن هذه الجملة من النباتات العطرية و الطبية التى كان التجار العرب يجتلبونها من الهند و جنوب شرقى القارة الآسيوية و جزرها فى العصور الوسطى ، و أغلبها يدخل فى فن العطارة . فهذا الدرب طويل يحتاج إلى بحوث خاصة . لذلك اقتصرنا هنا على إحياء النص كما هو و اقتصدنا فى الحواشى التفسيرية التى لا طائل للمؤرخ أو المستشرق فى الاضطلاع بدقائقها .

(٥) و هى سيلان - انظر حاشية - بقة و راجع الفهارس .

من ذلك الورق، و لذلك خصت أرض الهند بالعود و القرنفل و الأفاويه ١٩/ب و المسك و سائر / الطيب . و كذلك الجبل لمعت عليه اليواقيت، و كان منه ألماس، و فى جزائره السنباذج . و فى قعره مغايص اللؤلؤ .

و قيل : إن آدم لما أهبط إلى الأرض، لم يكن عليه إلا ورقة من أوراق الجنة ملفمة على جسده، فذرتها الرياح حين يبست فى بلاد الهند، فصارت معدنا للطيب . و أخذ آدم فى البكاء حتى بكى مائة عام، لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى لأكله من الشجرة التى نهاه عن الأكل منها . فأنبت الله عز و جل من دموعه العود الرطب و الزنجبيل و الصندل و الكافور و أنواع الطيب . و امتلأت الأودية بالأشجار . و بكت حواء حتى أنبت الله من دموعها القرنفل و الأفاويه .

و قيل : إن آدم لما أهبط من الجنة خرج معه منها صرة من الحنطة و ثلاثون[1] قضيبا من شجر الجنة مودعة أصناف الثمار، منها عشرة مما له قشر . و هى[2] : الجوز و اللوز و البندق و الفستق و الخشخاش و الشاهبلوط و النارنج و الموز و البلوط و الرمان . و منها عشرة ذات نوى، و هى : الخوخ و المشمش و الإجاص و الرطب و الغبيراء و النبق و الزعرور و العناب و المقل و البرقوق . و منها ما لا قشر لها و لا حجاب دون مطعمها و لا نوى داخلها، و هى : التفاح و السفرجل و العنب

(١) فى الأصل : ثلاثين .

(٢) فى الأصل : هو .

و الكمثرى و التين و التوت و الأترج و القثاء و الخيار و البطيخ.

[عن آدم و إبليس -[1]]

و قيل: لما خلق الله آدم عليه السلام، أبان فضله للملائكة، و أراهم ما خصه به من سابق العلم من حيث عرفهم عنه استنباءه إياه أسماء الأشياء، فجعل آدم محرابا و كعبة و بابا و قبلة أسجد إليه الأبرار و الروحانيين / و الأنوار. ١٩٤/الف

قال ابن عباس: لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، سجدوا كلهم إلا إبليس، أبى أن يسجد استكبارا و حسدا. فقال الله عز و جل له: [2]ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى، استكبرت أم كنت من العالين؟ قال: أنا خير منه خلقتنى من نار، و خلقته من طين[2]. و النار[3] تأكل الطين، و أنا الذى عبدتك دهرا طويلا قبل أن تخلقه. و أنا الذى كسوتنى الريش و النور و البهاء، و أنا الذى عبدتك أكناف السماوات مع الكروبين و الروحانيين و الحافين و الصافين و المقربين. فقال الله عز و جل: لقد علمت فى سابق علمى من ملائكتى الطاعة و منك المعصية، فلم تنفعك طول العبادة، و قد أيأستك من الخير كله

---

(١) العنوان مشتق من موضوع الباب، و ليس بالهامش.

(٢-٢) الأصل فى سورة الأعراف (٧ - مكية)، و قد تصرف المؤلف فى نقل النص مع الاحتفاظ بالمعنى و ذلك لكى يسرد منها قصة من إنشائه.

(٣) هذا من عنديات المؤلف و ليس اقتباسا من المصحف.

إلى آخر الأبد، و لأجعلنك مغموما مدحورا شيطانا رجيما. قال: فعند ذلك تغيرت خلقته إلى خلقة الشياطين. فلما نظرت الملائكة إلى سوء منظره، و شمت رائحته، و كرهته فوثبت عليه بحرابها و هم يلعنونه و يقولون: رجيم رجيم! ملعون ملعون! و هم يطعنونه و هو هارب من بين أيديهم حتى ألقوه في[1] البحر المسجور[2]، فبادرت إليه ملائكة البحر المسجور بحرابها، و هي حراب من نار، فلم يزالوا يطعنونه بها حتى بلغوا به القرار، و غاب عن أعين الملائكة. و بقيت الملائكة في اضطراب، و السماوات في رجفة، من جرأة إبليس في مخالفته لأمر الله تعالى، و من غضب الله تعالى عليه.

فلما كثرت ذرية آدم، صار مسلطا عليهم، يغويهم و يحسن لهم كل فعل قبيح من الزنى و غيره. فلذلك قال بعضهم في ذلك:

١/ب عجبت لإبليس في نحوسته وقبح ما أظهر من زلته

تاه على آدم في سجدته وصار قوادا لذريته

حكى القرطبي في كتابه «المفهم في[3] صحيح مسلم» أن بعض السلف اتقى الخلوة بالبهيمة. و قال: شيطان مغو و أنثى حاضرة. فاذا كان هذا

---

(١) في الأصل: الى.

(٢) أي المشتعل بالنيران.

(٣) من كشف الظنون. و في الأصل: على.

قد اتقى الخلوة بالبهيمة، فكيف بالمرأة الجميلة و الشاب الجميل، فالشيطان عمله فيها أقوى من عمل البهيمة.

قال الغزالي: إن سماع الصبي الذي تخشى فتنته في المغني حرام. قال الشيخ محيي الدين النواوي: يجب على كل مؤمن أن يغض بصره، و يصون نظره عما لا يحلّ النظر إليه، من امرأة أو صبي جميل، لأن النظر إلى الأمرد الحسن الوجه حرام، سواء كان بشهوة أو بغير شهوة، سواء أمنت الفتنة أو لم تؤمن. هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء. و قد نص على تحريم النظر إليه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، و دليله قوله تعالى[1] "قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم". قال ابن الجوزي في بعض مواعظه: يا مطلق أبصارهم في النظر إلى ما لا يحل لهم! جاء توقيع العزل، "قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم" - انتهى.

نعود - اعلم أن الأمرد في معنى المرأة، بل و ربما كان كثير منهم أحسن من النساء و يتمكن من أسباب الزينة ما لا [تتمكن منه -[2]] المرأة، و يتساهل في حقه ما لا يتساهل في حقها. و قيل: إن الإمام أحمد بن حنبل كان مجاورا لرجل[3] له ولد جميل، فكان يأتي إلى الإمام أحمد لزيارته. و للتبرك به، فدخل عليه يوما و ولده معه. فقال له الإمام أحمد: إن أردت زيارتنا، فلا تأتنا بهذا معك. فقال له

(١) قرآن كريم سورة ٢٤ آية ٣٠.
(٢) بياض بالأصل، وما أثبتناه مشتق من السياق، وبهامشه: يامن تصحه - كذا.
(٣) في الأصل: برجل.

الرجل : و مثالك يا سيدى يخاف على نفسه من هذا ! فقال له : على هـذا ١٩٥/الف أدركنا أئمتنا و مشايخنا هذه العلماء العارفين و الأولياء الخائفين ، / لا كما يفعله بعض أهل السماع من تعاطى مراتب الأولياء من مخالطتهم الشباب الحسان الوجوه و اتخاذهم لخدمتهم و استماعهم لغنائهم معتقدين بزعمهم السلامة من الشيطان ، و أنه ليس له عليهم سلطان ، و ذلك من علامات الخذلان ، و فعل الجهال المجان - انتهى .

نعود إلى ذكر هبوط آدم إلى الأرض إن شاء الله تعالى - كان هبوط آدم عليه السلام بوادى سرنديب[1] من أرض الهند بالجبل المعروف بياس[2]. فلما هبط وضع رجله الكريمة على ذلك الجبل ، فمادت الأرض به ، فأتاه جبريل عليه السلام بالعصا التى كانت لموسى عليه السلام ، و هى من عروق آس الجنة ، و هو الريحان ، فاتـكأ عليها ، و تناثر الورق من عليها ، فمن ذلك أصل الرياحين كلها ، و بقى أثر قدم آدم فى الصخر سبعين[3] ذراعا ، و خطا الخطوة الثانية فى البحر على مسيرة ثلاثة أيام من هذا الجبل . و أوحى الله تعالى إلى جبريل حين نزل آدم ، فوضع يده على رأس آدم فطأطأه إلى ستين ذراعا فى الطول ، إذ كان يمشى فيمس السحاب رأسه . و انتقص من عظم جوارحه بقدر ما انتقص من طوله .

و لما هبط آدم إلى الأرض ، أهبط معه حواء و إبليس ، فوضعت

---

(١) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

(٢) وردت قصة هبوط آدم على ذلك الجبل بسرنديب فى معجم البلدان لياقوت (ج ٣ ص ٨٣ - ٨٤) وسماه « الرهون » .

(٣) فى الأصل : سبعون .

حواء لآدم هابيل و قابيل ، و كان هابيل صاحب ماشية ، و كان قابيل صاحب حرث ، و كان قربانهما أن يتقربا بقربان ثم يلقيانه على وجه الأرض حتى تأتى نار فتأكله أو يبليه الدهر . و كان هابيل يتقرب بالحنطة ، فتأتى نار من السماء فتأكل قربان هابيل ، و لا تقرب قربان قابيل . فغاظه ذلك ، فخرج حتى لقى ابليس . فقال : يا إبليس ! أتقرب أنا و أخى بقربانين ، فتأتى نار فتأكل قربانه ، و لا تقرب قربانى . فقال له إبليس : / اقتله تكون ملكا فى الأرض . قال : و ما القتل ؟ ١٩٥/ب
قال : إذا رأيته راقدا فآذنى به . فلما رقد هابيل أتى قابيل إلى إبليس فأعلمه نومه ، فانطلق معه إبليس حتى وقف على رأسه . فقال : خذ حجرا فاضرب به رأسه . ففعل ، فلما قتله حمله ثلاثة أيام يطوف به الأرض ، يظعن به إذا طعن ، و ينزل به إذا نزل ، حتى بعث الله بالغرابين ، فاقتتلا و قابيل ينظر إليهما ، فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر له حتى أعمق فدفنه . فقال الله تعالى فى كتابه العزيز[1] : "و اتل عليهم نبا ابنى ادم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما و لم يتقبل من الآخر" - الآية .

و قيل . كانت صفة الغرب الذى قتل الغراب ، رأسه أبيض ، و ظهره أخضر ، و بطنه أسود ، و هو أحمر الرجلين و المنقار ، أخضر الجناحين ، بين عينيه درة معلقة بسلسلة من ذهب . فأما بياض رأسه فانه شاب لما رأى قابيل قتل أخاه[2] هابيل ، و أما حمرة منقاره و رجليه فانه غمسها فى دم هابيل الشهيد ، و أما خضرة أجنحته و ظهره فمن لمس

(١) قرآن كريم سورة ٥ آية ٢٧ .
(٢) فى الأصل : لأخيه .

كف الحور العين، و إنه طائر من طيور الجنة . فلما رأى قابيل ما فعل الغراب من قتله للغراب الآخر و دفنه له قال : أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ! فحفر له و دفنه .

و قيل : لما قتل قابيل أخاه[1] هابيل ، طرده آدم عليه السلام من دون إخوته ، و أمرهم أن لا يجالسوه ، و أباح قتله ، فأتته عناق أخته و قربته . فبلغ ذلك آدم ، فغضب عليها ، و نهى أولاده عن كلامها و أبعدها ، فقال قابيل : يا أختى ! إن أولاد أبينا قد حقرونا و أعرضوا عنا ، فهل لك أن تزوجينى نفسك ؟ فأجابته إلى ذلك ، فأخذها و مضى بها إلى بلاد اليمن . فأقامت عناق معه لا تحبل و لا تلد ، و كان الله تعالى قد خلق لها عشرين[2] إصبعا ، فى كل إصبع ظفران[3] كالمخلابين القويين تحفر بهما الأرض ، و تقطع بهما الأشجار . و كان جلوسها مساحة جريب[4] من الأرض ، و كان أكلها الوحوش . فأقامت مع قابيل ، ثم إنها حملت بعوج و سمته هيال ، ففرحت به / فرحا شديدا . فلما أتى عليه عشرون ب سنة ، هلك أبوه قابيل ، فرضع أمه حتى بلغ ثمانين سنة ، فخرج جبارا قويا لا يطاق . فبينا هو ذات يوم مع أمه عناق و هو صبى لم يحتلم ، و هكذا كان[5] أهل ذلك العصر لا يحتلم الرجل منهم إلا بعد مائتى سنة ،

(١) فى الأصل : لاخيه .
(٢) فى الأصل : عشرون .
(٣) فى الأصل : ظفرين .
(٤) فى الأصل : الحريب ـ كذا . والجريب من الطعام والأرض مقدار معلوم .
(٥) فى الأصل : كانوا .

إذ غلبها النوم فقالت : يا هيال ! إن النوم قد غلبني ، فاجمع لي الوحوش حتى أستيقظ من نومي فآكلها . ثم نامت عناق ، فاشتغل عوج باللعب و لم يصطد[1] لها شيئا ، فانتبهت فوجدته يلعب فغضبت عليه ، و جعلت تضربه . فبينما هي تضربه إذ أقبل إبليس ، فأخذ حجرا عظيما و دحرجه من رأس الجبل ليقتل به عناق ، فلما نظر عوج إلى الحجر يهوي إلى أمه ، جذب يده من يدها ، فتباعد كل واحد من صاحبه ، فسقط الحجر ناحية منها ، فلما نظرت عناق إلى عوج و قد وقاها من الحجر بعد أن كان يقصدها ، ضمت ولدها إلى صدرها ، و قبلت بين عينيه ، و دعت له بالقوة و طول العمر ، فاستجاب الله تعالى منها دعوتها ، و أقامت معه حتى تم له مائتا[2] سنة ، فكان حينئذ بلوغه . و هلكت عناق ، و بقي عوج وحده ، و أعطاه الله من القوة و البطش ما لم يعط أحدا من ولد آدم . فظهر في الناس بطشه ، وكان يغيب الشخص بين أذنيه[3] ، و الركب بين منكبيه ، يخطو الخطوة يقطع بها المهامه و القفار التي لا يقطعها الركب إلا بالزاد الكثير . و كان طوله ثلاثمائة ذراع بالذراع الأول . و هامته كأعظم صخرة على وجه الأرض ، و بين عينيه ما بين مدينة الحيرة[4] و مدينة الكوفة[5] ، و صوته كالرعد القاصف . و كان إذا مشى

(١) في الأصل : لم يصطاد . (٢) في الأصل : مائتي .

(٣) في الأصل : ادنه .

(٤) قريبة من الحيرة على حافة الصحراء من جزيرة العرب .

(٥) بأواسط العراق على شط هندية من فروع نهر الفرات على بعد تسعين ميلا جنوبي بغداد .

فرت الوحوش من بين يديه فيمد يديه فيخطو خطوة فيأخذها ، و ربما بكى فتجرى الأودية من دموعه . و كان يصيح الصيحة فتهلك لسماعها الأنعام ، و إذا نزل بلدا تكون فيه الأشجار موفورات[1] بالثمرة فيأكلها ،
ا ب و إن كان على ساحل البحر / أفنى سمكه ، و كان يأكل فى اليوم ما يأكله غيره فى سنة . و كانت ملوك الأرض تعظمه و تكرمه و تتق سطوته . و كان إذا نزل على ملك من الملوك ، يقيم عنده يومين و ينتقل إلى غيره . و كان الملك الذى ينزل عليه لو أتحمه بكل ما يقدر عليه لم يبلغ رضاه ، و كان قد ألف الوحدة و الانفـــراد فى خوض البحار بالليل و النهار ، و كان يقبض السمكة العظيمة الخلق بيده و يرفعها إلى عين الشمس تنشوى بقوة حرارتها و يأكلها . و عاش حتى أدرك زمان موسى عليه السلام و أهلك الله فرعون و من معه بالغرق ، فرجع بنو إسرائيل إلى مصر ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن ببلاد الشام [2]ملكا ظالما[2] يقال له خيشوم ، فأرسل إليه و خوفه عذابى . و كان خيشوم المذكور جارا عنيدا عظيم الخلق مهول الجثة ، و كان قد رزقه الله ابنة على هول خلقته ، وكانت بديعة الجمال . فدعى موسى بيوشع بن نون و قال له : تمضى إلى هذا الملك الطاغى و تدعوه إلى الإيمان بالله و أنى رسوله ، فان أجاب و إلا سرت إليه بنفسى . فلما وصل يوشع إلى باب الملك ، قام إليه الحجاب فضربوه ، فقال لهم حاجب الحجاب : كفوا عنه . و قال له : فيم جئت ؟ فقال له : أنا رسول رسول الله موسى بن عمران . قال : و ما أمرك بـــه ؟ قال :

---

(١) فى الأصل : موقورات .

(٢ - ٢) فى الأصل : ملك ظالم .

تقولون[1] معى: لا إله إلا الله وأن موسى رسول الله. فعجب حاجب الحجاب من كلامه وطرده من الباب. فصاح يوشع صيحة عظيمة، فألقتها الريح فى أذن الملك خيشوم فأرعبته فقال: ويلكم! ما هذه الصيحة؟ فتبادروا إلى يوشع، فتبادر من هو واقف بين يديه إلى باب الملك، ثم عادوا فقالوا: على الباب رجل فى زى المجانين، يذكر أنه رسول موسى بن عمران، وكان عوج بن عناق إذ ذاك حاضرا عنده، فقال الملك: يا عوج! ما تصنع به؟ قال عوج: إن كان موسى فلا تدخله إليك: فان موسى عمل على فرعون حتى غرقه هو وعساكره بحر القلزم كما علمت، وإن كان غيره فأدخله إليك. فقيل: هو يوشع رسول ١٩٧/ الف موسى. فقال خيشوم: علىّ به! فأتى به إليه. فلما نظر يوشع إلى خيشوم وعظم خلقته قال «سبحان الملك الأعلى، قاصم الجبابرة، ومذل الأكاسرة، ومبيد القياصرة!». فقال خيشوم: من تكون؟ قال: أنا يوشع رسول رسول الله موسى بن عمران. فتقلبت عيناه فى أم رأسه وقال: لولا أنك [2]عبد فقير مسكين[2]، ولا أمرت بقتلك، ولكن ارجع إلى صاحبك فانى سائر إليه أخرب دياره، وأعفى آثاره. فرجع يوشع إلى موسى فأخبره بجميع ما اتفق له، فخرج موسى ببنى إسرائيل يريد الملك خيشوم. وكان يوشع لما خرج من عند خيشوم، أقبل خيشوم على وزيره، وقال له: ما تقول فيما أتى به رسول موسى؟ قال الوزير: ما لموسى غير عوج، تزوجه ابنتك فانها قرينته. وكانت ابنة الملك من أعظم خلق الله تعالى،

(١) فى الأصل: تقولوا.

(٢ - ٢) عبدا فقيرا مسكينا.

و كانت أحسن أهل زمانها ، و كان لها مائة ذؤابة من الشعر ، مكللة باللؤلؤ و المرجان و أنواع الجواهر . و كان عوج إذ ذاك فى ضيافته ، فأمر الملك بابنته فحضرت فى أتم زينة . فلما نظرها عوج ملكت عقله ، و سلبت لبه ، فقال له الملك : يا عوج ! أريد أن أزوجك بابنتى هذه ، و أجعلك قسيم مملكتى . فقال عوج : و ما تطلب بذلك أيها الملك ؟ فقال : تكفينى أمر موسى وحده ، و أنا أقتل جنده . فقال عوج : أنا أكفيك أمر موسى و جنده أيضا . فقال الملك : إن أنت فعلت ذلك ، فابنتى و نصف ملكى لك . قال : فمضى عوج و ذرع عسكر موسى ، و إذا به أربعة أميال . فمضى إلى الجبل و قطع صخرة على قدر العسكر ، و حملها على رأسه ، و سار بها أمام الملك خيشوم و عسكره . فلما التقوا بموسى و قومه ، (١رآه بنو١) إسرائيل فولوا منهزمين . فأوحى الله تعالى إلى موسى : قل لهم : اثبتوا ، فانى مهلك عوج بطائر أرسله إليه . فثبتت بنو إسرائيل ، فبعث الله طائرا على مثال الهدهد ، له منقار ، طوله ذراع ، فجعل ينقر تلك الصخرة و عوج لا يحس به ، حتى صار الحجر طوقا فى عنقه ، فجعل عوج يدور يمينا و شمالا ، و لا يقدر على إخراج رأسه من قوة الحجر الذى صار على كتفيه . فجعل الطائر ينقر دماغه حتى وصل إلى المخ . فأوحى الله تعالى إلى موسى : تقدم إليه فاضربه بالعصا . فتقدم إليه موسى : فكان طوله عشرة أذرع ، و عصاه عشرة أذرع ، و قفز فى الهواء عشرة أذرع ، و ضربه فوصلت الضربة دون قفة كعبه مع قفزته ،

(١-١) راوه نبى .

فمات

فات و وقع بالصخرة على عسكر الملك خيشوم، فهلك منهم ما شاء الله تعالى، و زحف الباقون نحو عسكر موسى، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجر. فضربه فتفجر و خرج منه ألف ألف كوز، فى كل كوز ألف ألف قرصة، فى كل قرصة ألف ألف زنبور، كل زنبور مثل الضفدع الكبير، أرسلها الله تعالى على خيشوم و جنوده، فجعلت تلسع وجوههم، فولوا منهزمين، فتبعتهم تلك الزنابير تلسعهم، فأهلكتهم و أهلكت خيولهم، و التجأ بعضهم إلى الكهوف و المغاور[1]، فدخلت الزنابير خلفهم منها، فلما اجتمعوا خارجها باخراج الزنابير لهم منها، أرسل الله تعالى عليهم غمامة سوداء، فأمطرت عليهم البرد فأهلكهم، فنظر موسى و أصحابه إلى سوء مصارعهم، فغنموا أموالهم و عادوا إلى مصر سالمين غانمين - انتهى.

و لما هلك عوج أقام فى الأرض سنين حتى أنتنت[2] الأرض من فريسته، و كان الثلث منه فى البر مسيرة ستة أشهر، و الثلث[3] فى البحر. فدعا موسى ربه لما أضرت رائحته بأهل الأرض. فسلط الله عليه الشمس و الرياح حتى أفنته - انتهى.

نعود إلى ما قيل أيضا فى سبب قتل قابيل لأخيه هابيل - و ذلك أن آدم عليه السلام كان يحب ولديه هابيل و قابيل من بين أولاده، فذكر لهما ما أنعم الله عز و جل عليه من بدء أوله و آخره. و ما كان

---

(١) فى الأصل: المغاير - كذا.

(٢) فى الأصل: تنتنت. (٣) فى الأصل: و الثلث - كذا.

فيه من نسيان / عهد ربه، و أنه تاب عليه و قبل توبته، و تقبل قربانه. ثم قال: إنى أحب أن تقربا لربكما قربانا عساه أن يتقبل منكما، و كان هابيل صاحب غنم، فأخذ منها كبشا سمينا لم يكن فى غنمه خير منه، فجعله قربانا، و كان قابيل صاحب زرع، فأخذ منه قبضة يسيرة فجعلها قربانا، فنزلت نار من السماء بيضاء ليس فيها حر و لا دخان، فأخذت قربان هابيل و أكلته، و لم تأكل قربان قابيل، فداخله الحسد من ذلك لأخيه، فقال: إن أولاد هذا تفخر على أولادى من بعدى. و اجتهد أن يقتله. فنزل هابيل و قابيل من موضع القربان يريدان منزل آدم عليه السلام. و كان هابيل يمشى بين يدى قابيل، فعمد قابيل إلى حجر عظيم، فضرب به رأس هابيل فقتله. فلما أبطأ على آدم، خرج فى طلبهما، فأصاب هابيل مقتولا، فاغتم لذلك غما شديدا، و كانت الأرض قد شربت من دمه و الأشجار و النواحى قد تغيرت عن نضارتها و زهرتها، فيقال: إن آدم لما رأى ذلك أنشأ يقول هذه الأبيات:

تغيرت البلاد و من عليها   فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى طعم و لون   و غيب فى الثرى الوجه الصبيح
قتل قابيل هابيلا أخاه[1]   فوا أسفا على الوجه المليح

[فى الفقر و الزهد و القناعة و غير ذلك –[2]]

ذكر ما قيل فى الفقر و الزهد و القناعة و الرزق و المعاش

(١) كذا فى الأصل، و الشطر ظاهره مكسور.

(٢) العنوان من مدلكة نص الباب و ليس بهامشه.

و الاحتراف و الكدية و الكرماء و البخلاء و غير ذلك - اعلم أن الفقر صلاح مبغوض، و هو باب الخلاص من شباك الدنيا، هو قاتل الشهوات ، هو يجعل الإنسان غير متهم بالجملة ، هو خير و لكنه عسر الاحتمال ، هو سبب الأدب ، هو تجارة غير محسود عليها ، هو جوهرة لا تعرف ، هو ربح بلا خسارة ، هو فائدة الحكماء ، و رغبة العقلاء ، ١٩٨/ب و عاقبته أحسن من عاقبة التنعم .

لما مرض أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان[1] مرضه الذى مات منه ، أمر أن يصعد به إلى أعلى قصره ، فلما صار فى أعلاه ، أشرف على غسال يعصر ثوبا بحانوته ، فقال : ليتنى كنت غسالا ! أغسل الثياب بالأجرة ، و لا تقلدت أمر الأمة ، أسأل عنها يوم القيامة ، لما روى أن كل راع سؤل عن رعيته . فلما بلغ الشيخ الصالح أبا[2] حازم مقالته تلك ، قال : الحمد لله الذى يتمنى الملوك عند موتهم ما نحن فيه من الفقر . و أنشدوا فى هذا المعنى :

إذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا فعما قليل أنت ماض و تاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولة و كم ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

و اعلم أن الفقير هو الذى لا يجد موقعا ما من كفايته ، [غير أنه لا يتم به كفايته ، فيدفع إليه من الزكاة ما تزول به حاجته . و المسكين

---

(١) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

(٢) فى الأصل : ابو .

هو الذى يجد ما يقع موقعا من كفايته -[1]] فيدفع إليه ما يقوم بتمام كفايته، فالمسكين أيسر حالا من الفقير لقوله تعالى[2] : "اما السفينة فكانت لمسكين يعملون فى البحر" .

و قد جاء فى الخبر "اتخذوا عند الفقراء أيادى، فان لهم دولة و أى دولة !» . و قال بعضهم : أكرموا الفقراء، فانهم يحملون أروادكم إلى الآخرة . وكان بعضهم يتصدق بالرغفان ، فقيل له : إنما تعطى الفقراء الكسر ! فقال : إنى أستحى من الله تعالى إذا نشرت صحيفتى أن أرى فيها كسرا ، و الله تعالى يقول[3] "من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضعفه له" و الرغفان أحسن من الكسر .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتصدق بالسكر ، فقيل له فى ذلك . فقال : إن الله تعالى يقول[4] "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" . و أنا أحب السكر . قال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يا ابن آدم ! إنك إن تبذل الفضل خير لك ، و إن تمسكه شر لك . و لا تلام على كفاف ، و ابدأ بمن تعول . و اليد العليا خير من اليد السفلى - خرجه مسلم .

---

(١) الجملة المحجوزة ساقطة من النص و وردت فى الهامش بخط المراجع .

(٢) قرآن كريم سورة ١٨ آية ٧٩ .

(٣) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٤٥ .

(٤) قرآن كريم سورة ٣ آية ٩٢ .

عن أبي هريرة قال: سمعت / رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدق به، و يستغني به عن الناس، خير [له -[1]] من أن يسأل [رجلا -[1]] أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا خير[2] من اليد السفلى، و ابدأ بمن تعول - خرجه مسلم. ١٩٩ / الف

و عن أبي هريرة قال: ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة و اللقمتان و التمرة و التمرتان. قالوا: و ما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى فيغنيه، و لا يفطن له فيتصدق عليه، و لا يسأل الناس شيئا - خرجه مسلم.

عن سالم بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يعطي عمر بن الخطاب رضي الله عنه العطاء، فيقول له عمر: أعطه[3] يا رسول الله أفقر إليه مني. فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم: خذه فتموله أو تصدق به، و ما جاءك من هذا المال و أنت غير مشرف و لا سائل فخذه، و ما لا فلا تتبعه نفسك. قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا[4] شيئا، و لا يرد شيئا أعطيه - خرجه مسلم.

و اعلم أنه إذا تصدق رجل بدرهم على فقير، ثم أخذه منه،

---

(١) زيد من صحيح مسلم.

(٢) في الصحيح: افضل.

(٣) في الأصل: اعطيه.

(٤) في الأصل: أحد.

وجب عليه رد ذلك الدرهم على الفقير ؛ كما[1] إذا صلى أحدهم[1] فلا يتم الركوع و السجود ، و لا يقيم صلبه ، لأنه يظن أن ذلك يجزيه ، و ليس يجزيه و إن كان تطوعا ، لأنه حين دخل فى التطوع فقد صار ذلك واجبا لازما يجب إتمامه و إحكامه ؛ كما لو أن رجلا أحرم بحجة تطوعا ، وجب عليه تمام مناسكها ، فان أفسدها وجب عليه قضاؤها ، و إن أصاب فيها صيدا ، وجبت عليه الكفارة ؛ و كما أن رجلا لو صام ب يوما تطوعا ثم أفطر / بعد العصر ، وجب عليه قضاء ذلك اليوم . فكل تطوع دخل فيه العبد فقد لزمه و وجب عليه أداؤه تاما محكما قضاؤه ، لأنه حين دخل فيه فقد أوجبه على نفسه . و لو لم يدخل فيه لم يجب عليه شيء .

و اعلم أنه ينبغى للعاقل الصبر على الفقر ، فان الصبر مر و عاقبته حلاوة ، قال الشاعر :

استعمل الصبر تجى بعده العسلا   و قف على الباب لئلا تبلغ الأملا

و قال الآخر :

الصبر مثـــل مر مذاقتـــه   لكن مذ قته أحلى من العسل

و قال الآخر :

جوهرة الصبر لها رتبة   يحسدها الياقوت و الدر

و قال الآخر[2] :

لا تسأل الدهر إنصافا وتـــظلمه   و اصبر عليه فلم يخلق لإنصاف

(١-١) الجملة مكررة بالنص .
(٢) فى الأصل : آخر .

خذ ما تيسر و الق الهم ناحية   لا بد من كدر فيه و من صافى

لكن الفقر داء لا دواء [له]، إن بحت به فضحك، و إن كتمته قتلك. قال بعضهم: لا تخبر الناس بفقرك، فإن الفقير لا يعبأ به، و لا يلتفت إليه أحد. و قال بعضهم: الفقر فى العين نقر، و فى البطن بقر، و فى الظهر عقر. قال الجوهرى: الفقر مر المذاق، و الغربة تكسر الأعناق، و الصدقة تطفىء غضب الخلاق، ما عندكم ينفد و ما عند الله باق. و مما قيل:

النفس تكره أن تكون فقيرة   و الفقر خير من غنى يطغيها
فغنى النفوس[1] هو الكفاف فإن أبت   فجميع ما فى الأرض ما يكفيها

و قال لقمان لابنه: يا بنى! لا تلم من لا قوت له فى طلب قوته، فإن من عدم قوته عدم عقله. و قال بعضهم: عجبت لمن عدم القوت، كيف يستطيع السكوت! و قال بعضهم: ما ذل قلب قط لبارئه إلا أفاده نورا أو خيرا. و قال بعضهم: ألح على الكرام و إن لم تكن أهلا للعطاء، فإن لهم أخلاقا جميلة.

قيل: طلب فقير بمدينة قوص[2] على كوم ألف دينار. فقام ٢٠٠/ الف
يتمناها مدة طويلة، فأتى إليه بعض أهلها المتمولين بخمسمائة دينار، فلم يقبلها و قال: ما آخذ إلا ألف دينار! فتركه مدة طويلة أيضا، و أتى إليه بألف دينار فأخذها منه، فلما صارت بيد الفقير، رفع الفقير طرف

(١) فى الأصل: النفس، و يستقيم الوزن بما أثبتناه.
(٢) مدينة كبيرة عظيمة بالصعيد الأعلى انظر ذكرها فى معجم البلدان.

سجادته و قال له: انظر، فنظر فاذا كنز ذهب تحتهـا، فقال التاجر: يا سيدى! هذا ذهب. فقال الفقير: من يكون هذا الكنز تحته يطلب ألف دينار! و إنما طلبتها لأنظر هل أحد يعطيها أم لا، فلما أعطيتنيها علمت أنك من كرماء الناس، و لكن خذها و خذ الكنز لك. وتركه الفقير و مضى إلى حال سبيله، فأخذ الرجل الكنز و الألف، و بنى من ذلك الكنز مدرسة بقوص. و صار يكرم بها الفقراء. قال بعضهم يمدح كريما:

من عود الناس باحسانـــه و عم بالفضل جميع الأنام
تزدحم الناس على بـابــه و المنهل العذب كثير الزحام

كتب بعض الفقراء لغنى بيتين:

و لقدقصدتك حين جربت الورى فوجـــدت مثلك بينهم معدوما
و إذا الحوادث صيرتنى سائلا لا تجعلـنّى سـائـــلا محروما

فأحسن إليه و وصله.

سأل بعضهم بخيلا فقال. هب لى دينارا! فقال المسؤل: لقـــد صغرت عظيما، أما تعلم أن الدينار عشر العشرة، و العشرة عشر المائة، و المائة عشر الألف، و الألف ديتك - انصرف بسلام. فالبخيل يملأ بطنه و هو جائع، و يحفظ ماله و العرض ضائع.

هجا بعض المقلين رجلا متمولا متكبرا، و ذم زمانـــه و نفسه أيضا فقال:

يتحى سوء خلق على النا س و نفس ظلومة كفـاره

ما له ميزة علىّ سوى أن له بغلة و ما لى حماره
شاب رأسى و ما رأست كأنى[1] زامر الحى أو صغير الحاره
أحسب الزهد هينا[2] و هو حرب لست منه و لا من النظاره
و لو أنى وحدى لكنت مريدا فى رباط أو عابدا فى مغاره ٢٠٠/ب
لا تكلنى على سواك فأحيا ر زمانى ما يمنحون خياره
و وجوه القصاد فيه حديد و قلوب الأجواد فيه حجاره

قال الحسن : لم أر أشقى بماله من البخيل ، فانه مهتم فى الدنيا بجمعه ، و فى الآخرة محاسب بمنعه ، غير آمن فى الدنيا من همه ، ولا ناج فى الآخرة من إثمه ، عيشه فى الدنيا عيش الفقراء ، وحسابه فى الآخرة حساب الأغنياء .

و يقال : مثل الأغنياء البخلاء كالبغال و الحمير تحمل الذهب و الفضة ، و تعتلف التبن و الشعير ، فان سالمتهم ولم تطلب رفدهم أحبوك ، و إن سألتهم شيئا[3] من مالهم كرهوك . فاطلب من ربك ، فانك إن تركت سؤاله أغضبك ، لأنه كريم يحب من يسأله ، و قالوا فى معناه :

الله يغضب إن تركت سؤاله و بنى[4] آدم حين يسأل يغضب

وقال لقمان لابنه : يا بنى ! مضغ الصخر و بيع الجمر أهون مسلكا من مسألك الفقر ، لأن الفقر يشين الوجه الصبيح ، و يعجم اللسان الفصيح .

---

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الثانى للأول .
(٢) فى الأصل : هين .
(٣) فى الأصل : شيء . (٤) فى الأصل : و بنى .

قال بعضهم :

أمر و أمضى من سموم الأراقم ... و أوجع من ضرب السيوف الصوارم
وقوف فتى حر أديب مهذب ... باب لئيم عند بذل المكارم
و كم من فتى ¹حر أديب مهذب¹ ... يروح و يغدو صائما غير صائم
فلو كانت الأرزاق تأتي بحيلة ... لكنت حيولا عند كسب الدراهم
و لكنها تجرى على الخلق كلهم ... بقسمة قسام و حكمة حاكم
يفوت الغنى من لا ينام عن السرى ... و آخر يأتي رزقه و هو نائم

وقال بعضهم :

فلو كانت الأرزاق تجرى بحيلة ... لأدركت منها ما أريد بحيلتى
و لكنها تجرى بأمر مقدر ... له الحكم فيها لا بحولى و قوتى

و قال بعضهم :

هو الرزق لا حل لديك و لا ربط ... و لا أدب يعطيك رزقا و لا حظ
و ما الرزق و الآحال إلا مواهب ... فأرض بها خصب و أرض بها قحط
فأرزاقنا مقسومة فكأننا ... طيور لنا فى كل ناحية لُقَط
فطير يطير الجو يطلب رزقه ... و آخر يأتي رزقه و هو لا يخطو
تحط صروف الدهر كل مهذب ... و ترفع نذلا يستحق له الحط
فيا موت زر إن² الحياة ذميمة ... إذا انحطت البازات و ارتفع البط

قال بعض الوعاظ .

(١ - ١) فى الأصل : حرا اديبا مهذبا .

(٢) فى الأصل : لان ، وما أثبتناه يستقيم به الوزن .

كم عالم يسكن بالكرى و كم جاهل له قصور و قرى
فلما نزل "نحن قسمنا بينهم" ارتفع الجدال و المرا

قال النبي صلى الله عليه و سلم : أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء و إن كان محقا . و ينبغى للانسان أن لا ييأس من رحمة الله تعالى ، فان اليأس كفر . قال بعضهم :

و لا تيأس فان اليأس كفر لعل الله يغنى بالقليل
و لو أن العقول تسوق رزقا لكان المال عند ذوى العقول

و مما قيل فى العقل :

العقل لا يقدر أن يحده إلا إله العالمين وحده
لأنه خصيصة أودعها فى الآدمى جل من أبدعها
و كل ذى روح له إلهام تعجز عن إدراكه الأفهام
كالنحل خص بديع الهندسة حتى بنى بيوته مسدسة
و هكذا خصائص الأحجار من حكمة المهيمن الجبار

و ليست الأرزاق تجرى على قياس ، فقد يكون الجاهل كثير المال ، و العالم فقيرا . قال الشاعر :

كم من حمار له حمير و كم لسيف بلا حمار
و كم سويدا لها خمار و ألف بيضا بلا خمار

فينبغى للانسان الصبر على الفقر ، فان الصبر حيلة من لا حيلة له ، و المسألة كسب من لا كسب له . قال بعضهم :

إذا جمعت بين امرأين صناعة و أحببت أن تدرى الذى هو أحدق
فحيث يكون الجهل فالرزق واسع و حيث يكون الحذق فالرزق ضيق

و قال بعضهم:

كم جاهل يسرف فى عزه و عالم و القوت لم يجزه
يمـوت موت الدود فى قزه قد يرزق العاجز فى عجزه
و يحرم الكيس مع فطنته

و قال بعضهم:

فى المصر ألف أغنياء بجمعهم و ألوف شتى ليس تملك قوتا
لو قسمت أرزاقهم بسوية لم نعط شيئا فوق ما أعطيتا

٢٠/ب / و قال آخر:

أتظن رزقك تحتويه بقوة هيهات أنت بباطل مشغوف
رعت النسور بقوة جيف الفلا و رعى الذباب الشهد و هو ضعيف

و قال بعضهم:

لك رزق على الإلـٰه مقدر لو تخيرت عرقه ما تأخر
فرغ الله منه من قبل هذا فاتق الله فالضمان مقرر
يا ضعيف اليقين من ذا سواه كان غذاك فى الحشاء و صور
أفيسناك حين أصبحت شيخا يا ضعيف اليقين كم تتضجر
فارض عنه، إن أقاتك ملحا و أقات الغنى لوزا و سكر
أنت فى الحيلة التى أنت فيها ساخطا و هو بالمصالح أخبر

و قال

و قال بعضهم :

مثل الرزق الذى تطلبه مثل الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه مستعجلا و إذا وليت عنه تبعك

روى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لابنى خالد : لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما ، فإن الولد تلده أمه أحمر[1] عليه قشر ، ثم يرزقه الله تعالى .

كان بعضهم يقول فى دعائه : اللهم ! إن كان رزقى فى السماء فأنزله ، و إن كان فى الأرض فأخرجه . و إن كان بعيدا فقربه . و إن كان قريبا فيسره ، حتى لا أكون حريصا فى تعجيل أمره و لا تأخيره . إنك على كل شىء قدير .

نقل عن الجنيد أن أصحابه أبطأ عليهم الرزق فكلموه فى ذلك . فقال : إن عرفتم للرزق مكانا بعينه فاذهبوا إليه فخذوه . فقالوا : فندعو الله و نؤمن على دعائك أن يرزقنا . فقال : إن وقع لكم أنه نسيكم فذكروه . فقالوا : فنغلق إذا الأبواب علينا و ندع الأسباب و ننتظر الأرزاق . فقال : التجربة شك . قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

سؤال على كلام الجنيد . إن قلت : عرض عليه أصحابه ثلاث خصال كلها محمودة فى ظاهر الحال شرعا فما وجه رده ؟ قيل : الخصلة الأولى فالاكتساب و تعاطى الأسباب . قد علم أن السبب سنة . و أنه لا ينافى ٢٠٢/الف
التوكل . قال الله تعالى[2] : "يأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبت ما كسبتم" .

---

(١) فى الأصل : أحمر . (٢) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٦٧ ، و فى الأصل «كلوا» و هى من آية أخرى (٢ : ١٧٢) .

الخصلة الثانية : الدعاء ، و قد علم أنه مأمور [به] شرعا و مامور به دنيا ، قال الله تعالى[1] : " ادعونى استجب لكم " . الخصلة الثالثة : التوكل و ترك الأسباب ، و قد علم أنه محمود و أنه حال الخواص ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لو توكلتم على الله حق اتكاله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا و تروح بطانا . و الطير لا تكتسب ، و لكنها تصادف رزقها فتأخذه بلا علاج و لا تعب .

قال موسى عليه السلام عند مناجاته لربه : يا رب ! كيف قمت أرزاق خلقك على اختلاف صورهم ، و كثرة عددهم ؟ فأوحى الله عز و جل إليه : يا ابن عمران ! إن الخلق فى قبضتى كحبة خردل ملقاة بفلاة من الأرض ، و إن إحاطتى بهم أكثر من إحاطة الفلاة بالحبة . أرزق البعيد و القريب ، و العظيم و الصغير ، و المؤمن و الكافر ، و لا يتعذر ذلك على لقوة الإحاطة . قال : يا رب ! فكيف ترزقهم و لا تفنى خزائنك ؟ قال : إنى[2] أضرب لك فى ذلك مثلا ، إذا جاء الليل فمر بنى إسرائيل أن لا يضرموا نارا و لا يوقدوا مصباحا ، ثم اجعل مصباحا على باب خيمتك ، و مرهم أن يقتبسوا منه . ففعل ذلك موسى ، فجعل هذا يوقد مصباحه ، و هذا شعلته ، و هذا ما يحتاج إليه ، حتى أوقد الكل من سراجه ، و بقى سراجه على ما هو عليه . فأوحى الله إليه : يا ابن عمران ! أنقص من سراجك شىء ؟

---

(١) قرآن كريم سورة ٤٠ آية ٦٠ .

(٢) فى الأصل : ان .

قال : لا يا رب ! قال : إذا كان هذا حكم سراجك فما حكم خزائن أمدها بلطفي و أحوطها بحفظي ! فقال : سبحانك ! لا إله إلا أنت ، لا تنقص خزائنك ، و لا يبيد سلطانك .

قال مالك رحمه الله : من كانت له دار و خادم و كفاف فقد أوتي ملكا عظيما . و عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : انظروا إلى من هو أسفل منكم ، و لا تنظروا إلى من هو فوقكم ، / فهو ٢٠٢/ أحدر [أن - [1]] لا تزدروا نعمة الله عليكم - خرجه مسلم . و عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : يقول العبد : مالي مالي ! إن ما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى أو[2] لبس فأبلى . أو أعطى فاقتنى ؛ و ما سوى ذلك فهو ذاهب و تاركه للناس - خرجه مسلم .

قال سري السقطي : قلت للبهلول : إن الخبز قد غلا . فقال : و الله لا أبالي و لو بلغت كل حبة قمح بدينار ، علينا أن نعبده كما أمر ، و عليه أن يرزقنا كما وعد .

و اعلم أن محبة الغنى مع اختيار الله تعالى لعبده الفقر سخطة ، و محبة الفقر مع اختيار الله لعبده الغنى حرج . و كل ذلك هرب من الشكر لقلة المعرفة ، و تضييع الأوقات من قصر العلم . و ذلك أن إيمان الغني لا يصلحه الفقر ، و إيمان الفقير لا يصلحه الغنى ، كما جاء في الحديث يخبر أن الله تعالى

---

(١) زيد من صحيح مسلم .

(٢) من الصحيح ، و في الأصل « و » .

يقول: إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، و لو أفقرته لأفسده ذلك . و إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ، و لو أغنيته لأفسده ذلك . وكذلك فى الصحة و السقم ، فمن عرف الله لم يتهمه ، و من فهم عنه رضى بقضائه ، و لو لم يكن لأهل العلم إلا هذه الآية لكفتهم ،" و ربك يخلق ما يشاء و يختار ما كان لهم الخيرة[1]" فان من صدق الله نصحه ، و من تزين لغيره فضحه ، و من توكل عليه كفاه . و من وثق بغيره مقته ، و من خافه أمنه . و من شكره زاده ، و من أطاعه أكرمه ، و من آثره أحبه .

و اعلم أن من سعادة المرء حسن النية فيما عند الله ، و التوفيق لمحابه[2] ، و من أراد الله به خيرا وهب له العقل ، و حبب إليه العلم ، و حباه بالإشفاق ، و استعمله بالرفق ، و أغناه بالقناعة ، و بصره عيبه . و أما

٢ / الف الزهد و القناعة / ففيهما خير كثير ، و ذلك أن الزاهد فى الدنيا يريح قلبه و بدنه فى الدنيا و الآخرة ، قال بعضهم :

لو تجزيت بالقليل كفاكا و ترفهت قل فيه عناكا
تجمع المال بعضه فوق [بعض-[3]] و تخليه وافرا لسواكا

و اعلم أن الرزق لا يكون إلا بالجهد . ألا ترى أن يعقوب عليه السلام كان حريصا على رؤية يوسف عليه السلام ، و الإخوة كانوا

(١) قرآن كريم سورة ٢٨ آية ٦٨ .
(٢) فى الأصل : لمحابه - كذا بالجيم.
(٣) ساقطة من الأصل .

فيه

فيه من الزاهدين! فالأرزاق بالتقدير لا بالتدبير. وكيف تفيد الحيل و ربنا عز و جل يقول[1]: "لكل اجل كتب" فالعاقل يقتصد و يسلم الأمر لخالقه، يريح بدنه و قلبه، قال بعضهم:

دعنى فلن أخلق دياجتى   و ليس أبدى للورى حاجتى
منزلتى يحفظها منزلى   و باجتى تحفظ دياجتى

و قال بعضهم:

لا تظهرن لحاسد أو غادر   حاليك فى السراء و الضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة   فى القلب مثل شماتة الأعداء

واعلم أن الغنى غنى النفس. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ليس الغنى عن كثرة العرض، لكن الغنى غنى النفس، و الله ما أخشى عليكم الخطأ، و لكن أخشى عليكم العمد، و ما أخشى عليكم الفقر، و لكن أخشى عليكم التكاثر. قال بعضهم:

إن الغنى هو الغنى لنفسه   و لو أنه عارى المناكب حافى
ما كل ما فوق البسيطة كافى   فاذا قنعت فكل شىء كافى

يقول الله تعالى فى بعض كتبه المنزلة: يا ابن آدم! كل يوم ينقص من عمرك و أنت لا تدرى، و توفى[2] كل يوم رزقك وأنت لا تحمد، فلا بالقليل تقنع، و لا بالكثير تشبع؛ يا ابن آدم! ما من يوم إلا و يأتيك من عندى رزق و تعصينى، و أنت تدعونى أستجيب لك، خيرى إليك نازل،

---

(١) قرآن كريم سورة ١٣ آية ٣٨.

(٢) فى الأصل: توف.

و سوء عملك إلىّ صاعد . فنعم المولى [أنا] و بئس العبد أنت لى ! تسألى فأعطيك . و أستر عليك فضيحة / بعد فضيحة ، و أستحى منك و أنت ٢٠١/ ب لا تستحى منى ، تنسانى و تذكر غيرى . و تخاف مقتهم و تأمن غضبى .

و قال الله فى بعض كتبه المنزلة : يا عبدى ! لو أعطيتك الدنيا بحذافيرها لم ينلك[1] منها إلا القوت ، فاذا أنا أعطيتك القوت و حملت حسابها على غيرك ، فقد أحسنت إليك . قال بعض الصالحين : لأن يغنيك الله عن الدنيا خير لك من أن يغنيك بها ، فوالله ما استغنى بها أحد قط ! وكيف يستغنى بها بعد قوله تعالى[2] : " قل متاع الدنيا قليل " ! قال بعضهم :

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها
فمن طلب الأعلى من العيش لم يزل فقيرا من الدنيا أسير غبونها
فانى رأيت النفس تتعب دائما و تطلب دنياها باتلاف دينها

قال الشبلى : الدنيا قدر تغلى ، وكيف يمتلى ، فالحذر الحذر من الفقراء البطالين ، الطالبين الدنيا بالدين ! فهم الذين غيروا الطريق ، و حادوا عن التحقيق ، و تحيلوا على اصطيادهم الدرهم و الدينار ، من الملوك و الأمراء و التجار ، ومن عوام الناس ، ليصيروا بذلك أغنياء بالحيلة على طلب الدنيا .

و سأذكر ما قيل فى حيلة فقير ، حير بها فهم الكبير و الصغير ، لأخذه منهم الدنانير ، بالحيلة التى قيل : إنها أصح من قبيلة . و ذلك أن

---

(١) فى الأصل : لم ينالك .

(٢) قرآن كريم سورة ٤ آية ٧٧ .

بعض الفقراء قال لزوجته : قد ترين[1] ما نحن فيه من الذل بسبب القل ، و قد عزمت [أن - [2]] أعمل حيلة تحير الأفكار ، فان ساعدتنى عليها حصل لنا من المال ألف دينار . فقالت : أرشدنى إليها حتى أساعدك عليها . قال : عزمت أن ألزم نفسى عند سارية من سوارى الجامع الذى بالمدينة الفلانية مدة سنة كاملة لا أفارقها ليلا و لا نهارا أصلى عندها ، و أريد منك أن تأتى إلى الميناء المقابلة لباب الجامع ، تدخلينها[3] قبل / الفجر فى صفة رجل ، تجعلين[4] فى ركن بيت الماء الفلانى شيئا من اللوز ٢٠٤/الف و الزبيب المدقوق المعجون يكون مقدار رطل ، فمن دخل بيت الماء قبلى و رآه ، ظن أنه رجيع ابن آدم ، فلا يقدم عليه ، و أدخل أنا آكله و أشرب عليه من الماء الذى بحوصه المعد للاستنجاء ، و أعود إلى مكانى عند السارية ، فاذا تم[5] ذلك ، تم الاختيار و حصلنا بحيلتنا ألف دينار . فاتفقا على ذلك ، و سافرا من بلدهما إلى تلك المدينة ، و أقاما بها مدة سنة ، و الناس ينظرون إلى صلاته و اجتهاده فى العبادة ، فيقولون : سبحان من

---

(١) فى الأصل : ترى .

(٢) ساقطة من الأصل .

(٣) فى الأصل : تدخليها .

(٤) فى الأصل : تجعلى .

(٥) فى الأصل : فأتم . ـ و بهامشه : لعله فاذا تم . و يستقيم بذلك المعنى . و قد يكون غير ذلك بسبب سقوط بعض الكلام بدليل النقص الواضح فى هذا الجزء من القصة .

رزقه السعادة بقوته على العبادة و الزهادة ! و صاروا يعرضون عليه الطعام المأكول و الماء المشروب، فيأباهما بالإشارة من غير أن يسمعوا منه الكلمة الواحدة، فتحدث الناس به و اشتهر أمره، و انتشر ذكره، فقوم يقولون[1]: هو ساحر، و قوم يقولون[1]: هو ولى من أولياء الله تعالى، و قوم يقولون: هو أخرس. و أجمع رأيهم على أنه ولى صالح. فلما كان قريب السنة نطق و تكلم، و بلسانه ترجم، ففرحت الناس بكلامه. فسئل عن عدم نطقه قبل ذلك فقال: إنى دائما صامت[2]، لا أتكلم إلا بذكر الله فى سرى، و رأيت أقواما لا يطمئنون فى صلاتهم، و الطمأنينة فى الصلاة ركن من أركانها، و خفت من الإثم الذى يحصل لى على عدم تعليمهم، و كذلك مسابقتهم للامام، فرأيت أن إعلامهم بذلك أفضل لى من الصمت لأبرأ من الإثم. فقالوا: أيها الشيخ الصالح! علمنا و فهمنا، و للحق أرشدنا، فقال: افهموا عنى، و اسمعوا منى، فنصت القوم لكلامه. فقال: اعلموا أن أكثر الناس يتركون صلاتهم و هم يصلون! قالوا: و كيف ذلك / أيها الشيخ الصالح؟ قال: لسبقهم ٢٠/ب الإمام فى السجود و الخفض و الرفع، و قد جاء فى الحديث: يأتى على الناس زمان يصلون و لا يصلون. فاتقوا الله و انظروا فى صلاتكم و صلاة من يصلى معكم، و اعلموا أن الشيخ الصالح المحاسبى قال فى كتابه: لو أن رجلا أحسن الصلاة و أتمها و أحكمها، ثم نظر إلى من

(١) فى الأصل: يقولوا.

(٢) فى الأصل: صامتا.

أساء فى صلاته فضيعها، و سابق الإمام و سكت عنه و لم يعلمه إساءته فى صلاته و تضييعه لها، و مسابقته للامام فيها، فلم ينهه عن ذلك و لم ينصحه فيها، كان شريكه فى الإساءة و التضييع، و كان شريكه أيضا فى إثم ذلك و وزره، و بذلك جاءت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه و سلم و عن أصحابه، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: من رأى من يسيء فى صلاته و لم ينهه فهو شريكه فى وزرها و عارها. فالمحسن فى صلاته شريك المسيء فى صلاته فى وزرها و عارها إذا لم ينهه و لم ينصحه. و جاء عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه! فان تعلم الجاهل واجب على العالم لازم له، ما كان له الويل فى السكوت عنه [إلا] لتركه تعليمه. فاتقوا الله فى أموركم عامة و فى صلاتكم خاصة، و اتقوا الله فى تعليم الجاهل، فان تعليمه واجب لازم، و التارك لذلك مخطئ آثم؛ فأمروا أهل مسجدكم باحكام الصلاة و إتمامها[1]. و لا يكون تكبيرهم إلا بعد تكبير الإمام، و لا ركوعهم و سجودهم و رفعهم و خفضهم إلا بعد فعل الإمام، فانه جاء فى الحديث أن كل راع مسؤل عن رعيته. و قد قيل: إن الإمام راع لمن يصلى به خلفه، فما أولى الإمام بالنصيحة لمن خلفه أن ينهاهم عن المسابقة فى الركوع و السجود، و أن يركعوا / و يسجدوا مع الإمام. و أن ٢٠٥/ الف يأمرهم بأن يكون ركوعهم و سجودهم و رفعهم و خفضهم بعده، و أن يحسن آدابهم و تعليمهم، إذ كان راعيا لهم، فكان غدا مسؤلا عنهم.

(١) فى الاصل. تمامها.

فلما سمعت الناس منه ذلك تعلقت[1] قلوبهم به ، و ازدادوا فيه رغبة ، و قالوا : هذا من العلماء الأولياء ، هذا من أكابر الصالحين المتقين الورعين الزاهدين . فهرعت إليه الناس من كل جانب و مكان ، يؤثرونه بالإحسان . و يتقربون إلى قلبه بأعز ما كان ، و هو لا يقبل منهم شيئا ، فازدادوا فيه محبة و رغبة . فلما انقضت السنة قال لزوجته فى الميضأه على جارى عادته وقت الفجر : الآن تمت الحيلة ، فاذا كان فى انصراف الناس من صلاة الصبح تأتين[2] الجامع [3]متبرزة و تعلقين[3] بى . و علّمها ما تقوله له . فلما سلم الإمام من صلاة الصبح ، أتت المرأة و جعلت تشق بين الناس ، و الناس ينظرون و يتعجبون من أمرها فقيل لها فى ذلك فقالت : أريد الشيخ الصامت الناطق بعد صمته . فأرشدها[4] الناس إليه ، و قالوا : هذه سمعت صلاحه . فأتت إليه تلتمس بركته . فلما رأته تعلقت به و صرخت و قالت : يا أهل الجامع ! هذا الزنديق المرائى الفاجر قتل ولدى و ثمرة كبدى ، و لى سنة أطلبه فى البلاد ، و قد دللت عليه ، و ها هو ! فتحملوه معى إلى السلطان يصفنى منه ! و ولولت و استغاثت ، و صرخت و أعولت[5] فصاح الناس عليها و ضجوا و ماجوا و قالوا . تكذبين يا عدوة الله ! تأتين[6] لرجل من الأقطاب

(١) فى الأصل : تعلق .

(٢) فى الأصل : تاتى .

(٣-٣) فى الأصل : متبزرة و تتعلقى .

(٤) فى الأصل : فارشتها .

و ولى الرحمن ترمينه[1] بالفجور و تكذبين عليه، و تسندين الباطل إليه . فقال لهم: دعوها تقول ما تقول، و تفعل ما تفعل، فان الحق معها، أنا قاتل ابنها . فلما سمعوا منه ذلك تركوها و أقبلوا عليه / و قالوا: أيها ٢٠٥/ب
الشيخ! كيف قتلته و أنت ولى من أولياء الله تعالى، [2]ورع زاهد[2] فى الدنيا . فقال: و الله ما تعمدت قتله! و إنما أمرته بالصوم لما صار مريدا لى طالبا طريق الفقراء، فصام أياما كثيرة، و صار يأكل عند الإفطار قليلا عن عادته، و يتدرج بالاختصار فى الأكل . فتغيرت عليه العادة، فرق جسمه، و نحل بدنه . و كان رحمه الله راغبا فى الخير قصد أن يسير ما أنا عليه من السير، فلم يطق ذلك فمات طائعا لله، و أنا كنت السبب فى وفاته، دعوها تصنع بى ما تريد! فأقبلوا عليها و قالوا: أيتها المرأة! الرفق أولى بك . فقالت و هى تصيح و تستغيث: لا أصبر و لا أريد إلا قتله كما قتل ولدى و أفجعنى فيه، و هو واحدى من الدنيا . قال: يا قوم! الأمر لله، دعوها تقتلنى، و الله ما لى فى الدنيا أرب! و إنى أحب الموت شوقا إلى لقاء ربى لأتخلص من هذه الدنيا، و أصير إلى جنة المأوى، برحمة المولى؛ ثم قال:

لو لم يلذ الموت فى حبكم لم أصبُ نحو البرق و هو حسام
و ما اعترضت نار قلبى فى الهوى[3] و لكل نار بالنسيم حزام
صبٌ يرى نار الصبابة أنها فى حبكم برد له و سلام

---

(١) فى الأصل: ترميه .

(٢) فى الأصل: ورعا زاهدا .

(٣) نقلنا الكلمة من الشطر الثانى للأول .

فبكى الناس و ضجوا و ماجوا [و قالوا] للمرأة : يا هذه ! دعيه و علينا دية ولدك . فقالت : أبدا لا أقبل فيه دية . و لا أريد إلا قتله . فلم يزالوا يسألونها و يتضرعون[1] إليها إلى أن رضيت بأخذها الدية ، فجمعوا لها من بين التجار ألف دينار ، فلما قبضت المال ذهبت هي و هو ، فلم يعلم لهما خبر ، و لا وقع أحد لهما على أثر . فتعجب الناس من غيبته ، و علموا أنه أخذ ذلك المال بحيلته .

فانظر إلى فعل المرغدين : و أكلهم الدنيا بالدين ، فالمستور بأثواب غروره مكشوف ، و المتبهرج بدعواه يرد عليه الزيوف . قال بعضهم :

قالوا فلان جيد فأجبتهم   لا تكذبوا ما فى زمانك جيد
٢/ألف / فغنيهم نال الغنى بخديعة   و فقيرهم بصلاته يتصيد

و قال بعضهم :

يا فقيه اللسان يا جاهل القلب   يا جميل الأقوال لا الأفعال
أنت أنت الذى جلست لتهدى   من ضلال و أنت عين الضلال
باطن مظلم و لفظ مضىء   يا خبيثا جمعت شر الخصال
منك للخلق ظاهر مستقيم   و يرى منك ضده ذو الجلال

قال سحنون : لأن أطلب الدنيا بالدف و المزمار أحب إلى أن أطلبها بالدين . و قد تقدم ترجمة القاضى سحنون فأغنت عن الإعادة .

و قال بعضهم : يأتى على الناس وقت ، الرجل فيه أكبر همه قوت

(١) فى الأصل : يتصرعوا .

يومه

يومه . وكان القاضى عبد الوهاب بن نصر المالكى البغدادى فقيرا ببغداد ، لا يملك شيئا من الدنيا ، و كان محبا فى الإقامة بها ، لا يريد مفارقتها ؛ فأنشأ يقول حيث قال :

بغداد دار لأهل المال طيبة و للمفاليس دار الضنك و الضيق
ظللت حيران أمشى فى أزقتها كأنى مصحف فى دار زنديق

ثم أنشأ أيضا يقول :

فو الله ما فارقتها عن قلى بها و إنى بشطى جانبيها لعارف
و لكنها ضاقت علىّ بأسرها و لم تكن الأرزاق منها تساعف
فكانت كخلّ كنت أهوى دنوّه وأخلاقه من شؤم قسمى تخالف

روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : ارحموا ثلاثة : غنى قوم افتقر ، و عزيز قوم ذل ، و عالما يتلاعب به الجهال . و قال الشافعى رحمه الله : أربعة مرحوم : عزيز ذل ، و غنى فقر ، و حبيب مل ، وفقيه ضل .

ثم إن القاضى عبد الوهاب ببغداد قصد الخروج منها و التوجه إلى مصر ، فلما انصرف عنها حول وجهه إلى جهتها و قال : يا بغداد ! لو كان لى بك رغيفان فى كل يوم ما خرجت منك . و سار إلى أن أتى مصر ، فانتشر علمه بها و ظهر ، و آل أمره إلى أن صار قاضيا بها متمولا ، و صار يدعى بالقاضى عبد الوهاب . ثم إنه لما مرض ٢٠٦/ب
مرض الموت ، قالت له زوجته : كيف تجدك ؟ قال : لما عشنا متنا -

و مات من مرضه ذلك ، وكانت وفاته سنة أربع و عشرين و أربعمائة[1] .

قال بعضهم :

و ما المرء فى الدنيا و إن نال غاية   من العيش إلا كالخيال الذى يسرى
كضيف أتى ليــلا فحط ركابه   فلما أضاء الفجر ولّى مع الفجر

قال بعض الصالحين : دخل علىّ شخص و أنا فى مغارة فقال : قيل لى . إن عندك صنعة الكيمياء ، فقلت له : أعلمها لك و لا أغادرك منها حرفا إن كنت قابلا ، و ما أراك قابلا ، فقال[2] : إنى و الله أقبل ، فقلت له : أسقط الخلق من قلبك و اقطع الطمع من ربك أن يعطيك غير ما سبق لك ، فقال لى : ما أطيق هذا ، فقلت له : ألم أقل لك : إنك لا تطيق ؛ فانصرف بسلام .

و قال بعضهم يذكر شقوته فى طلب الكيمياء و لم يحصل له منها غير المقت من الخلق :

تعلمت عــلم الكيمياء لشقوتى   و لم أخل فيها قط يوما من العمل
فسوّدت عرضى ثم بيضت مقلتى   و صفرت بين الناس وجهى من الخجل
و ما أنا ممن يجهل العلم قــدره   و لكنى ممن أراد و لا وصل

قال لقمان لابنه : لا تركن إلى الدنيا ، و لا تشغل قلبك بحبها ، فانك لم تخلق لها . و ما خلق الله خلقا أهون عليه منها ، لأنه لم يجعل

(١) يقابلها سنة ١٠٣٢ - ١٠٣٣ م .
(٢) فى الأصل : فقلت .

نعيمها ثوابا[1] للطيعين، و لم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين . و أنشد بعضهم فى معناه :

و لو كانت الدنيا ثوابا لمحسن إذا لم يكن فيها معاش لظالم
فقد جاع فيها الأنبياء كرامة و قد شبعت فيها بطون البهائم

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إذا سددت كلب الجوع عى رغيف و كوز من الماء[2] القراح ، فعلى الدنيا و أهلها منى الدّبار[3] .

عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : عرض عليّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا يا رب ! و لكن أشبع يوما و أجوع يوما . فإذا جعت تضرعت إليك و ذكرتك ، و إذا شبعت شكرتك و حمدتك - ذكره الترمذى .

عن أبي هريرة أنه مر بقوم / بين أيديهم شاة مصلية فدعوه ، فأبى أن يأكل و قال : خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم و لم يشبع من خبز الشعير - ذكره البخارى . ٢٠٧/الف

عن أنس : و لقد رهن النبى صلى الله عليه و سلم درعه شعيرا ، و مشيت إلى النبي صلى الله عليه و سلم بخبز شعير و إهالة ، و لقد سمعته يقول : ما أصبح لآل محمد إلا صاع . و لا أمسى و إنهم لتسعة أبيات -

---

(١) فى الأصل : ثوبا .
(٢) فى الأصل : ماد .
(٣) أى الهلاك .

ذكره البخاري .

عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يبيت الليالى المتتابعة طاويا و أهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير - ذكره الترمذى .

عن عائشة قالت : لما مات عثمان بن مظعون ، كشف النبى صلى الله عليه و سلم الثوب عن وجهه ، و قبل بين عينيه ، و بكى بكاء طويلا . فلما رفع على السرير - يعنى النعش - قال : طوبى لك يا عثمان ! لم تلبسك الدنيا و لم تلبسها .

قال بعضهم : أذل الله العباد بخصلتين : الموت و الفقر ، فلو لا الموت لما خضع كل جبار عنيد ، و لو لا الفقر لما خدمت الأحرار العبيد . قيل : إن رجلا جاء إلى الشبلى يشكو إليه كثرة العيال ، فقال : ارجع إلى بيتك فانظر ، فمن ليس رزقه على الله فاطرده عنك . و قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حين عاتبه مسلمة بن عبد الملك فى ولده : إنى لم أمنعهم شيئا هو لهم ، و ما كنت بالذى أفقر نفسى عبد الله لغناهم ، إن يكونوا أتقياء فسيجعل الله لهم مخرجا ، و أن يكونوا مكبين على الدنيا و المعاصى فما كنت بالذى أقويهم على ذلك . ثم نظر إليهم و هم بضعة عشر ذكرا فقال : أى بنى ! إنى مثلت نفسى بين أن تستغنوا و يدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا و يدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا[1] و يدخل الجنة أحب إلى من أن تستغنوا و يدخل النار . قوموا عصمكم الله ! يعنى عمر بقوله :

[1]) فى الأصل : تفتقر .

أنى

أنى إن أغنيتكم من بيت مال المسلمين ، فأكون قد ظلمت المسلمين فى مالهم / الذى أعطيكموه حتى تستغنوا به ، فأدخل بسبب ظلمهم النار ، فاذا ٢٠٧ / ب لم أعطكم من مالهم شيئا أرجو أن أدخل الجنة لعدم ظلمهم و توفيره عليهم ، و إذا تركتم فقراء فالله تعالى بمنه و كرمه قسم لكم رزقا لم تموتوا حتى تنالوه .

قال بنان الحمال : كنت فى طريق مكة و معى زاد ، فجاءتنى امرأة من الصالحات فقالت : يا بنان ! أنت حمال ، تحمل على ظهرك الزاد ، و تتوهم أنه لا يرزقك . قال بنان : فرميت بزادى . ثم أتى على ثلاثة أيام لم آكل فيها شيئا ، فوجدت خلخالا فى الطريق ، فقلت فى نفسى : فلعل يجيء صاحبه فيهب لى شيئا[1] فأرده عليه ، فاذا أنا بتلك المرأة ، فقالت : يا بنان ! و أنت أيضا تاجر ، تقول : حتى يجيء صاحب الخلخال يهب لى شيئا . قال : ثم رمت إلىّ بدراهم و قالت : أنفقها عليك .

قال الشيخ أبو العباس المرسى : قضى الله تعالى بسابق قدرته و لطيف حكمته ألا يظهر باطن لب إلا بعد إزعاج [ظاهر قشرته ، و كلما لطف اللب و حق ، اشتد إزعاج ظاهر قشره -[2]] و قوى . كذلك النوع الإنسانى ، لا يظهر لب حقيقته إلا بإزعاج ظاهر طينته ، و على حسب علو مقامه ، و شرف ما فى وعائه . على حسب إزعاج ظاهره و شدة بلائه . و لهذا قلب فى الأطوار ليظهر ما فيه من كنوز الأسرار ، و لطائف

(١) فى الأصل : شيء .

(٢) العبارة المحجوزة ساقطة من النص و وردت فى هامشه بقلم المصحح .

الأنوار. قال الله تعالى[1]: "و لنبلونكم حتى نعلم المجهدين منكم و الصبرين و نبلوا اخبارکم". و قوله تعالى[2]: "من عمل صالحا من ذكر او انثى و هو مؤمن فلنحيينه حيوة طيبة". قال أهل التفسير: الحياة الطيبة فى الدنيا القناعة. و قال صلى الله عليه و سلم: القناعة كنز لا يفنى. و قال صلى الله عليه و سلم: كن ورعا تكن أعبد الناس، و كن قنعا تكن أشكر الناس، و أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا، و أحسن
٢٠٨/ الف مجاورة من جاورك[3] تكن مسلما، و أقلل من الضحك فان الضحك يميت القلب. و فى الزبور: القانع غنى و إن كان جائعا. قال بعض الصالحين: لما خلق الله تعالى النفس و العقل، جعل لهما خزانتين من خزائن فضله، ثم أذن لهما فى الإنفاق منهما مدة دولتهما. و لما خلق الله القلب و الروح طلب ما جعل للأولين، فقال: و عزتى و جلالى! لأجعلن لكما ما جعلت لهما، لأنكما عندى أجل رتبة منهما، و أعلى قدرا من قدرهما، و لكن أنفقا و أنا أمدكما مددا دائما سرمدا، و لا أقطع عنكما فضلى و لا عطائى أبدا، فانكما فى كنف عزى و ظل قربى و جلالى، و لكما إشارة من المعنى اللآلى، أنفق فلال[4]. و لا تخش من ذى العرش إقلال[4].

و قيل: وضع الله خمسة أشياء فى خمسة مواضع: العز فى الطاعة،

---

(١) قرآن كريم سورة ٤٧ آية ٣١.

(٢) قران كريم سورة ١٦ آية ٩٧.

(٣) فى الأصل: جاور. (٤) كذا لرعاية السجع.

و الذل فى المعصية ، و الهيبة فى قيام الليل ، و الحكمة فى البطن الخالى ، و الغنى فى القناعة . و قيل : لما نطق موسى بذكر الطمع ، و قال للخضر : "لو شئت لتخذت عليه اجرا[1]" - يعنى فى إقامة الجدار الذى أراد أن ينقض[2] ، قال الخضر له : هذا فراق بينى و بينك . قال البوصيرى فى قصيدة له :

و أقيم منقض الجدار و تحته   كنز الوصول إلى المقام السرمد
فلهى جمعا فى الفراق و وصله   من قاطع و ترقيا من مخلد

و قيل . لما قال موسى للخضر : "لو شئت لتخذت عليه اجرا" - يعنى فى إقامة الجدار ، وقف بين موسى و الخضر طبي ، و كانا جائعين ، فأما الجانب الذى يلى موسى فغير مشوى ، و الجانب الذى يلى الخضر مشوى - انتهى .

نعود - و اعلم أن الذى هو أشد من الفقر السؤال ، فان السؤال سم قاتل ، و موت عاجل . قال بعضهم :

بلوت بنى الدنيا فلم أر فيهم   سوى[3] غادر و الغدر منه إهابه

---

(١) قرآن كريم سورة ١٨ آية ٧٧ .

(٢) زيد فى هامشه هنا بخط المراجع : وقف بين موسى و الخضر ظبي و كانا جائعين فاما الجانب الذى يلى موسى غير مشوى و الجانب الذى يلى الخضر مشوى - انتهى» و بالعبارة فى النص و الهامش غموض بسبب النقص فيها و ربما وضح المعنى فيما تلا ذلك من القول .

(٣) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

فجردت من غمد القناعة صارما قطعت رجائى منهــم بذبابه
فلا ذا يرانى واقفا فى طريقه و لا ذا يرانى جالسا عند بابه

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول : المسأله طوق المذلة، تسلب العزيز عزه ، و الحسيب حسبه . و قال بعضهم: حسبك من السؤال أنه يضعف لسان
٢٠٨/ب المتكلم ، و يكسر قلب الشجاع البطل ، و يوقف الكريم / موقف العبد الذليل ، و يذهب بنضرة اللون ، و يمحو الحسب ، و يحبب الموت ، و يمقت الحياة ، فالقناعة باليسير مع الإقلال ، أحس من الكثير يتبعه ذل السؤال.
و أنشدوا فى معناه حيث قالوا :

عزيز النفس من طلب القناعه و لم يكشف لمخلوق قناعــه
كففت يدى عن الأطماع طرا و قلت لفاقتى سمعا و طــاعه

و لبعضهم :

هى القناعة فالزمها تكن ملكا لو لم ينالك إلا راحة البدن

و لبعضهم :

رأيت القناعة أصل الغنى فصرت بأذيالهـا ممتسك
فألبسنى عزهـا خلعـــة يمر الزمان و لا أنهتك
فصرت غنيـــا بلا درهم أمر على الناس شبـــه الملك

و لبعضهم :

كم فاقة مخفيـــة بمروءة و ضرورة مستورة بتحمـل
و كم ابتسام تحته قلب شج قد خامرته لوعة لا تنجلى
لو سود نفم الملابس لا تجد بيض الثياب على امرئ فى محفل

و لبعضهم :

قنعت بالقوت فى زمانى   فصرت فى العز و الأمان
و قد تركت السؤال دهرى   و عشت حرا بلا هوان
مخافة الناس أن يقولوا   فضلُ (١) فلان على فلان
من كنت عن ماله غنيا   رأيته بالذى يرانى

و قال عثمان الموصلى:

تقنع بما يكفيك و استعمل الرضى   فانك لا تدرى أتصبح أم تمسى
و ليس الغنى عن كثرة المال إنما   يكون الغنى و الفقر من قبل النفس

و لبعضهم :

لا تحسبن الموت موت البلى   و إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت و لكن ذا   أشد من ذاك على كل حال

وقف أعرابى على باب أبى الأسود الدؤلى و هو يأكل تمرا، فسأله شيئا، فازدراه أبو الأسود و ظن أنه من جهلة العوام. فقال ٢٠٩/ الأعرابى: إنى وافد محتاج. و ابن سبيل ماص. قد أكلنى الفقر، و أذلنى الدهر. فأعن ضعيفا. و أسعف ماوها. فرمى إليه بتمرة أخرى، فضرب بها الأعرابى وجه أبى الأسود و قال: جعلها الله حظك من عنده، و ألجأك إلى مثلك كما ألجأنى إليك. ليبلوك كما

(١) يقرأ بإسكان اللام لاستقامة الوزن.

أبلانى . ثم قال: عطيـة القوم على [قدر - [1]] أقدارهم ، ثم انصرف و تركه ، فخجل أبو الأسود منه لفصاحته و بلاغته فى سؤاله و جوابه ، و لم يكن معه فى ذلك الوقت ما يعطيه لحسن كلامه .

قال النبي صلى الله عليـه و سلم: أحب الأعمال إلى الله عز و جل سرور يدخله المؤمن على مؤمن ، يطرد عنـــه جوعته ، و يكشف عنه كربته . يقول الله تعالى فى بعض كتبه المنزلة: الأغنياء خزنتى ، و الفقراء عائلتى ، فو عزتى و جلالى! لئن جاعت عائلتى لأعدبن خزنتى .

حكى الشيخ الفقيه أبو إسحاق بن الرشيد ، قال: كنت جالسا عند بعض الرؤساء فى بستانه ، و الخدمة بالمسحاة يخدمون ، فلما جلسوا للغداء ، جلس رجلان منهم أسلسان ناحيـــة ، و أخرج أحدهما غداءه الخبز وحده ، و أخرج الآخر خبزا و جبنا . فسأل الذى ليس عنـــده جبن صاحبه أن يعطيه من جبنه ، فأعطاه شيئا يسيرا جدا ، فقال له بعد أن أخذ: عطية القوم على قدر أقدارهم . فقـال له المعطى: صدقت . فقال له الآخر: ليس هـذا مذهب سيبويه . قال الشيخ أبو إسحـاق: فعلمت أنهما من طلبة العـــلم ، فكلمت صاحب البستان فيهما ، فأحسن إليهما .

و بين الشيخ أبو إسحاق قولهما ذلك . فقال : أراد الآخذ للجبن أن عطيته مصدر مضاف إلى الفاعل ، فالمعطى إنما أعطى / على قدره ، لا على ٢٠٩/ب
قدر الآخذ ، و لما كان اللفظ غير صريح فى هذا ، بل يحتمل أن المصدر

(1) ساقطة من الأصل و ورد بهامشه « لعله : على قدر أقدارهم » .

مضاف إلى المفعول. صدقه المعطى بناء منه على إرادة هذا المعنى الثانى أنه مضاف إلى المفعول. فقال له الآخذ: ليس هذا مذهب سيبويه - يعنى أن حمله على الإضافة إلى الفاعل هو الراجح عند سيبويه. و إنما حكاه الشيخ أبو إسحاق تنبيها منه على أن كثيرا مما يعتقد فيه الجهل ظاهرا يكون فى الباطن على خلافه - انتهى.

قال حسن الخياط: كنت عند بشر الحافى، فجاء نفر فسلموا عليه. فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن من الشام، جئنا لنسلم عليك، و نريد الحج. فقال: نشكر الله لكم. فقالوا: تخرج معنا؟ فقال: بثلاث شرائط: لا نحمل معنا شيئا، و لا نسأل أحدا شيئا[1]، و إن أعطى أحد شيئا[1] لا يقبل. فقالوا: لا نقدر على هذا. فقال: أراكم خرجتم متوكلين على زاد الحجيج لا متوكلين على الله. ثم قال الحسن: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، و إن أعطى لا يأخذ، فذاك من جملة الروحانيين، و فقير لا يسأل و إن أعطى قبل، فذاك يوضع له موائد فى حظائر القدس. و فقير يسأل، و إن أعطى أخذ بقدر الكفاية. فكفارته صدقة.

قال أبو حمزة الصوفى: عاهدت الله تعالى أن لا آكل أمرى إلا إليه، فحججت سنة من السنين. فبينا أنا أمشى فى الطريق إذ وقعت فى بئر. فنازعتنى نفسى أن أستغيث. فذكرت العهد الذى بينى و بين الله أن لا أستغيث. قال: فما استتممت كلامى بهذا الخاطر حتى مر براس البئر

---

(1) فى الأصل: شىء.

رجلان. فقال أحدهما لصاحبه: تعال حتى نسد يا أخي هذا البئر لئلا ٢١٠/الف يقع فيه أحد. قال: فأتيا بقصب و تراب، / و طموا رأس البئر. قال: فهممت أن أصيح. ثم قلت فى نفسى: أستغيث بمن هو أقرب إلى من حبل الوريد. قال: فسكت، قال: فبينما أنا بعد ساعة إذا بشيء قد جاء فنبش عن رأس البئر و دلى لى رجله، يشير إلى أن أمسكها حتى أطلعك منها، فاذا هى رجل أسد فتعلقت بها فرفعنى و تركنى و مضى، و إذا بهاتف يهتف بى: يا أبا حمزة[1] بجيناك من التلف بالتلف. فأنشدت أقول:

نهانى حيائى منك أن أكشف الهوى
فأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى
إلى غايتى و اللطف يدرك باللطف
تراءيتَ لى بالغيب حتى كأنما
تبشرنى بالغيب أنك فى الكف

كتب الشبلى إلى ابن يزدايار أن ابعث لنا شيئا من دنياك، فكتب إليه ابن يزدانيار: سل دنياك من مولاك. فكتب إليه الشبلى: دنياك حقيرة، و أنت حقير، و إنما أطلب الحقير من الحقير، و لا أطلب

(١) زيد هنا فى الأصل: ما دا مليح — و لا محل لذلك فى الجملة و المعنى فحذفناها.

من مولاى غير مولاى - انتهى .

نعود إلى ذكر المعايش و الحرف إن شاء الله تعالى - اعلم أن المعايش و الحرف محمودة . قال بعضهم :

طلب المعاش فريضة يغنى الوجوه عن السؤال
و يعود بالنزر اليسير على الكثير من العيال

قال الأصمعى : كان أعرابيان متواخيين بالبادية . فطلب أحدهما المعاش ، فاستوطن الريف ، و اختلف إلى باب الحجاج بن يوسف الثقفى و سعى عنده فاستعمله على أصبهان ونيها ، فكثر ماله ، و جلس على سرير ، و جعل يحكم بين الناس ، فسمع به موآخيه الذى بالبادية ، فسعى إليه ليدل منه خيرا ، فأقام ببابه حينا لا يصل إليه ، فحمل على نفسه من ذلك و قال : ما أقبح ذل السؤال ! ثم أذن له فى الدخول ، فأخذه الحاجب ، فمشى به و جعل يوصيه و يقول له : سلم على الأمير زيد[1] بأتم سلام . فلم يلتفت الأعرابى لقوله ، و لما رأى زيدا جالسا على السرير لم يبدأه بسلام ، و لا خاطبه بكلام ، دون أن أنشده :

و لست مسلما ما دمت حيا على زيد بتسليم الأمير

فقال زيد : إذا ما أبالى . فقال الأعرابى :

أتذكر إذ لحافك جلد شاة و إذ نعلاك من جلد البعير ٢١٠

فقال زيد : إنى لا أذكر ذلك . فقال الأعرابى :

فسبحان الذى أعطاك ملكا و علمك الجلوس على السرير

---

(١) فى الأصل : زيدا .

فقال زيد: بحمد الله لا بحمدك، و أمر له ببغل و صرفه، فركب الأعرابى ذلك البغل و انطلق، فاذا بغل نفور. فبينما هو كذلك، و إذا هو قد نفر و رمى الأعرابى لصرعه، فلما أفاق من صرعته، أنشأ يقول:

أقول للبغـل لمـا كاد يقتلـــى   لا بارك الله فى زيد و ما وهبا
إذ جاء بالبغـل لما جئت سائله   و أمسك الفضة البيضاء و الذهبا

قال الأصمعى: كنت فى حلقـة فيها سروات الناس، إذ وقف أعرابى و معه ابنتان كأنهما ظبيتان. فقال للكبرى منهما: ارفعى برقعك ليظهر وجهك، و اسألى أعمامك. فأسفرت عن وجه كأنـه الشمس حسنا و جمالا، و قالت بصوت رخيم، و فصاحة منطق:

هل عندكم شيء[1] تواسونا بـــه   لله و الرغبـــة فى ثوابـــه
فقد رمانـا الدهر بانقلابـــه   بمرهفـات من شبا أنيابـــه

فلم يعطها أحد شيئا. فجلست و اندفعت تبكى. فقال للصغرى: يا ابنتى! ارفعى برقعك و اسألى أعمامك. فرفعت برقعا عن وجه كالقمر فى ليلة أربع عشرة[2] و سكت و قالت:

و الله لو لا قـلـة النبـات   و عدم من دهرنـا لم نأت
و لم ير الشيخ مع البنات   يمد أيدينا بهـات هـات

فلم يعطهم أحد شيئا. فأخذ الشيخ بأيديهما، و ضمهما إليه و قال:

بُنَيَّتَىَّ اتبعا أبـاكما   إنكما بعـــين من يراكما

---

(١) فى الأصل: شيئا.   (٢) فى الأصل: اربعة عشر.

إن تبكيا فالدهر قد أبكاكما — لو شاء ربي عنهم أغناكما

فقال الأصمعي: لقد طرح عليهم من الثياب ما حال بيني و بينهم، و من الدراهم ما استغنوا بها . و قالوا لأبيهما: ما أخرنا عنكم العطاء إلا لنسمع حسن منطقهما[1]، و حلاوة مسألتهما[2]، و فصاحة منطقك أيضا، فحمل أبوهما ما اجتمع له و انصرفوا .

وقف أعرابي على قوم يسترفدهم، و قال: أخ في كتاب الله، و جار في بلاد الله، و طالب خير من عند الله . فهل أخ مواس في الله ؟ فأحسنوا إليه لحسن سؤاله .

/ سأل بعض الصالحين رجلا عن رجل، و كان المسؤل يكره ١/٢١١ ذلك، و السائل لا يعلم كراهته . فقال: هو يأكل الحرام، و يأكل ما لا يحل له، فكره السائل منه قوله ذلك، و قال: لعله يأكل السمك الطافي و هو حرام عند قوم، و حلال عند قوم آخرين، منهم الشافعي و غيره . و قد رأى بعض العلماء أن أخذ السمك من البحر ذكاته، بخلاف ما يؤخذ منه ميتا فانه لا يؤكل، و فرق آخرون فيما يؤخذ ميتا بين الطافي و غيره، فمنعوا أكل الطافي، و أباحوا ما عداه . فقال الرجل: يا سيدي ! إنه يأكل المحرمات، خبيث المطعم، فكره أيضا منه قوله ذلك و قال: عسى أنه يأكل الذبيحة التي ترك الذابح لها تسمية الله تعالى عليها

(١) في الأصل: منطقهن .

(٢) في الأصل: مسئلتهن .

عامدا، و هذا حرام عنده جماعة من أهل العلم، و حلال عند غيرهم منهم الشافعى، و يحتمل أيضا أنه يأكل هوام الأرض، و هى محرمة عند جماعة من الفقهاء و محللة عند المالكية. ثم قال الرجل: و هو يحب الغلمان، فقال: لعله يحب ملك الغلمان يتجمل بهم، و يتقوى بجمعهم، و يحتمل أن يكون فيه رقة، يحب من أجلها الصبيان رحمة لهم و رقة عليهم، لأنهم ما عصوا الله عز و جل. فقال الرجل: ما أنا إلا كلما ذكرت حاله، تأولت له الخير. قال: و ما ينبغى أن يتأول للمسلم إلا الخير، فان الشفقة على خلق الله تعظيم[1] لأمره.

قال الواقدى: كنت معلما لأولاد الخلفاء، فلما ولى أحدهم الخلافة كتبت قصة أشكو إليه غلبة الدين، و لزوم الغرماء ببابى، فوقع على ظاهرها: أما بعد، فان الله قد جعل فيك خلتين[2]. و هما الحياء و السخاء، أما الحياء فهو الذى منعك أن تطلعنا على حقيقة حالك، و أما السخاء فهو الذى أوجب ذهاب ما ملكت يمينك، و قد أمرنا لك بمال، فان كنا قد أصبنا مقدار بغيتك، و إلا فزد فى بسط يدك، فان خزائن الله ٢١/ب بالرزق مملوءة، و يده بالخير مبسوطة،/ و كنت أخبرتنى فيما[3] نقل عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: إن الله سبحانه و تعالى ينزل أرزاق

(١) فى الأصل: تعظيما.

(٢) فى الأصل: خلتان.

(٣) فى الأصل: فيمن.

العباد على قدر نفقاتهم ، فمن قَـلل قُـلل له ، و من كثر كثر له . قال الواقدى : و قد كنت نسيت هذا الحديث ، فكان تـذكاره لى أحب إلى من الجائزة التى أمر لى بها .

و قال بعضهم : المعونة على قدر المؤنة . و اعلم أن من ضيق العيش شراء الخبز من السوق . و التنقل من منزل إلى منزل . رأى قوم رجلا نصف لحيته بيضاء و نصفها سوداء ، فسألوه عن ذلك ، فقال : الجانب الأبيض تسارنى جاريتى منه فى وقت فراغ الدقيق فتقول لى فى مجلسى الذى أجلس فيه مع قومى فى أذنى : قد فرغ الدقيق ، فتحملى هم فراغه من كثرة سؤالها إياه ، و تكلفى لشرائـه مع الفاقة ، بيض[1] جانب لحيتى . قال بعضهم فى هذا المعنى :

من عـدم الخبز بـداره مـكتوى مـن حـر ناره
و تـقـوم الأهـل حقـا و بـنـوه[2] و جـواره
و يـنـادون عـلـيـه بالـعـشا[3] و فى نـهـاره
هـات يا هـذا دقـيـقـا ناعما [لى -[4]] من حجاره

---

(١) فى الأصل : ابيض .

(٢) فى الأصل : و بنيه .

(٣) نقلناها من الشطر الأول .

(٤) زيد لاستقامة الميزان .

نخبز الخبز سريعا في التهاب بشراره
تشبع المعدة منه برضى منك و كاره
إن معت الخبز شحا تلتقى منا المكاره

قال بعض العلماء شعرا فى حال فقره و هو :

لعمرى لقد قاسيت بالفقر شدة أقمت بها فى حيرة و شتات
فان بحت بالشكواء[٣] هلكت مروتى و إن لم أبح بالفقر خفت مماتى
فأعظم به من نازل بملمة يزل حياتى أو يزيل حياتى

و قال بعضهم :

إن عضك الدهر فانتظر فرجا فانه نازل بمنتظره
أو مسك العسر و ابتليت به فاصبر فان الرخاء فى إثره

كان بعضهم به حاجة شديدة ، و فاقة و عرى ، و كان ذا مروءة و نخوة ، فقال : إن كدّيت فضحت نفسى ، و إن لم أفعل أمت جوعا ، و إن حملت نفسى على الكدية كيف أخرج عريانا ، فقطع رجاءه وأقام ببيته . فبينما هو فى الليل مضطجع على جنبه ، و عياله لم تناما من شدة جوعه ، و إذا بسارق دخل بيته ، فوضع كارة كان سرقها ، و أتى بها بيت الرجل ليزداد عليها سرقة أيضا ، و كان ملتحفا بملحفة دكناء ، فحلها و نشرها فى البيت ، و صار عريانا يلتمس فى حالك الظلام ما يضعه فيها . فالتمس فلم يجد فى البيت ما يأخذه ، فأخذ صاحب البيت هراوة

كانت إلى جنبه، ضربه بها ضربة أزعجته، فلم يجد له سبيلا غير الهرب، فعند ذلك أخذ صاحب البيت الملحفة ستر بها نفسه، و فتش الكارة فوجد بها دراهم كثيرة، فرمى بالثياب و الملاء فى شارع غير شارعه لئلا تعرف عليه، و أصبح غنيا بالدراهم بعد أن أمسى فقيرا، و مضى السارق خاسرا حقيرا. فاستعار من جاره ما ستر به عورته، و سد جوعته[1].

و اعلم أن بسط اليد للكدية سبب مذموم، و ليته يبسط يده للكدية خاصة، لكن يقول: أنا رجل صالح فأعطونى، ترى ما ذا يبيعهم حتى يعطوه[2]! إن باعهم عمله، فبيع الدين بالدنيا كبيع الثمرة قبل بدو صلاحها، يخشى عليها من جائحة الخاتمة حتى يطلب بالثمن. و ما هناك حبس إلا جهم، فيقعد مفلسا، فالحبس أولى به.

قال الغزالى يحدث: خصلتان خسيستان: اللصوصية و الكدية، يقصدان أن يأكلا[3] مما سعى فيه غيرهما، وقال أيضا: الكدية تزيد على الألفين - يعنى بذلك طرقها، و كل ذلك استنبط بدليل الفكر لأجل المعيشة، و إنما جرهم إلى ذلك جائحة المطعم و الملبس و اللبس. و اعلم أنه ليس الفقر و التصوف سوى بالعلم و الحلم و العرض النقى و التعفف و المحاولة بسبب يغنى به نفسه و ينفع ببعضه غيره، كما قال الشيخ عبد العزيز الديرينى:

/ و ليس الفقر مسبحة و دلق و سجاد و لا ثوب شُنى /٢١٢

---

(١) فى الأصل: جرعته.

(٢) فى الأصل: حتى يعطونه.

(٣) فى الأصل: يا كلان.

ولا بمذبة و بلاس شعر   و لا ليف و لا جلد زنى[1]
و لا طر و دبوس و سيف   و شربوش كهيئة تونسى
و حلق الذقن تقبيح وجهل   و ليس الجهل فعلة مهتدى
و يحلق رأسه مع حاجبيه   لكى يدعى بذاك قرندلى[2]
فليس الفقر و الرحمن هذا   ولا التصريف بالفعل البطى
سوى علم و آداب و حلم   و إمساك عن الفعل الردى
و كم دلق مرقع فوق تيس   بلا علم ولا عرض نقى
له لذع يذوب الصخر منه   و كف يلقط الفحم الحمى
فكم تحت [3]التصافى صافيات[3]   و تحت الزى شيطان غوى

قيل : إن بعض الواعظات بالإسكندرية كانت تعظ النسوان ، فاذا فرغت من وعظها نزلت عن كرسيها ، و تمد طرف مقنعتها ، و تمسكن ، و تطوف عليهن و تقول بحلاوة كلامها : رقت ساداتى ، أطلب منهم عاداتى ، فما تطيب[4] أوقاتى ، إلا بقولى : شىء لله . و ترقص لهن ، و تمسخر فيضحكن منها ، و يمددنها برفقهن و إحسانهن ، فقيل لها فى ذلك ، فتقول : ما الحسن فى لف الحلق ، الحسن فى حل الخرق ،

(١) فى الأصل : رلى و ينكسر الوزن بها . و يستقيم بما أثبتناه بمعنى : ضيق .
(٢) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .
(٣ – ٣) فى الأصل : التصافيات صافى . _ و بذلك ينكسر الشطر ، و يستقيم الوزن باعتكاس الكلمتين مع عدم المساس بالمعنى .
(٤) فى الأصل : تطب .

و ما تنحل خرقهن ، لأخذى منهن دراهمهن ، الا لتسخرى لهن ، [لخفة عقلهن - انتهى قولها لهن - [1]] .

فلنذكر الآن أهل الرياء المظهرين للتقشف و إفراط التنسك و مواظبة الصلاة و الصيام و كثرة التسبيح ، و القيام بين الخواص و العوام ، يلقونهم بالبشر و السلام ، و يغشون أبواب الملوك و الأمراء على صفة التهاني فى الأعياد ، و لما يأتى من الأولاد ، و بالأوبة من الأسفار ، و السلامة من الأخطار ، و يجعلون الدين سلما إلى الدنيا ، و أكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال ، و تجلهم العوام و تقبل شهادتهم القضاة و الحكام ، و هؤلاء أشر من اللصوص ، و تشبه / هؤلاء بأهل الخير ، ٢١٣ يحمل الناس على الاغترار بهم ، فادا أيسروا ، بطروا و تكبروا و تجبروا و تبيلسوا[2] . فليس لمثل هؤلاء دواء غير الفقر و عدم الإعطاء ، ليحصل لهم بذلك الدل و المسكنة ، و يستريح العالم من شرورهم و بطرهم . قال الشاعر :

قوم إدا أيسروا فى الناس قد بطروا
فأوجب الأمر أن يضحوا تعاكيسا
الفقر يمنعهم عن كل منحسة
لو لا تمنّعهم كانوا أباليسا

---

(١) العبارة المحجورة ساقطة من النص و وردت بالهامش بخط المراجع .

(٢) الفعل من إبليس .

فلنذكر الآن الفقراء المخلصين[1] . و أما الفقراء المخلصون المتقون ، فنطقهم الصواب ، و ملبسهم الاقتصاد ، و مشيهم التواضع ، أجسادهم نحيفة ، و أنفسهم عفيفة ، أرادتهم الدنيا و لم يريدوها ، و أسرتهم ففدوا أنفسهم منها ، أما النهار فحلماء أبرار ، أما الليل فقائمون[2] على أقدام الجد و الذكر ، فمن علامة أحدهم أن ترى له قوة فى دين ، و حزما فى لين ، و إيمانا فى يقين ، و حرصا فى علم ، و حكما فى حلم ، و قصدا فى غنى ، و خشوعا فى عبادة ، و تجملا فى فاقة ، و صبرا فى شدة ، و طلبا فى حلال ، و نشاطا فى هدى ، و تحرجا فى طمع ، يعمل الأعمال الصالحة و هو على وجل ، يمسى و همه الشكر ، و يصبح و همه الذكر ، نفسه منه فى غنى ، و الناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، و أراح الناس من نفسه . فهؤلاء الفقراء ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، و هؤلاء الذين[3] ينبغى مواساتهم ، و إدخال السرور عليهم .

عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إدخال السرور على محبينا و طالبي طريقتنا أفضل عند الله من ألف حجة و عمرة و مائة نسمة تعتق من ولد إسماعيل .

قيل : كان بالبصرة عجوز صالحة تعرف بالماوردية ، تكتب و تقرأ

(١) فى الأصل : المخلصون .
(٢) فى الأصل : فقائمين .
(٣) فى الأصل : الذى .

و تعظ النساء، و لا تأخذ منهن شيئا، / و مكثت خمسين سنة من عمرها لا تفطر نهارا، و لا تنام ليلا، و لا تقتات إلا بخبز الفول، و تأكل من التين اليابس شيئا يسيرا، و شيئا يسيرا من العنب و الزبيب، و ربما أكلت من اللحم اليسير. و حين توفيت تبع أكثر أهل البصرة جنازتها، و دفنت فى مقار الصالحين.

قال الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور: وأيت امرأة كبيرة الشأن يعظمها الأولياء و العلماء، مغربية يقال لها ست الملوك، زارت بيت المقدس فى وقت [1] الشيخ الولى الكبير الشأن على بن عاس اليمنى. قال الشيخ على المذكور: كنت ببيت المقدس، و إذا أنا أشاهد حبل نور مدلى من السماء إلى قبة كانت فى المسجد، فمضيت إلى القبة، فوجدت فيها هذه المرأة، و قد ظهر عليها الهيبة، فطلبت منها الدعاء، فدعت لى و انصرفت.

و كانت بنت الشيخ أبى العباس الجزار على وجهها نور لا يخفى على أحد، أخبرت بموتها فى الوقت الفلانى، فلما حضرتها الوفاة كانت تقول لنفسها: "يايتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية ،". و تكرر ذلك حتى خرجت روحها. فهذا شأن العباد المؤمنين الذين قال الله فى حقهم: "و لله العزة و لرسوله و للمؤمنين". و هذه الهيبة التى جعلها الحق فى قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لانبساط جاه المتبوع عليهم. ألم تسمع قوله صلى الله عليه و سلم: و نصرت بالرعب مسيرة

(١) ورد بعده بياض بالأصل بقدر كلمتين من غير إخلال بالسياق.

شهر . ألبسهم الحق ملابس هيبته ، و أظهر عليهم إجلال عظمته ، كلما نزلوا إلى أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية ، فهم الملوك و إن لم تخفق عليهم البنود ، و الأعزاء و إن لم تسر أمامهم الجنود ، ٢١٤/ الف فهؤلاء عباد المسلمين / الأولياء الصالحين .

[ما قيل فى رجال الهند الكافرين -[1]]

فلنذكر الآن ما قيل فى رجال الهند الكافرين الذين[2] يعملون بأنفسهم ما لا تفعله المجانين - اعلم أن كفار الهند لهم رسوم و سنن قد جرت عادتهم عليها ، منها ما يدينون به ، و منها ما قد اصطلحوا عليه ، و منها ما تنفرد به فرقة دون فرقة . و كل ذلك اتفاقا عقليا ، و من سننهم حرق أنفسهم بالنار ، فاذا أراد الواحد حرق نفسه فتوة أو مخاطرة أو غضبا أو رسم الملك بذلك ، طاف المدينة ثلاثة أيام و معه طبول و ناس حوله ، و أهله معه و من يتعصب له و يقوي عزمه ، فاذا كان اليوم الثالث وقدت نار بحطب و دخلها ، فان خاف و أراد الخروج منها ، رده أهله إليها بالحراب ، لأن هذا عندهم عار للحى . ثم يقال له : تقرأ على فلان السلام و فلان و فلانة . و هم قوم يعتقدون التناسخ ، و عندهم أن الإنسان ترجع بعد أربعين يوم روحه إلى هيكل غير هيكله ، إما لكلب أو حمار أو بقرة أو غير ذلك .

---

(١) العنوان مشتق من النص ، و ليس بالهامش .

(٢) فى الأصل : الذى .

قال

قال عبد الله بن عبد العزيز: رأيت رجلا من التناسخية ممن يقول: إن الأرواح تنتقل إلى عالم آخر، و بين يديه كلبة و هو يحدثها و كأنها تصغى إليه. فقلت: ويحك! ما هذه الكلبة؟ قال: هى أمى عافاك الله. فقلت: و ما قصتها؟ قال: كانت عاقة لأبى، فدعا عليها، فلما ماتت انتقلت روحها إلى هذه الكلبة. قلت: فما تحدثها؟ قال: أحدثها ما جرى بعدها. قال: فتفهم عنك ذلك. قال: نعم تفهم. قال: فتفهم أنت عنها ما تقول هى. قال: لا. قال: فما الممسوخ إلا أنت.

و أما التناسخية فاعلم أن النسخ فى اللغة يراد به أمران: أحدهما الإزالة له. و ذلك قوله: نسخت الشمس الظل، / و نسخت الريح آثار ٢١٤
القوم، بمعنى: أزالتها؛ و الآخر النقل. يقولون: نسخت الكتاب — إذا نقلت ما فيه.

و الهنود مطاوعون[1] لملكهم كثيرا، يرون ذلك أصل دينهم. و ربما قال الملك لواحد منهم: مُرّ لبيتك، و وجّهه لى برأسك. فيخرج من بين يديه و يمضى، فيجذب غصنا من شجرة أو رأس قناة، و يشد شعره بها[2]، و معه سكين ماضية مثل الماء فيضع حد السكين على رقبته، و نصابها فى يده اليمنى، و يضع يساره على طرف السكين و يمضيها بفورته، فينفك رأسه مع غصن الشجرة، و يبقى جسمه مطروحا بالأرض. و لكل ملك من ملوك الهند جماعة يختص بهم، فان مات

(١) فى الأصل: مطاوعين.
(٢) فى الأصل: لها.

ماتوا كلهم، و لو انكسر أو طارت عينه أو جرح، فعلوا كذلك مثله.

و حكى عن رجل هندى كان يطوف بمدينة صندابور[1] و معه طبول و خدم و خلق كثير، وقد قرر وسط قحف رأسه، و قلبه على قحفه، وقد فيه فتيلة، و قد تقد بدهن رأسه مثل الشمعة، و جعل عليها قليل دهن لتقد جيدا، و دوّر برأسه صفيحة حديد و سمرها بمسامير من حديد، و هو يمشى و يغنى و يمضغ التنبل، فلما كان فى اليوم الثالث مات و مضى إلى النار، و بئس القرار!

و قيل إن ملكا من ملوك الهند مات، فأحرق عليه أربعة آلاف رجل من رجاله أنفسهم بأيديهم. و حدث بعضهم، قال: عاينت بأرض الهند رجلا قد أخذه الملك بجناية، و كان لصا فأحضره، و طلى بدنه بالنورة، و شدوا أربع خشبات كبيرة، فمدوه عليها مثل المكمدة، و جاء رجل جزار معه ساطور كبير قاطع، و اللص يغنى، فجبذت يده و وضعت على الخشبة، و ضربها الجزار بالساطور فقطع / الأصابع، ٢١٥/ الف
ثم ضربه أخرى فقطع الكف، ثم ضربه أخرى على قصبة الذراع، ثم ضربه أخرى على المرفق، هكذا بيديه جميعا و رجليه جميعا، و أنا أنظر، و هو يتأوه و لا ينطق بكلمة، و يلتقم التنبل فيأكله، ثم انقطع تأوهه، و غارت عيناه، و تلفت نفسه. فحسبت أن الجزار قطعه اثنتين[2]

(١) صندا بور - جاءت «سنداور» فى ابن بطوطة (ص ٥٥٧ - ٥٧١) من مدن الهند الشرقية فى حكم الإسلام.

(٢) فى الأصل: اثنين.

و ثلاثين قطعة ، و أوقد نارا عظيمة ، و طرحوه فيها . و هــدا جلد عظيم ، و قدرة على البلاء .

و قيل : إن ببلاد الهنــد لصوصا تجىء إلى البلد منهم جماعة ، فيعيّنون رجلا تاجرا ، فيقبضون عليه فى بيته أو فى السوق أو فى الطريق ، و يجردون فى وجهه خناجرهم ، و يقولون : أعطنــا كذا و كذا من المال و إلا قتلناك . فان جاء أحد يمنعهم عنه قتلوا الرجل التاجر و قتلوا أنفسهم بخناجرهم التى بأيديهم بعده . فهم إذا أخذوا رجلا تاجرا و طالبوه[1] بالمال ، لم يترك أحدا يكلمهم خوفا على نفسه منهم . ثم يأخذون الرجل و يخرجون به خارج البلد حتى يفتدى منهم بما يشتهون[2] و يسلمه إليهم و حينئذ يتركونه[3] .

و قيل : إن اثنى عشر نقيبا من هذه الطائفة اللصوص الملعونة جاءوا إلى مدينة صيمور[4] من أرض الهند ، فقبضوا على شاب من أبناء التجار هندى ، و له أب من مشايخ الهنود ملىء الذمة ، و هو يحب هذا الولد حبا شديدا . و ليس له ولد غــيره ، فقبضوا عليــه فى جوف داره ،

(١) فى الأصل : و طلبوه .

(٢) فى الأصل : يشتهوا .

(٣) فى الأصل : يتركوه .

(٤) صيمور ـ وردت فى معجم البلدان لياقوت (ج ٣ ص ٤٤٤) من بلاد الهند الملاصقة للسند قرب الديبل فيها مسلمون و يليها مسلم .

و طالبوه بعشرة آلاف دينـار ، و هو بعض ما يملكه أبوه من المال ، فوجه إليه ابنه يعرفه ما نزل به ، و يسأله أن يخلصه من أيديهم ، فجاءه والده مع الناس ، و كلمهم و رفق بهم ليقطع أمرهم على ألف دينار ، فأبوا و وقفوا على العشرة آلاف دينار ، لا يحطون منها شيئا ، ٢١/ب فلما/ عاين الرجل ذلك ، مضى إلى الملك و عرفه الصورة ، و قال : هذا داء لا دواء له ، و إن لم تقطع هذه المادة لم يقدر أحد يسكن هذه البلاد مع هؤلاء و جنسهم ، و يتطرق إلى هذا الفعل كل من فى بلدنا من وغد و نذل . فقال الملك : كيف نصنع ؟ و إن كلمناهم قتلوا ابنك . فقال له : كيف العمل ؟ فقال الملك : قتلهم على هين ، و إنما أخاف أن يقتلوا ابنك ، و ليس لك ولد غيره . قال : ما أبالى ، هؤلاء يطلبون مالا عظيما ، و لا يجوز لى أن أفقر نفسى و أخلص ولدى . اعزم أيها الملك على [1]أن تدوّر[1] على الدار التى هم بها الحطب ، و تسد بابها و تضرمها عليهم نارا . فقال له : يحترق ابنـك و عيـالك معهم . فقال : إحراقهم أهون على من ذهاب مالى ، و أيضا فى ذلك موعظة لغيرهم ، كيلا يتطرق غيرهم لمثل فعلهم هذا . فقال الملك : و أنت راض بما ذكرت من ذهاب ولدك و عيـالك ؟ قال : نعم ، فوجه الملك رجاله و فعل ما أمره به صاحب الدار ، و أطلق فيها النـار ، فاحترق كل من فيها من اللصوص و الولد و العيال .

(١-١) فى الأصل : انا ندور .

كسرى

[كسرى و المزادقة - [1]]

و قد ظهر فى ملك كسرى قباذ[2] بن فيروز أبى[3] أنو شروان مزدق[4] الزنديق ، فقال مزدق للملك قباذان : الله عز و جل جعل الأرض للعباد ، فتظالم الناس، و استأثر بعضهم على بعض . و انضم إلى مزدق جماعة ، فقالوا : نحن نقسم بين الناس و نرد على الفقراء حقوقهم من الأغنياء . فكانوا يدخلون على الرجل فيغلبونه على أمواله و نسائه . فوثب رجل من أشراف الفرس يعرف بابن شوجرا فى جماعة من أصحابه على مزدق فقتله ، فسعى بقاتل مزدق إلى الملك قباد حتى قتل قاتل مزدق ، فانتشر بعد ذلك أمر قباذ و أدبر ، و لم تبق ناحية إلا خرج فيها خارجى ، ثم هلك قباد على ذلك ، و ملك بعده ابنه كسرى أنو شروان[5] بن قباذ ، فنفى رؤس المزادقة ، و قطع آثارهم و محاهم - انتهى .

[ما قيل فى العسر و اليسر و غير ذلك - [1]]

ذكر ما قيل فى اليسر و العسر و الكرم و البخل و إقبال الدنيا

---

(١) العنوان مشتق من النص و ليس بالهامش .

(٢) كسرى قباذ (Kavad, Chosroes Kobad) حكم فارس من ٤٨٧ إلى ٥٣١ .

(٣) فى الأصل : ابو .

(٤) مزدق - مبتدع الديانة المزدقية بفارس ، انتشرت أيام كسرى قباذ و اضطهدهم و قضى على قوتهم أنو شروان .

(٥) كسرى أنو شروان خلف أباه كسرى قباد سنة ٥٣١ حتى ظهور العرب .

٢١/ الف و إدبارها و غير ذلك – قال الأصمعى : رمت بنا / الأيام إلى حى من أحياء النميريين ، فلما قربنا من بيوت القوم ، ظهرلنا غلام شاب كالغصن الباسق ، يرفل فى مطرف خز ، فسلم ثم أقسم بالله : لتنزلن ، فنزلنا ، فو الله ما استقرت بنا الأرض فى فنائه حتى دخل بيته ، ثم خرج و فى يده مدية كالنجم الثاقب ، فعمد بها إلى ناقة من إبله فنحرها ، فأقبلت عليه أمه تلومه و تعذله ، و نحن نسمع كلامها ، فكان مما قالت له : أى بنى ! ارفق بمالك ، فانه جقن دمك ، و ستر دينك ، و جنة عرضك ، و اعلم أن الفقر هو الموت الأول ، و الحاجة هى المذلة و السكون إلى الدهر غرور ، و ركوب الشهوة خطر ، و القصد خير من التفريط ، و قد ساءنى ما رأيت من طول يدك فى[1] مالك ، و أنت فى زمن نكد ، فانظر لنفسك و لى فقد نصحتك إن قبلت نصحى . فأنشأ الغلام يقول لها هذين البيتين[2] :

لا تسرفى فى ملامى ان فى أذنى وقر[3] فلومك لى من أعظم الخطل
ما كنت متقلا باللوم عن خلق حتى يوسدنى بعض الثرى أجلى

فقالت له :

أرى ذا الغنى و الناس يسعون حوله فان قال قولا تابعوه و صدقوا
كذلك دأب الناس ما دام موسرا فان زال عنه المال يوما تفرقوا

---

(١) فى الأصل : و فى . و الواو زائدة فحذفناها .

(٢) فى الأصل : الابيات .

(٣) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

افعل يا بنى ما بدا لك فقد نصحتك ثم قالت :

ما الناس إلا مع الدنيا و صاحبها فكيفما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا و إن وثبت عليه يوما بما لايشتهى وثبوا

أما سمعت يا بنى قول القائل :

إن الفقير الطويل الذيل ممتهن فكيف حال فقير ما له قوت
يمسى و يصبح فى هم و فى نكد بين الأخلاء مرفوض و ممقوت

و اعلم يا بنى أن الفقير مأخوذ من فقار الظهر ، و المعنى أنه انكسر فقاره ، فالفقير الذى يسأل ، و المسكين الذى لا يعلم به . قال النبى صلى الله عليه و سلم : الفقير الذى ترده اللقمة و اللقمتان ، لكن المسكين الذى لا يعلم به / فيتصدق عليه . فقال لها : صدقت فيما قلت . و لكن قال بعضهم حيث قال : ٢١٦/ب

فلا تحزن إذا ما ضاق عيش فتحرم رتبة الرحل اللبيب
فكم لطف خفى فى كفاف و كم لله من سر غريب
[1]ألم تجر له الثديان[1] رزقا و عرفه التناول للنصيب
ألم ينعم[2] عليه عهد لطف و أعطاه مودات القلوب

فقالت : صدق القائل فيما قال ، و لكن قد قيل :

لو لا دراهمه التى فى جيبه لرأيته أسوأ البرية حالا

---

(١) فى الأصل : الم تجرى له الثديين .
(٢) فى الأصل : الم تمعم .

يا بنى ! إن الفقير إذا كان شجاعا قيل : أهوج، و إن كان سخيا قيل[1]: متلاف[2]، و إن كان حليما قيل : ضعيف، و إن كان وقورا قيل : بليد، و إن كان فصيحا قيل : مهذار، و إن كان مميزا قيل : عيّ. و هو كما قال الشاعر :

إذا افتقر الإنسان قل صديقه　و أعرض عنه خله و شقيقه
و لم يستمع منه الحديث جليسه　و هانت على كل الرجال حقوقه
و يصبح مرفوضا لقلة ماله　و إن شرفت أنسابه و عروقه

و قال الآخر :

ترى المال محبوبا إلى الناس كلهم　وذو الفقر مبغوض إلى الناس جانبه
و من يفتقر يوما يراه صديقه　بمؤخر عين و ازورار حواجبه

و قال حكيم الهند : إنه لا يكون الأهل و الإخوان، و التبع و الأعوان، و الأصدقاء و الحشم إلا مع المال، و لا الرأى و القوة إلا بالمال، و لا المروءة يظهرها إلا المال، و من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمرا قعد به العدم عما يريد، فبقى مقصرا عما أراد، كالماء الذى[3] يبقى فى الأودية[3] من ماء المطر، فلا يتم إلى بحر و لا إلى نهر، بل يبقى مكانه حتى تنشفه الأرض، فمن لا مال له لا شيء له، لأن الرجل إذا ابتلى بالفقر رفضه

(١) فى الأصل : كان.

(٢) جميع هذه الألفاظ وردت فى آخرها بألف التنوين فى الأصل.

(٣-٣) فى الأصل : تبقى فى الادوية.

إخوانه

إخوانه، و قطعه ذوو رحمه، فلا شيء أشد من الفقر، و الشجرة النابتة فى السباخ، المأكولة من كل جانب، أحسن حالا من الفقير المحتاج إلى ما فى أيدى الناس، و الفقر داعية صاحبه / إلى مقت الناس، و مسلبة ٢١٧/الف للعقل و المروءة، و معدن للتهمة، و مجمعة للبلايا. و ليس من خلة هى للغنى مدح الا هى للفقير عيب. فالموت أهون من الفاقة التى يضطر صاحبها إلى مسألة الأشحاء و اللئام. قال أبو يعلى[1] بن الهبارية:

إن الفقير ممتحن مستقبح منه الحسن
جميعه عيوب و كله ذنوب
و وجهه ممقوت و جده مكبوت
إحسانه إساءه علاؤه دناءه
سماحه تبذير تدبيره تدمير
عفته فسوق و بره عقوق
صوابه خطاء صلاته رياء
عطاسه ضراط رقعته مخطاط
إن قال لم يصدق إن[2] رام لم يوفق
إن زار رد و حجب إن لم يزر قيل غضب
رائحه كالأعزل و رمحه كالمغزل
أعراسه مآتم ليس له ملائم

ألم تر الى قول بعض الفقراء يذم نفسه حيث قال:

---

(١) فى اصل: أبو العباس، و التصحيح من كشف الظنون ـ راجع فيه تاليفه «الصادح و الباغم». (٢) فى الأصل: و ان.

العنكبوت بنت بيتا على وهن تأوى إليه و ما لى مثله وطن
و الخنفساء لها من جنسها سكن و ليس لى مثلها ألف و لا سكن

فلما ذكرت أم الفتى ما ذكرت له ، قال لها : أقصرى عما ذكرت فلست أفعل إلا كما قال القائل :

إذا ما رؤس قد سلمن من الأذى فما المال إلا مثل قص الأظافر

أى إذا قص الظفر يطول ، وكذلك الإنسان لم يزل رزقه جاريا عليه إلى أن يموت - انتهى .

فلنذكر الآن ما قيل فى الغريب المتمول :

و قالوا غريب الدار قلت فكيسه فقالوا بـه جزء من المال وافر
فقلت لهم هـذا مؤهل حيثما يقيم بلا شك و حيث يسافر

و قال بعضهم :

و ليس غريب الدار من كان موسرا و كيف وكل الناس بالمال يفرح
و لكن ذا[1] الإفلاس صاحب غربة و إن كان بين الناس يمسى و يصبح

و الدنيا لها إقبال و إدبار . قال بعضهم خذ من إقبال الدنيا لإدبارها ، فان الله تبارك [و] تعالى يرزق فى يوم للأيام أكثر ما يكتسب الإنسان فيها . قال الشاعر :

تقنع بما يكفيك و استعمل الرضى فانك لا تدرى أ تصبح أم تمسى
/ و ليس الغنى عن كثرة المال إنما يكون الغنى والفقر من قبل النفس

و قال بعضهم :

إذا أقبلت كادت تقاد بشعرة و إن[2] أدبرت كادت تعد السلاسلا

---

(١) فى الأصل : دووا .

(٢) فى الأصل : اذا .

و قال الآخر :

إذا أقبلت بـاض الحمام على الوتد   و إن أدبرت فر الحمام من البلد

و قال الآخر :

إذا أقبلت باض الحمام على الوتد   و إن أدبرت بال الحمار على الأسد

فالزهد في الدنيا فيـــه كل الراحة ، و الرغبة في الدنيا فيها كل التعب . كان عيسى عليه السلام يمشي دائما على رجليه من غير أن يركب دابة . فقيل له : لو اتخذت حمارا تركبه ! قال أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادما لحمار ، فدابتي رجلاى ، و بيتي كهوف الأرض ، و شرابي من أنهارها . أيّ غنى أكثر من هذا يا بني إسرائيل ! كلوا من خبز الشعير و البصل البري ، و إياكم و خبز الحنطة ! فإنكم لا تقومون بشكره .

عن كعب بن مالك عن أبيـه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [ما –[1]] ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال و الشرف لدينه .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هذا ابن آدم و هذا أجله – و وضع يده عـــد قفاه ثم بسطها[2] و قال : و ثَمَّ أمله .

و عن عبد الله قال : خط رسول الله صلى الله عليه و سلم خطا مربعا فقال : هذا الأجل . و خط في وسطه خطا فقال : هذا الإنسان .

(١) من مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٦ ، و في الأصل بياض .

(٢) في الأصل : سطه .

و خط فى عرضه خطوطا فقال : هذه الأعراض . ثم خط خطا خارجا فقال : هذا الأمل ، و العروض تنهشه ، و عينه إلى الأمل .

و عن عبد الله بن عمرو قال : مر علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم و نحن نعالج خصيا ، فقال : ما هذا ؟ فقلنا : قد وَهِي ، فنحن نصلحه . الف فقال : ما أرى / الأمر إلا أعجل من ذلك - رواه الترمذى . و اعلم أن طالب الدنيا لم يزل فقيرا . قال بعضهم :

و من يطلب الأعلى من العيش لم يزل فقيرا من الدنيا أسير غبونها

و اعلم أن الأجساد الهرمة قريبة من الموت و البلى . كذلك الأمور التى يخرج منها أكثر ما يستفاد قريبة من الفناء . كان بعضهم غنيا بماله ، فعدمه و صار فقيرا ، فقال :

مجلوة صفرا تخيرتها تعمدا من سكة الهند
لكنها أمست و لا و الذى أحلف به ما أصبحت عندى

و قال بعضهم فى قلة ما بيده :

جميع الحروف تلقط و نا كالألف وحدى
و نا من شقا بختى لا فوقى و لا تحتى

و لبعضهم فى عدم لبث الدراهم عنده :

ما يألف الدرهم المضروب صرتنا إلا يمر عليها و هو منطلق

عن أبى هريرة : قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : إن المعونة تأتى من الله على قدر المؤنة ، و إن الصبر يأتى على قدر البلاء . عن على

ابن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: من رضى بالقليل من الرزق رضى الله عنه بالقليل من العمل، و انتظار الفرج من الله عبادة . كان بعضهم يقول فى دعائه: اللهم! إن كان رزقى فى السماء فأنزله، و إن كان فى الأرض فأخرجه، وإن كان بعيدا فقربه، و إن كان قريبا فيسره، حتى لا أكون حريصا فى تعجيل أمره و لا تأخيره، إنك على كل شيء قدير .

عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: حوسب رجل كان قبلكم فلم يجد له حسنة، الا أنه كان يخالط الناس و يقضى حوائجهم، و كان موسرا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، فقال الله عز و جل: أنا أحق بذلك . / فتجاوز عنه و غفر له . ٢١٨/ب

وقال الشاعر:

و أسعد الناس فى أيامه رجل تقضى على يده للناس حاجات
الناس بالناس ما دامت حياتهم و لا غنى عنهم الا اذا ماتوا

[ذكر النساء و أخبارهن -[١]]

ذكر النساء و أخبارهن، و التعرض فيهن، و الغيرة عليهن، و ما قيل فيهن، و معرفة أحوالهن فى الخلوات بهن، و غير ذلك من الواردات المستطردات - سميت الفراسة فراسة تمثيلا بافتراس الأسد لسرعة لحوطه بقوة، فلم يملته لفرط تحققه فيه . و لغيلمون[٢] الفيلسوف كتاب فى الفراسة

(١) العنوان من النص الكامل فى أول الباب .

(٢) ولعله: فيلون (Philon)، هو فيلسوف يهودى ولد بالإسكندرية .

يختص بالنسوان، و منفعته جليلة فى تقدمة المعرفة بأخبار من يضطر الإنسان إلى مخالطته من زوجة أو سرية أو صاحب و مملوك، ليصير على بصيرة من أمره، و هذا العلم معتبر فى الشرع . قال الله تعالى[1]: "ان فى ذلك لآية للتوسمين" و قال الله تعالى[2]: "تعرفهم بسيمهم" . و قال النبى صلى الله عليه و سلم: اتقوا فراسة المؤمن، فانه ينظر بنور الله . و يقرب من هذا العلم قيافة الأثر و قيافة البشر، و ليست علوما اكتسابية، إنما هى تخمينات حسية، و كذلك النظر فى غضون الكف و أسارير الجبهة و نحوها .

و اعلم أن أطيب عيش الرجل هو أن يكون عنده مال يكفيه، و دار تؤويه، و جاه يحميه، و زوجة ترضيه . قال بعضهم:

سعادة المرء أن يكون له ظهر جواد و كسوة حسنه
و زوجة حرة موافقة موصوفة بالجمال مؤتمنه
و رزقه جاريا عليه و لا يعدل عن أهله و عن وطنه
فذاك ان عاش عمره سنة كأنما عاش ألف ألف سنه

و يستحب للرجل أن يتزوج بكرا يستحسنها، لقوله صلى الله عليه و سلم: النساء لعب، فاذا اتخذ أحدكم لعبة فليستحسنها . و الحذر الحذر من تزويجك / لعجوز فانية، ففى منثور الحكم: المرأة ريحانة لا قهرمانة . ٢١٠/الف
قال بعضهم فى عجوز:

(١) قرآن كريم سورة ١٥ آية ٧٥ .
(٢) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٧٣ .

عجوز عمرها سبعون عاما　وعشرون أو عشر[1] فى الحساب
مقلعة الضواحك و الثنايا　من الأنياب إلا فرد ناب
يلوح بفكها [2]ضرس فريد[2]　شبيه الوتْد[3] فى دار خراب

و يستحب للرجل أن يتزوج المرأة ذات العقل و الدين . قال النبي صلى الله عليه و سلم : عليك بذات الدين تربت يداك ! فاذا كانت المرأة زيّنة صيّنة جميلة ، كان زوجها قائم الجاه بين الناس ، خاليا[4] من الفكرة و الوسواس ، و مع ذلك ينبغى أن يغار عليها ، فان النبي صلى الله عليه و سلم قال : إنى لغيور ، و ما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب . و قال النبي صلى الله عليه و سلم : إن لله ليغار ، و من غيرته حرّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن . عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يا على ! كن غيورا ، فان الله يحب الغيور .

و روى أبوهريرة أن رسول الله صلى عليه و سلم قال : إن المؤمن يغار . فنسب الغيرة إلى الإيمان بقوله : إن المؤمن يغار . عن ابن عباس قال : كان الفضل بن عباس ردف رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فجاءت امرأة من خثعم تستفتيه ، فجعل الفضل ينظر إليها و تنظر إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر ،

(١) فى الأصل : عشرا .

(٢-٢) فى الأصل : ضرسا فريدا .

(٣) بتسكين «ت» «الوتد» لاستقامة الوزن .

(٤) فى الأصل : حال .

فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله على عباده الحج، أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة فأحج عنه؟ قال: نعم - خرجه مسلم .

و الطريق المغنى عن الغيرة أن لا يدخل الرجل على زوجته الرجال، ٢١/ب و لا تخرج هي إلى الأسواق . قال النبي صلى الله عليه و سلم / لابنته فاطمة رضي الله عنها: أي شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلا و لا يراها رجل . فضمها رسول الله صلى الله عليه و سلم إليه و قال: "ذرية بعضها من بعض". و استحسن قولها . و أم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم خديجة بنت خويلد، تزوج بها النبي صلى الله عليه و سلم و قد بلغ خمسا وعشرين سنة و لها أربعون سنة، و أصدقها خمسمائة درهم، و ولي تزويجها عمرو بن أسد عم خديجة، و قام أبو طالب عم النبي صلى الله عليه و سلم خطيبا فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم و زرع إسماعيل، و جعل مسكنا بيتا محجوجا، و حرما آمنا، و جعلنا حكاما على الناس أجمعين . ثم إن ابن أخي هذا لا يوزن برجل إلا رجح عليه! و إن له لخطرا جليلا، و ثناء جميلا و إن كان مقلا في المال، فإن المال رزق حائل، و ظل مائل، فقد خطب إليكم رغبة في خديجتكم، و قد بذل لها من الصداق ما آجله و عاجله كذا - و السلام علينا و عليكم .

فلنذكر الآن ما قيل في اشتقاق الخطبة إن شاء الله تعالى - الخطبة بالكسر اشتقاقها من الخطب بمعنى الأمر و الشأن، قال . "ما خطبك"، أي ما شأنك . و خطب فلان فلانة، أي سألها أمرا و شأنا في نفسها .

(١) في الأصل . وحرما .

و قيل

وقيل: ان أصل الخطبة من الخطاب الذى هو الكلام، لأن الخطبة تستلزم الخطاب فى أمر المرأة. وأما الخطبة بالضم فهو الكلام المؤلف فى الزجر والوعظ وما فى معنى ذلك - انتهى.

نعود - فلما خطب أبو طالب وتم العقد، أرسلت خديجة حينئذ إلى النبى صلى الله عليه وسلم حلة يمنية، فأخذها فألقاها على عم خديجة فقبلها وتم النكاح، فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال له عمها: أين تريد يا محمد؟ قال: إلى منزل عمى. قال: قل مع أهلك ودع عمك ينحر بكرة ويطعم الناس. ففعل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وقال مع خديجة وقد / أقر الله عينه. ففرح أبو طالب فرحا شديدا، فقال: ٢٢٠/أ الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الغم. ثم إن خديجة أحبت النبى صلى الله عليه وسلم. فوجدت بمحبتها له القرب والإسلام، والنجاة من عبادة الأصنام، فعصت عذالها، وأنفقت عليه مالها، وكانت أول من أسلم من نساء عصرها، وشرها الملك بقصرها.

قال أبو هريرة: أتى جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك[1] ومعها إناء فيه ماء وطعام، فاذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى. وبشرها ببيت فى الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب - ذكره مسلم بن الحجاج فى صحيحه، والقصب هنا اللؤلؤ المجوف.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ما غرت على واحدة من نساء النبى

(١) من صحيح مسلم - الفضائل، وفى الأصل: اتت.

صلى الله عليه و سلم ما غرت على خديجة ، و ما رأيتها و لكن لما كان النبي صلى الله عليه و سلم يكثر ذكرها ، و ربما ذبح الشاة و لم يقطع لها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم تكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ! فيقول : إنها كانت و كانت ، و كان لى منها ولد - ذكره مسلم . و قالت عائشة رضى الله عنها : استأذنت هالة يوما على رسول الله صلى الله عليه و سلم فتذكر استئذان خديجة فقال : اللهم هالة ! فقلت له : ما تذكر لعجوز حمراء الشدقين هلكت فى الدهر الأول ، أبدلك الله خيرا منها - ذكره مسلم .

و قالت عائشة أيضا : دخلت عجوز يوما على رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فقال : من أنت ؟ فقالت : حسانة المدنية[1] . فقال : بلى أنت حسانة المدينة ، كيف حالكم؟ كيف أنتم بعدنا ؟ قالت : بخير يا رسول الله ! فلما خرجت فقلت : على مثل هذه العجوز تقبل هذا الإقبال . و تسأل هذا السؤال ؟ . فقال : يا عائشة ! إنها كانت تأتينا فى أيام خديجة ، و حسن العهد من الإيمان - انتهى .

نعود إلى ما قيل فى الغيرة - وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يسدون الطيقان لئلا تطلع النسوان إلى الرحال . و رأى معاذ امرأته تتطلع من طاق فضربها . و رآها [2]راجعت إلى غلام قد أكلت بعضها[2] ،

---

(١) من الإصابة فى معرفة الصحابة ، و فى الأصل : المزنية .

(٢-٢) العبارة قد اعتورها الغموض ، ولعلها : رافعة إلى غلام بعضها قد أطلت .

فضربها . و قال عمر بن الخطاب : أعروا النساء يلزمن الحجاب . و إنما قال ذلك لأنهن لا يرغبن فى الخروج فى الهيئة الرثة .

/ عن عائشة قالت لنبى الله صلى الله عليه و سلم : حسبك من صفية ٢٢٠/ د كذا وكذا ، قال بعض الرواة : تعنى قصيرة . فقال لها النبى صلى الله عليه و سلم : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته . معنى مزجته أى خالطته مخالطة تغير بها طعمه و ريحه لشدة نتنها و قبحها . و هذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة[1] . و ما أعلم شيئا من الأحاديث يبلغ فى الذم لها هذا المبلغ . قال الله[2] تعالى فى حق النبى صلى الله عليه و سلم: " و ما ينطق عن الهوى ٭ ان هو الا وحى يوحى ٭ " . و يخشى أن يظن ظان من العوام مالا يليق بمن قال فى حقها النبى صلى الله عليه و سلم : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . فان قيل : كيف صدر هذا القول عمن اختصت من[3] النساء بالأفضلية فى حق صفية ؟ قيل : إنما صدر ذلك منها لفرط الغيرة الغريزية التى جبلت عليها القلوب البشرية . و قد قال القاضى عياض فى كتاب « الإكمال » [[4]- فى حديث فيه مثل هذا الإشكال : يعنى عن النساء فى كثير من الأحكام لأجل

(١) زيد هنا : و اعظمها - و الكلمة مكررة فحذفناها بلامس للمعنى .

(٢) قرآن كريم سورة ٥٣ آية ٣ و ٤ .

(٣) فى الأصل : عن .

(٤) الجملة المحجورة ساقطة من النص و وردت فى هامشه بخط المراجع .

الغيرة حتى ذهب] مالك و غيره من العلماء إلى إسقاط الحد عن المرأة خشية إذا رمت زوجها بالفاحشة على جهة الغيرة . قال : و احتج لذلك بقول النبي صلى الله عليه و سلم : ما تدرى الغيراء أعلى الوادى من أسفله - انتهى .

فلنذكر الآن ما قيل فى العفاف و خدع النساء و مكرهن و حيلهن و عيوبهن إن شاء الله تعالى . قالت امرأة من العرب لبعلها : ما هذه الغيرة التى أراها بك ؟ قال : أغار على حمقاء مثلك ، تأتى بولد من غيرى ، فتقذفيه[1] فى حجرى . قال بعض الحكماء لولده : يا بنى ! تمسك بالمرأة العفيفة و اخبأها فى عينك ، و لا تتمسك بالمرأة الفاجرة ، فان من تمسك بها فهو فاجر جاهل ، و من عدم المرأة الحرة عدم الخير . قال بعضهم :

و توق من خدع النساء حبائلا إن النساء حبائل الشيطان

و قال الآخر :

در الدنيا و إن راقتك حسا و لا يغررك ربات الحجال
فليست فتنة فى الأرض تختشى أضر من النساء على الرجال

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لما ذكر عنده النساء : ما العجب

٢/الف من فسادهن ، بل العجب من صلاحهن . إن المرأة إذا رأتك / غنيا سلبتك ، و إن رأتك فقيرا هجرتك ، و إن جاعت أكلتك بأسنانها ، و إن شبعت قرضتك بلسانها . إن هى إلا عورات تجتمع ، و حياء يرتفع ، تخرج من بعد ذلك ما شنع . فذلك كله على الولد إن جاع كد ، و إن مات

(١) فى الأصل : فتقذفه .

هد ، فاللذة بهن يسيرة ، و الهموم[١] بهن طويلة تورث الحيرة ، فلا تأمنوا النساء على مال ، و لا تكلوهن إلى تدبير العيال فانهن لا مروءة لهن ، عند دواعي شهواتهن ، و لا صبر لهن عند إرادتهن ، بل جوعوهن جوعا لا يضرهن[٢] ، وأعروهن عريا لا يضرهن ، فأنهن إن جعن و عرين قررن في البيوت . قال الله تعالى[٣] : "و قرن في بيوتكن و لا تبرجن تبرج الجاهلية" .

فلنذكر الآن ما قيل في جوار النظر إلى النساء و عدم جوازه ، قال أبو شجاع أحمد بن الحسن الشافعي رحمه الله تعالى : نظر الرجل إلى المرأة على سبعة أضرب : أحدها [نظره - [٤]] إلى الأجنبية لغير حاجة فغير جائز ، و الثاني نظره إلى زوجته و أمته فجائز خلا[٥] فرجها ،[٦] لأنه يورث الطمس ، و [قيل] له أن ينظر إلى فرجها ، و قاسوه كسائر بدنها . قال أبو عمرو ابن الحاجب المالكي في مختصره : و الملك و النكاح يبيح نظر الفرج من الجانبين ، يريد أن عقد النكاح يبيح لكل واحد من الزوجين أن ينظر إلى فرج الآخر ، وكذلك الرجل مع جاريته . عن معاوية بن حمزة قال : قلت : يا رسول الله ! عوراتنا ما نأتي منها وما نذر . قال : احفظ عورتك إلا من زوجتك وماملكت يمينك . قلت : يا رسول الله ! فاذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال :

(١) في الأصل : و الهم . (٢) في الأصل : يضربهن .
(٣) قرآن كريم سورة ٣٣ آيه ٣٣ .
(٤) ساقطة من الأصل .
(٥) في الأصل : حلاف . (٦) زيد في الأصل : فقيل .

إن استطعت أن لا يرى أحد عورتك فافعل . قلت : فاذا كان أحدنا خاليا ؟ قال : الله أحق أن يستحى منه . و أما [ما - [1]] وقع لأصبغ و سئل : أيجوز للرجل أن ينظر إلى فرج امرأته ؟ فقال : نعم ، و يلحسه بلسانه . قال بعض الشيوخ : إنما أراد به تحقيق إباحة النظر ، و ليس من مكارم الأخلاق أن يلحسه بلسانه . و يحل فى النكاح كل الاستمتاع من الحرة و الأمة فى كل موضع منها إلا الإتيان فى الدبر فانه لا يحل ، قوله تعالى[2] : " نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم " ففهم الجمهور أن الحرث فى المرأة مستعار من الحرث فى الأرض ، و أن المطلوب من كل واحـــد منهما النماء ، و ذلك لا يتم إلا إذا كان الوطء فى القبل ، و جعلوا " انى " بمعنى كيف ، بقوله تعالى[3] " انى يكون له ولد " و" أنى يكون لى ولد " و يقويه ما فى الصحيح من حديث جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها فى قبلها كان الولد أحول ، فنزلت " نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم " قال جابر : إن شاء مجبّية[4] ، و إن شاء [غير - [5]] مجبّية[4] غير أن ذلك فى صمام واحد . و لا يعزل عن الحرة إلا باذنها - انتهى .

---

(١) ساقطة من الأصل .

(٢) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٢٣ .

(٣) قرآن كريم سورة ٦ آية ١٠١ و سورة ٣ : آية ٤٧ .

(٤) من صحيح مسلم - النكاح ، و فى الأصل : بجنبة .

(٥) زيد من الصحيح .

نعود إلى ما ذكره أبو شجاع أحمد بن الحسن ، قال : و الثالث نظره إلى ذوات محارمه / أو أمته المزوجة فيما عدا بين السرة و الركبة . و الرابع ٢٢١/ النظر لأجل النكاح ، فيجوز النظر للوجه و الكمين . و الخامس النظر للداواة ، فيجوز إلى الموضع الذى يحتاج إليه . و السادس النظر لشهادة أو معاملة ، فيجوز إلى الوجه خاصة . و السابع نظر الأمة لاشترائها ، فيجوز إلى الموضع الذى يحتاج إليه فى تقليبها . قال بعضهم :

مُنِ العقل عن لحظة فى هوى فان البصيرة طوع البصر
و غض الجفون على عفة فان زناء العيون النظر

و قد يحصل من العبد الوقيح ، ما يمضى نظره إلى الفعل القبيح . و ذلك أنه كان لبعض العرب عبد يقال يسار الكواعب ، و كان من حديثه أنه كان لسيده بنات حسان ، فأحبهن حبا شديدا ، قد أفتنه بحسنهن و جمالهن ، فجعل يحد النظر فيهن ، و يتعرض لهن بمشا كلته لهن ، فصرن يكلمنه بلين محادثتهن له ، فطمع فيهن ، فعمل الحيلة عليه ، و صرن يتقربن إليه ، فكثر طمعه فيهن ، فقلن له : يا يسار ! إنا نريد أن نبخرك بعود رطب ، فأمكنا من ذلك ، ففرح بقولهن ، و أمكن نفسه منهن فكتشف سوءته لهن . و قال فى نفسه : قد أحببننى و اشتهيننى ، فلما كشف لهن عن غرموله ، و كن أعددن له موسى فعدون عليه ، فقطعنه بخصيتيه . و قد ذكره الفرزدق الشاعر فى شعره فقال :

فهل أنت إن جاءت أتانك راكب
الى آل بسطام بن قيس فخاطب

(١) من مَانَ يَمُونُ ' احتمل المؤنة .

ولو مثلك اختار الدنو إليهـم
للاقى كما لاقى يسار الكواعب[1]

واعلم أنه يباح للعبد أن يرى من سيدته ما يراه ذو المحرم، إلا أن يكون له منظر فيكره أن يرى ما عدا وجهها، ولها أن تواكله إذا كان غير وغد يؤمن منه التلذذ برؤيتها، بخلاف من لا يؤمن ذلك منه، ولا يدخل الخصى على المرأة إلا أن يكون عبدها، واستخف إذا كان عنه زوجها للشقة الداخلة عليها فى استتارها منه.

[ذكر الفرزدق مع النوار -[2]]

وإذ قد ذكر الفرزدق، فلنذكر خبره مع النوار إن شاء الله تعالى - اعلم أنه ما من أحد له طبع سليم يرى جمالا فائقا إلا ويميل
٢/ الف / إليه طبعه، وأن الفرزدق مال طبعه إلى نوار، فعمل عليها الحيلة لفقره وغناها، ودمامته وحسنها، إلى أن تزوج بها. وذلك أن الفرزدق واسمه همام بن غالب الدارمى. والفرزدق لقب له لجهومة وجهه وغلظه وعدم حسنه، والفرزدق أيضا قطعة[3] العجين، وقيل: الرغيف الضخم. والنوار بنت عم الفرزدق. وخبره معها أنه كان وليها، إذ كان ابن عمها، فأمرته أن يزوجها من كفوء لها صاحب أصل فى العرب

(١) وورد البيتان فى الأغانى باختلاف كثير.
(٢) العنوان غير وارد بالنص أو الهامش.
(٣) فى الأصل: قطع.

وحسن

و حسن[1] فى المال . فقال : إن بالشام من هو أقرب إليك منى ، و لا آمن أن يقدم منهم قادم ، فيسكر ذلك علىّ ، فأشهدى أنك جعلت أمرك إلىّ . فأشهدت على نفسها بذلك ، و جعلت له أمرها أن يزوجها ممن رأى . فقال لها بعد مدة قريبة : أرسلى إلى القوم أزوجك من خطبك منى . فلما غص مسجد بنى مجاشع بنى تميم ، جاء الفرزدق فحمد الله و أثنى عليه ، ثم قال : لقد علمتم أن النوار قد ولتنى أمرها ، و أشهدكم أنى قد زوجتها من نفسى . فلما أخبرت النوار بذلك نشزت عليه و نافرته من البصرة إلى أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بمكة ، و كان إذ ذاك سلطان مكة ، حين أعياها أمر من بالبصرة أن يطلقوها منه ، و أعياها الشهود أن يشهدوا لها خوفا من شره و هجوه ، إذ كان شاعرا مطيقا ، و الهجاء يصير به المهجو[2] سبة بين قبائل العرب . كما قيل :

لو هجى المسك و هو أهل   لكل مدح لصار جيفه

و لم يقدم أحد على حملها لمكة ، حتى تجهز قوم من بنى عدى يقال لهم بنو نسير[3] إلى مكة ، فصحبتهم النوار ، فقال الفرزدق

و قد سخطت منى النوار الذى ارتضى
بـه[4] قبلها الأزواج خاب رحيلها

---

(١) فى الأصل : حسبا .
(٢) فى الأصل : المحو .
(٣) من الأغانى ـ أخبار الفرزدق . و فى الأصل : بنو بشير .
(٤) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

أطاعت بنى أم النسير فأصبحت
على شارف[1] ورقاء صعب ذلولها
و إن امرأ يسعى ليفسد زوجتى
كساع إلى أسد الشرى يستبيلها
ومن دون أحوال[2] الأسود بسالة
و بسطة أمر يمنع الضيم طولها
و إن أمير المؤمنين لعالم
بنا و بما رضى العباد رسولها

ثم ارتحل فى إثرها حتى وصلا مكة ، فنزلت النوار على بنت منظور بن زبان زوجة عبد الله بن الزبير . و نزل الفرزدق على ابنه حمزة بن عبد الله ابن الزبير ، و قال هذه الأبيات :

أمسيت قد نزلت بحمزة حاجتى
إن المنوّة باسمه الموثوق
بأبى عمارة خير من وطئ الحصى
و جرت له فى الصالحين عروق
بين الحوارىّ الأغر و هاشم
ثم الخليفة بعد و الصدّيق

يعنى بالحوارى الزبير بن العوام و هاشم بن عبد مناف ، و معنى الحوارى الخالصة ، فكان ما أصلح حمزة من شأن الفرزدق عند والده عبد الله ابن الزبير نهارا ، أفسدته بنت منظور امرأة عبد الله بن الزبير ليلا ،

(١ - ١) نقلنا « على شارف » من الشطر الأول للثانى .
(٢) فى الأغانى : أبوالها .

حتى غلبت النوار على الفرزدق فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تقبل شفاعتهم
و شفعت بنت منظور بن زبانا
ليس الشفيع الذى يأتيك مكتسيا
مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

فلما سمع ابن الزبير شعره هذا توقف فى أمره ، فلقيه يوما بباب المسجد ، فضمه إلى الحائط ، فكادت تزهق روح الفرزدق ، و كان ابن الزبير فى غاية من القوة ، ثم هدده و تركه خائفا ، ثم دخل على النوار فقال لها : إما [أن -[1]] تتمى زواج ابن عمك و إلا قتلته و أرحت المسلمين من شر لسانه . فقالت : و لا بد أن تقتله . قال : و لا بد ! فعطّفتها عليه رحم القرابة و قالت : لا و الله [ما -[1]] أدعه للقتل ، قد رضيته زوجا لى . فحكم عليه ابن الزبير بمهر مثلها عشرة آلاف درهم . وسأل الفرزدق : هل بمكة أحد يعينه ؟ فنزل على سلم بن زياد ، و كان عبد الله بن الزبير حبسه ، فقال فيه قصيدة منها :

دعى مغلقى[2] الأبواب دون فعالهم
[3]و مُرّى تمشّى[3] القاصدون إلى سلم
٢٢٣/ الف / إلى من يرى المعروف سهلا سبيله
و يفعل أفعال الكرام التى تنمى

---

(١) ساقطة من الأصل .
(٢) من الأغانى ، و فى الأصل : مقفل .
(٣-٣) من المراجع ، و فى الأصل : و منزل يمشى . و الشطر فى المراجع : و مرى تمشى بى هبلت إلى سلم .

ثم دخل على سلم فأنشده القصيدة و قال له : إن ابن الزبير طلب مني المهر للنوار عشرة آلاف درهم . فقال سلم : هي لك ، و مثلها لنفقتك . فقبض عشرين ألفا ، فدفع مهرها عشرة آلاف ، و دخل بالنوار و أحلها قبل أن يخرج من مكة . ثم خرج بها و هما عديلان فى محمل ، فكانت أبدا تسبه و تخالفه لأنها كانت صالحة الدين كاسمها ، لأن هذا الاسم فى لغة العرب النفور من الريبة [1] .

و كان الفرزدق رديء الدين زانيا قاذفا للمحصنات . و من ملح أخبارها أنه أراد امرأة شريفة على نفسها فامتنعت عليه ، فتهددها بأن يهجوها ، فاستعادت بزوجته النوار ، فقالت لها النوار : واعديه ليلا ثم أعلميني . و خرجت المرأة من حجلتها ، و بادر الفرزدق الحجلة و النوار فيها ، و هو لا يشك أنها الشريفة صاحبة الحجلة ، و ذلك فى الظلام ، فواقعها ، فلما فرغ منها قالت : يا عدو الله ! يا فاسق ! فعرفها و علم أنه خدع ، فقال لها . أنت هي ، سبحان الله ! ما أطيبك حراما و أبردك حلالا ! فلم تزل تؤذيه بلسانها حتى أبغضها . فحدث أبو معبد راويته قال : قال لي الفرزدق يوما : امض بنا إلى حلقة الحسن البصري ، فإني أريد أن أطلق النوار . فقلت له : إني أخاف أن تتبعها نفسك ، و يشهد عليك الحسن و أصحابه . فقال : امض بنا . فجئنا حتى وقفنا على الحسن ، فقال له الفرزدق : كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ قال : بخير . ثم قال الحسن للفرزدق : كيف أصبحت يا أبا فراس ؟ قال : تعلم أن النوار مني طالق ثلاثا .

(١) و رد مثله فى الأغاني و نصه : فكانت لا تزال تشارّه و تخالفه لأنها كانت صالحة حسنة الدين و كانت تكره كثيرا من أمره .

فقال

فقال الحسن و أصحابه: قد سمعنا . قال أبو معبد : فقال الفرزدق: يا هذا! إن فى قلبى من النوار شيئا ، فقلت: قد حذرتك ، فقال :

ندمت ندامة الكسعىّ / لما غدت منى مطلقـــة نوار ٢٢٣/ ب
و كانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
و لو أنى ملكت يدى و نفسى لـكان علىّ للقدر اختيار
و كنت كفاقئ عينيه عمدا فاصبح ما يضىء له نهار

و مات الفرردق سنة عشر و مائة[1] للهجرة ، و فيها مات جرير بن الخطفى[2] و محمد[3] بن سيرين و الحسن البصرى . فقالت امرأة بصرية : كيف يصلح بلد مات فقيهاه و شاعراه؟ و الحسن هو أبو سعيد بن أبى الحسن البصرى و اسم أبى الحسن يسار مولى الأنصار ، و ولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب[4] ، و مات بالبصرة سنة عشر و مائة للهجرة و هو ابن ثمان و ثمانين سنة .

و روى أن أمه كانت خادمة لأم سلمة زوج النبى صلى الله عليه و سلم ، و ربما بعثتها فى حاجة ، فيبكى الحسن . فتناوله ثدييها ، فرأوا أن تلك الحكم التى رُزقها الحسن من بركات ذلك .

و روى أن أم سلمة أخرجته[5] إلى عمر بن الخطاب فدعا له فقال : اللهم! فقهه فى الدين ، وحببه إلى الناس . و سئل أنس بن مالك عن [6]مسألة فقال[6]: سلوا مولانا الحسن ، فانه سمع و سمعنا ، فحفظ و نسينا - انتهى .

---

(١) يقابلها سنة ٧٢٨ - ٧٢٩ م . (٢) فى الأصل : الخطفا .
(٣) فى الأصل : الحسن ، و التصحيح من الأعلام للزركلى .
(٤) انظر حاشية سابقة ، راجع الفهارس .
(٥) فى الأصل : احرجت .
(٦-٦) فى الأصل : مسئلة فقالوا - كذا .

[قصة الكسعى - [1]]

نعود إلى قول الفرزدق فى شعره حين طلق زوجته النوار :

ندمت ندامة الكسعىّ لما غدت منى مطلقـة نوار

و ذلك أن الكسعى رجل منسوب إلى كسع قبيلة باليمن ، و اسمه محارب بن قيس ، و بندامته يضرب المثل ، يقال : أندم من الكسعى . و من حديثه أنه كان يرعى ابلا بواد كثير العشب و الخمط ، فبينما هو يرعاها إذ بصر ببنعة فى صخرة ، فقال : ينبغى أن تكون هذه قوسا ، فجعل يتعاهدها و يقومها حتى أدركت فقطعها ، فلما جفت اتخذ منها قوسا ، و أنشأ يقول :

يا رب وفقنى لنحت قوسى فانها من لذتى لنفسى[2]
و انفع بقوسى ولدى و عرسى أنحتها صفراء مثل الورس

لف / الورس نبات كحب اريسم يجلب من الحبشة ، يصبغ به الثياب الصفر الحرير . و كان ثم دهنها و خطمها بوتر ، و اتخذ من برايتها خمسة أسهم ، و جعل يقلبها بكفه و ينشد :

هن و ربى أسهم حسان تلـذ للرامى بها البنان
كأنما قوامها[3] ميزان فأبشروا بالخصب يا صبيان
إن لم يعقنى الشؤم و الحرمان

(١) ليس العنوان بالهامش و لكنه مشتق من النص .
(٢) من لسان العرب ، و فى الأصل : و نفسى .
(٣) فى اللسان : قومها .

ثم أتى موارد جمة ، فكمن فيها ليلا ، فمر به قطيع ، فرمى حمار وحش بسهم فأصابه السهم ، و خرج منه و أصاب الجبل ، فقدح منه نارا ، فظن أنه أخطأ . ثم مر به قطيع آخر . فرمى بالسهم الثانى حمار وحش فأمخطه بالسهم و مضى إلى الجبل فأورى نارا كالأول . ثم مر به قطيع وحش فرمى [١]بالسهم الثالث[١] حمارا منه فأمخطه و صنع صنيعه[٢] الأول و الثانى . ثم مر به قطيع رابع [فرمى بالسهم الرابع حمار وحش - [٣]] فخرقه السهم و مر إلى الجبل فقدح نارا . ثم مر بـه قطيع خامس ، فرمى بالسهم الخامس حمار وحش فمرق من الحمار و ركز فى الجبل ، قدح منه النار ، و هو لا يعلم باصابـة الأسهم لشىء من الوحش لشـدة الظلمة ، فأنشأ يقول :

أ بعد خمس قد حفظت عدها أمسك قوسى و أريد ردهـا
أخزى الإلـه لينها و شدهـا و الله لا تسلم[٤] عندى بعدها
و لا أرجى ما حييت رفدها

ثم أخذ القوس فكسرها على حجر ، و بات بقية ليلته ، فلما أصبح أبصر الحمير الخمسة مطرحة حوله ، و أسهمه بالدماء مضرجة . فأسف و ندم على كسره القوس و عض إبهامه فقطعها تلهفا ، و أنشأ يقول :

ندمت ندامـة لو أن نفسى تطاوعنى إذا لقطعت خمسى

(١ - ١) فى الأصل : به . (٢) فى الأصل : صنيعة .
(٣) زيدت العبارة لاكتمال الجملة .
(٤) من اللسان ، و فى الأصل : لا يسلم .

تبيّن لى سفاه الرأى منى   لعمر أبيك حين كسرت قوسى

- انتهى .

[فى الغيرة و أخبار النساء - [1]]

نعود إلى ما قيل فى الغيرة - ذكروا أن الغيرة من أكبر مروءات ب الرجال . قيل : إن أمير المؤمنين / عبد الملك بن مروان[2] كتب إلى عامله الحجاج يأمره بطلب رجل ، فبلغ الرجل ذلك ، فجمع نساءه و حريمه و هرب بهن إلى دير هند ، فأخبر الحجاج بذلك ، فهجم عليه شرطة ذلك الدير ، أخرجوا منه تسعا[3] من نسائه و أخواته و بناته ، و هرب الرجل من الشرط . فلما أخرج الشرط النسوة من الدير ليمضوا بهن إلى الحجاج ، فسمع رجل من الناس الضجة ، و إحداهن تنشد و تقول :

خارجات تَسَقُّن من دير هند   غانيات بذلــة و هوان

يتمنين أن يرين كريما   طيّب الخيم من بنى غطفان

ليت شعرى أول الهرج هذا   أم محا الدهر غيرة الفتيان

فلما سمع الرجل ذلك منها ، شد على شرط الحجاج ، و أخذ سيف واحد منهم ، و خلص النسوة بعد أن قتل منهم واحدا و هرب . فبلغ الحجاج ذلك ، فأمر بالقبض على من كان حاضرا فى ذلك الوقت عند تخليصهن من الشرط ليقتلوا إن لم يحضر الرجل ، فسمع الرجل بذلك ، فجاء إلى الحجاج فقال : أصلح الله الأمير ! أنا صاحب الجناية ، فخل من قد

---

(١) العنوان مشتق من النص و ليس بهامشه .

(٢) انظر حاشية سابقة ، و راجع الفهارس .   (٣) فى الأصل : تسعة .

أخذت

أخذت سبى من الناس الذين[1] كانوا حاضرين حين خلصت القسوة من الشرط، فخلى الحجاج عنهم، ثم قال له الحجاج: ما حملك على ما صنعت؟ عصيت ربك، وخالفت أميرك، وقتلت النفس التى حرم الله تعالى [قتلها - [2]]، قال: سمعت امرأة منهن تقول كذا وكذا، وأنشده الشعر، فلم أتمالك أن فعلت ما فعلت. فقال له: أفأمنت عقوبتى؟ قال: والله ما أمنتها ولا كان ذلك منى إلا على بصيرة وغيرة على النساء. قال: فأعجب الحجاج مقالته، وعظم فى عينه، وأمر له بكسوة، وما زال فى جملته إلى أن مات. ومما قيل فى المعنى:

وللمقادير أسرار فإن ظهرت ... تعجب الخلق منها حين تنتشر

وكل شىء له حد سيبلغه ... فيذهب الكرب والمظلوم ينتصر

وقال صالح بن سليمان: ما رأيت عقول الناس[2] إلا قريبا بعضها من بعض، إلا ما كان من الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس. قال ابن شوذب: ما رأى أحد مثل الحجاج لمن أطاعه، ولا مثله لمن عصاه. وقد تقدم من أخبار الحجاج لمع[3] فى مواضع متفرقة / من هذا الكتاب. ٢٢٥/ الف

(١) فى الأصل: الذى.

(٢) فى الأصل: النساء. وهو خطأ لفظى يصححه السياق.

(٣) فى الأصل: لمعا.

فلنرجع إلى ذكر ما قيل من أخبار النسوان، من الإساءة والإحسان، إن شاء الله تعالى - ذكروا أن امرأة كانت بصنعاء اليمن لها ربيب، فغاب زوجها، وكان ربيبها عندها، وكان عندها خليل لها، يحضر أصحابه معه عندها. فقالت لهم: إن ربيبي فاضحنا. فتمالأوا عليه وهم سبعة فقتلوه وألقوه في بئر غمدان. فمر على البئر رجل بعد أيام، فاذا هو بذباب أخضر يطلع من البئر ويهبط، فأتى الأمير يعلى عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على صنعاء، فأخبره بذلك، فخرج يعلى بالناس حتى وقفوا على البئر، فشموا رائحة منتنة. فقال الرجل صديق المرأة: دلوني، فدلوه، فأخذ الغلام وغيبه في سرب في البئر، فطلع وقال: لم أقدر على شيء، ولا رأيت شيئا. فقال القوم: الريح الآن أشد منها حين جئنا. فقال رجل: أدلوني البئر. فلما أرادوا أن ينزلوه، أخذ صديق المرأة الرعدة، فاستوثقوا منه ودلوا صاحبهم، فاستخرجه ورفعه إليهم، فقرر صديق المرأة، فاعترف واعترفوا كلهم، فكتب فيهم يعلى إلى عمر، فكتب إليه عمر أن اقتلهم، فلو تمالأ عليه[1] أهل صنعاء اقتلتهم به، فقتلهم يعلى.

قال العلماء: تقتل الجماعة بالواحد إذا تعمدوا الجناية عليه. قال الله[2] تعالى: "ولكم في القصاص حيوة" - الآية. ولو لم تقتل الجماعة

(١) في الأصل: عليهم.

(٢) قرآن كريم سورة ٢ آية ١٧٩.

[1]بالواحد لزال[1] معنى الردع ، وكان فى ذلك تضييع الدماء . و السكران إن قَتل قُتل ، هذا إذا سكر من محرم ، لأن القلم غير مرفوع عنه سكره . و الذى يسكر من اللبن لا يلزمه شيء ، وكذلك الذى يسكر من شرب دواء . و القتل بغير حق حرام ، و هو من الكبائر العظام ، فيقتل المسلم بالمسلم ، و الذمى بالذمى ، و الحر بالحر ، و العبد بالعبد . و لا يجب القود على المسلم بقتل الكافر ، و لا على الحر بقتل العبد ، و لا على الوالد بقتل الولد . فان قتل ذمى ذميا ثم أسلم القاتل . لم يسقط عنه القود ، فان أمر الأمير رجلا بقتل رجل بغير حق ، فحكم القتل يتعلق بالأمير دون المأمور ، لأن طاعته واجبة عليه - انتهى .

قال النزال بن سبرة : أنا لمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ١٠ بمنى ، و إذا بامرأة ضخمة و هى تبكى . فقال لها عمر : ما يبكيك ؟ إن المرأة ربما استكرهت فقالت إنى امرأة ثقيلة النوم ، و كان الله عز و جل يرزقنى من الليل ما شاء أن يرزقنى ، فصليت وردى و نمت ، فو الله ما استيقظت إلا و رجل قد ركبنى و مضى ، و ما أدرى أى خلق الله هو ! فقال . عمر : لو قتلت هذه خفت على ما بين الأخشبين النار ! ثم كتب إلى ولاته [أن] لا يقتلوا أحدا إلا باذنه . و لذلك رحمه الله سقوط الغسل عن المكرهة و النائمة . و أخذ منه ابن القصار سقوط قضاء الصوم كمذهب الشافعى رحمه الله . و إذا جامع الرجل زوجته ٢٢٥ / ب

(١-١) فى الأصل : فالواحد ازال .

مكرهة، فقسد حجها، وجب عليـــه أن يحجها من ماله و أن يهدى عنها من ماله، وسواء بقيت فى عصمته أو طلقها فتزوجت غيره أو لم تتزوج، وكذلك لو أكره أجنبية، لأنه من باب الغرامة، و لا شك إن طاوعتــه فان ذلك فى مالها خاصة. و قال أبو حنيفة: إن أكرهها حجت من مالها، و لا ترجع به عليــه. هذا حكم الملىّ، و أما العديم فروى عيسى عن ابن[1] القاسم ليس عليها هى حــج و لا صيام و إن كانت ملية، و ذكر ابن المواز عن ابن القاسم أنها تحج و تهدى و ترجع به عليه، قال بعضهم بالأصل من ثمن الهدى أو من قيمته - هـذا حكم الحرة، و أما الأمة يطؤها سيدها، فان كانت مكرهة فحكمه بين مما تقدم. و إن كانت طائعة فهل يكون إكراهها فى الحكم أو طوعا حقيقة، فيه قولان، فاذا قيل: إنه ليس باكراه، كان عليها القضاء إذا عتقت، و إذا قيل: إنه إكراه، أو أكرهها ابتداء، لزمه إحجاجها. و هل يجوز له أن يبيعها قبل أن يحجها - فيه قولان، و إذا قلنا. يجوز بيعها، فلا بد من بيان ذلك و إلا فهو عيب، للمشترى ردها. و فى السليمانية: إذا لم يحجها فليبعها ممن يحجها، و اعلم أن وجوب الصداق للمكرهة على الزنى أقوى منه لغير العالمة به الظها أنه زوجها، و لم يكن زوجها، لأنهما و إن اشتركا[2] فى العقد المسقط للحد، إلا أن[3] غير العالمة سلطت على نفسها جهلا، و قد علمت حكم المسلط على ماله مــع احتمال / أنها لو علمت ب

---

(١) زيد فى الأصل: «أبى» و لم تكن الزيادة فيما سيأتى لحذفناها.

(٢) فى الأصل: اشتركت.

(٣) فى الأصل: عن.

لقدرت على المدافعة، بخلاف المكرهة فى ذلك، و إذا علمت المرأة أن زوجها طلقها ثلاثا و لا بينة لها، إنه لا يسعها المقام معه، فهى كمن طلقت ثلاثا و لا بينة لها، فلا تتزين له و لا يرى لها شعرا و لا وجها، و إن قدرت و لا يأتيها إلا مكرهة منها فرافعته للحاكم و لا يمين عليه إلا بشاهد إذ لا تنفعها كراهيتها فيما بينها و بين الله تعالى، و إنما ينفعها أن تكون مكرهة على ذلك. قال ابن المواز: و لتفتد منه بما قدرت عليه [من - [1]] ضربه أو قتله، إذا أراد وطأها فلتفعل ذلك من ضرب و قتل، كأنه كالعادى و المحارب. و قال ابن سحنون: لا تقتله و لا تقتل نفسها، و أنكر قياس ابن المواز هذه المسألة على مسألة الحرابة، فان شرط القياس أن يثبت فى الفرع مثل حكم الأصل، و هذه المسألة غير حاصلة هاهنا لأن الحكم فى الحرابة التخيير بين ممانعة المحارب أو تسليم المال له. و الحكم هاهنا يحتم الممانعة. و أما القتل فى مسألة الزوجة فلا سبيل إليه، لأنه قبل الوطء لم يستحق ما يوجب القتل، و بعد الوطء فالواجب الحد، و ذلك إلى الأئمة لا إلى المرأة. و أجيب باختيار القسم الأول، و هى أن لها أن تقتله قبل الوطء لأجل المدافعة إذ لا يمكنها مدافعة عن نفسها إلا بذلك، كما لو أراد قطع عضو من أعضائها و لم يمكنها مدافعته إلا على هذا الوجه. و أجيب عن اعتراضه على أصل القياس أولا بأن مراد ابن المواز هنا الاستدلال الذى هو محاولة الدليل من القواعد الشرعية، لا حقيقة القياس بخصوصيته، و ذلك أن حرمة

(١) ساقطة من الأصل.

الفروج فى نظر الشرع آكد و أقوى من حرمة المال ، فاذا جازت المدافعة عن المال بالقتل فلأن تجوز عن الفروج أولى - انتهى .

فى العينية : سئل مالك فقيل : إنى تزوجت امرأة فأذنت لى بالدخول عليها و السكنى و المبيت معها قبل أن أعطى صداقها و أنفق عليها ، فان أضطجع معها إلى جنبها فى اللحاف [1] تمنعنى نفسها / حتى أعطيها صداقها و ليس عندى ؟ فقال له : ذلك ! أرضها من مهرها ، استعن عليها بعض جاراتها ، فأما النفقة عليها فذلك لها عليك . و ظاهر هذا أن المرأة تمنع نفسها حتى تقبض ما اتفقا عليه من صداقها المعجل ، و لأنها لو رضيت بالدخول من غير قبض الصداق و لا قبض شيء منه لجاز كالبيع ، و النكاح مبنى على المكارمة ، و لا يجوز فيه الهبة ، و البيع مبنى على المكايسة و المشاحة و يجوز فيه الهبة ، و الجمع بينهما متناقض ، و فى العينية عن ابن القاسم و سئل عن الرجل ينكح المرأة فيهدى لها : هل ترى أنه يدخل بها بتلك الهدية حتى يقدم عليها من صداقها ربع دينار . لأن الهدية ليست من الصداق ، قيل : فهل يدخل بها إذا رهنها بصداقها رهنا ؟ قال : نعم ، يدخل بالرهن - انتهى .

فلنذكر الآن ما قيل فى حق الزوجة على زوجها و حقه أيضا عليها - اعلم أن الواجب للزوجة على الزوج النفقة ، إذا سلمت إليه و هى من أهل الاستمتاع ، و نقلها حيث يريد ، وجب عليه نفقتها ، فيجب على الموسر بمال أو كسب مدّان [1] من قوت البلد ، و على المتوسط

(١) زيد فى الأصل : « و » .

مد و نصف، و على المعسر مد، و يجب لها [من - ١] الإدام ما تحتاج إليه من أدم البلد من الزيت و الشيرج و اللحم و أجرة الحمام، و لا يلزمه فى مرضها الأدوية و أجرة الطبيب، لأن المرأة كالدار المستأجرة، إذا تهدم منها شيء لزم المالك بناؤه، و يلزم الزوج الكسوة إذا كان موسرا من مرتفع ما يلبس فى البلد من القطن و الكتان و الخز و الإبريسم، و لامرأة المعسر من غليظ القطن و الكتان، و لامرأة المتوسط ما بينهما. و أقل ما يجب لها قميص و سراويل و مقنعة و مداس للرجل، و فى الشتاء / جبة. و يجب لها ملحفة و كساء و وسادة و مضربة ٢٢٧/الف محشوة للنوم، و زلية أو لبد أو حصير بالنهار، و يجب لها السكن على حسب حاله كالنفقة. فان كانت المرأة ممن لا تخدم نفسها، وجب لها جارية واحدة، و نفقة الجارية فى حق الموسر مد و نصف، و فى حق غيره مد، و لا يجب للجارية سراويل و لا مشط و لا دهن، فان كانت الجارية ممن تخرج إلى الحاجات وجب لها خف أو شمشك. و يجب للزوج أن يدفع للزوجة نفقتها فى كل يوم إذا طلع الشمس، و الكسوة فى كل ستة أشهر، فان أعسر الزوج بنفقة المعسر، ثبت لها فسخ النكاح. و لا تمتنع المرأة من تمكين زوجها من نفسها فيما يلزمها بذله، لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: إذا دعا أحدكم امرأته إلى فراشه [فأبت - ٢] فباتت وهو عليها ساخط لعنها الله و لعنتها الملائكة حتى

(١) ساقطة من الأصل. (٢) زيد من صحيح البخارى.

تصبح . و له السفر بها . و لا تخرج من منزله بغير إذنه و لو إلى المسجد ، لما روى أن امرأة قالت : يا رسول الله ! ما حق الرجل على زوجته ؟ فقال : حقه عليها أن لا تخرج من بيته إلا باذنه ، فان فعلت لعنها الله و ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب حتى تتوب أو ترجع ، قالت : يا رسول الله ! و إن كان ظالما لها ؟ قال : و إن كان ظالما لها . و لا يجب على المرأة خدمة زوجها فى طبخ و لا غسل و لا غيره . و لا يجمع بين امرأتين فى موضع واحد إلا برضائهما ، و يقسم بينهما لكل واحدة منهما ليلة ليلة مع يومها . و قال بعض العلماء : إذا مرضت الزوجة فقل أكلها أو خرجت قليلة الأكل ، وطلبت قوتا كاملا ، هل يقضى لها به أو لا يقضى لها إلا بقدر كفايتها ؟ و أما إذا خرجت أكولا ، فقال : يفرض لها ما يكفيها ، و هى مصيبة نزلت بالزوج - انتهى .

[خبر البنت الإسرائيلية و حكايات أخرى -[1]]

فلنذكر الآن / خبر البنت الإسرائيلية التى طلبت من أبيها أن يزوجها لرجل فى حياته ، إذ كانت أمها قد ماتت - ذكروا أنه كان فى بنى إسرائيل رجل كثير المال ، فلم يكن له ولد سوى ابنة ، فلما كبر قال : أى بنية ! اقترحى على حاجة حتى أقضيها لك . قالت : يا أبت ! أعظم حاجتى عندى ان تزوجنى من رجل صالح ليكون لى سترا . فاغتاظ والدها من قولها و حلف : إن زوجتك إلا من استقبلنى غدا

(١) هذا عنوان شامل لبعض القصص فيما يلى و ليس بالهامش .

عند خروجي من داري . فلما أصبح استقبله ملك من الملائكة في صورة ذئب قعد على عتبة داره . و كان في ذلك الزمان السباع و الوحوش و الهوام و نحوها يكلمون الناس . قال النبي صلى الله عليه و سلم : حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج فقد كان فيهم العجائب . فلما خرج الرجل من داره رأى ذلك الذئب قائما بين يديه [1] . فقال له الذئب : إنك قد عهدت عهدا بأنك تزوج ابنتك من أول من يستقبلك ، فأنا ذلــك . فقال : اصبر حتى أصلي في المسجد و أشاور الجماعة في ذلك . فذهب الذئب إلى باب المسجد حتى فرغوا من الصلاة . فقال الرجل للجماعة : جرى لي البارحة كذا و كذا ـ و أخبرهم بالقصة ـ فما ذا تشيرون علي؟ فقال واحد من الجماعة : هل يزوج عاقل [2] ابنته من ذئب؟ خذ عصا و اضرب رأس الذئب . و تكلم كل واحد بما قال ، فقال كبيرهم و كان رجلا صالحا : أيها الرجل! أوف بما عاهدت الله عليه . فامتثل الرجل قوله خوفا من نقض العهد ، فأخرج الرجل ابنته و سلمها للذئب . فقال له الذئب : إن اشتقت إلى رؤية ابنتك فتجيء في القرية الفلانية فنحن هناك . و مضى الذئب بها ، فبعد أيام اشتاق الرجل إلى ابنته فقال : قد ربيت بنتا كذا و كذا سنة و قد سلمتها لذئب ، فأقوم أزورها و أبصر ٢٢٨/الف
حالها . فقام و قصد تلك القرية التي دله الذئب عليها ، فلما بلغ ذلك

---

(١) في الأصل : ايديه .

(٢) في الأصل : عاقلا .

الموضع رأى شابا جميلا مليح الصورة فسلم عليه، فقال: و عليك السلام يا صهري! فقال: أ تسخر مني و أنا قد زوجت ابنتي من ذئب و أنت شاب حسن؟ فكيف تكون صهري! فقال: أنا ذلك الذئب، و أنا ملك بعثني الله عز و جل إليك لأنظر إليك هل توفي بعهد الله عز و جل أم لا! فحين أوفيت بالعهد فان الله عز و جل قد غفر ذنوبك، و جعلك من أوليائه، فان الله لا يضيع أجر المحسنين، و هذه ابنتك فخذها و زوجها من رجل صالح، و لا تغضب عليها في قولها لك ذلك، فانها اختارت لنفسها العصمة به و هي من الصالحات. فأخذ الرجل ابنته و مضى بها إلى وطنه. و اختار لها رجلا صالحا زوجها منه.

و كان عمران بن حطان رجلا دميما[1] قبيح المنظر، و كانت زوجته فائقة الجمال، فدخل عليها يوما، فجعل يطيل النظر إليها، فقالت ما بالك تطيل النظر إلي؟ فقال: لقد أصبحت و الله جميله! فقالت: أبشر فاني و إياك في الجنة. قال لها: و من أين علمت ذلك؟[2] قالت: لأنك[3] أعطيت مثلي فشكرت، و أعطيت مثلك فصبرت، و الصابر و الشاكر في الجنة.

قال الأصمعي: دخلت حيا من أحياء العرب، فاذا أنا بجارية قد أعجبني حسنها و جمالها، فقلت في نفسي: و من تكون هذه له؟ و إذا

(١) في الأصل: دميا.

(٢-٣) في الأصل: قال لك.

رجل أقبح الناس مظرا قد أتى إليها و أمر عليها و نهى بنفس عال ثم ولى . فقلت لها : ما هذا يكون منك ؟ قالت : هو بعلى . فقلت : أرضيت لهذا الوجه المليح بهذا الوجه القبيح ؟ فقالت : بئسما قلت يا هذا ! و قد يكون أحسن ما بينه و بين مولاه / فكنت ثوابه ، و لعلى أنا أسأت ٢٢٨/ب فيما بيني و بين الله مولاى فيكون هو عقوبتى فى الدنيا ، فالحمد لله على ما حكم و قسم .

و قال الأصمعى : دخلت البادية فاذا أنا بامرأة عليها قميص أحمر و هى مختضبة و بيدها سبحة ، فقلت لها : ما أبعد هذا من هذا ! فقالت :

و لله منى جانب لا أضيعه و للهو منى و البطالة جانب

فقلت : إنها امرأة صالحة ، و إن لها زوجا تتزين له .

قيل : كانت امرأة ماشطة متزوجة لمراواتى[1] . فقالت النسوة لها : أنت تزينين النساء و زوجك يزين الرجال . فقالت : الحمد لله الذى لم أكن غاسلة و لا زوجى غاسلا للموتى ، بل جعلنا الله تعالى للتزين فى الفرح ، لا للحزن و الترح .

قال أبو عمرو العدوى : أتيت بادية لبنى تميم فى بعض الأيام من آخر النهار . فقصدت بيتا رحبا فاذا بفنائه امرأة جالسة ما رأيت قبلها

(١) مراوات ـ وردت فى دوزى (ج ٢ ص ٥٨٥) بمعنى قطع الصفيح والمعدن التى تستعمل فى عمل سروج الخيل . فيكون المراواتى إذن السروجى .

و لا بعدها أحسن صورة منها ، و بين يديها صبي يلعب ، فعلمت أنه ابنها. فسلمت فردت و حيّت ، و قلت : ضيف . فقالت : انزل ، و أمرت جارية لها فجاءتنى بقرى ، فجلست آكل إذ أقبل إلينا رجل يسوق أباعر ، فنظرت إليه غير متعمد ، فاذا هو من أقبح الناس منظرا من رجل دميم[1] الخلق شديد الأدمة أعور العين اليمى ، قد درس آثار الجدرى معالم وجهه حتى كأنما أحرق بالنار . فقلت : إنه أجير لها فى رعاية الإبل . فلما انتهى إلينا هش له الصبي و أسرع نحوه فاحتمله و ضمه إلى صدره و جعل يقبله ، فعلمت أنه أبوه ، فضمه[2] ذلك فى نفسى حتى أمسكت عن الطعام و صرفت وجهى إليه أتأمله و إياها ، و أعجب من جمالها و من قبحه ، و أقول فى نفسى : ليت شعرى كيف احتمع هذان ! و كيف طابت نفس أبيها و أهلها يدفعونها إلى مثله ! قال : ففطن لى فقال : ما شأن ضيفنا قد شغله النظر إلينا عن الطعام ؟ ثم أقبل على فقال : كأنى بك و أنت تقول فى نفسك : كيف احتمع هذان ! و تعجب من جمالها و من قبحى . قال : فاستحييت عند ذلك منه و تبسمت و قلت : و الله ما أخطأت فى ظنك ! الف فقال : إنك إذا فرغت / من شأنك أخبرتك بأمرى و أمرها . قال : فأقبلت على الطعام حتى نلت منه حاجتى . و أقبل هو على إصلاح مواشيه و عبيده حتى إذا فرغ فقال . اسمع يا أخا العرب ! أخبرك بالعجب ، إنى كنت سابع سبعة إخوة لأبى ، و كان أبى يحبهم و يبغضنى ، و يصلهم و يقطعنى ، و يكرمهم و يهينى و يصونهم و يمتهنى . فلما كان ذات ليلة

(١) فى الأصل : دميم . (٢) كذا فى الأصل ، و لعله تصحيف « فعظم » .

شردت

شردت لأبي أباعر، فذهبت في ظلمة الليل، فلما أصبح قال لي: انطلق في طلبها. وكانت غداة شديدة البرد. فقلت: يا أبت! ما تنصفني؟ قال: و ما ذاك؟ فقلت: إذا حضرك الطعام الطيب و اللبن الخالص و الخير الكثير فهو لك و لبنيك، و إذا كان طلب الضوال[1] و ما يثقل من الأعمال خصصتني به، ألا تبعث غيري في آثار هذه الأباعر؟ فقال: إنه لآخر أيامك من ضرب شديد! انطلق فعل الله بك و فعل! قال: فانطلقت فزعا مرعوبا، و أنا من أسوإ الناس حالا فسعيت يومي كله، و اشتد بي الجوع و البرد، فأشرفت من آخر النهار على حي عظيم، فقصدته فلما انتهيت إليه تيممت أعظم بيت، و أملت أن يكون أخصب البيوت قرى و أوسعها خيرا، فإذا بفنائه امرأة ضخمة جالسة، و إذ هذه المرأة التي تراها جالسة معها [جارية -[2]]، فعلمت أنها ابنتها، فسلمت فردت السلام، فاشتكيت لها حالي، وأمرت ابنتها هذه فأتتني بطعام و نار أتدفأ بها، و جعلت هذه تهرأ مني فتقول. ما أجملك! ما أحسن وجهك! ما أتم قامتك! و أنا أقول لها: إليك عني! فاني عما أنت فيه بمعزل. و إذا قد أقبل شيخ دونها و سألني عن حالي. و أوصى بي خيرا. و دخل هو و نسوه. فلما كان عند آخر الأمر قالت هذه - و أشار بإصبعه إليها: إذا نام الناس أن تأتيني. قال: فظننت أن ذلك منها حق، فلما شبعت من القرى و دفئت من الاصطلاء سولت لي نفسي أن آتيها، و قد رأيت موضعها من البيت، فانتظرت

(١) جمع ضالة أي الإبل الشاردة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

حتى استثقل أبوها و أمها و إخوتها نوما ، ثم أتيتها فجسستها بيدى : فاستيقظت
ب مذعورة و قالت / : من هذا ؟ قلت : الضيف . قالت : ابعد ، زادك الله قبحا . و زجرتنى ، كل ذلك منها بكلام خفى ، فخرجت من البيت فزعا مرعوبا ! و ثاورنى كلب لهم ينبحنى ، فزاد ذلك فى روعتى ، و خفت أباها و إخوتها أن يحسوا بى و جعلت أمشى القهقهرى و أتقى الكلب حتى صرت فى ظهر البيت ، و إذا هناك بئر واسعة عميقة لا ماء فيها و لا أشعر بها حتى سقطت ، فصرت فى قعرها ، و سقط الكلب فى إثرى ، فسمعت هى الوجبة فعرفت القصة ، و ليس منهم مستيقظ غيرها ، فجاءت حتى وقفت على البئر فقالت : أنت هاهنا ! قبحك الله ! فقلت : نعم و الكلب معى فأنقذينى . فانطلقت فجاءت بحبل فأدلته إلى و قالت : تعلق به و اصعد . فتعلقت به ، فلما استقللت و ثقلت عليها انهال ما تحت رجليها من التراب فسقطت فى البئر . فصرنا فيها ثلاثة . كل واحد منا مبغض لقرب صاحبه ، فأحس أهلها بذلك فتنبهوا و نهضوا و أخذوا الأثر حتى انتهوا إلى البئر فاستخرجونا ، فقال الشيخ لبنيه : قد ترون ما أرى فما عندكم ؟ قالوا : أنقتلهما[1] جميعا ؟ فقال : كلا ! و الله ما ابنتى عندى بمتهمة ! قالوا : فنقتله دونها و نخفى أثره . قال : إن ذلك لا يخفى ، و إن فعلناه ليظهرن أمره ، و لتتحدثن بنا العرب . ثم أقبل على فقال : هل فيك من خير؟ فقلت : نعم و الله ! قال : قد زوجتكها على مائة بعير . فقلت : قد قبلت . فأعادونى إلى البيت حتى أصبحت ، زودونى و انطلقت حتى أتيت أبى ، فلما رآنى لم آته بالأباعر الضالة أقبل على يشتمنى فقلت : مهلا ! فانى محدثك بحديث . و أخبرته الخبر كله ، فأكثر التعجب و قال:

(١) فى الأصل : نقتلها .

فان الله عز و جل قد أدى عنك ، دونك و الإبل ! فسق صداق أهلك و انقلها إليك . قال : فسقت الصداق و نقلتها و ها هي عنـــدى ، و هي الآن راضية بي بعد أن كانت كارهة لى . فهذا ما كان من شأنى و شأنها .

قال أبو عمرو العدوى : فلما شرح لى قصته معها ، تعجبت من أمره و أمرها ، و تذكرت قول الشاعر حيث يقول فى مثلها :

۲۳۰/الف / هويت من العرب الحسان خلوبٌ لها أسهم للعاشقـــين تصيبُ
إذا أسفرت تسبي العقول بحسنها و من نورهـا كل البـدور تغيب
عروس لها وجه حكى[1] البدر فى الضيا و طلعـة حسن أبرز تـه غريب
حوت بهجة حسناء يحكى شعاعها كواكب در واقـدات لهـيب
بغرتها البيضا أنارت فأشرقت بضوء جـبـين مزهر و عجـيب
بشعر حـكى الليل البهيم سواده و فرق أراد الفجر منه هروب
لها أعين دُعج مِراض نواعس لهن فتور للقلوب يذيب[2]
خدود لهـا كالورد عند اقتطافه على الوجنات الزاهرات ضروب
و فى ثغرها الحـاوى لآلى تناثرت [3]و راح و شهد[3] بالرضاب شنيب
لها عنق من جوهر صيـغ فضـة و صدر به الرمان و هو خصيب
و قد أبرزت منهـا كعوبا نواعما عـلى المعصمين الرابيين ركوب
و بطن حوى[4] أعكان[5] فيه و سرة كشمع من اللمس للطيف يذوب

---

(۱) فى الأصل : كما ، والتصحيح من نفس الأبيات التى ترد ضمن قصة مجنون ليلى.

(۲) فى الأصل : تذيب .

(۳-۳) فى الأصل : و راحا و شهدا .

(٤) فى الأصل : حكى ، و التصحيح مما سيأتى من نفس الأبيات .

(٥) الأصل : أعكانا ، و حذفت ألف التنوين بحكم وزن الشعر .

و خصر نحيل زانها فيه رقة بلين وشاح قد علاه كثيب
و ساقان كالقضبان أضحوا مواتنا فكم أنفس أسرى لها و قلوب
بقدّ شبيه بالغصون كأنه قضيب من الخيزور و هو رطيب
إذا خطرت تهتز عجبا و عزة يظل بها قلب المحب كئيب
تهتّك عشاقا لها بجمالها و من حسن رؤياها النفوس تطيب
هي السؤال وهي القصد يحيي بوصلها ومن مثل [1]ليلى للسقام[1] طبيب
ترى هدفتي[2] ياصاح أحظى بقربها و تجمع شملي بالوصال قريب
على رغم حسّادي و عذالي الوشاة و في غفلة من حاسد و رقيب

كان بالمدينة عبد أسود يقال له: مغيث، تزوج بجارية تسمى بريرة، فاشترتها عائشة رضي الله عنها و أعتقتها، فخيرها رسول الله صلى الله عليه و سلم في أن تقيم معه أو تفارقه، فاختارت فراقه. قال ابن عباس: كأني أنظر إليه خلفها يطوف و يبكي و دموعه تسيل على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: لو راجعته[3]! قالت: يا رسول الله! تأمرني. قال: إنما أنا أشفع. قالت: فلا حاجة لي فيه. وقالت عائشة أيضا: إن بريرة عتقت، و هي عند مغيث عبد لآل أبي أحمد، فخيرها رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: إن قربك فلا خيار لك. فلما سمعت هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه و سلم علمت بالحكم، و هي عالمة / مع ذلك بالعتق، فان ٢١/ب
مكثت المعتقة نفسها من زوجها العبد مع حصول القيدين معا فلا خيار لها،

(١-١) في الأصل: إلى المسقام، و التصحيح مما سيأتي.
(٢) الهدفة - بكسر الهاء: الجماعة من الناس و البيوت يقيمون و يظعنون.
(٣) في الأصل: راجعتيه.

فان

فان ادعى الزوج أنه وطئها بعد عتقها وأنكرت هى، فالقول قولها، إلا أن يكون خلا بها فالقول قوله، وإن أنكرت الخلوة فالقول قولها مع يمينها، وإن تقاررا على الوطء، و ادعت الإكراه فالقول قوله مع يمينه. و إذا أعتقت الأمة تحت العبد و اختارت نفسها و تزوجت، و قدم زوجها العبد إن كان غائبا و قدم سيده أو قدما معا و ثبت بالبينة أنه كان قد عتق قبل أن تختار هى، فالحكم هنا كالحكم فى مسألة المفقود، ثم ينظر فى قدوم الزوج و ثبوت عتقه، فاما أن يكون بعد العتق و قبل الدخول أو بعدهما، و الله أعلم - انتهى.

فلنذكر ما قيل فى العشق - قال حكيم لتلميذ له عشق جارية: هل تشك فى أنه لابد من فراقها يوما ما؟ فقال: نعم. قال: فاجعل تلك المرأة المنخزعة فى ذلك اليوم فى يومك هذا، و ارح ما بينهما. و قيل: العشق مجاوزة الحد فى المحبة. قيل لبعض الحكماء: ما العشق؟ فقال: جنون لا يؤجر صاحبه عليه. و سئل آخر عنه فقال: مرض نفس فارغة لا همة لها. و قال آخر: هو سوء اختيار صادف نفسا فارغة - انتهى.

و قيل: كان لمك بن متوشلح بن إدريس عليه السلام دا[1] بطش و قوة، و كان يقتلع الشجرة العظيمة من أصلها بيده. و كان يكتم إيمانه عن قومه، فخرج ذات يوم إلى البرية، فاذا هو بامرأة فى نهاية الحسن و الجمال، و بين يديها غنم ترعاها. قال: فعجب منها و سألها عن اسمها و نسبها، فقالت: أنا فيوس[2] ابنة أكيد بن عربيل بن لامك بن قابيل بن

---

(١) فى الأصل: دو.

(٢) و قد يكون هذا الاسم (Venus) المشهورة بجمالها فى الأدب اللاتينى.

آدم عليه السلام ، فقال : ألك زوج ؟ فقالت : لا. فقال لها : فكم لك من العمر ؟ / فقالت : مائة و ثمانون[1] سنة . فقال لها : لو كنت بالغة تزوجت بك ! وكان البلوغ فيهم فى ذلك الزمان إلى استيفاء مائتى سنة. فقالت له : و من أنت ؟ فلم يقل لها : إنى من أولاد شيث بن آدم ، للعدواة التى بين أولاد شيث و أولاد قابيل بن آدم ، و لكن قال : أنا من أولاد من لا يحل لهم الحرام . فقالت له : اعتقدت أنك تريد أن تفضحنى ، أما إذا أردت أن تتزوج بى ، فانى بلغت ، و إنى على مائتى سنة و عشر سنين . فاخطبنى من أبى . فمضى و خطبها منه ، و أرغبه[2] فى المال ، و تزوج بها فولدت له نوح عليه السلام . فلما كان وقت ولادتها ، وضعته فى غار خوفا على نفسها وعلى ولدها من ملك كان فى ذلك الزمان يقتل الغلمان. فلما وضعته و أرادت أن تنصرف ، نادت : وا نوحاه ! فكلمها نوح و قال : لا تخافى على يا أماه ! فان الذى خلقنى يحفظنى . فانصرفت أمه إلى منزلها . و أقام نوح عليه السلام فى ذلك المكان أربعين[3] يوما ، ثم مات أبوه ، فاحتملته الملائكة حتى وضعته بين يدى أمه مزينا مكحلا ، ففرحت به و أخذت فى تربيته بعد أن سمته نوحا ، و اتفق من أمره ما هو مشروح - انتهى .

ب

[خبر السفاح و أم سلمة زوجته -[4]]

فلنذكر الآن خبر السفاح[5] حين تزوج بأم سلمة إن شاء الله تعالى -

(١) فى الأصل : ثمانين . (٢) فى الأصل : ارغبه .

(٣) فى الأصل : اربعون. (٤) العنوان مشتق من النص، و ليس بالهامش.

(٥) خلافته ١٣٢ - ١٣٦ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤ م .

و ذلك أن أبا العباس السفاح تزوج بأم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله . و كانت قبله عند [عبد العزيز بن –[1]] الوليد بن عبد الملك ، و كان لها مال عظيم و جواد و حشم . و لما دخل عليها أول ليلة وجدها قد كللت كل عضو من أعضائها بالجوهر ، و كان زواجه إياها قبل أن يلي الخلافة ، فحظيت عنده ، و حلف لها أن لا يتزوج عليها و لا يتسرى ، فغلبت عليه غلبة شديدة ، حتى ما كان يقطع أمرا / إلا بمشورتها . فجلس عنده يوما خالد بن صفوان بعد أن ولى السفاح ٢٣١/ ب الخلافة ، وكان خاليا ، و كان خالد من أهل الفصاحة و البلاغة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنى فكرت فى أمرك و سعة ملكك ، و أنك قد ملكت نفسك امرأة واحدة و اقتصرت عليها ، فان مرضت مرضتَ ، و حرمت نفسك التلذذ باستطراف الجوارى و معرفة اختلاف حالاتهن ، و التمتع[2] بما تشتهى منهن ، إذ منهن الطويلة الغيداء ، و الغضة[3] البيضاء ، و العتيقة الأدماء ، و الدقيقة السمراء ، و البربرية العجزاء ، من مولدات المدينة ، تفتن[4] بمجاورتها . و تلتذ بلحوتها . و أين أمير المؤمنين من بنات الأحرار ، و النظر إلى ما عندهن من التحفز و التعطر و حسن الخدمة ،

---

(١) زيد من الدر المنثور فى ربات الخدور ص٨٥ ، و انظر حاشية سابقة لخلافة الوليد و راجع الفهارس .

(٢) من الدر المنثور ، و فى الأصل : التمع .

(٣) من الدر المنثور ، و فى الأصل : البعضة .

(٤) فى الأصل : تفتق .

و طيب النغمة . و جعل خالد يطيب الوصف بفصاحته ، و عذوبة منطقه . فوقع كلامه من أبي العباس السفاح موقعا عظيما ، فلما فرغ خالد من كلامه استعاده أبو العباس لحسن موقعه منه ، و تلذذ بما سمعه من وصفه . ثم قال لخالد : انصرف . و بقي أبو العباس مفكرا بما سمع ، فدخلت زوجته أم سلمة ، فأنكرت ما رأت من فكره ، و قلة بشره . و قد كان و فى لها بما شرط لها ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ! هل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك خبر ارتعت له ؟ قال : لا ، والحمد لله . فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد . فقالت له : فما قلت لابن الزانية ؟ قال : سبحان الله ، أ ينصحني و أزجره ! فأرسلت أم سلمة مواليها من النجارية إلى خالد و قالت لهم : اضربوه بالقارعة حتى يموت . قال خالد : و خرجت مسرورا بما رأيت من أمير المؤمنين و إعجابه بما سمع من وصفي له ، و لم أشك فى الجائزة . فبينما أنا ماش فى بعض الطريق ، إذا بالعبيد يسألون عني ، فحققت الصلة ، فقلت : ها أنذا ! / فأهوى إليّ أحدهم بهراوة ، لف فأيقنت بالشر ، فحثثت[1] برذوني ، و ضرب أحدهم كفله ، و تعادى الباقون خلفي ، ففتّهم[2] ركضا ، و ما كدت أنجو . فأتيت منزلي ، فاختفيت فيه ، فلم أشعر بعد أيام إلا و قوم قد هجموا علي و قالوا : أجب أمير المؤمنين ! فركبت إلى أمير المؤمنين و أنا يائس من الحياة ، فدخلت عليه فى بيت فيه ستور مرخاة فى ناحية من البيت . فقال لي : يا خالد ! أين كنت ؟ قلت : متضعف . قال : إنك وصفت لي من أمر النساء صفة آخر

(١) فى الأصل : فحثيت . (٢) من الفوات أى سبقتهم .

مرة رأيتك فأعدها لى . و سمعت حركة من خلف الستر ، فعلمت أنه أمر مصنوع . قلت : نعم يا أمير المؤمنين! حدثتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر . قال : لم يكن هذا حديثك . قلت . و حدثتك أن الثلاث نسوة للرجل كالأثافى ، القدر تغلى عليها ، و أخبرتك أن الأربع نسوة شر مجموع لمن كن عنده ، يقهرنه و يهرمنه . قال : ما سمعت هذا منك . قلت : بلى ، بهذا حدثتك . قال : أفتكذبنى! قلت : أفتقتلنى؟ [قال : مر فى حديثك ، قلت -[1]] و أخبرتك أن أبكار النساء رجال إلا أنهن لا خصى لهن . قال . فسمعت ضحكا من خلف الستر . قلت : نعم ، و أخبرتك أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، و أن عندك ريحانة من الرياحين ، و أنت تطمح بعينيك إلى حرائر النساء ، و غيرهن من الإماء! فسكت أبو العباس متعجبا ، و قيل من وراء الستر . صدقت يا عماه و بررت! بهذا حدثته و لكنه غيّر حديثك و نطق على لسانك . قال : فانسللت و خرجت ، فبعثت إلىّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم و تخت ثياب و برذون . قال : فكان أبو العباس إذا رآنى تبسم - انتهى .

[خبر لواء الملك بن سيف التيجان وزواجه بالدعجاء -[2]]

فلنذكر الآن خبر تزويج لواء الملك بن سيف التيجان بالدعجاء بنت الهيمان إن شاء الله تعالى - قيل : فبينما الملك سيف التيجان بن سبا

---

(١) زيد من سياق الدر المنثور .

(٢) العنوان مقتبس من النص ، و ليس بالهامش . و القصة مثل أحاديث ألف ليلة و ليلة .

ب ابن عبد شمس جالس فى قصره، إذ دخلت عليه زوجته / قانصة الليوث أم لواء الملك، قالت له: أيها الملك! أنت قد أعطيت السعادة فى ولدك لواء الملك، فانظر فى تزويجه بجارية حسنة من بنات الملوك ممن يكون لها جمال فائق، و حسن رائق، إذ أنت ملك الدنيا بحذافيرها. قال لها: نعم، ننظر فى ذلك إن شاء الله تعالى. و خرجت من عنده. فدعا بأرباب دولته، و أهل مشورته، و قال لهم: أريد أن أزوج ابنى لواء الملك من جارية لها جمال بارع. فلم يجبه أحد، فعز عليه ذلك حين لم يجبه أحد. فرد رأسه مغضبا عليهم نحو البحر، و إذا بشيء يلوح فى البحر، يعلو تارة و ينخفض تارة، فأمر مماليكه أن يدخلوا البحر فى زورق لينظروا ما هو ذلك و يأتوا به إليه، فدخلوه فاذا هم بتابوت عليه قفل من ذهب، فمثل بين يديه. فأمر بفتحه، و إذا بنور قد سطع من جوف التابوت كاد يخطف الأبصار، و إذا به حجر ياقوت، فأخرج الحجر، و إذا بازائه حلة مقيمة منسوجة بالذهب. فلما فتح الحلة وجد فى وسطها صورة جارية ما رأى الراؤن أجمل منها، فافتتن فى جمال تلك الصورة، و على رأسها [1] سطران مكتومان [1] بالذهب «هذه أمانة الله لا تلقى إلا بيد الملك سيف التيجان بن سبا بن عبد شمس». فقال لوزرائه: فيكم من يعرف هذه الجارية؟ فلم يجبه أحد. فقام إليه شيخ يقال له غدير فقال: أيها الملك! أنا أعرف الناس بهذه الجارية و بأبيها. قال له: و من أبوها؟ قال له: أما الجارية فاسمها فائضة الجمال بنت

(١-١) فى الأصل: سطرين مكتوبين.

مصباح العلى صاحب جزائر الياقوت ، و إنه يملك جزيرة طولها مسيرة أشهر ، فلما سمع دلك سيف التيجان و ابنه لواء الملك ، وقع فى قلب لواء الملك من حبها حر ، لا تطفئه السعة أبحر .

عد ذلك عطف سيف التيجان على ابنه / لواء الملك و قال له : ٢٢٣/الف
يا بنى ! أقسمت قسما : لأسيرن فى طلب هذه الجارية و لو أنها تصعد مصعد الشمس ، أو تغيب مغيب الرمس ، لا بد أن آتيك بها . ثم أمر سفينة أن تعمر بأنواع السلاح و العدد و الرجال و القطائع ، و تعمر القطائع أيضا فعمرت ، و اتحد هديـــة عظيمة من الحوهر و الزمرد ، و حشائش الهنـــد ، و طرائف اليمن ، و ثياب صنعاء ، و حلل عدن ، و قباطى مصر ، و الطاس الغوالى ، و نوافج المسك ، و كروش العنبر و الزعفران و الفلفل و الزنجبيل و الكافور و الصندل و الحصالبان الجاوى و العود القمارى و السند[1] و الغوالى ، و ثلاثمائة جاريـــة عليهن الحلى و الحلل . و أدخل القطائع الرجال فى أحسن زى و أكمل عدة ، و أمر على القطائع حسام المنايا صهره ، و على السفن الزرقان بن رومان صهره أيضا ، و دخل هو فى سفينة فيها لنود و صوارى عالية و قلوع بيض ، و تودع من ابنه و أمه أم لواء الملك ، و سار فى أكباد البحر ، و القلاع قد دارت به مثل النجوم بالبدر ، فأقام سائرا عشرين يوما .
فلما كان فى الليلة الحادية و العشرين ، أرسل الله عليهم [2]ريحا عاصفا[3]

---

(١) فى الأصل : الشند . و السند نوع من الثياب اليمنية المخططة .
(٢-٣) فى الأصل : ريح عاصف .

فرقهم و لم تجتمع مركب مع مركب ، فلما أصبح الله بالصباح[1] ، نظر سيف التيجان فلم ير للقطائع أثرا[1] ، فعند ذلك عطف على مقدم سفينته ، و قال له : أين نحن من البحر؟ قال له : يا مولانا ! ليتنا لم ندخل البحر و لم نره و لم نركبه ! و الله لا عشنا أبدا ! قال له : و كيف ذلك؟ قال : ألا تنظر إلى ذلك الجبل الذى أمامنا . قال له : نعم ، قال له : هذا جبل تخرج منه ريح سوداء ، فتدور السفينة كدوران الرحى ، و تغيب تحت الماء ، و لا ينجو منها من يخبر الخبر ، و هذا هو جبل الغمام ، ما قرب منه / أحد و نظر بطرفه إلى السماء أبدا ، بل يموت تحت الماء . قال : فبينما هم يتكلمون و إذا بالريح قد هبت عليهم ب
من الجبل ، فلما رآها سيف التيجان ، تقلبت منه العينان ، و خلع ما كان عليه من أثوابه ، و بقى فى سراويله ، و إذا بالسفينة[2] تدور بهم حتى تناثرت ألواحا على وجه الماء وغرق كل من فيها . و أما سيف التيجان فانه عام على وجه الماء ، و الأمواج تارة ترفعه و تارة تضعه ، حتى قرب من الجبل . فتعلق بـه حتى استوى[3] على سطحه ، فصار الماء تارة يضربه إلى ركبتيه و تارة إلى محزمه . فنظر إلى جبل كأنما نشر[4] بمنشار أو نقر بمنقار ، قد انقطع من الماء ، و تعلق بأعنان السماء . فلم يجد له حيلة و أيقن بالهلاك . فبينما هو كذلك إذ

(١) فى الأصل : اثر .
(٢) فى الأصل : السفية .
(٣) زيد هنا فى الأصل : عليه فتعلق به حتى استوى .
(٤) فى الأصل : ينشر .

سمع دويا نازلا[1] عليه من أعلى الجبل، فتأمل وإذا بجارية قد سدلت
شعرها المضفور، وهو ثمانية وعشرون ذؤابة، وإذا بها جنية فقالت
له: اقتحمت بنفسك المهالك يا سيف التيجان! هلا أقمت بمكانك،
وأرسلت بأجنادك! ألم تعلم أن الملك مثل الرأس في الجسد، فإذا
عدم الرأس هلك الجسد، لكن أمسك بضفائري. فقال لها: ما اسمك؟
قالت له: اسمي الدعجاء بنت الهيمان بن شعثان بن مرة بن إبليس الأكبر.
فتعلق بضفائرها حتى صعدت به أعلى الجبل، وأنزلته في وسط رحبة
عظيمة، في وسط الرحبة شجرة عادية، وعين من الماء جارية. وتركته
حتى رجع إليه وهمه، وزال عنه روعه. ثم عطفت عليه وقالت له:
لولا أني أحببتك لتركتك تموت في لجج البحار! ثم إنها أتت به إلى
مغارة عظيمة منقورة في الحجر الصلد، وألقت يدها في يده، وهبطت
به في صالة[2] عظيمة قد قامت على سوارى الرخام ساعة، وأخرج ٢٣٤/ الف
له الضياء عن قصر ودسكرة ما رأى الراؤن مثلها. قيل: الدسكرة
بناء كالقصر حوله بيوت. وجمعها دساكر. أي قصور حولها بيوت.
وذلك القصر فيه مجالس. أرضها زجاج وسماؤها مزخرف بالذهب.
وفي وسط القصر قبة عليها مطبق من النحاس، فأتت به نقبة وأدارت
لولبا ورفعت المطبق، ونزلت به أدراج، وأخرجته إلى مغارة خلف
الجبل، فنظر إلى جزيرة عظيمة لم ير الراؤن أجمل منها. نباتها العود

---

(١) في الأصل. نازل.
(٢) في الأصل: صالة.

الرطب و القرنفـل و الزعفران و الأبنوس و الزان و صنوف الثمار، و مياه تطرد، و طيور تغرد، فى وسط الأرض قصران، يحير فى نائيهما العقل، بنيانهما مرصوص بعضه فى بعض، قد قام القصران فى الهواء، و بينهما نهر عظيم له انحدار مهول كالفضة البيضاء، و حول القصرين عبيد قد لبسوا الثياب الحسان، و عمائم مختلفات الألوان، و وجوه على صفات مختلفات. فلما رأوا الجارية قاموا لها إجلالا و تعظيما، فأدخلت الجارية سيف التيجان فى ذلك القصر و أرته عزا و ملكا. و قالت له: انظر ما نحن فيه من الملك، و أنت لا يقر بك قرار عن ركوب الخيل، و خوض الليل، و الحروب حتى ينهزم شبابك، و يزول ضياؤك فى بلادك، و أنا ملكة من ملوك الجن، و قد هويتك، و أريد زواجك، لأنك ملك و ابن ملك، و بطل من الأبطـال، و أهب لك ملكى. ثم دعت مشايخ الجن من أهلها، و أشهدتهم على زواجها إياه، و اشترطت [عليه أن لا يتزوج عليها جنية. و يتزوج من الإنسيات ما أراد. فقال نعم، و اشترطت هى أيضا -[1]] على نفسها أن لا تألف إنسيا و لا جنيا طول حياته، و لا بعد وفاته، و أن تخبره باخبار الملوك حيث ما كانوا من مشارق الأرض و مغاربها، و أن تكون معه فى شدائده. فشهد

٢٣/ب المشايخ عليها بحضرة أبيها و أهلها، و دفـع لها خاتمه فى مهرها، و دخل بها، فوجدها بكرا عذراء، و وجد منها من اللذة و التمتع ما لا يجده فى الإنسيات، و بقى معها فى عيش هنىء، و قطع اليأس من

(١) الجملة المحجوزة وردت بالهامش بخط الناسخ.

أهله و ملكه . هذا ما جرى للملك سيف التيجان . و أما أصحاب المدينة و القطائع لما تفرقوا من سفينة سيف التيجان فى البحار ، أخرجتهم الرياح إلى أرض الرعد . ثم إن لواء الملك بن سيف التيجان قال لجده عبد شمس : يا جدى ! أنا ما يهنأ لى عيش حتى يجمع الله بينى و بين أبى ، إذ قد طالت سفرته . و أمر بعمارة سفن و قطائع ، و تودع من جده و سار فى أكباد البحر مدة خمسة و عشرين يوما ، لا يرى برا و لا جبلا و لا جزيرة . فطلب لواء الملك على مقدم السفينة و قال له : اصعد على الصارى ، لعلك أن ترى برا نأوى إليه . فطلع ثم نزل و هو فرح مسرور ، فقال له لواء الملك : ما الذى رأيت ؟ قال له : البشارة أيها الملك ! قد وصلنا جزيرة الياقوت . فلم تكن إلا ساعة و إذا هم على الجزيرة . فأرسل صاحب الجزيرة إلى الملك مصباح العلى و أعلمه أن لواء الملك بن الملك سيف التيجان قد وصل . ففرح الملك فرحا شديدا ، و أمر بالقباب فضربت ، و بالإبل فنحرت ، و بالبقر فعقرت ، و بالغنم فذبحت و نزل لواء الملك مع أصحابه فى القباب ، و خرج إليه أهل المدينة : و صنعوا له سرورا عظيما . و أخرج له الملك مصباح العلى هدية عظيمة ، و مطايا و جوار عليها ، و أمر بالجيش فلبسوا أحسن زيهم ، و زينهم أحسن زينة ، قد لبسوا أقبية الديباج المذهبة ، من ورائهم الفيلة ، أمامها فيل أبيض ، عليه قبة من الذهب الأحمر ، فى أطرافها أحجار الياقوت على قضبان الذهب .

/ و الملك مصباح العلى راكب على الفيل ، و قد دار بالفيل ألف فارس ، ٢٣٥/ الف

كالليوث العوابس، يقومون فى الحديد، لا يخافون الفوت، و لا يجزعون من الموت، من ورائهم ألف مطية، عليها قباب من الوشى المثقل و الديباج المدثّر. فى كل قبة جارية تعاند الشمس فى الجمال. قد لبسن الحلى و الحلل المثقلة، فى أعناقهن السلوك، و الأسورة فى معاصمهن، و الخلاخيل فى أقدامهن، و أعناق المطايا فيها أجراس الذهب و الفضة، يسمع لها دوى و جلبة، و هن يضربن بالعيدان، والمزاهر و الشيزان، فرأى لواء الملك ما يزيد على ثلاثمائة ألف ضارب سيف، و رأى ملكا عظيما، و ضرب للملك مصباح العلى قبة مكللة بالدر و الياقوت و الزمرد، و قد دار بالقبة ألف قبة على أعلاها أحجار اليواقيت، تكاد تخطف الأبصار من شدة لمعانها، و الجيوش قد دارت بالقباب من كل جانب و مكان. ثم دعا الملك مصباح العلى بالملك لواء الملك بن المالك سيف التيجان. فلما دخل عليه، قام له إجلالا و رحب به و صنع له وليمة عظيمة. و سار الملك مصباح العلى إلى مدينته، و دعا بوزير له يقال له سالم، و وجهه إلى لواء الملك ليصل به إلى القصر. فأقبل إليه لواء الملك و بين يديه حسام المنايا جده والزرقان، و ساروا حتى وصلوا إلى القصر. و رأى قصرا تكل[1] عنه ألسنة الواصفين، على باب القصر نحو خمسمائة مملوك بأيديهم الدبابيس، قد لبسوا أقبية الديباج، و تمنطقوا بمناطق محكمة مرصعة درا و ياقوتا. فدخل سالم بمن معه من الوزراء

---

(١) فى الأصل: تكى.

قدام

قدام لواء الملك و أصحابه إلى أن وصلوا إلى باب النحاس ، و إذا على الباب خمسمائة جارية / قد لبس[1] القباطى المحكمة ، و فى أوساطهن[2] المناطق المرصعة بأحجار اليواقيت . ثم دخل من ذلك الباب إلى وسط قصر ما رأت العيون مثله ، فى وسطه صهريج من الماء ، قد دارت عليه أربعون قبة من الزجاج الملون قد قامت على قضبان النحاس ، على كل قبة هلال من الذهب فيه حجر ياقوت ، و بين القباب مجلس قد قام على أعمدة من الرخام الساطع البياض . و المجلس مفتوح على ثلاثة أبواب من العاج و الأبنوس مصفحة بصفائح الذهب . و أمامه قبة فى وسطها لولب تقابله قبة من الناحية الأخرى بلوالب أيضا . فلما رأى لواء الملك ذلك قال لسالم : كيف يجاز إلى تلك الناحية ؟ قال له الوزير : مهلا عليك أيها الملك ! ثم أخذ بيده و أتى به إلى اللولب الذى كان فى القبة ، أداره و إذا بصورة جارية كأنها البدر ، قد قامت وسط القبة التى أمام المجلس و إذا هو طلسم[3] مما صنعته الفلاسفة المتقدمون ، قد أسدلت ثمانى عشرة[4] ذؤابة ، فأقبلت تخرق الصهريج حتى قربت من لواء الملك ، و أقبلت بهما راجعة حتى وصلت بهما إلى باب المجلس ، فمد يده سالم[4]

(١) فى الأصل : لبسوا .

(٢) فى الأصل : أوساطهم .

(٣) فى الأصل : طلسيم .

(٤) فى الأصل : ثماية عشر .

الوزير إلى رأس الجارية و أدار لولبا ، و إذا بها قد أسحرت[1] حتى وضعتها فى باب المجلس و غابت تحت الماء ، و دخلوا للمجلس فنظروا إلى مجلس يحير فيه الوصف ، عليه ستور الحرير و شباك الجوهر ، قد فرش بالديباج المدثر و لبسود الطيلسان[2] ، و نمارق الخسروان ، و وسائد الأرجوان ، و على يمين المجلس سرير تكل فى وصفه الألسن ، و عليه الملك مصباح العلى بن بدر الدجى ، عليه حلة عظيمة ، و على رأسه تاج مرصع [3]درا و ياقوتا و زمردا[3] ، و التاج معلق من سمك المجلس بسلسلة من ذهب مدبر فى لوالب[4] تدور على رأس الملك حيثما ما دار ، / يخيل للناظر أن الملك يمسكه على رأسه . فلما دخل لواء الملك على الملك مصباح العلى هو و أصحابه سلموا عليه ، فرد عليهم السلام ، بتحية و إكرام ، و أنزلهم فى مراتب قد أعدها لهم . و أما لواء الملك فأجلسه معه على سريره . ثم كلم وزيره سالما بكلام غير مفهوم ، و إذا باب انفتح فى وسط المجلس ، و إذا بعشرة من المشايخ و أشراف قومه و ساداتهم قد خرجوا من ذلك الباب . عليهم الثياب الرقاق ، و على رؤسهم العمائم المصمحة بالذهب ، لهم اللحى البيض ، كأنها سبائك فضة ، فسلموا على

---

(١) فى الأصل . اسخرت .

(٢) فى الأصل : الطيلقان .

(٣-٣) فى الأصل : در و ياقوت و زمرد .

(٤) فى الأصل : لوليب .

الملك مصباح العلى، و على لواء الملك و أصحابه، و جلسوا فى مراتب قد أعدت لهم. فلما استقر بهم الجلوس، و إذا بستر قد ارتفع من جانب المجلس، وخرجت جارية بيدها طست من الذهب مملوء مسكا وكافورا قد حل فى ماء الورد، و على رأس الجارية طائر على شبه العصفور. فسلمت بسلام أعذب من الغنى بعد الفقر، و نظرت نحو الطائر و تكلمت بكلام، و الطائر ينظر فى وجه الجارية يسمع كلامها حتى فرغت منه، و إذا الطائر قد قام على رأسها و رفرف و نزل برفق فى الطست و انغمس فى وسطه حتى استوعب جميع ما كان فيه من الكافور و المسك و ماء الورد فى ريشه، ثم سار إلى الملك مصباح العلى و رفرف عليه و هو ينفض برفق، حتى فرّغ ما كان فى ريشه من ذلك الطيب، ثم عاد إلى الطست و فعل كفعله الأول، و عاد إلى لواء الملك و فعل به كما فعل بالملك مصباح العلى، فما زال يغمس و يصنع بهم كذلك واحدا بعد واحد حتى فرّغ منهم. ثم نزل على قضيب خيزران و غرد تغريدا حسنا بفصاحة لم يسمع بمثل تغريده، ثم عاد الطائر على رأس الجارية، و رجعت إلى المكان / الذى منه خرجت. ٢٣٦/ب

ثم عطف الملك مصباح العلى على أولئك المشايخ العشرة و الوزراء و قال لهم: هذا لواء الملك ابن ملك الدنيا بأطرافها سيف التيجان، أتانى ليتزوج بابنتى فائضة الجمال. أشهدكم أنى قد وهبتها له و زوجتها إياه. فقبل لواء الملك التزويج على صداق معين، و كتب الصداق، و صنعت الولائم، و ضربت الطبول، و زعقت الأبواق، و صنع مهرجان عظيم. فلما جن

الليل من ذاك اليوم ، و إذا برسول الملك أتى إلى لواء الملك و قال : يا مولاى ! إن الملك يدعوك . فسار إليه معه إلى أن أتيا إلى قصر عظيم ، فقرع الرسول الباب قرعا خفيفا ، و إذا بباب القصر قد فتح ، و مقدار عشرين جارية عليهن زينتهن سلمن على لواء الملك ، بأيديهن الشموع المزهرة . ثم دخل من دهليز إلى دهليز حتى دخل به إلى قصر شاهق يكل عن حسنه الوصف ، قد دارت به أربعة مجالس ، أمام كل مجلس قبة من الزجاج الملون ، قد قامت على أربعة أعمدة من النحاس ، فى وسط كل قبة صهريج من الماء ، فى كل صهريج أربعة أعمدة من الرخام ، فيه طلاسم و تماثيل ، ترمى الماء على أنواع ، و هى أعجب من كل عجب ، قد حليت من خالص الذهب . فى وسط القصر بستان ، فيه أنواع من الثمار ، و أشجار و أنهار و أطيار ، تغرد من كل جانب و مكان ، على أعلى القصر شباك الحرير ، و نواعير من الآبنوس و العاج ، لها أصوات تطرب الأسماع . و الماء يخترق القصر على تماثيل تُزِيل الهموم ، و تطرد الغموم . و تلك النواعير تحن و تئن ، كما قال الشاعر فى ناعورة :

و باكية و ليس لها خليل و قد منعت من الدمع الكلام

فحمل لواء الملك إلى مجلس سماؤه ذهب و أرضه زجاج ، يحير فيه الطرف ، و يعجز عن حسنه الوصف ، عن يمين المجلس سرير قد قام على أربعة قوائم من الذهب مرصعا درا و ياقوتا و جوهرا ، و سرير ثانٍ عن يسار المجلس

المجلس ، عليه من الديباج المدثر ، و بمارق الخسروان ، و مساند الحرير المحاكية للأقحوان ، و الشموع[1] مركوزة فى شمعدانات الذهب . فما استقر بلواء الملك الجلوس حتى سمع صلصلة الخلاخيل على الرخام . كأنها وقع البرد على الصفا ، / و إذا بهن ثلاثمائة جارية كالبدور الطلّع و الكواكب ٢٣٧/ الدرية . عليهن أنواع الحلى و الحلل ، يبسمن عن ثغور كالأقاح ، كأنهن قضبان بمس على كثبان ، بينهن جارية غضة الشباب ، نقية الجلباب ، صافية الأديم ، عاطرة النسيم ، قد كسيت الحسن و الجمال ، إن رنت بطرفها أمالت العمائم عن الرؤس ، و إن تبسمت رقص الحباب[2] فى الكؤس ، ترفل فى حلة كذنب الطاوس ، كأنها صنم تجسد من النور ، و تكون من صفاء البلور ، إن مشت تثنت ، و إن تكلمت فتنت ، على رأسها تاج من الذهب الوهاج ، مكلل بأنواع الجواهر و اليواقيت . فعند ما قرب الجوارى[3] من باب المجلس ، اندفعت بجملتها المزامير و العيدان ، و الطنابير و الدفوف و الشبزان . و دخلت الجارية على لواء الملك ، فلما وقعت عينها عليه ، سلمت و وقفت بين يديه ، و أومأت[4] بيدها إلى الجوارى[3] . فمضت كل واحده إلى مقصورتها . فعند ذلك قام لواء الملك إليها ، و قبل ما بين عينيها ، فرأى منها جمالا فائقا بارعا . كاد أن يغشى عليه من نور وجهها عند ضمه لها . فاعتنقها و حملها على السرير . فعند

(١) فى الأصل : و الشماع .
(٢) فى الأصل : الحباب .
(٣) فى الأصل : الجوار .
(٤) فى الأصل : اومت .

ذلك نزعت تاجها عن رأسها، و الحلل التى على بدنها، و بقيت فى غلالة شفافة، يظهر باطنها من ظاهرها، فبدأ له من تحت الغلالة صدر كلوح من رخام، و نهدان كأنهما أحقاق عاج، كما قال فيهما بعض واصفيهما:

و قاتلى بفتور الجفون و مستوفزين[1] على منبر
كحقين من لبّ كافورة برأسيهما نقطتا عنبر

فدخل بها فوجدها بكرا عذراء، فبقى معها مدة. ثم بعد ذلك اجتمع بصهره الملك مصباح العلى، و قال له: أيها الملك السعيد! إنى آليت على نفسى أن[2] أبحث عن أبى سيف التيجان، حتى أعرف خبره أو أموت فى طلبه، و إنى أريد أن أسير أطلبه. فأذن له فى ذلك، فودع / صهره، ٢/ب و أخذ زوجته فى هودج على نجيب، و جواريها[3] أركبهن المطايا، و سار فى رجاله الذين خرج بهم من المراكب، و سار يستفتح الجزائر فى طريقه - هذا ما جرى هنا.

و أما خبر الملك سيف التيجان، لما اختطفته الدعجاء بنت الهيمان الجنية من لجج البحار، و أتت به إلى قصرها و تزوجها، و بقى معها مدة إلى أن اشتاق إلى أهله و وطنه، فاستأذنها فى ذلك، فقالت له: نعم، فاخرج معى إلى البحر. فخرج معها إلى شاطئ البحر، و إذا فيه عبدان مقبلان بزورق إليه، فركبه بعد أن ودعها، [4]و جذف العبدان[4] به ساعة، و إذا به قد طرح بالبر، و تركاه و رحلا، فصار يمشى فى البرية، يهيم كما يهيم النعام الشرود، و لا يعرف حيث هو من الأرض.

(١) بمعنى متحفزين أو واثبين.
(٢) فى الأصل: عن.
(٣) فى الأصل: وجوارها.
(٤-٤) فى الأصل: و جذفت العبدين.

فبينما هو كذلك إذ سمع كلاما قصد نحوه ، و إذا هو حيّ يموج بساكنيه ، و يرتج بقاطنيه ، فلما رآه[1] أهله أنكروه و قالوا له : من أنت ؟ قال لهم : أنا رجل غريب عابر سبيل . فأكرمه أهل الحي ، و رأى عندهم ملكة عظيمة . قال لهم : ما[2] يقال لملككم ؟ قالوا : ملكنا رجل مؤمن بالله و اليوم الآخر ، إلا أنه أصيب البارحة ، و ذلك أنه وراءنا فى أطراف هذه الأرض قوم من الجن ، و بالأمس اختطفت ابنة الملك ، و لم يكن فى زمانها أجمل منها . و قد خرج فى جملة من أصحابه يطلبون الآثار ، و يبحثون عن الأخبار . عند ذلك عطف عليهم سيف التيجان و قال لهم : إنى أريد أن أجتمع مع ملككم ، و عسى [أن -[3]] يكون له نصرة بيدى . فاجتمع معه قوم ، و ساروا به حتى لحقوا الملك و قالوا له : أيها الملك ! هذا رجل غريب شديد البأس ، ضمن أنه ينصرك على عدوك . فأمر الملك بإكرامه ، و قربه من نفسه ، و قال له : إن أنت أتيتنى بابنتى زوجتكها . قال له : ائتنى بآلة حرب و جواد . فدفع له ذلك ، فتدرع / و التثم و لبس السلاح ، ٢٣٨ / ال
و ركب جوادا من عتاق الخيل ، و ساروا يقطعون الأرض حتى أشرفوا على وادٍ ما رأت العيون أحسن منه ، الظباء فى ساحاته تغدو و تروح و تنفر ، كثير الأشجار و الثمار و الأطيار و النوار . عند ذلك عطف الملك — و كان اسمه بهران بن بارق النيران ، صاحب أرض العقبان — على بعض أصحابه ، و قال له : ادخل النهر ، لعلك تجد خبرا . فسار الفارس فى الوادى

(١) فى الأصل : رأوه .
(٢) فى الأصل : من .
(٣) ساقطة من الأصل .

فلم يرجع ، فبعث آخر فلم يرجع ، هكذا حتى وجه عشرة من أبطاله ، فلم يرجع واحد منهم ، فلما رأى ذلك سيف التيجان قال له : أنا آتيك بالخبر إن شاء الله تعالى أيها الملك . فسار إلى الوادى حتى انتهى [إلى -[1]] وسطه ، فاذا هو بالعشرة أبطال أموات . قال سيف التيجان عند ذلك : لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم . فبينما هو يتفكر إذ سمع هاتفا من داخل الوادى يسمع صوته و لا يرى شخصه و هو يقول : أيها الراكب على سرجه ! ألا ترى الظباء نفرت ! أيها الفارس ! إنه قد دخل بالوادى عدو قد أكل سكانه ، و قطع[2] الطريق حتى خلت أوطانه . ثم رجع إلى الوحش فأكلها ، فارجع وراءك مسرعا قبل أن يحل بك عدو ، ما لك به طاقة ، و لا يتركك حتى يأخذك فى كفه ، و يضعك فى بطنه ، فانج بنفسك سالما ، فأنا قد نصحتك ، فان شئت قبلت ، و إن شئت أكلت . قال له سيف التيجان : أيها المتكلم ! صف لى هذا العدو الطاغى ، فى أى نوع هو فى طبيعته ؟ فلقد وصفته فوق قدره ، و أخرجته من حده . فقال له الهاتف : إن كنت عولت على لقائه فهاهنا يكون اللقاء . عند ذلك ترجل سيف التيجان عن جواده ، و عقله بفاضل عنانه ، و بات تلك الليلة . فلما أصبح الله بالصباح إذ سمع الهاتف من داخل الوادى و هو يقول : أيها الرجل المغرور بنفسه ، و سائقها لحينه ! ألا ترى العدو قد ظهر ! فخذ على نفسك / و كن منه على حذر . فبينما هو كذلك إذ سمع دوى
ب عظيم بين شعاب الوادى ، و إذا بأسد مهول عظيم شديد الزئير ذى ناظر

(١) ساقطة من الأصل .

(٢) زيد هنا فى الأصل : عن .

و شوارب

و شوارب ، و أنياب و مخالب ، و سواعد كاللوالب . فلما نظر إليه سيف التيجان رد يده على قائم سيفه ، و انتضاه من غمده ، و أخذ حجفته بيده ، و أتى إلى الأسد ، فلما رآه الأسد حمل عليه ، و أراد افتراسه ، و إذا بسيف التيجان قد خرج إلى ناحية و التوى عليه بضربة أبرى قوائمه الاربع ، و ثنى عليه بضربة أسقط رأسه على الأرض ، و تركه يتخبط فى دمه ، و هبط سيف التيجان مع الوادى ، فلاح له بين الأشجار قصر مشيد بنيانه بالرخام ، مما صنعته الفلاسفة المتقدمون ، إلا أن القصر خال ، فعقل جواده ، و دخل القصر ، فرأى فيه بستانا[1] قد غرس فيه من جميع الثمار ، و قد دار بالبستان مقاصير من العاج و الأبنوس ، قد قامت على سوارى الرخام الساطع البياض ، و فى وسط القصر مجلس سماؤه مذهب و أرضه زجاج ، على أبوابه ستور الحرير و شباك الجوهر ، قد بليت مما مضى عليها من الدهور ، فلما دخل المجلس رأى عن يمينه سريرا قد قام على أعمدة من الذهب ، و عليه شخص ميت يخيل للناظر أنه نائم ، و عند رأسه لوح من الذهب مكتوب فيه : هذا هو الملك حمير أول التبابعة[2] ، غالب الجبابرة ، و الملوك الفراعنة و الأكاسرة ، لم يغنه ملكه عن الموت . و تحته مكتوب هذه الأبيات :

كل حىّ للممات   كل جمع للشتات

---

(١) فى الأصل : بستان .

(٢) فى الأصل : التتابعة .

ما يهاب الموت جبا   را[1] شديد البطش [عات -[2]]
أين أرباب المطايا   و الجياد الصافنات
شيدوا المدن و صاروا   فى قبورهم رفات
و أولات الأولى من أه   ل العلى و المأثرات
أين نمرود بن كنعا   ن الشديد السطوات
أين فرعون و هاما   ن و جميع الطغوات
أين ذو القرنين و أين   دخوله [فى - [3]] الظلمات
أين ملك سليمان الوا   لى على الجن الطغاة
٢٢/ الف / كلهم ساروا [طريق - [3]] الـ   موت من بعد الحياة

قال : فلما قرأ سيف التيجان ذلك قال : سبحان من لا يتغير ملكه و لا يحول و لا يزول ! ثم أراد الخروج من القصر إذ سمع صيحة عظيمة قرقع[4] لها القصر كله ، و ظن أنه انطبق عليه . فلما سمع ذلك تأمل نحوها النظر ، و إذا هى جارية كأنها البدر الطالع ، أو الغزال الراتع ، بنت تسع و خمس ، تخجل البدر و الشمس ، فقال لها : أنت إنسية أم جنية ؟ يا جارية ! فما رأيت أحسن منك . قالت : بل جنية يا سيف التيجان ! أما كفاك

(١) فى الأصل : جبار .
(٢) الكلمة ساقطة ، و بهامشه : سطوات .
(٣) بياض فى الأصل ، و يستقيم الوزن بما أثبتناه .
(٤) فى الأصل : قوقع .

[أن] تجاسرت على الإنس حتى أبدتهم ، ثم أتيت إلى الجن تحاربهم ؟ قال لها : من أنت ؟ قالت : أنا ذات الأنجم بنت الشرود بن شمر بن إبليس الأكبر ، ولو لا محبتى فيك ما كنت إلا مع أصحابك العشرة قتيلا ، ولكن إذ قد حصلت معك ، ما أفارقك حتى تفعل معى كما فعلت مع الدعجاء بنت الهيمان و تتزوجنى . فقال لها : ما أقدر على ذلك فانى أعطيتها العهود أن لا أتزوج عليها جنية أبدا . قالت له : لا بد و إلا عذبتك عذابا ما عذب به أحد من العالمين ، لا قبلك و لا بعدك ؛ صارت الدعجاء خيرا[1] منى ! قال لها : اصنعى ما شئت ! فما أنقض عهدا . فعند ذلك نادت بعفريت من الجن ، و إذا به فى قدر القصر بجثته ، و قالت له : خذه إليك و ألقه فى أرض النحاس . فانقض عليه الجنى و اختطفه و هوى به فى الهواء ، و ألقاه فى أرض النحاس ، و ذلك أن الله عز و جل خلق أرضا من النحاس الأحمر ، فلما طلعت عليه الشمس و حميت و صارت ترقص من تحت الآل ، رقص المقيد فى الأغلال . عند ذلك أيقن سيف التيجان بالهلاك ، فبينما هو كذلك و إذا بالجنية ذات الأنجم قد أقبلت و قالت له : كيف رأيت يا سيف التيجان ! / ادع الآن الدعجاء تنقذك من يدى ! / ٢٣٩ أقسمت قسما إن لم تتزوجنى إن كان هلاكك إلا على يدى ! قال لها : تمنعينى من الدعجاء ؟ قالت له : أنا أصرفها عنك و أرد كيدها فى نحرها . قال لها : حتى أرى برهان ذلك . قالت : نعم . و نادت بالعفريت وأمرته بأمرها ، و إذا هو اختطفه من ذلك الموضع و ألقاه على جبل قد تعلق

(١) فى الأصل : حير .

بأعنان السماء ، فى أعلى الجبل قصر مشيد بأبواب من الحديد ، قد دار به ثلاثة أسوار من الحجر الصلد عالية ، و أبراج باهية . فأتته و قالت له : كيف رأيت بنيان الجن ؟ فاختطفته و ألقته على أعلى القصر ، فنزل على درج إلى صحن القصر ، فرأى فيه أشجارا ، و نواوير و أثمار و مياه تطرد من أفواه التماثيل ، و نواعير تدور فى أصناف من الحيل ، قد نظمت كنظم الأكاليل . قالت له : أتصل إليك الدعجاء فى هذا القصر ؟ ثم عطفت عليه و قالت : أتدرى ما بينك و بين أهلك ؟ قال : لا أعلم . قالت له : بينك و بين أهلك و وطنك مسيرة عشرين سنة . قال سيف التيجان عند ذلك : لاحول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم . و أدركه الوحشة و قال : أين الفرار من القضاء فلما ! رأته الجنيـة كذلك قالت له : لا تحزن يا حبيبى ! فانى قادرة أردك فى ست ساعـات من نهار . ثم عطفت عليه و قالت : هات ما بينى و بينك . قال لها : و الله ما أقدر على نقض عهد عهدته ! فبينما هم كذلك و إذا بغمامة قد أغمت القصر ، فقالت له الجنية ذات الأنجم : لا تبرح من مكانك لئلا يصيبك الشواظ و الشرار فتهلك . ثم تركته و رجت رجة فى الهواء غابت عن بصره . فأقام سيف التيجان وحده فى القصر و ما يدرى ما يصنع و هو يدور بين الثمار و النواوير حتى عيل صبره ، فوجد مطلعا فصعد عليه حتى أتى أعلى القصر ، فنظر إلى الدعجاء بنت الهيمان / الجنية و هى راكبة على جواد من عتاق الخيل ، ٢٤ / الف و إذا بالجواد عفريت من الجن فى صورة جواد من الخيل ، و ذات الأنجم الجنية كذلك ، و الدعجاء تقول لها : أخذت زوجى . و ذات الأنجم

تقول

تقول : ما أخذت لك بعلا ، و لا رأيت لك إنسيا . فرفعت رأسها الدعجاء فنظرت إلى سيف التيجان ، قالت لها : أليس هو هـــذا ؟ و حملت كل واحدة منهما على صاحبتها و تقاتلتا[1] بالسيوف حتى غابتا عن بصره . و إذا بالدعجاء راجعة إليه و فى وجهها جرح شديد ، فقالت له : يا سيف التيجان ! انزل إلىّ . فأراد النزول فلم ير من أين ينزل ، و رجعت له الأرض كلها بحورا و أمواجا تتلاطم . قال لها : وكيف أنزل إلى هـذه البحار التى موجها يتلاطم ؟ قالت له : ما هاهنا بحر و لا موج ، و لكن سحرتك ذات الأنجم ، فلا بأس عليك . لا تبرح من موضعك لئلا تهلك ، حتى أريك الحيلة فى خلاصك و لو دخلت مدخل الرس أو ارتفعت مطلع الشمس . ثم غابت الدعجاء عنه [و بقى حيران ـ[2]] لا يدرى ما يصنع ، و صارت الدعجاء تطلب مداخل القصر فلا تجدها[3] . ثم غابت ، و إذا بالجنية ذات الأنجم قد أقبلت و قالت له : كيف رأيت يا سيف التيجان ! أين الدعجاء منك الآن ؟ و إذا بالأبراج والقصور كما كانت أول مرة ، فتعجب من ذلك ، و دخل معها المجلس ، فقالت : أين الذى بينى و بينك ؟ قال : و الله ما أقدر على نقض عهد أبـــدا ! قالت له : ما أريد منك إلا أن تتزوج بى ، و إلا أهلكتك الساعة حتى لا تنتفع بك الدعجاء و لا أنـا و لا أحد . فلم يجد بدا من التزويج بها ، فتزوجها و دخل بها ، فوجدها بكرا عذراء ، فأقام معها مدة . ثم قالت له : يا سيف التيجان ! إنى حامل .

---

(١) فى الأصل : تقاتلن .
(٢) العبارة المحجورة ساقطة من الأصل و أضيفت فى الهامش بقلم الناسخ .
(٣) فى الأصل : ولاتجده .

فقال لها : ساعة مباركة . ثم إنه تشوق إلى أهله و وطنه فعرفها بالأمر ، و إذا بقطائع قد أرست إلى ساحل البحر فيها المقاتلة . فبينما هو ينظر نحوهم ، و إذا هو بابنه لواء الملك معه زوجته فائضة الجمال بنت الملك مصباح ٢٤٠/ب العلى / و هى التى صورت صورتها فى الحلة التى وجدت فى الصندوق الذى كانت الأمواج تقذفه ، ففرح والده ببلوغ أمل ولده بها ، فترامى سيف التيجان على ولده لواء الملك ، و تعانقا و تباكيا ، و شرح كل[1] منهما قصته للآخر . ثم إنه قال له : يا أبت ! اركب معنا فى هذه القطائع ، و سر إلى بلادك و ملكك . فحينئذ أتى إلى زوجته ذات الأنجم و عرفها بذلك ، فأذنت له فى السفر ، فركب سيف التيجان و ولده لواء الملك ، و لم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى بلادهم ، و اجتمع الملك سيف التيجان بزوجته قانصة الليوث أم لواء الملك ، و اجتمعت هى بولدها و شكوا ألم الفرقة من تلك السفرة . و قال كل واحد منهم : الحمد لله على السلامة . و أقاموا بمملكتهم فى خير و سعادة حتى فرق الموت بينهم – انتهى .

فى شهوات الرجال مع النساء

فلنذكر الآن ما قيل فى شهوات الرجال مع النساء إن شاء الله تعالى – اعلم أن طبيعة النساء مائلة إلى شهوة الرجال ، و لو لا ذلك لما كانت امرأة تعود إلى بعلها لما تقاسيه من ألم الولادة . و إنما جعلت هذه الشهوة فى

(١) فى الأصل : كلا .

طبيعتهن ليعدن إلى بعولتهن لتعمر الأرض بالذرية .

قال [أبو - ١] عبد الله الخزاعي في « كتاب الدر الثمين » : إن حواء خلقها الله تعالى من ضلع آدم الأيسر في حال نومه ، فكانت على طول آدم و على حسنه و جماله ، و لها سبعمائة ضفيرة مرصعة بالدر و الياقوت ، محشوة بالمسك الأذفر ، دعجاء مخضوبة الكفين ، يسمع لذوائبها خشخشة ، و هي مدملجة متوجة ، و هي على صورة آدم عليه السلام ، غير أنها أرق منه جلدا ، و أصفى منه لونا ، و أحسن منه صوتا ، و أدعج منه عينا ، و أقنى منه أنفا ، و أصغر منه سنا ، و أبلج منه ثغرا ، و ألطف منه بنانا ، و ألين منه كما . فلما خلقها الله عز و جل ، أجلسها عند رأسه ، فلما انتبه و رآها تمكن حبها من قلبه فقال آدم : يا رب ! من هذه ؟ فقال الله تعالى : هذه أمتي حواء ، فقال : يا رب ! لمن خلقتها ؟ فقال الله عز و جل : هذه أمتي و أنت عبدي ، و قد زوجتها لك . ففرح آدم بها ، فلما أفضى إليها آدم ، قالت : يا آدم ! ما أطيب هذا ! زدنا منه . فبذلك أتت الذرية .

قال عمارة[٢] بن وثيمة : كان عبد الله بن ربيعة من خيار قريش صلاحا / و عفة ، وكان ذكره لا ينام ، وكان يتزوج المرأة من قريش ، ٢٤١/
فلا تمكث معه إلا أياما حتى تهرب إلى أهلها . فقالت زينب ابنة عمر ابن أبي سلمة : ما لهن يهربن من ابن عمهن ؟ قيل لها : إنهن لا يطقنه من

(١) زيد من المراجع .

(٢) من الأعلام للزركلي ، و في الأصل : عمار .

شدة شبقه . قالت : و ما يمنعه منى ، فأنا و الله العظيمة العجز ، المقحمة الفرج ، الصابرة على إرادته و قضاء شهوته . قال : فتزوجها فصبرت عليه ، و ولدت له ستة أولاد ، أنشد بعضهم يقول فى شدة شبقه ، و قيام غرموله تورية :

أير إذا ندبته فى حاجة تخص بى   قام لها مبادرا ما هو إلا عصبى

ذكر ابن نصر[1] الشيرازى فى كتاب « الإيضاح فى أسرار النكاح » أمورا عجيبة من أحوال النساء ، فقال : إن أصناف النساء ثمانية ، و هى المتشحمة و اللزقة و القعراء و الجوفاء و المتخمة[2] و الشفراء و المتخنقة و العمراء . و قال : هذه أصناف لا يذقن لذة الجماع إلا بما أذكره الآن : أما المتشحمة فهى الممتلئة الفرج بالشحم ، فهذه لا تجد لذة الجماع إلا بالذكر الطويل الذى يبلغ أقصى الفرج ؛ و الذكر الطويل – فى قول حكماء الهند – يكون اثنى عشر إصبعا مضموما[3] ، أى ثلاث قبضات ، و الوسط تسعة أصابع ، و الصغير ما كان ستة أصابع . و أما اللزقة فهى التى التطم فرجها و قل شحمه و هزل و بقى ملتزقا مسترخيا لعدم شحمه ، و هذه لا تجد لذة الجماع إلا بالذكر الغليظ القصير ، و ليس لها فى غيره أرب ، و لا يعجبها سواه . و أما القعراء فهى التى قد تقعر فرجها لاستحكام شهوتها و إفراط الشبق و عرم الجماع ، و هذه لا يشفيها غير الذكر الطويل

(١) من كشف الظنون ، و هو عبد الرحمن بن نصر ، و فى الأصل : ابو نصر .

(٢) فى الأصل : المتختمة .   (٣) فى الأصل : مضمومة .

الغليظ

الغليظ الكبير الفيشلة كى يسد منها مواضع التقعير و يصل إلى مواضع اللذة . و أما الجوفاء فهى التى عريت حوانب فرجها ، و بعد مسافة إسكتيها ، و أكثر ما يكون ذلك فى النساء الطول ، و تلك لا تجد لذة الجماع إلا بالذكر الطويل العريض ، و لا تجد لغيره لذة ، و تكون سيئة الخلق شديدة الغضب عند الجماع ، و ذلك لتقصير الرجل عن بلوغ لذتها ، و قلما ينزل لها شهوة . و أما المتخمة فهى التى أسفل فرجها و أعلاه شيء واحد مع قرب مسافة شهوتها / و سرعة إنزالها ، و هذه ليس لها أحب من ٢٤١/ ب الرجل السريع الإنزال ، و متى طال جماع الرجل لها و أبطأ إنزاله وجدت لذلك ألما . و أما الشفراء فهى التى قد خف [أحد - [1]] جانبى فرجها و خلا من اللحم ، و ليس شيء أوقع عند هذه من الذكر الطويل الدقيق سيما إذا كانت مائلة إلى الجانب الذى قد خلا من اللحم ، و إن لم تكن على جنبها لم تجد لذة ، و لم تنزل لها شهوة . و أما المتخفقة فهى الغليظة حيطان الفرج من خارجه ، الثقيلة الامتلاء من داخله ، التى قد اختنقت فيها الشهوة لقلة الجماع ، و هذه لا تجد لذة النكاح إلا بالذكر الصلب الشديد ، و لا يعجبها سواه . و أما العفراء فهى التى اتسع فرجها من فرط الرطوبة و برد داخله ، فهذه لا تجد لذة الجماع و لا ينزل لها لذة إلا بالسحاق ، لأنه يحمى فرجها ، فتفور الحرارة فتنزل شهوتها ، و أما الرجل فلا تجد له لذة .

و علامة إنزال المرأة أن تموت عينها ، فتصير كعين اليربوع

---

(١) زيد من السياق .

[كأن -[1]] بها وسنا، و يعرض لها عنـــد إنزالها أن يتكلح وجهها و يتشنج، و ربما اقشعر جسدها، و عرق جبينها، و تسترخي مفاصلها، و تستحي أن تنظر إلى الرجل، و تارة تأخذهـا رعدة و يعلو نفسها، و تعرض بوجهها، و تمكن الرحل من فرجها، و تلصقه بـــه من شدة الشهوة . كل هذه علامة إنزالها، و متى اجتمع الماءان منه و منها فى وقت واحد، كان هو الغاية القصوى فى حصول اللذة و تأكيد المحبة .

و اعلم أن مى الرجل يخرج عند اللذة الكبرى بالجماع، رائحته كرائحـــة الطلع، دافق مصبوب رطب، و إذا يبس فهو كفصوص البيض، و إنما شبه بالطلع لما يعرف أهل البلاد، و الطلع هو الجف يخرج من رأس النخلة، فاذا انشق خرج منه عنقود فيه حبوب، فاذا نوّر ذلك العنقود كانت رائحته كرائحـة المنى . و ماء المرأة ماء رقيق أصفر، و ماء الرجل أبيض غليظ، فأيهما علا و سبق كان له الشبه، و قيل: ماء المرأة أصفر مالح، و ماء الرجل زعاق، و هو المر .

قال ابن الغزى: إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا، ٢/الف و بالعكس أنثى، باذن الله تعالى . / و إذا كان ماء الرجل أكـــثر، أشبه [الولد -[1]] أباه، و إذا كان ماء المرأة أكثر أشبه أمه، فاذا سبق ماء الرجل ماء المرأة و علا، أشبه الولد أعمامه، و بالعكس أخواله - انتهى .

[ما قال أهل الفراسة فى النساء -[2]]

فلنذكر الآن ما قالت أهل الفراسة فى النساء - قال أهل الفراسة

---

(١) ساقطة من الأصل .

(٢) العنوان مشتق من النص، و ليس بالهامش .

و الخبرة بالنساء: إذا كان فم المرأة واسعا كان فرجها واسعا، و إن كان صغيرا كان فرجها صغيرا ضيقا، و إن كانت شفتاها غليظتين[1] كانت إسكتاها غليظتين، و إن كانت شفتها السفلى صغيرة كان فرجها صغيرا ضيقا، و إذا كان لسانها كأنه مقطوع الرأس كان فرجها كثير الرطوبة، فان كانت حدباء الأنف فهى قليلة الرغبة فى الجماع، و إن كانت طويلة الذقن فهى رابية الفرج قليلة الشعر، و إذا كانت كبيرة الوجه غليظة العنق، دل ذلك على صغر العجز و كبر الفرج و ضيقه[2]، و إذا كثر لحم ظاهر قدميها و يديها عظم فرجها، و إذا كانت المرأة نبيلة الساقين، فيهما صلابة، فانها شديدة الشهوة، لا صبر لها عن النكاح، و إذا كانت المرأة حارة المجسة و كانبة[3] الفم، صلبة الثديين غير متدلين و لا رخوين. صلبة العجز، فهذه لا شيء عندها أحظى من النكاح لشدة شبقها و التذاذها بالوطء، و إذا كانت المرأة حمراء اللون زرقاء العينين فهى شديدة الشبق أيضا، و زرقة العينين دليل على شدة الغلمة فى المرأة، و العين الكحلاء تدل على الغلمة و ضيق الفرج، و صغرُ العجز مع غلظ الأكتاف يدلان على عظم الفرج.

قال الجوهرى فى الظهار: الظهار قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمى.

---

(١) فى الأصل: غلاظا.

(٢) فى الأصل: ضيقته.

(٣) أى الغليظة، و فى الأصل: كانت - كذا.

قال القاضي عياض : و الظهار مأخود من الظهر ، كناية عن المجامعة ، و لأنه ركوب المرأة كما يركب ظهر المركوب ، لاسيما و عادة كثير من العرب و غيرهم المجامعة على حرف من جهة الظهر ، و يستحيون من جهة الوجوه ، يقصدون بذلك التستر و الحياء و الخوف ألا تجتمع الوجوه ٢/ب حينئذ ، و لا يطلع على العورات ، و هي كانت سيرة الأنصار / حتى نزلت " نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انّى شئتم[1] " و 'انى' هنا بمعنى كيف ، أي كيف شئتم .

و أما عيوب النساء فمنها داء الفرج و هو ما يمنع الواطئ و لذته ، أي كمال لذة الوطء . و منها العفل و القرن و حرق النار و الرتق . و الرتقاء هي التي لا يستطاع جماعها لارتتاق ذلك الموضع منها ، و هو من الرتق الذي هو ضد الفتق . قال الله تعالى " او لم ير الذين كفروا ان السمٰوت و الارض كانتا رتقا ففتقنٰهما[2] " قيل : الرتق من المرأة على نوعين : أحدهما أن يكون محل الجماع مستدّا بلحم ، و هذا يمكن علاجه ، و الثاني أن يكون مستدا بعظم فلا يمكن علاجه . و القرن أن يكون في المحل عظم شبيه بقرن الشاة . و العفل شيء يخرج من قبل النساء ، و حياء الناقة شبيه الأدرة التي للرجال . و كذلك بخر[3] الفرج ، و هو الذي يشم منه رائحة منتنة . و من عيوب المرأة الجنون و الجذام و البرص و القرع . و من عيوب النساء قطع

(١) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٢٣ .
(٢) قرآن كريم سورة ٢١ آية ٣٠ .
(٣) في الأصل : بخرد .

شفريها

شفريها و إفضاؤها، فاذا جنى الرجل على امرأة فقطع شفريها إلى أن بدا عظم فرجها فعليه الدية. و روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قضى فى ذلك بالدية. قال ابن حبيب: و هما أعظم مصيبة عليها من ذهاب ثدييها أو عينيها، و فى الإفضاء الحكومة و دية، و هو رفع الحاجز من [بين-[1]] مخرج البول و مسلك الذكر، و مصيبتها فى الإفضاء أقوى من مصيبتها فى إزالة الشفرين، و قد عدوا الإفضاء فى عيوب النساء فى النكاح، لأن من نزل بها مصيبة الإفضاء كلا فى[2] جماع، فأشبهت من الرجال من ذهب منه قوة الجماع. و الزوج إذا فعل فى المرأة الإفضاء وجب عليه الأرش، و كذلك الأجنبي، يستويان فى لزوم أرش البكارة لهما إذا أزالاها[3] باصبعيهما. و قيل فى الزوج / يزيل البكارة باصبعه: يلزمه ٢٤٣/ الف الصداق كاملا، و يجب بذلك لزوم الحد للاجنبى الزانى و سقوط الحد عن الزوج، و إن عاقلة الزوج تحمل أرش الإفضاء لأنه خطأ.

و العيوب التى يفسخ بها النكاح سعة. ثلاثة يشترك فيها الرجل و المرأة، و هى الجنون، و الجذام و البرص، و عيب الفرج؛ و عيبان تختص بهما المرأة، و هما القرن و الرتق، و القرن شيء نابت فى الفرج يشبه قرن الشاة، يمنع[4] الذكر من السلوك فى الفرج، و الرتق أيضا ارتتاق محل الفرج، يمنع أيضا من الدخول لانسداده مخالف لعذرة البكر؛ و عيبان يختص بهما الرجل، و هما الجب و العنة، فالمجبوب هو

---

(١) ساقطة من الأصل.
(٢) أى كلا شيء.
(٣) فى الأصل: زالاها.
(٤) فى الأصل: تمنع.

المقطوع، و العنين هو الذى له ذكر صغير لا يتأتى منه الجماع كالزر، و إن علمت المرأة به حين تزويجه أنه مجبوب أو خصى أو عنين و لا يأتى النساء رأسا و أخبرها بذلك فلا كلام لها، و إن لم تعلم بذلك فى العقد ثم علمت فيه فتركته و أمكنته من نفسها فـــلا كلام لامرأة الخصى و المجبوب.

قال ابن أبى زيد فى الرسالة: و ترد المرأة من الجنون و الجذام و داء الفرج، فان عثر على ذلك قبل البناء ردها و لا شىء عليه، و يكون طلاقا، و إن حدثت العيوب بعد العقد لم يكن له ردها، وهى مصيبة نزلت به، و إن حدثت قبل العقد أو حين العقد فهاهنا ردها. و قول الشافعى مثل قولنا، و قال داود: لا ترد المرأة بعيب أصلا، و إنما ترد به الأمة. و قال الحنفى: لا ترد إلا بداء الفرج خاصة. و دليل المالكية أنها ترد من العيوب، لما روى أن النبى صلى الله عليه و سلم تزوج امرأة من بنى بياضة، فوجد بكشحها بياضا، فردها وقال: دلستم علىّ. و روى أن عمر / و عليا ٢٤٣ / ب
و غيرهما ردوا النساء من العيوب الأربعة، و لا مخالف لهم، و لأنها عسر[1] تؤثر فى الاستمتاع المنصوب[2] و نقص كمال اللذة، فوجب أن يثبت معها الخيار، أصله الجب و العنة. قال مالك فى كتاب محمد: سواء كان برحمها قليلا أو كثيرا. قال اللخمى: و ترد من الجنون و إن كان يصرعها فى بعض الأوقات. و كذلك يحدث عند الجماع ثلاثة عيوب، و إنما اختصت بهذه الأربعة المذكورة لأنها تخفى، و غيرها لا يخفى. قال اللخمى: رأيت أن يرد النكاح فى امرأة كان أبوها أجذم و إن لم يظهر بها. قال ابن العربى

(١) فى الأصل: عشر. (٢) فى الأصل: المغصوب.

فى الفصوص[1] : جميع العيوب الجنون و الجذام و البرص و الجب و الخصى و قطع الحشفة و القرن و العنة و الاعتراض و الرتق و العفان و الاستحاضة و نتن الفرج و حرق النار و السواد و البخر و العمى ، و جميع الرماد و الإفاضة ، و العقل - بفتح العين و القاف - فى النساء كالأدرة فى الرجال ، و هى بروز لحم من الفرج ، و القرن - بفتح القاف و سكون الراء - مثله ، لكنه قد يكون خلقة غالبا ، و قد يكون لحما ، و قد يكون عظما ، و [الرتق -[2]] بفتح [الراء[2] -] و التاء : التصاق موضع الوطء ، و التامه[3] . قال ابن حبيب : ترد المرأة من السواد إن كانت من أهل لا سواد فيهم . وقال الشافعى : ترد المرأة بكل عيب كالبوع . و يجوز للأب تزويج البكر البالغة بغير رضاها ، و يستحب له استئذانها ، و إذنها سكوتها ، و أما الثيب فلا يجوز تزويجها إلا برضاها إلا أن تكون مجنونة أو غير بالغة[4] ، فيجوز للاب أن يزوجها بغير رضاها ، و من جامع زوجته أو أمته يوم النحر أول النهار أو آخره قبل أن يرمى جمرة العقبة ، و قبل أن يطوف طواف الإفاضة ، فسد حجه على المشهور من مذهب مالك . قال أبو حنيفة : لا يفسد حجه ، و ذكر مثله ابن الخلاب عن مالك . قال سحنون : قلت لمحمد بن دينار : لم قلتم : إذا وطئ يوم النحر قبل رمى جمرة العقبة و طواف الإفاضة فسد حجه و قد جاء فى الحديث : من أدرك الوقوف بعرفة فقد أدرك

(١) أى « فصوص الحكم » . (٢) ساقطة من الأصل .
(٣) فى الأصل : التامة .
(٤) فى الأصل : غير بالغ .

الحج؟ ألم يقل صلى الله عليه و سلم: من أدرك الصلاة ركعة فقد أدركها؟ قال[1]: نعم، قلت[2]: أرأيت إن أفسد[3] شيئا مما وجب عليه أليس يعيد صلاته؟ قال: نعم، قلت[2]: فكذلك هنا، إنما يتم حجه - انتهى.

[عود إلى شهوات الرجال و النساء -[4]]

و اعلم أن النساء أقوى فى الشهوة للرجال من المال. / قال الله تعالى ١/ الف "زين للناس حب الشهوٰت من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الانعام و الحرث[5]"، إنما أخر ذكر الذهب و الفضة عن[6] النساء و البنين لأنهن أقوى فى الشهوة الجلية من المال، لأن حرمة العصمة و الفروج أقوى من حرمة الأموال، ولأن الطمع يحث على بدل المال لتحصيل النكاح و الولد. قال الشاعر:

لولا بنيات كزغب القطا ردِدن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول و العرض
و إنما أولادنا [7]بيننا أكبادنا[7] تمشى على الأرض

(١) فى الأصل: قلت.

(٢) فى الأصل: قال.

(٣) فى الأصل: تفسد.

(٤) العنوان مشتق من النص و هو استمرار باب سابق.

(٥) قرآن كريم سورة ٣ آية ١٤.

(٦) فى الأصل: على. (٧-٧) فى الأصل: اكبادنا ما بيننا، وما رتبناه من كتاب الحماسة لأبي تمام يتزن به البيت.

و اعلم أنه لو لا حنو الأبوين على الولد فى صغره لـكان الولد أعجز خلق الله فى تدبير نفسه ، قال بعضهم :

من راد ينظر الى كبد تمشى على الأرض فلينظر إلى ولده

و قيل : النساء أقعد من الذهب ، و الذهب أقعد من الفضة ، و الفضة أقعد من الأنعام، إذ [هى - [1]] وسيلة إلى تحصيل النعم . فلما صدرت الآية بالحب ، وكان المحبوب مختلف المراتب ، اقتضت جملة الترتيب ما هو الأهم فالأهم فى رتبة المحبوبات ، فكانت النساء[2] أهم لقوة المحبة لهن و تقديم الحب لهن فى الآية على غيرهن . زعموا أن عصفورا قال لعصفورة : أنا أرزقك من حوصلتى و أسقيك الماء الزلال من منقـارى لمحبتى الك و شفقتى ، و أنت تصحبين غيرى ، و تجعلينـه[3] فى الصحبة نظيرى . و أنشدها يقول :

أما هذا يجوز بأن تـكونى لغيرى فى غدوك أو رواحك
و إن هبت رياح الشوق ليلا أبلغها السلام إلى صاحك

يا هذه ! أنا فى هواك أسير ، و [من - [1]] محبتى فيـك إلى عشك أطير ، و لا أريد غيرك من العصافير ، / و لا ذوات المناقير ، و بعد ذلك ٢٤٤ / ب تستبدلين[4] بى الغير ، و تنكرين[5] فعل الخير . فقالت : يا هذا ! أليس

(١) ساقطة من الأصل .
(٢) فى الأصل : الدنيا .
(٣) فى الأصل : تجعليه .
(٤) فى الأصل : مستدلى - كذا .
(٥) فى الأصل : تنكرى .

لى عنك براح، فى الغدو و الرواح، فوسع صدرك بالانشراح، و ليس لى غيرك، و لا أنكر أبدا خيرك، إذا كنت باقيا[1] على مودتى، و متماديا[2] على محبتى و عشرتى، فان نظرت إلى غيرى، منعتك نفسى و خيرى، و إن كنت باقيا[1] على المودة، كنت لك كالأمة فى الرخاء و الشدة، فاحذر النظر إلى غيرى، لئلا أمنعك خيرى، و آخذ من يصير لى مملوك، و لو أنه فقير صعلوك، فاياك أن تغارنى، تخير نفسك و تنقرنى، و ترجع تطلبنى فلا تجدنى، و تصير كما قال بعض المشايخ من الكلام لتلميذه عبد السلام: النساء أفاعى، كن واعى يا عبد السلام! من تبع هواهن و هواهن يعطب و السلام. فاذا كان الإنسان يحصل له من هواهن المحبة و الافتنان، فكيف بمن ضارهن بالضرائر عليهن، فان الضرة مرة تشوش عليك و على المرة بعد المرة. أما سمعت قول الأعرابى حين تزوج اثنتين، فصار بينهما كالخروف بين ذئبتين. قال لها: و كيف ذلك يا ذات الجناحين! قالت: قيل لأعرابى: من لم يجمع بين زوجتين لم يذق حلاوة العيش، و لا تقر له أبدا عين. فتزوج الأعرابى امرأتين، فحصل له منهما مشقتين، فأنشأ يقول:

تزوجت اثنتين لفرط جهلى ... بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفا ... أنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تمسى و تضحى ... تداول بين أخبث ذئبتين

(١) فى الأصل: باق.
(٢) فى الأصل: متماد.

رضى هذى يهيّج سخط هذى فما أعرى باحدى[1] السخطتين
و ألقى فى العشية كل بؤس كذاك الضر بين الضرتين
لهذى[2] ليلة و لتلك أخرى عتــاب دائم فى الليلتـين

ثم قالت له : إن أردتنى أيها العصفور لك صابرة، و لا أكون عنك نافرة، فاعفنى من المغايرة . فقال : / أقسمت بالسادة الأطيار، السالكين سبل ١٤٥ البحار، الطالبين قرب المزار، و المغفرة من الكريم الغفار، لأغايرنك أبدا، و لا ركنت إلى صادحة على طول المدى . فطاب قلبها عند ذلك و قالت : بحياتى عليك، و ركونى إليك، إلا ما أخبرتنى من هم الأطيار التى أقسمت لى بهم و عرضت بذكرهم . فقال لها : سأخبرك أيتها العصفورة، البعيدة عن الضرة المضرورة ! إن الطيور اجتمعوا، و انخفضوا و ارتفعوا، و قالوا : لا بد لنا من ملك نعترف به و نعرف به، فهلموا ننطلق فى طلبه و نتمسك بسببه[3]، و نعيش فى ظله، و نعتصم بحبله، يقال له : عنقاء مغرب، ننفذ حكمه فى المشرق و المغرب، فهلموا بنا إليه، نتوكل عليه . فقيل لهم : ويحكم ! إن البحر عميق، و الطريق مضيق، و السبيل سحيق، و بين أيديكم جبال شاهقة، و بحار مغرقة، و نيران محرقة، و لا سبيل لكم إلا الاتصال[4]، و لو تقطعت الأوصال، و دون وصاله حد الصال . فاقعدن فى أوكاركن، و اعترفن من إنكاركن، فان العجز من شأنكن، و الملك غنى عنكن، و إن الله لذو فضل على العالمين، أما سمعتم بصائح الحذر، يصيح و يحذركم الله نفسه ؟ قالوا : صدقت، و لكن منادى القرب ينادى : فروا إلى الله ! فطاروا

(١) فى الأصل : من احدى . و يستقيم الوزن بما أثبتناه من غير تغيير فى المعنى .
(٢) فى الأصل : لهذه ــ و بها ينكسر ميزان الشطر .
(٣) فى الأصل : بسلبه (٤) فى الأصل : اتصال .

بأجنحــة يتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، صابرين فى ظمأ الهواجر ، و من يخرج من بيته مهاجر . فسلكن سبلا عدلا ، إن أخذن ذات اليمين ألهمن برودة الرجاء ، و إن عدلن ذات الشمال أحرقن بحرارة الخوف ، فمنهم بين سابق و لحاق ، ومحاق و إحراق ، و تلاش و افتراق ، و تغاش و استغراق ، حتى وصل من وصل منهم إلى جزيرة الملك و قد سقط ريشه ، و تضاعف نحوله ، و تزايد ذبوله ، وصلن إليه خماصا بعد
٢٤٥ / ب ما كن بطانا ، و جئنه فرادى بعد ما فارقن أوطانا . فلما نظرن / إلى جزيرة الملك و فيها ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين ، فمن كان همته فى المأكول و المشروب قيل لهم : كلوا و اشربوا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، و من كان همته الملابس و النفائس قيل لهم : و يلبسون من سندس و إستبرق ، ومن كان همته التمتع[1] بالعرائس ، قيل : و زوجناهم بحور عين ، و أما أهل الأنفة فقالوا : سبحان الله ! إذا كان اشتغالهم بالمأكول و المشروب فمتى يفرغ للمحبوب ! و متى ينال الطالب شــرف المطلوب ! فالدون كل الدون ، من رضى بصفقة المغبون ، و نحن لا نريد إلا الملك الذى درجنا لأجله المحاجر ، و صبرنا على ظمأ الهواجر ، نقول : و من يخرج من بيتــه مهاجر ، شغلنا بالملابس و المعاجر ، فو الذى لا إلـه إلا هو ! لا نريد[2] إلا هو . فقال لهم الملك : ويحكم ! فلأى شىء جئتم ؟ و بأى شىء أتيتم ؟ قالوا : أتيناك بذلة العبيد ، و إنك لتعلم ما نريد . قال : ارجعوا من حيث جئتم ، فأنا الملك إن شئتم أو أبيتم ، إن الله لغنى عن العالمين . قالوا : هو الغنى و نحن الفقراء ، و هو القوى و نحن

(١) فى الأصل : بالتمتع . (٢) فى الأصل : لا يزيد .

الضعفاء . فبأى قوة نرجع وقد ذهبت قوانا ، واضمحل وجودنا . فقال لهم الملك : إذا صح افتقاركم ، وثبت انكساركم ، فعلىّ جبارکم ، انطلقوا فقد يداوى العليل ، فى ظل الظليل ، وقيلوا فى خير مستقر وأحسن مقيل ، فمن غلبت عليه برودة الرجاء فليشرب من كأس كان مزاجها كافورا ، ومن استولت عليه حرارة الشوق فليتناول من كأس كان مزاجها زنجبيلا ، ثم قولوا للعاشق الذى سلك سبيلا : اشرب من كأس كان مزاجها سلسبيلا ، فاذا تمت الحِمْية ، وصحت الحَميّة فقدموا العليل إلى طبيبه ، وقربوا المحب إلى حبيبه . فلما قدموا على طبيبهم تلقاهم ولقاهم نضرة وسرورا ، وبقاهم فسقاهم ربهم شرابا طهورا ، فسكروا حيث شربوا ، ثم غنى[1] لهم فطربوا ، ثم استزيدوا فزادهم . ثم استجيبوا وطاروا بأجنحة الأنس ، فاذا هم فى حظيرة القدس ، فسقطوا ليلتقطوا حبة المحبة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فحوصلوا حيث وصلوا ، واتصلوا حيث انفصلوا . فلما حضروا نظروا ، فاذا الحجب قد رفعت ، والأكواب قد وضعت ، والأحباب قد جمعت . / وقمل الأذن قد سمعت ، ونفسها قد سمحت ، وتنشد فى ذلك : ٢٤٦/ الف

يا قلب بشراك أيام الهنا رجعت ... وهذه الدار للأحباب قد جمعت
أما ترى نفحات الحى قد عبقت ... أنفاسها وبروق القرب قد لمعت
فعش هنيئا بوصل غير منفصل ... ممن تحب وحجب الهجر قد رفعت
وانظر جمال الذى من أجل رؤيته ... قلوب عشاقه فى حبه انصدعت

(١) فى الأصل : اغنى .

فلما سمعت العصفورة إشارة الطيور من العصمور، داخلها السرور، و قالت: و أنت لست منى بمهجور[١]. فطاب عيشه بها، و ازداد حبا لها، و أنشد لسان حاله يقول:

ما بانة الجزع ما سفح الغدير و ما رياض رامة لو أسركم فيها
و من سليمى و من سعدى و عزتها أنت المراد و ذكراهن تمويها

و اعلم أن النساء قليل منهن [٢]من تحفظ[٢] الود، و تفى[٣] بالعهد، بل ينتظرن بعد موت أزواجهن وفاء العدة و انقضاءها ليتزوجن، و لمودة الميت يتركن، و لا يعدن يزرن قبورهم و لا يحزن. قال أبو الحسن المدائنى: احتضر رجل من العرب، فنظر إلى ابنه يدب بين يديه، و اسمه معمر و أم الصبى عند رأس أبيه. فنظر أبوه إلى أمه و أنشد يقول:

و إنى لأخشى أن أموت و تنكحى و يقذف فى أيدى المراضع معمر
و ترخى ستور دونه و قلائد و يشغلكم عنه خلوف و مجمر

و المجمر: البخور و نحوه. فقالت: لا يكون ذلك أبدا، بل أربى ولدى ثمرة كبدى، إلى أن أزور بعدك لحدى. فما لبث أن مات و تزوجت، و صار معمر إلى ما ذكره والده.

ولما احتضر الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، جزع وجعل يقول:

---

(٢) فى الأصل: مهجور. ويلاحظ فى حكاية العصفور و العصمورة أسلوب النويرى من سجع مفتعل وكذا انزلاقة إلى تفاهات مصطنعة، و لكنها لم تخل من أبيات شعر طيبة.

(٢–٢) فى الأصل: ممن يحفظ.

(٣) فى الأصل: توفين.

انى لأجد كربا ليس من كرب الموت - و أعاد ذلك دفعات . فقال له بعض أهله : ما هذا الجزع ؟ تقدم على رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو جدك و على علىّ و الحسن و الحسين و هم آباؤك ، فقال : لعمرى ! ليس الأمر كذلك ، و لكن كأنى بعبد الله بن عمرو بن عثمان حين أموت و قد جاء فى حلتين و قد رجّل جمته يقول : أنا من بنى عبد مناف جئت لأشهد موت ابن عمى و ما به[1] إلا أن يخطب زوجتى فاطمة بنت الحسين ، فاذا جاء فلا يدخل / علىّ . فقالت زوجته فاطمة : أ تسمع ؟ ٢٤٦/ا
قال : نعم ، قالت[2] : عتقت كل عبد لى و تصدقت بمالى إن أنا تزوجت بعدك أحدا أبدا . قال: فسكن الحسن . فما تنفس و لا تحرك حتى مات . فلما ارتفع الصباح أقبل عبد الله بن عمرو على الصفة التى ذكرها الحسن قبل وفاته . فقال قوم: يدخل عبد الله . و قال بعضهم : لا يدخل . و قال قوم : ما يضر من دخوله . فدخل و فاطمة تصك وجهها و تلطم خدها ، فأرسل لها عبد الله بن عمرو وصيفا كان معه ، فجاء يتخطى الناس حتى دنا منها فقال: يقول لك مولاى عبد الله بن عمرو ! أبقى وجهك فان لنا فيه أربا . قال : فأرسلت يديها فى كميها بعد أن اختمرت بخمارها ، و عرف هو ذلك منها ، فما لطمت بعد ذلك لطمة واحدة . فلما انقضت عدتها خطبها فقالت : و كيف بنذرى و يمينى ؟ فقال : نخلف عليك بكل عبد عبدين

---

(١) فى الأصل : بى .

(٢) فى الأصل : قال .

وبكل شيء شيئين، ففعل وتزوجته .

وكانت العرب تتفاخر بقوة الجماع ويقولون : إنه دليل على فحولية الرجل . وكان الليث بن سعد إذا أراد الجماع يقول : اللهم ! شد لى أصله، وارفع لى صدره، وسهل لى مدخله ومخرجه، وارزقنى ذرية تقاتل فى سبيلك . قال بعضهم :

قيام الدين والدنيا قيام الأير إذ قاما
فما الدين [وما ـ[1]] الدنيا وما الكل إذا ناما

وقال آخر يذم أيره لعدم قيامه وطول نومه :

كأن أيرى فى كف جارية قطعة جلد قد مسها بلل
ترنو إليه ثم تنشده يا ويح فرج عليك يتكل

وقال آخر تورية :

مالت الى الأير القوى القائم وأعرضت من أيرى النائم
فسألتها تحفظ ما قد مضى فقالت الدنيا مع القائم

وقال آخر :

هى الدنيا إذا فكرت فيها وجدت حلالها كرم نفج
وأعظم من ترى وأجل قدرا طوال الدهر عبد فم وفرج

٢٤١/ الف كانت أم سليم من فاضلات الصحابيات، وهى التى / سألت النبى صلى الله وسلم بحضرة عائشة، قالت : يا رسول الله ! المرأة ترى ما يرى الرجل فى المنام، فترى من نفسها ما يرى الرجل من نفسه . فقالت عائشة : فضحت

(١) ساقطة من الأصل .

النساء تربت يمينك ! معناه : حكيت عنهن أمرا يستحى من وصفهن به ويكتمنه . وذلك أن نزول المنى منهن يدل على شدة شهوتهن للرجال ، ومنى المرأة أصفر رقيق ، وقد يبيض لفضل قوتها ، وتتلذذ بخروجه ، وفتور شهوتها عقيب خروجه . وأما منى الرجال فانه فى حال الصحة أبيض ثخين ، يتدفق فى خروجه دفعة دفعة ، ويخرج بشهوة ويتلـــذذ بخروجـــه . وإذا خرج استعقب خروجه فتورا ، ورائحته كرائحة الطلع ، ورائحة طلع النخل قريبة من رائحة العجين . وقيل : إذا يبس كانت رائحته كرائحة البول ، فهذه صفاته ، وقد يفارقه بعضها مع بقاء ما يستقل بكونه منيا . وذلك بأن يمرض فيصير منيـــه رقيقا أصفر ، أو يسترخى وعاء المنى فيسيل من غير التذاذ وشهوة ، أو يستكثر من الجماع فيحمر ويصير كماء اللحم ، وربما خرج دما عبيطا ، وإذا خرج المنى أحمر فهو موجب للغسل كما لو كان أبيض . ثم إن خواص المنى التى[1] عليهـا الاعتماد فى كونه منيا ثلاث : أحدها الخروج بشهوة مع الفتور عقبه ، والثانية الرائحة التى تشبه رائحـــة طلع النخل ، الثالثة الخروج بتزريق ودفق فى دفعات ، كل واحد من هذه الثلاثة كاف فى إثباته منيا . قال بعضهم : إن الإكثار من الجماع يفنى الأجل ، وإن تاركه يطول عمره ، ورد الشاعر قول قائله عليه بأبيات ذكرها[2] وهى :

(١) فى الأصل : الذى .

(٢) فى الأصل : ذكر .

قل للذى يدعى أن النكاح على ما فيه من لذة يفنى به الأجل
و أن تاركه يبقى إلى أمد هيهات ذلك أمر ليس يمتثل
لو كان ما تدعيه منك مطّرحا وكان يصدق فيه القول و العمل
فلم تطل مدة العصفور مع شبق و لم يمت عجلا من تركه الجمل

٢٤٧/ ب و اعلم أن النكاح يحتاج إلى المال، كما قيل: المال قبل العيال / ، قال الشاعر:

و من طلب النكاح بغير مال كصياد الغزال بلا كلاب

قال أبو على الفارسى: فرقت العرب بين قولك: نكح فلان زوجه، و بين قولك: نكح فلان فلانة، فيريدون بالأول الوطء، و بالثانى العقد، و يحتمل لهما - هذا معنى ما فهمت عمن حكى عنه. فقيل بناء على هذا: إن قوله " حتى تنكح زوجا غيره[1] " من القسم الأول، فوجب أن لا يستباح بالعقد وحده، لأن الغاية ما بعده. و فى الصحيح عن عائشة أن رفاعة القرظى طلق امرأته فبت طلاقها، فتزوجت بعده عبد الرحمن ابن الزبير، فأتت النبى صلى الله عليه و سلم فقالت: يا رسول الله! إن رفاعة القرظى طلقنى فبت طلاقى، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، و إنه و الله ما معه إلا مثل هذه الهدبة. و أخذت هدبة من جلبابها. فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: لعلك [تريدين -[2]] أن ترجعى[3] إلى رفاعة! لا، حتى يذوق عسيلتك و تذوقى عسيلته. فأوقف عليه السلام الإباحة على ذوق العسيلة و أبو بكر الصديق جالس عند

(١) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٣٠.
(٢) زيد من المراجع.
(٣) فى الأصل: ترجعين.

رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و خالد بن سعيد بن العاص بباب الحجرة لم يؤذن له . فطفق خالد ينادي أبا بكر : ألا تزجر هذه عما تجهر به رسول الله صلى الله عليه و سلم . و قد ذكر أبو عمرو بن الحاجب فى مختصره فى الفقه قيودا فيما تحل به المستوفاة الطلاق لمن طلقها و هى خمس ، و هى إباحة الوطء الذى يكون به التحليل احترازا من الوطء فى الحيض - و فى معناه النفاس ، و من الوطء فى الإحرام ، و من الوطء فى الصيام - و فى معناه الاعتكاف ، و ما أشبه ذلك من الموانع ، فيكفى عند مالك إيلاج الحشفة أو مثلها فى مقطوعها و إن لم ينزل .

و حكى عن حسن البصرى أنها لا تحل للأول إلا بالإنزال من الثانى ، و هو ظاهر قوله عليه السلام : حتى تذوقى عسيلته و يذوق عسيلتك . إذ كان مذهبه اشتراط الإنزال / منهما جميعا ، فان كان من الرجل وحده ٢٤٨/ا فهو مشكل . و شرطوا كون الإنزال فى القبل ، لأن الوطء المباح مقصور عليه ، و لأنها لا تذوق عسيلته فى غير ذلك المحل ، و لو وطئ سليم الذكر فوق الفرج فأنزل و دخل من مائه فى فرجها و أنزلت هى فلا يحلها و لا يحصنها . و هذا الظاهر من كلام ابن الحاجب لقوله : و يكفى إيلاج الحشفة . و إن كلامه خرج على أقل ما يقع به الإحلال . ثم قال : و الانتشار شرط على المشهور ، يعنى أن يشترط فى إيلاج الذكر أن يكون حيا بانعاظ ، فان أدخلته بشىء على غير هذه الحال فهل يقع به إحلال ، قولان : المشهور أنه لا يقع إحلال ، و الشاذ أنه يحصل به الإحلال . و الصحيح هو المشهور ، لأن ذوق العسيلة إنما يكون مع الانتشار ،

و يشترط بلوغ الزوج ، لأن البلوغ شرط فى إقامة الحد على الثانى . و من قال : إن شارف البلوغ يحد إذا زنى ، يلزمه أن يقول هذا بالتحليل للمرأة ، و اختاره هنا بعضهم إذا حصل للمرأة من وطئه مثل ما يحصل من البالغ ، و هو قريب من مذهب الشافعى ، و لأن من لا يطيقه لا ينتفع به ، فهو فى حقها كالعدم - انتهى .

[فى الشبيبة و الشيب -[1]]

و اعلم أن ألذ العمر زمن الشبيبة ، قال بعضهم فى هذا :

زمن الصبا زمن أرق من الصبا   و ألذ من غفوات عين الساهر

و قال بعضهم :

ألا إنما الدنيا الشباب و إنما   سرور الفتى هاتيكم السكرات
و لاخير فى الدنيا إذا ما رعيتها   و قد يبست أغصانها الخضرات

و قال بعضهم :

إن الشباب حجة التصابى   روائح الجنة فى الشباب

فلنذكر ما قيل فى الشيب و خضابه ، قال بعضهم :

و ما خضب الناس المشيب لقبحه
و أقبح منه حين يخضب ناصله
و لكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازله

(١) ليس العنوان بالنص أو الهامش و لكن اقتبسناه من السياق .

و لبعضهم

و لبعضهم فى ذلك :

/ قلن أترابها علام هجرتــه   فقالت [1] هجرتــه حين شابا ٤٨

قلن لا تجمعى عليه صدودا   حسه فقده الشقّ [شبابا - [2]]

و لبعضهم :

قالت و قــد راعها مشيبى   قد كنت أخا فصرت عما

فقلت لا تعجبين من ذا   قد كنت بنتا فصرت أما

و قال بعض المشايخ يذم نفسه :

قــد كنت أمشى كالألف   و اليــوم أمشى لام ألـف

و كــنت أدعــى يا صبى   فصرت أدعــى يا خرف

و قال بعضهم :

و قالوا شبت قلت لهم قفوا لى   أحدثكم بشىء عن ولوعى

وحق هواكم ما شبت لـكن   غسلت سواد شعرى بالدموع

و قال بعضهم :

و عــيرنى بالشيب قوم أحبهم   فـقلت و شأن العاشقين التجمل

بعثــتم إلى رأسى المشيب بهجركم   و ما جاءنى منكم على الرأس يحمل

و قال بعضهم :

أنـكرت شيبى و قالت عجبا   ليت شعرى ما الذى دهـاه

قلت هذى صبغة الله و ما   يقلب الأسود مبيضا سواه

---

(١) نقلنا الـكلمة من الشطر الأول .

(٢) ساقطة من الأصل .

و قال بعضهم:

قالت و قد أبصرت مشيبي مسوّد اللون بالخضاب
متى أتاك الشباب حتى رجعت تعزي إلى الشباب
فقلت لا تعجبي فهذا سخام وجهي على شبابي

و قال بعضهم:

لم أزل أنتف المشيب إلى أن[1]
كدت أبقى بين الأنام أقطّا
كم أغطى على الغواني عيوبي
و حق أبي على أن تتغطى

و لابن الرومي:

يا بياض المشيب سودت وجهي
[2]عند بيض[2] الوجوه سود القرون
و لعمري لأخفينك جهدي
عن عياني و عن ملاح العيون

و لمحمود الوراق:

يا خاضب الشيب الذي في كل ثالثة يعود
٢٤٩/ الف / إن النصول إذا بدا فكأنه شيب جديد

---

(١) نقلنا الكلمة للشطر الأول.

(٢-٢) في الأصل: عن بياض.

فدع المشيب لما أرا د فلن يعود كما تريد

و قال الربيع بن ضبع الفزارى لما كبر سنه :

أصبحت لا أحمل السلاح و لا
أملك رأس البعير إن نحرا
و الذئب أخشاه إن مررت به
وحدى و أخشى الرياح و المطرا
من بعد ما قوة أعالجها
أصبحت شيخا أعالج الكبرا

سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخا طاعنا فى السن ، فقال له : كيف حالك فى كبرك ؟ قال : تعيقنى الشعرة ، و أعثرنى البعرة . فقال له : كيف حالك فى قيامك و قعودك ؟ فقال له : إذا كنت قائما و أردت الجلوس فكأن الأرض تبعد منى ، و إذا كنت جالسا و أردت القيام فكأن[1] الأرض تتعلق بى . قال له : فكيف حالك فى أكلك ؟ قال : الكثير يضرنى ، و القليل لا ينفعنى . قال : فما حالك فى جماعك ؟ فقال : إن الملاح لا يردننى ، و إن القباح لا أريدهن ، فان مكنت منه لا أقدر عليه ، و إن منعت منه غضبت على نفسى . فقال له : كيف حالك فى نومك ؟ فقال : أسهر فى المضجع ، و أنام فى المجمع . فقال عمر : و الله هذا الكبر بعينه . ثم أمر له بعطاء ، فقبضه و انصرف - انتهى .

---

(١) فى الأصل : كان .

و اعلم أن الجماع النافع لاجتماع المنى فى أوعيته من غير فكر مستحسن يورث لذة و نشاطا، و يبسط النفس، و يزيل الغضب و الغم و الوسواس، و يخفف الامتلاء و أوجاع الحالبين و الحقوين . و يجب أن يحذره أصحاب الأمزجة اليابسة و من يلحقه عقيبه سقوط قوة، و ذهاب شهوة، أو عور عين، و أصحاب المعد و الأحشاء الضعيفة، و يضعف العصب و البصر، و يكره على الخواء و الامتلاء، و فى الحمام و عقيب الفصد و الإسهال و القىء، و عند مدافعة البول و الغائط و الريح، و زمن الشيخوخة، إذ لا منفعة للرجل فيه بالجماع لعدم القدرة عليه، و لا يصلح
٢/ب الجماع إلا للشباب / بخلاف الشيوخ، كما أن الرجال من طبعهم الميل للأبكار و النسوان الحسان، لا العجائز المطفشات الأسنان، كما قال بعض المشايخ يهجو نفسه و امرأته العجوز:

أنا شيخ و لى امرأة عجوز تكلفنى إلى ما لا يجوز
و قالت رق أيرك مذ كبرنا فقلت نعم قد اتسع القفيز

أما تعلمين[1] أن المتعة بالنساء الحسان، و الأبكار اللواتى كاللؤلؤ و المرجان، فقد صرت يا هذه[2] قهرمانة زوجة قهرمان، أما سمعت قول الشاعر:

كتب المشيب بأبيض فى أسود
بغضاء ما بينى و بين الخرد

---

(١) فى الأصل: تعلمى .
(٢) فى الأصل: هذا .

خجلت عيون الحور حين وصفتها
وصف المشيب و قلن لى لا تبعدِ
و لــذاك أظهرت انكسار جفونها
دعر و إن خـدودها بتورد[1]
يا حدة الشيب التى ما غادرت
لنفوسنا من لـذة بمجردِ
ذهب الشباب و سوف أذهب مثل ما
ذهب الشباب و ما امرؤ بمخلد
إن الفناء لكل حى غاية
محتومة[2] إن لم يكن فكأن قد

فقالت : عهدى بك فيما مضى و لك همــة ، فكيف صارت ضعيفة كالرمة . فقال لهـا : قد كان لى فيما مضى همة أستغنى[3] [بها -[4]] عن لحم السقنقور ، و اليوم لى هم بلا همة ، و الهم للهمة كافور . أما سمعت قول شابة لشيخ حين سألها التزويج ، فجعلت تسخر به فقال بيتين[5] على

(١) فى الأصل : يتورد .
(٢) نقلنا الكلمة من الشطر الأول .
(٣) فى الأصل : استغن .
(٤) ساقطة من الأصل .
(٥) فى الأصل : بيتين .

لسانها حيث قال :

قالت أحب العذار أول ما
يبدو[1] على الخد غير معوج
قلت اقصرى لا يقال لإبطة
قالت و إلا عذارك المثلج[2]

فانقهر من جوابها ، فقال لها ينكيها :

لا يخدعنك وجنة محمرة
رقت[1] فى الياقوت طبع الجلمد

فقالت : يا هذا ! تجوع الحرة و لا تأكل بثدييها . أى تجوع الحسناء و لا تتزوج بشيخ . و قيل : أى لا ترضع لبنها بالأجرة ثم تأكلها . و هو مثل يضرب للذى لا يمنعه من صيانته شدة فقره ، و هذا المثل ٢٥٠/ الف للحارث بن سليك الأسدى ، و قد خطب إلى علقمة بن حفص / الطائى ابنته ، و كان الحارث شيخا ، فقال علقمة لامرأته : اختبرى ما[3] عند ابنتك . فقالت : أى بنية ! أى الرجال أحب إليك : الكهل الجحجاح ، الواصل المناح ، أم الفتى الوضاح ، الملول الطماح ! فقالت : يا أماه ! إن الفتاة تحب الفتى حب الرعاء أنيق الكلاء ، فقالت : أى بنية ! إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، قالت : يا أماه ! أخشى من الشيخ أن يدنس أثوابى ، و يبلى شبابى ، و يشمت بى أترابى . فقالت : إن الفتى

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الأول .

(٢) فى الأصل : الثلج .

(٣) فى الأصل : اما .

يعيرك ، و إن الشيخ يميرك ، أى تنالين[1] خيره بميرتك ، و ليس الكهل الفاضل ، الكثير النائل ، كالحدث السن ، الكثير المن . قالت : أما سمعت يا أماه قول الشاعر ؟ قالت : و ما قال؟ قالت : قال حيث قال:

لا يرحل الشيب عن دار يحل بها

حتى ترحّل[2] عنهـا صاحب الدار

و الفتى يرجى طول عمره ، و استمتاع[3] زوجته بشبابه و بره . فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث ، [و أتى -[4]] بهـا إلى أهله ، و إنه لجالس يوما بفناء مظلته ، و هى إلى جانبه إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون أى يتصارعون ، فتنفست الصعداء ثم بكت . فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت ما لى و للشيوخ الناهضين[5] كالفروخ . فقال : ثكلتك أمك ! قد تجوع الحرة و لا تأكل شديها . ثم قال : و أبيك ! لرب غارة شهدتها ، و سبئة أردفتها ، و خمرة شربتها ، فالحق بأهلك ، لا حاجة لى فيك . فلحقت بأهلها ، [و تزوجت -[4]] بعد عدتها بشباب مثلها .

قال بعض العلماء : يكره نتف الشيب لما روى من نهى النبى

---

(١) فى الأصل : تنالى .

(٢) فى الأصل : يرحل .

(٣) فى الأصل : استماع .

(٤) ساقطة من الأصل .

(٥) فى الأصل : الباهضين .

صلى الله عليه و سلم عن ذلك ، و إن قصد به التلبس على النساء فهو أشد فى المنع ، لأن ذلك يجرى مجرى الغرور و التدليس . و اعلم أن الشابة أبدا تكره الشيخ لشيبته و قلة حركته . كانت شابة بدويه متزوجة بشيخ بدوى فان ، و من عادة شبان العرب [أنهم -[١]] لا يكعبون أوطئتهم حين لبسهم لها إلا قياما . فقام الشيخ ليلبس وطاءه كفعل الفتيان ، ضرط لانزعاجه لأكعابه ، فقالت زوجته : لما رمت الباطل ، كان هدا منك الحاصل . فقال لها : يا هذه ! قولك هـــذا دليل على
٢٠/ب كراهتك لى . / فقالت : نعم ، و أنشدته تقول :

أشهى الرجال من النساء مواقعا
ما كان أشبههم بهن خدودا

فعلم أنها غير راضية به ، فطلقها و مضت إلى أهلها و اختارت لنفسها شابا مثلها .

قال أبو العنبس لبعض الحكماء : إنى سائلك عن ستة أشياء ، فأعد لهى حوابا ، إنى سائلك عن أشهى النساء و أطيب الطعام و ألذ الشراب و أذكى الرائحة و أمتع الغناء و أفره الخيل . قال . أشهى النساء التى تخرج من عندها كارها ، و تعود إليها والها . و أطيب الطعام ما وافق الجوع . و ألذ الشراب كأس راح تعاطيها خليلك ، أو شربة ماء تطفىء غليلك . و أذكى الرائحة ولد تربه أو بدن تحبه . و أمتع الغنـاء غناء جارية مبدعة ، بأوتار أربعة ، صوتها مصيب ، و غناؤها عجيب ، و أفره

(١) ساقطة من الأصل .

الخيل الأشق الأعتق ، الذى إذا طلب لم يسبق ، و إذا طلب لم يلحق و إذا صهل أطربك ، و إذا نظرت إليه أعجبك . قال : صدقت و أجدت ! أعطه يا غلام مائة دينار . قال : و مائتين . قال : أعطه ما قال - انتهى .

و اعلم أن الفاسق بجوارحه لايؤمن على المرأة مع ضعف عقلها ، و قلة علمها إن تتبعه على مراده . و الحذر الحذر من الاستمناء باليد ! فانه لا يجوز ذلك ، و يكون عاديا[1] . فلنذكر ما قيل فيه إن شاء الله تعالى - قال حرملة بن عبد العزيز : سألت مالكا عن الرجل يعبث بيده فى ذكره إلى أن يمنى ، فتلا قوله تعالى[2]: "و الذين هم لفروجهم حفظون ٭ الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين ٭ فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العدون" . و هذا لأنهم يكنون عن الذكر بعميرة ، و فيه يقول الشاعر :

إذا حللت بواد لا أنيس به   فاجلد عميرة لا داء و لا حرج

و يسميه أهل العراق الاستمناء . و هو استعمال من المنى . / ، و الإمام أحمد ٢٥١/الف
ابن حنبل على ورعه يجوزه ، و يحتج بأنه إخراج فضلة من البدن ، فجاز عند الحاجة ، أصله الفصد و الحجامة ، و عامة العلماء على تحريمه و هو الحق الذى لاينبغى أن يدان لله[3] إلا به . و قال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، و هو معصية أحدثها الشيطان و أجراها بين الناس حتى صارت مسألة ، و يا ليتها لم تقل ! و لو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة

(١) فى الأصل : عاد .

(٢) قرآن كريم سورة ٢٣ آية ٥ - ٧ .   (٣) فى الأصل : الله .

يعرض عنها لدناءتها ، و قيل : إنها خير من تزويج الأمة . قال بعض العلماء : تزويج الأمة و لو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا و إن كان قد قال به قائل أيضا . و لكن الاستمناء ضعيف فى الدليل ، عار بالرجل الدنيء ، فكيف بالرجل الكبير ! قوله تعالى[1] : "فمن ابتغى وراء ذلك فهم العٰدون". فسمى من نكح ما لا يحل عاديا ، و أوجب عليه الحد بعدوانه . و اللائط عاد قرآنا و لغة ، قوله تعالى[2] "بل انتم قوم عٰدون". فوجب أن يقيم الحد عليهم ، و هذا ظاهر .

كان عمرو بن بحر الجاحظ وزيرا للخليفة المقتدر ، وكان لا يأتيه فى اليوم إلا مرة ، ثم لا يعود إلى اليوم الثانى ، و إنه عاد يوما فقال المقتدر : ما خبر الوزير ؟ قال : إن سوداء أساءت عليّ الأدب . فقال : عليّ بها . فأحضرت فقال : ويلك ! أسأت الأدب على الوزير ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين ! هو الذى ابتدأ بى ، لما نظرنى قال : "و اذا الوحوش حشرت[3]". فقلت حينئذ : "و ضرب لنا مثلا و نسى خلقه[4]" - تعنى جحوظ عينيه . فقال الخليفة : قد أحسنت الجواب إلا أنك أسأت فلأجلدنك . قالت : لن تستطيع ذلك . قال : و لم ؟ قالت : لأن اسمى عميرة ، فان

(١) قرآن كريم سورة ٢٣ آية ٧ .

(٢) قرآن كريم سورة ٢٦ آية ١٦٦ .

(٣) قرآن كريم سورة ٨١ آية ٥ .

(٤) قرآن كريم سورة ٣٦ آية ٧٨ .

جلدتى يقول النـاس : أمير المؤمنين جلد عميرة . فضحك من قولها وتركها . وإنها تعنى بقولها ذلك الاستمناء باليد ، وكنية ذكر عميرة .

[قصة أهل الرس -[1]]

قال / كعب الأحبار كان مما أحدثه أهل الرس فى قومهم عبادة /٢٥١ الأصنام ، وإتيان النساء فى أدبارهن ، وكانوا يتبادلون بعضهم بعضا كأخذ الثأر . فقال الشاعر فى ذلك :

قولوا لمن أخرب مسقيّتى لا يأخذ الثأر ولو هدها
حفرت فى أسفله حفرة لو جاء ذو القرنين ما سدها

وكان أهل الرس[2] يتبادلون أيضا فى النساء ، يبعث هذا بامرأته إلى هذا ، وهو يبعث امرأته له ، ولا غيرة فيهم . قال : فشق ذلك على النسوة فبكى ذات يوم قد اجتمعن على باب مدينتهن يتحدثن بذلك ، إذ أقبل إليهن إبليس عـلى صورة امرأة جميلة ، قال : فقلن له : من أنت ؟ مالك لم نرك قبل هـذا فى مدينتنا . فقال : أنا امرأة فلان فى قرية فلان . وإنها قـــد جاءت إلى هذه [المدينة -[3]] لأن زوجها يريد منها هكذا فى دبرها ، وإنها لا تريد ذلك . وذكرت أنهـا كانت لها امرأة صاحبة تجتمع بها عـــلى السحاق ، وأنهـا ماتت ، ولست

(١) العنوان مشتق من النص .

(٢) زيد فى الأصل : أيضا ، وسيأتى .

(٣) ساقطة من الأصل .

أجد لنفسى بدلها، فعجب أولئك النسوة من حديث سحاقها، فحدثتهن أنفسهن بذلك، ففعلنه فوجدن فيه الشهوة التى كن يجدنها فى الجماع، فاستغنين عن الرجال، فهن أول نسوة عملن ذلك، و استغنت عنهن الرجال بالرجال، فلما استمرت هذه القبائح فى الرجال و النساء، بعث الله إليهم حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى طاعة الله، و نهاهم عن هذه القبائح، و حذرهم نزول العذاب إن لم ينتهوا عنه و عن عبادة الأصنام، قال: فكذبوه و انهمكوا فيما كانوا يعملون، و بقى حنظلة فيهم طويلا يعظهم و يعظ نساءهم، فكانوا يقولون له: نساؤنا و فروجنا ليس لأحد علينا فيها حكم. و صاروا فى هذه القبائح بحيث كانوا يعملونها على مرأى العين بلا حشمة ١/ الف و لا حياء إلى أن ضربهم الله تعالى بالقحط، فلم ينتهوا و وثبوا / على حنظلة، قتلوه و أحرقوه، فلما فعلوا ذلك صاح بهم جبريل[1] صيحة باذن الله له فى ذلك، فصاروا كلهم موتى ممسوخين، و لم يبق فى بلدهم شىء إلا صار حجرا أسود، وكذلك فى قراهم وكل من كان على دينهم، فسمع بهم ذو القرنين، فأتى لينظرهم، فرأى هناك من ديار الجبابرة و الفراعنة و القصور الرفيعة و المنازل المزخرفة و الأبواب الذهب و الأسرّة المرصعة بالجواهر و الخزائن المملوءة بالذهب و الفضة و الجواهر. ثم عاينه و أصحابه على الأسرة متكئين و التيجان على رؤسهم، و الحجاب عن أيمانهم و بين أيديهم، و فى أيديهم العمد و الأسلحة، و قد صاروا حجارة سوداء، و نظروا إلى أسواقهم و تجارهم و صنائعهم ممسوخين حجارة، فمنهم من

(١) زيد فى الأصل: عليهم.

قبض على ميزانه، و منهم من أكب على مكياله، و الخباز فى مخبزه، و الطباخ فى مطبخه، و كذلك أهل اللهو و النساء ملتزمات بعضهن على بعض فى معاصيهن، فأخذهم العذاب بغتة، و نظر ذو القرنين، فاذا بلوح عظيم من حجر منصوب فى وسط الموتى مكتوب عليه «نحن أهل الرس، بقية آل ثمود، كنا ملوكا فى رخاء العيش، و لم نكن نؤمن بربنا، و لا نرتدع عن المعاصى، فبعث الله نبيا منا اسمه حنظلة فنهانا عما كنا فيه، فما انتهينا و قتلناه و زدنا فى كفرنا و عتونا حتى مسخنا الله حجارة» فاستعبر ذو القرنين باكيا، و بكى من كان حوله و انصرف. و أصحاب الرس كانوا بحضرموت من أرض الأحقاف و كانوا احتفروا قنوات من تحت الأرض سموها الرس، لإعجابهم بتلك القنوات و المياه الجارية فيها، يأنسون إليها. و كان هلاك قوم نوح بالطوفان، و قوم عاد بالريح العقيم، و قوم ثمود بالدمدمة، و أهل / البئر المعطلة و القصر المشيد بالصيحة، و أصحاب الرس بالمسخ. /٢٥٢

[قصة سليمان الحكيم و أهل مدينة بالمغرب - ١]

و أما القوم الذين عمدوا إلى رؤسهم ضربوها بأظافرهم حتى هلكوا، فهم أهل مدينة بالمغرب و حولها مدن كثيرة، و فيها ٢ملك عات٢ يملك جميع تلك المدن لايعرف التوحيد، فكان له ٣مجلس مبنى٣ بالحديد

(١) العنوان مقتبس من النص.
(٢ - ٢) فى الأصل: ملكا عاتيا.
(٣ - ٣) فى الأصل: مجلسا مبنيا.

[في مدينة الطلاسم -[1]]

فلنذكر الآن ما قيل في المدينة ذات الطلاسم العجيبة إن شاء الله تعالى - ذكروا أن لواء الملك وسعد السعود ولدي[2] الملك سيف التيجان بينا هما سائران بجيوشهما إذ نظرا إلى واد أخضر نضر، فيه مياه جارية من

٢٥١/ب أنهار مطردة، فنزلوا فيه وطافوا به، فوجدوا / في وسطه مدينة عظيمة، لها ثلاثة أسوار من الرخام الساطع البياض، على كل شرافة لها طلسم عجيب. وتلك الطلاسم بآذانها[3] أجراس، فلما أطلت[4] تلك الجيوش على المدينة، صفرت تلك الطلاسم وصلصلت تلك الأجراس، فسمعوا دويا عظيما داخل المدينة، لأن تلك المدينة خالية، ليس فيها عامر يعمرها، ولا قاطن يسكنها، وليس لها باب، فقال سعد السعود لأخيه لواء الملك: يا أخي! هل رأيت أغرب من هذه المدينة التي ليس لها باب ولا فيها عامر يعمرها؟ وهي على ما ترى من الجمال، وهذه الطلاسم التي قد دارت بها. قال له لواء الملك: لا بد لها شأن من الشؤون، وما أظن يعمرها إلا الجن، وهي من بنيانهم. فأمر سعد السعود بالنزول حولها، فنزلت الجيوش في وسط الأرض ناحية من المدينة، وضربت الأخبية والفساطيط والألوية، وضرب لسعد السعود قبة من الحرير الملوكي، ولأخيه لواء الملك كذلك. ثم عطف سعد السعود على

(١) العنوان ساقط من النص وغير وارد به أو في هامشه.

(٢) في الأصل: أولاد.

(٣) ربما كانت المقصود «بمآذنها».

(٤) في الأصل: طلت.

جماعة من أصحابه وقال لهم : من يأتيني بخبر هذه المدينة وله عندي ما أحب . فقام إليه واحد من القوم وقال له : أنا آتيك بخبرها . فأمر له بسلم وصعد فيه ، فلما استوى بين الشرفات ، ونظر إلى وسط المدينة ضحك ضحكا شديدا ، ورد رأسه إلى أصحابه ، ورمى بنفسه في المدينة ، فلم يزالوا كذلك واحدا بعد واحد حتى فقدوا من أنفسهم جماعة ، فأخذوا واحدا وربطوه بالحبال ، فلما صعد ونظر إلى المدينة أراد أن يلقي نفسه في المدينة فجذبوه فسقط رأسه عن بدنه دون أن يمسه حديد . عند ذلك أيقنوا أن الجن تعمرها ، فلما نظر سعد السعود إلى ذلك قال لأخيه لواء الملك : أقسمت قسما لا برحت عن هذه المدينة حتى أعلم ما فيها وإن كان فيها تلاف نفسي . قال له لواء الملك : يا أخي ! لا تفعل ، لا تهلك نفسك بغير سبب . وقد رأيت ما كان من أمر من تقدم قبلك . قال له : لا بد لي من ذلك . ثم تودع من أخيه وأصحابه . وسار نحو المدينة يخترق البساتين إلى أن قرب من سور المدينة . فدار بالمدينة من كل جانب ٢٥٤/١ ومكان ليجد مدخلا أو مصعدا فلم يجد . فأراد الرجوع إلى موضع السلم ليصعد عليه ، فإذا هو بحجر كبير مملس في وسط السور ، فقرب منه فإذا فيه لولب ، فأداره فإذا الحجر يتزحزح عن موضعه ، وإذا من تحته هوة مغارة يهبط منها بأدراج من الرخام الساطع البياض ، فلم يتمالك أن ضرب بيده على قائم سيفه ونزل على الأدراج . فلما هبط مقدار عشرة أدراج إذ سمع دويا عظيما خلفه ، فرجع ينظر ذلك الدوي وإذا بالحجر[1] قد نطبق على الباب الذي دخل ، فندم على ما فعل

---

[1] في الأصل الحجر .

بنفسه . ثم إنه جعل يضرب بسيفه فى جوانب المغارة فيطير الشرار من الأحجار ، فبينما هو كذلك و إذا قد لاح له ضوء ساطع ، فقصد نحوه ، فلما قرب منه سمع دوى عظيم كالرعد ، و سمع هدة ظن أن المدينة تقلعت من مكانها ، و إذا هو بثعبان عظيم عيناه كأنهما[1] المصابيح ، و إذا بالضياء الذى كان يراه إنما كان من عينى[2] الثعبان ، و إذا به قد فتح فاه و أظهر أنيابه ، و أراد الهجمة عليه . فلما رآه سعد السعود رجع إلى ورائه و قال فى نفسه : إن كان ثعبانا قصدنى ، و إن كان طلسما لبث مكانه . فوقف الثعبان مكانه ، فعلم أنه طلسم ، فما زال يتجسس برجله حتى وقع قدمه على لوح من الرخام ، فمد يده إليه و إذا فى وسطه لولب فأداره ، و إذا الثعبان تزحزح حتى سقط من موضعه ، فاذا هو طلسم من حديد عيناه ياقوتتان حمراوتان ، و إذا من وراء الطلسم بابان[3] من نحاس ، فى الباب اليمين لولب ، و فى الباب اليسار لولب . فأدار الذى على اليمين ، و إذا بباب قد انفتح ، و إذا من داخله عشرة أدراج ، فنزل عليها و ظهر له الضياء ، فتأمل و إذا باب و فيه طلسم ، بيده حربة و هو يدور دورانا ، من ورائه قصر عظيم . فلما قرب من باب القصر قام عليه الطلسم بالحربة التى بيده و رماه بها ، فكأنها خرجت من

٢٥/ب كبد قوس ، فتزحزح عن طريقها فسلم منها / فعند ذلك وقع الطلسم

(١) فى الأصل : كانها .

(٢) فى الأصل : عينا .

(٣) فى الأصل : باب . و التصحيح بناء على ما سيأتى .

على الأرض على وجهه ، فجاوزه سعد السعود ، و دخل القصر ، فوجد فيه مجالس و مقاصير و شباك الجوهر قد سقطت فى الأرض ، و الجوهر قد صار ترابا لطول الأزمنة و الدهور ، و فى وسط الأرض شجرة عادية ملتفة الأغصان عظيمة الأوراق ، لها طعم لا يشبه طعم الثمار ، وكان قد اشتد عليه الجوع ، فأخذ من تلك الشجرة حبة واحدة فأكل منها . فلما وقعت فى جوفه خرس لسانه و لم ينطق الكلام و بقى مشغولا بنفسه ، و فى أصل الشجرة عين من الماء يتفجر ، أصفى من الزلال . و فيه حصى يشبه الجوهر و الياقوت و الزمرد الأخضر ، فبقى متحيرا فغلب عليه النوم . فبينما هو كذلك إذا بلوح من رخام ، و كان بازاء الشجرة ، و اللوح يرتفع قليلا قليلا . فقال فى نفسه : إن لهذا اللوح لنبأ . فمال إلى بعض المقاصير و أخفى نفسه فيها و هو ينظر إلى اللوح ، و إذا به قد ارتفع و عبد خارج من تحته كأنه النخلة السحوق ، قد اسدلت شفتاه و برقت عيناه و بوقت منخراه و هو يقود من خلفه جارية كأنها البدر ليلة كماله . و يده فى ذوائب شعرها ، و بيده سيف كالبرق الخاطف و هو يجرها بشعرها ، و الجارية عريانة ليس يسترها شيء . فلما عاين سعد السعود ذلك قال : يا ليت شعرى ! ما هذه الجارية مع هذا العبد الأسود ! ثم قال لها العبد : يا ابنة اللئيم ! تأهبى للموت ثم إن العبد رد اللوح إلى مكانه و دخل القصر و غاب ساعة ، و إذا به قد أتى بأربعة أوتاد ، و ضربها فى الأرض ، و أخذ الجارية و ربطها إلى تلك الأوتاد ، ثم عطف عليها و قال : كيف

رأيت ؟ فنظرت إليه الجارية بألحاظ تبطل سحر بابل ، و تعطل البيض[1] الصوارم و الأسنة[2] الذوابل ، و قالت : يا عبد السوء ! اصنع ما شئت ! أقسمت بالله ان قلت منى الذى تريد أبدا ! و ما كان ظن أبى هذا منك يا عبد السوء ! و هى تنادى و تستغيث و تقول : أغثنى يا غياث المستغيثين ! فلما رأى ذلك سعد السعود قال فى نفسه : لا خير فى الحياة بعد هده الجارية . و لم يتمالك أن ضرب بيده على قائم سيفه / و صاح به صيحة و ضرب العبد ضربة على غفلة منه شقته نصفين ، و خرت الجارية مغشيا عليها من الخوف ، و فى خلال دلك كله سعد[3] السعود لا يقدر على الكلام من خرسه بسبب أكل الحبة من الشجرة ، فأخذ من ماء العين غرفة [و ألقاها فى فيه و بلعها ، فلما حصل ذلك الماء فى جوفه انطلق لسانه . ثم أتى الجارية و أخذ من ماء العين -[4]] غرفة و رش به وجهها ، فأفاقت من غشيتها بعد أن حلها من وثاقها . فقالت له : من أنت يا صبيح الوجه الذى منّ الله علىّ بك و عصمنى من هذا العبد على يدك ؟ ثم قالت له : ارم علىّ أحد أثوابك . فرمى عليها حلته و ثوبا من أثوابه ، فاستترت بهما ، و الدمع من آماقها منحدر على و حنتيها ،

(١) فى الأصل : بيض .

(٢) فى الأصل : سنة .

(٣) فى الأصل : و سعد .

(٤) الجملة المحورة ساقطة من النص و وردت بهامشه بخط المصحح المراجع .

كأنه

كأنه الندى على ورق الورد ، ثم قالت : هات يدك أقبلها . فمد يده إليها ، فمدت إليه أنامل كالفضة البيضاء ، كما قال الشاعر :

مدت إلى أناملا[1] من فضة   أطرافهن كخالص المرجان
فبكت فصار الدمع فى[2] وجناتها   كالطل فوق شقائق النعمان

فلما مد لها يده أمسكتها بأناملها و قبلتها و قالت : يا سيدى ! من أين دخلت هذا القصر و ليس على أديم الأرض من يتحرأ[3] أن يدخل هذه المدينة و يقرب[4] هذه الأرض ؟ قال لها : و لم ذلك ؟ قالت : لأنه ليس يعمرها إلا الجن ، و لكن يا فتى ما اسمك ؟ قال لها : اسمى مساعد . قالت له : أنت مسعود عد اسمك ، فعطف عليها و قال لها : و أنت ما اسمك ؟ قالت له : اسمى المكللة بنت علقمة الحروب بن علم الصفوح صاحب أرض العجائب ، و ذلك أن أبى كان ملك هذه المدينة و هذه الأرض ، إلى أن سطت علينا طائفة من الجن ، فقتلوا الناس و أرملوا النسوان و أيتموا الولدان ، ففر أبى مع جماعة من أصحابه لأطراف هذه الأرض ، و بنى فيها مدينة عظيمة يقال لها مدينة العمد ، إلى أن ولدتُ أنا له ، فوكل بى هذا العبد السوء ، فتربيت معه ، و كان أبى يحبه ، فوكل أمرى إليه ، فلما كان من أيام ، طرقنا عدو لا طاقة لنا به ، يقال

(١) فى الأصل : أنامل .
(٢) فى الأصل : على . و ينكسر الشطر بها .
(٣) فى الأصل : يتجرى .
(٤) فى الأصل : لا يقرب .

له طوْد الأطواد بن طارق الأزور ، و ذلك أنه قد حشد حشود الأرض ٢/ب و جيوشا[١] لا ترام و لا يحصى لها عدد إلى هذا الملك / الثائر سيف التيجان و أولاده ، فدعا أبى أن يسير معه ، فامتنع أبى من ذلك ، و أبى أن يسير معه إليه ، فبعث إليه أبى قائدا من قواده بجيوش لا ترام ، و استقل بحربه . فلما رأى العد ذلك أخذنى و هرب بى ، و دخل من سرداب إلى هذا القصر ، و صنع بى ما رأيت لما امتنعت منه من مراودته لى على نفسى ، فمن الله علىّ بك و عصمنى منه بيمنك ، فجزاك الله عنى خيرا ! فقال لها : و كم من هنا إلى مدينة أبيك ؟ قالت : أربعون ميلا . قال لها : و كيف قدرت على الوصول إلى هنا ؟ فقالت : إنه حملنى على هجين ، و ركب على جواد من عتاق الخيل . ثم قالت : إنى سمعت أبى يصف هذا القصر و ما فيه من العجائب و أمر هذه الشجرة ، فلعلك أكلت منها شيئا ؟ قال لها : نعم ، و شربت من الماء . فالت له : سلمت و الله ! لو لم تشرب من العين ما عشت أبدا . ثم أخذت بيده و مشيا فى القصر و نظرا ما فيه من العجائب . ثم أتت به إلى اللوح الرخام الذى بازاء الشجرة و رفعته و هبطت على أدراج و هو يتبعها مقدار ثلاثة أميال ، لا يمشيان[٢] إلا فى ضياء اليواقيت إلى أن أتيا إلى أدراج صعدا[٣] عليها إلى مغارة مقورة فى الحجر الصلد ، و خرجا إلى باب المغارة

(١) فى الأصل : جيوش .

(٢) فى الأصل : لا يمشيا .

(٣) فى الأصل : صعدوا .

فوجدا النجيب و الجواد و هما يرعيان من نبات الأرض ، و الليل قد جن و أرخى جلبابه ، و انسدل على الجو فضول أكمامه ، و صار كما قال الشاعر :

و الليل مكحول الجناح كأنما كحل العيون ظلامه بالإثمد
و كأن أنجم ليله لما بدت للناظرين مسامرا من عسجد

فباتا تلك الليلة يتحدثان بأخبار الملوك ، و سعد السعود يحدثها بأخبار أبيه و لا ينتسب إليه فتعجبت الجارية مما سمعت و قالت له : و الله إنه لمنصور ! ثم إنها عطفت عليه و قالت له : سمعت أن له ولدين يقال لأحدهما سعد السعود و هو بطل عظيم ، و الثانى يقال له لواء الملك ، فيا ليتنى أجتمع بسعد السعود ! قال لها : يفعل الله ذلك . قالت له : يا مساعد ! أخبرنى من أبناء الملوك / أنت أم من أبناء العرب ؟ قال لها : ٢٥٦/الف
أنا صعلوك من صعاليك العرب ، قناص للفيلة ، أقتنصها و أعيش من بيع عظامها . قالت له : فمن أين لك هذه الحلة التى كسوتنى إياها ؟ إنما هى من لباس الملوك . قال لها : خرجت مع بعض الملوك لصيد الفيلة فأعطانيها ، فلما وجدتك فى القصر عريانة وهبتها لك . قالت له : و هل صحبتك شجاعة ؟ قال لها : لست أدعى شجاعة ما دامت النساء تلد . فبينما هما كذلك يتحدثان إذ سمعا دويا عظيما [و إذا بأسد -[1]] لطم النجيب و هشمه ، حال بينها و بين عقلها و جزعت جزعا شديدا ، لأنه كان مركبها الذى[2] أتى بها العبد عليه . فلما نظر سعد السعود إلى ذلك لم يتمالك

(١) ساقطة من الأصل . (٢) فى الأصل : التى .

أن ضرب بيده على قائم سيفه و صاح بالأسد صيحة، فلما سمع الأسد الصيحة، ترك النجيب و قام قائما على قدميه كأنه الصخرة العظيمة و هدر و حمل عليه، فعند ما رأى ذلك سعد السعود وثب إليه و ضربه ضربة فى يده أبراها، و ثنى عليه، قسمه نصفين، و أتى إلى موضع الجارية، فلم يجد لها خبرا[1]، و وجد الجواد و إذا الجارية قد أخفت نفسها فى شجرة حين رأت الأسد حمل عليه، فناداها: يا مكللة! فقالت: نعم، لبيك يا مساعد! عشت! قال لها: نعم، يا مكلله! قالت له: و ما صنع الأسد؟ قال لها: قتلته. فترامت عليه و قبلت يديه و قالت له: بارك الله فيك يا مساعد! و الحمد لله على سلامتك. ثم سار إلى موضع الجيش لم يجد فيه أحدا[2]. و ذلك أن أخاه[3] لواء الملك أخذ الجيش و سار إلى بلاد الملك طود الأطواد[4] بن طارق الأزور. فركب الجواد و أردف الجارية خلفه، و سار نحو أرض أبيها. فبينما هما فى بعض الطريق و قد استحرت عليهما الشمس و القائلة[5] إذ نظر[6] إلى غبار البيداء قد أظلمت له الأفق، و اسدت[7] له الطرق، قال للجارية: يا مكللة! انزلى بنا عن

(١) فى الأصل: خبر.
(٢) فى الأصل: احد.
(٣) فى الأصل: اخوه.
(٤) فى الأصل: الأهوال، و صحتها جاءت فيما قبل.
(٥) فى الأصل: و القابلة.
(٦) فى الأصل: نظرت.
(٧) فى الأصل: اسدلت.

الجواد حتى ترى ما يكون من هذا العبار ساعة. / و إذا به قطيع وحش ٢٥٦ / مستنفرة قد استقامت على الجارية، فلما قربت الوحوش منهما[1] خرجت عن الطريق فى البادية، فأوى سعد السعود إلى شجرة لها ظل، و نزل به من حر الشمس، و عقل جواده فى غصن من أغصانها، فغلب عليه النوم و الجارية المكللة، و إذا بعمود ظلام مقبل أسود، تأملته الجارية و إذا به عبد أسود مهول، كأنه النخلة فى الطول، بشفتين كالطبول، عظيم عبوس، شديد كبوس، بيده مقمع من حديد و مقمع ثان[2] معلق من كاهله، و درقة من حديد كأنما صبغ لونه بالمداد، فلم تشك الجارية فى أنه عفريت من الجن، و هو يركض بقدميه الأرض، و الدخان يخرج من منخريه يفتت الحجار، و يطير الشرار. فقالت الجارية: يا مساعد! قم ترى ما حل بنا. فانتبه و قال لها: ما رأيت؟ قالت له: عفريت من الجن. فلما قرب العبد و رآه سعد السعود، ترامى على جواده، فصاح العبد و هجم على سعد السعود بالمقمع، فخرج سعد السعود عن طريقه، فوقع المقمع على صخرة فتتها، فحينئذ صرخ سعد السعود و حمل على العبد حملة صادقة. فلما سمع العبد الصرخة زال عقله، و ألقى الدرقة من يده بين يديه و ناداه: يا مولاى! ما هذه الطامة الكبرى. و إذا به زعفران بن التسرود، صاحب مغارة الأسود. فقال

(١) فى الأصل: منهم.

(٢) فى الأصل: ثانى.

له: من أين أقبلت يا زعفران؟ قال: يا مولاى! خرجت للصيد، فضللت فى البرية إلى أن لقيتك، فالحمد الله الذى من علينا بسلامتك يا مولاى يا سيد الأبطال و ملوكها! و سجد بين يديه. فلما سمعت الجارية ذلك من العبد الأسود و سجوده بين يدي سعد السعود. قالت له: يا مساعد! ما يكون هذا العبد منك؟ قال. إنما هو عبدى. قالت: ألم تقل: إنك صعلوك من صعاليك العرب، فو الله ما أنت إلا سيد من أبناء الملوك. قال لها: يا مكللة! / برح الخفاء، أنا سعد السعود بن الملك سيف التيجان. فترامت عليه، و قبلت يديه و قالت: الحمد لله الذى منّ علىّ بك! فأعطنى الأمان فى أهلى و فى أبى. قال: نعم. ثم أردفها خلفه و سار بها، و تقدم العبد أمامهما كالطود العظيم و المقامع و الدرقة معلقة بكاهله، و لم يزالوا سائرين إلى أن أتوا مدينة علقمة الحروب والد المكللة. فلما قربوا من المدينة و إذا بها قد هدمت و أضرمت نارا، و القتلى قد امتلأت الأرض منهم. فلما رأت الجارية ذلك بكت بكاء شديدا، فقال لها سعد السعود: مم بكاؤك؟ قالت له: و كيف لا أبكى و هذه مدينة أبى و ما أشك إلا أن أبى و أهلى قد هلكوا فى جملة من هلك! و لكن عسى تتركنى حتى أفتش القتلى. قال لها: نعم، فدخلت المدينة و هما يتعجبان مما رأيا فيها. فالتفت سعد السعود إلى الجارية، و إذا هى قد أمعنت، و هى تفتش القتلى، إذ نظر إلى رجل ينظر من مكان، فدلها عليه و إذا والدها طود[1]

(١) فى الأصل: هول.

الأطواد بن علقمة الحروب ، فأتت إليـــه ، فلما رآها ضمها إلى صدره و استخبرها عن حالها ، فأخبر بجميع ما جرى لها ، فزوجها لسعد السعود ، فحملها سعد السعود إلى ملك أبيه - انتهى .

[خبر الخنساء الشاعرة - ١]

فلنذكر الآن خبر الخنساء الشاعرة إن شاء الله تعالى - اعلم أن المرأة لو بلغت مائة سنة و قيل لها : عجوز ، عز عليها هذه الكلمة و كرهت قائلها ، و حصل لها الألم الكبير لسماعها ذلك . قال علقمة بن عبد الله : خرجت أسوق ناقة لى سمينة أريد بها حىّ قومى ، فأدركنى الليل بين أبيات أبى الشريك فنظرت فاذا للقوم عرس . فسألت فاذا هى عمرة بنت مرداس و أمها الخنساء الشاعرة ، / فدنوت من القوم ، فقلت : شأنكم هذه الناقة ، ٢٥٧/ب
فاذبحوها و استعينوا بها فى بعض ما يعوزكم . ثم جلست مـع القوم ، فلما أصلح من شأن العروسة عمرة ، أذن لنا بالدخول عليها لننظرها كجارى عادة العرب فى نظرهم إلى العرائس قبل دخول أزواجهن بهن . فدخلنا فرأيناها عروسة وسيمة جميلة جالسة على أريكة ، و هى كما قال الشاعر فى مثلها :

بدت عروس عجنوا حناءها   بمـاء ورد لم يزل ممســكا
للنقش فى معصمها حلاوة   لما علا من فوقه مشبكا

و إذا الخنساء أمها قبالتها عليها كساء خز و قد هرمت ، و هى تحد النظر إلى

---

(١) العنوان مشتق من النص و لم يرد بهامشه .

ابنتها عمرة . فقال بعضنا لبعض : كأنها و الله الآن تذكر ما كانت فيه من شبيبتها ! قال : فأومى بعضنا إلى عمرة العروسة فقال : أقسم عليك يا ابنة أخي إلا ما هيجت من أمك ! فقامت كأنها تريد أن تنصرف، فوطآت على قدمها وطأة أوجعتها[1]، فقالت : آه يا حمقاء ! فو الله لكأنما تطأين عليّ أمتا[2] و ترها[3]. أما و الله كنت أكرم منك عرسا . و أطيب منك ورسا ، و ذلك في زمني الذي كنت فيه أعجب الفتيان ، أشرب اللبن قارصا أو مخضا ، لا أذيب الشحم ، و لا أرعى البهم ، عقيلة نسوان الحي كالمهرة الصنيع ، لا مضاعة و لا عند مضيع ، و ذلك في شبيبتي قبل وقت سليبتي ، و أنا الآن في بقية العز ، أما تنظرين عليّ أكسية الخز و الأطياب ، في مفرقي فائحة ، و العيون إليّ طامحة . فتبسمنا و قلنا : إن العجوز الآن قد اشتدت همتها ، و هاجت غلمتها ، و ثارت شهوتها ، فمن فيكم أيها الجماعة يخطبها ، و من منكم لهذه الهرمة يتزوجها و يركبها ؟
ب فتضاحكوا و انصرفوا ، وقالت : ما لكم ضاحكين ؟ / خزيتم أجمعين !

و قد تكون المرأة سيئة العشرة لزوجها ، فيصير قلقا بها ، فيصير مكدا سببها ، فان صبر على لسانها نال الثواب ، و أمن في الآخرة من العذاب . كما قال المدائني في « كتاب المساهر و مساحر المسامر » :

---

(١) في الأصل : وجعتها .

(٢) أي قصدا .

(٣) ص ره : وقع في الترهات و هي الأباطيل و الدواهي .

شكا

شكا نبي من الأنبياء امرأته إلى ربه ، فأوحى الله عز و جل إليه : إني قد جعلت ذلك حظك من العذاب - انتهى .

[ما قيل فى البدويات الفاتنات - [1]]

فلنذكر الآن ما قيل فى البدويات الفاتنات الزينات .

من الجآذر فى زى الأعاريب … حمر[2] الحلى و المطايا و الجلابيب
ما أوجه الحضر المستحسنات [به - [3]] … كأوجه البدويات الرعابيب
أفدى ظباء فلاة ما [عرفن - [3]] بها … مضغ الكلام و لا صبغ الحواجيب
و لا برزن[4] من الحمام مائلة … أوراكهن صقيلات العراقيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية … و فى البداوة حسن غير مجلوب
و من هوى كل من ليست مموهة … تركت[5] لون مشيبي غير مخضوب

لاسيما الأبكار الناهدات ، و الكواعب الغنجات .

[قصة الحارث بن عمرو الكندى و بنت عوف الشيبانية [1]]

فلنذكر ما قيل فى صفة أم إلياس بنت عوف الشيبانية و ليلى بنت مالك العدرية ، و كيف صيّرت بنت عوف الحارث بن عمرو الكندى

---

(١) العنوان مشتق من النص و ليس بالهامش .

(٢) فى الأصل : حسن ، و التصحيح من ديوان المتنبي ص ٣٣٩ طبعة أمين آمدى .

(٣) زيد من الديوان ص ٣٤٠ .

(٤) من الديوان ، وفى الأصل : لا بررت .

(٥) من الديوان ، و فى الأصل : تركن .

ملك كندة بحبه لها مفتونا[١] ، وكيف صيرت ليلى بحب المجنون لها ممحونا[٢] حتى اشتهر اسمه بالمجنون . فأما عوف فوصل لما قصد ، وأما المجنون فمات بالكمد .

فلنذكر قصتهما فى محبتهما إن شاء الله تعالى - كان الحارث بن عمرو الكندى قد[٣] بلغه عن أم إلياس بنت عوف الشيبانى حسن وجمال ، وبهاء وكمال ، فهام عقله بمحبتها ، وتشوق لنظرها ورؤيتها ، فقيل له : إنها بكر عذراء ، من تزوج بها حصل له السراء . فدعا امرأة من كندة يقال لها : عصام ، ذات عقل وافر ، فقال لها : يا عصام ! قد بلغنى / عن أم إلياس /ب بنت عوف عقل وافر وحسن زائد . فصرت بها مفتونا[١] ، وبمحبتها ممحونا[٢] ، فانطلقى حتى تعلمى علم ما بلغنى عنها ، وإياك أن تقتصرى على الظن دون اليقين ، فإن كان كما بلغنى عنها تزوجتها . فانطلقت عصام حتى دخلت على أمها أمامة بنت كثير التغلبية ، فرأت امرأة كأنها خادر[٤] من الظباء ، حولها بنات لها كالغزلان الشاردات ، فأخبرتها خبر ما قدمت له ، فأرسلت أمامة إلى ابنتها أم إلياس فحضرت ، والعرب من عادتهم يكنون بناتهم[٥] من صغرهن بأم فلان ، يتفاءلون[٦] بالبنين ، كما يقال : أم البنين ، وقالت

(١) فى الأصل : مفتون .
(٢) فى الأصل : ممحون .
(٣) فى الأصل : فانه .
(٤) فى الأصل : حادل .
(٥) فى الأصل : بناتهن .
(٦) فى الأصل : يتفاولوا.

أمامة لابنتها أم إلياس : أى بنية ! هذه خالتك أتتك لتنظر إلى بعض شأنك ، فلا تسترى منها وجها و لا خلقا ، و ناطقيها فيما استنطقتك . فانطلقت عصام حتى اختلت بها ، فنظرت إلى أجمل وجه ، و أحسن خلق ، و أكمل كمال ، و أجمل جمال ، و أتم اعتدال ، فى طلاقة من لسانها ، و رخامة فى نعمتها ، فحاورتها و استنطقتها و عرفت موارد كلامها ، و مصارف[1] عقلها ، فخرجت من عندها و هى مفتونة ، كأنها مجنونة ، و هى تقول : ترك الخداع ، من كشف القناع . فأرسلت قولها ذلك مثلا تتمثل به العرب . ثم توجهت إلى الحارث .

فلما دخلت عليه قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ فقالت : صرح المحض عن الزبد . قال : أخبريني ما ذا رأيت منها شيئا شيئا حتى كأنى رأيتها كما رأيتها ؟ فقالت عصام : أيها الملك ! هى كما قال امرؤ القيس ، فقال : و ما قال ؟ فقالت : قال :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا
و لو قطعوا رأسى لديك و أوصالى

فتح الحارث أذنيه و قال : أخبريني بالله يا عصام ! فقد زدتنى فيها محبة بانشادك / هذا البيت . قالت : أخبرك حقا و صدقا ، رأيت لها جبهة ٢٥٩/ الف كالمرآة الصينية الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة[2] ، فاذا أرسلته قلت : عناقيد مضمورة ، أو خلته كالسلاسل ، أو عناقيد

(١) فى الأصل : مصارفة .
(٢) فى الأصل : المطفورة .

أجلاها الوابل ، مع حاجبين[1] كأنما خطا بقلم ، أو سوّدا بحمم ، قد تقوسا على مثل الظبية العبهرة التى لم تر قانصا و لم يذعرها قسورة ، يبهتان المتوسم إذا فتحتهما . و يجلل أجفانهما ما تحتهما ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لا[2] يخنس به قصر و لا يمعن به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ، فى محض بياض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ الملاثم ، فيه ثنايا عذاب أشر ، و أسنان كالدر ، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة و بيان ، بحركة عقل وافر ، و جواب حاضر ، تلتقى به شفتان حمراوان ، كأنهما فى اللون الزبد ، تحبلان ريقا كالشهد ، فمها كشبه رمانة ، قد شبهت بالدر النظيم أسنانه ، يتقلب فيه لسان ذو حلاوة ، دونه خراطم رقاق ، فتنة العشاق ، ركب ذلك كله على رقبة بضة ، كرقبة إبريق فضة ، تصلّب فى نحر كالمرآة ، و صدر كلوح رخام لمن رآه ، يتصل به عضدان ممتلئان لحما ، مكتنزان شحما ، متصلا بهما ساعدان ، لا يرى فيهما زندان ، ليس فيهما عظم يمس ، و لا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، و تعيب الفصوص فى حفر الأصابع ، نبت فى ذلك الصدر نهدان كالرمانتين ، يخرقان عنهما أحيانا ثيابها ، و يمنعانها[3] من تقلد سحابها ، فهما كحقى عاج ، يضىء بنورهما الليل الداح ، تحت ذلك بطن طوى كطىّ القباطى المدمجة ، كسى عكنا كالقراطيس المدرجة ، يحيط تلك

(1) فى الأصل : حاجبان .

(2) فى الأصل : لم . (3) فى الأصل : و يمعاها .

العكن سرة كمدهن العاج ، / حلف ذلك ظهر كالجدول الشجاج ، ينتهى إلى خصر نحيل مجدل ، لها كفل ككثيب ، يقعدها إذا قامت و نهضت ، و ينهضها إذا قعدت ، و قد صار كملها و نهداها يرفعن قميصها عن بطنها و ظهرها ، كما قال الشاعر فى مثلها :

أبت الروادف و النهود لقمصها مسّ البطون و أن تمس ظهورها

و كما قال الآخر يمدح بكرا عذراء :

وقاتلى بفتور الجفون و مستوفزين[1] على منبر
كحقين[2] من لب كافورة برأسيهما نقطتا عنبر

و كما قال الآخر :

و بصدرها حقان خلتهما كافورتين[3] علاهما ند

و أما سوى ذلك فانى تركت نعته ، و حسن صفته ، إلا أنه كأكمل ما وصفه قول أو شعر ، و أنت أعرف بقول الشاعر ، قال : و ما قال الشاعر ؟ قالت : إن الحياء يمنعنى أن أذكره[4] . فقال : أقسم عليك إلا ما ذكرته و وصفته ! بحياتى عليك يا عصام إلا مدحته من غير استحياء ! قالت : أما سمعت قول الشاعر فى وصفه :

---

(١) فى الأصل : مستورهن ، و قد مر البيت فى قصة الدعجاء .
(٢) فى الأصل : كحقان .
(٣) فى الأصل : كافورتان .
(٤) فى الأصل : أذكر .

و لها هَنٌ[1] كالترس صلب فما[1] يؤلمه[2] ضرب الدبابيس

و كما قال بعض الشعراء :

و التف فخذاها و فوقهما كفل[3] كتل الرمل مشتد

من تحته مستهدف جثم كالطفل حين يضمه المهد

و لها هَنٌ رابٍ مجسته ضيق المسالك حشوه وقد

وكأنه لما بدا قدح أكل العيال و كبه العبد

و الساق خرعبة منعمة علت و طوق الحجل مستد

بقدمين[4] كلسانين ، تحت [5]ساقين كعمودين[5] ، يحملان [6]فخذين لفاوين[6] .

فلما سمع الحارث وصف عصام ، هام و داوم الهيام ، و قال : و الله يا عصام ، لقد زدتني فيها غرام ، بهذا الكلام . و أرسل خطبها من أبيها ، فقال : هي جارية له على الدوام . فبعث الحارث بما يبعث به على أقدارهم

٣٦/الف الملوكُ ، فاستغنى أبوها بعد / أن كان فقيرا و صعلوك[7] . فلما جهزت و فرغ من جهازها ، دخلت عليها أمها لتوصيها و تعلمها ، فقالت : أي

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الثاني للأول .

(٢) في الأصل : يالمه .

(٣) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثاني .

(٤) في الأصل : بقدمان .

(٥-٥) في الأصل : ساقان كعمودان .

(٦ - ٦) في الأصل : فخذان لفاوان .

(٧) كذا لرعاية السجع .

بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، أو مكرمة فى حسب ، لتركتها منك ، و لزويتها عنك ، و لكنها تذكرة للعاقل ، و منبهة للغافل . أى بنية ! إنه لو استغنت امرأة عن الزوج لحاجة إليها لكنت من أغنى الناس عنه ، و لكنهن للرجال حلقن ، كما الرجال لهن خلقوا ، أى بنية ! إنك قد فارقت الحق الذى خرجت منه ، و العش الذى درجت فيه ، إلى وكر لم تعرفيه ، و قرين لم تألفيه ، أصبح لمسكه لعصمتك أميرا عليك ، فكونى أمة ، يكون لك عبدا . و احفظى عى خصالا عشرا ، تكون لك ذخرا . أما الأولى و الثانية فالصحبة له بالقناعة ، و المعاشرة له بالسمع و الطاعة ، فان فى القناعة راحة القلب ، و فى السمع و الطاعة رضى الرب . و أما الثالثة و الرابعة فالتفقد لموضع أنفه منك إلا أطيب ريح ، و اعلمى أن الكحل أحسن الحسن الموجود ، و أن الماء أطيب الطيب المفقود . و أما الخامسة و السادسة فالتعهد لوقت طعامه ، و الهدوء عنه عند منامه ، فان حرارة الجوع ملهبة ، و إن تنغيص النوم مغضبة . و أما السابعة و الثامنة فالاحتفاظ ببيته و ماله ، و الإرعاء على حشمه و عياله ، فان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، و الإرعاء على الحشم حسن التدبير . و أما التاسعة و العاشرة فلا تفشى له سرا ، و لا تعصى[1] له أمرا ، فانك إن أظهرت سره ، لم تأمنى غدره ، و إن خالفت أمره ، أوغرت صدره . ثم اتقى بعد ذلك الفرح إذا كان ترحا ، و الاكتئاب إذا كان فرحا . وكونى

---

(١) فى الأصل : تعطى .

أشد ما يكون لك إكراما ، أشد ما تكونين له إعظاما ، و أكثر ما يكون لك مرافقة ، أشد ما تكونين له موافقة . و اعلمى يا بنية أنك لن تحتوى عليه ، و لن تصلى إلى ذلك منه ، حتى تؤثرى رضاه على رضاك . و هواه على هواك . فيما أحببت أو كرهت ، و الله يخير لك - و السلام .

٢٦٠ / ب ثم إنها / حملت إلى الحارث بن عمرو ، فلما رآها أذهل حسنها و جمالها عقله و لبه ، فازداد فيها حبه . فأنشد يقول متمثلا :

كانت مسائلة الركبان تخبرنى عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى اجتمعنا فلا و الله ما سمعت أذنى بأحسن مما[١] قد رأى بصرى

ثم تقدم إليها فنفرت ، و أراد منها وصلها فتمنعت ، فأنشد لسان حاله يقول :

رقى فديتك ما المشكوّ كالشاكى ولا المهنى القرير العين كالشاكى
لا تهجرينى فحسبى ما أكابده من الغرام الذى شفته عيناك
كفّى القتال و فكى قيد أسراك يكفيك ما صنعت بالناس عيناك
جمعت أوصاف حسن غير ناقصة كأن حسنك مقرون بحسناك

ثم صرعها و عضها ، و تمكن منها و افتضها ، فعظم موقعها منه ، و غلبت عليه فأحبها حبا شديـــدا ، و ولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده - انتهى .

---

(٢) فى الأصل : ما .

[قصة مجنون ليلى – [1]]

فلنرجع إلى ذكر حال قيس بن معاذ مع ليلى بنت مالك إن شاء الله تعالى . اعلم أن الجنون فنون ، فمجنون جن بمحبوبه ، و مجنون جن بالجن ، فالمجنون بالمحبوب يصير فى محبته مكروب ، و المجنون بسبب الجن يصرع ، و يصير بجنونه مطوب . قيل : إن قيس بن معاذ المشهور بالمجنون كان قد أحب ليلى بنت مالك العامرية ، و ذلك أن ليلى كانت بديعة الجمال ، تفوق البدر فى الكمال ، بجبين كالهلال ، و عيون كعينى الغزال ، يحسبها الناظر لها شبه تمثال . فلما رآها قيس حصل له برؤيتها المحبة لها ، فهام عقله بها ، و صار كما قال الشاعر فى مثلها :

هويت من العرب الحسان خلوب
لها أسهم للعاشقين تصيب
إذا أسفرت تسبى العقول بحسنها
و من نورها كل البدور تغيب
/ عروس لها وجه حكى البدر فى الضيا ٢٦١
و طلعة [2] حسن أبرزته غريب
حوت بهجة [حسناء – [3]] يحكى شعاعها
كواكب در واقدات لهيب

---

(١) العنوان من النص و لم يرد فى هامشه .
(٢) فى الأصل : و طلعت .
(٣) زيد مما مضى من نفس الأبيات – راجع ص ٢٥٣ من هذا الجزء .

بغرتهـا البيضا أنارت فأشرقت
بضـــوء جبيـن مزهر و عجيب
بشعر حكى الليـل البهـــيم سواده
و فـــرق أراد الفجر منه هروب
لها أعـين دعـج مراض نواعس
لهن فتـــور للقلوب يذيـب
خـدود لها كالورد عنـد اقتطـافه
على الوجنات الزاهـــرات ضروب
و فى ثغرها الحاوى لآلى تنـاثرت
[1]و راح و شهـد[1] بالرضاب شنيب
لها عنق من جوهر صيغ فتنـة
و صدر بـه الرمان و هو خصيب
و قد أبرزت منها كفوفا نواعمـا
عـلى المعصمين الرابيين ركـوب
و بطن حوى أعكان فيه و سرة
كشمع من اللس اللطيف يذوب
و خصر نحيل زانهـا فيـــه رقـة
بلين وشاح قـد علاه كثيب

(١ - ١) فى الأصل : وراحا و شهدا .

و ساقان كالقضبان أضحوا فواتنا
فكم أمس أسرى لها و قلوب
بقدّ شبيه بالغصون كأنه
قضيب من الخيزور و هو رطيب
إذا خطرت تهتز عجبا و عزة
يظل بها قلب المحب كئيب
تهتك عشاقا لها بجمالها
و من حسن رؤياها النفوس تطيب
هي السؤل و هي القصد يحيي بوصلها
و من مثل ليلى للسقام طبيب
ترى يدوتى يا صاح أحظى بقربها
و تجمع شملي بالوصال قريب
على رغم حسادي و عذالى الوشاه
و في غفلة من حاسد و رقيب[1]

فعند ما رأى قيس المجنون ليلى صار بحبها مفتون، و بها ممحون، فقال من فؤاد محزون:

(١) لم نعثر على هذه القصيدة في دواوين مجنون ليلى . و قد استعملنا نشرة محمود كامل فريد (مطبعة حجازى بالجمالية) و عبد المتعال الصعيدى (شركة الطباعة الفنية المتحدة) و كلتاهما من مطبوعات القاهرة بدون تاريخ .

ألا فاشهدوا أنى سكرت بحبها
بكأسات حب لا بكأس مدام
إذا كان حد الخمر سبعين جلدة
وعشرا [1]لحد الحب[1] ألف حسام

وهو القائل أيضا:

لو لا جنونى بها ما كنت أعرف ما[2]
بين البرية بالعقل الذى نزعا
أنا هو الواله المجنون يا شرفى
إن قيل مجنون ليلى كنت مرتفعا
من لامى فى هواها تبق[3] حالته
مثلى كما قيل مجنون وقد تعا

وقيل: إن مجنون ليلى كان حبه فى الله تعالى، وكان يخفى حاله بذكره ليلى. وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى. وهو القائل أيضا فى ليلى:

٢٦/ ب / وإنى فى الهوى عبد لليلى مقيم[4] أن أرور وأن أزارا
ولو عبد أتى من عند ليلى ليركبنى لصرت له حمارا

(١-١) فى الأصل: لحدا لحب.
(٢) نقلنا الكلمة من الشطر الثانى للأول.
(٣) فى الأصل: تبقى.
(٤) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى.

ثم

ثم إنه صار يهذى بذكر ليلى فى ليله و نهاره ، و يصيح « ليلى ليلى » فشاع خبره فى الأحياء، و انتشر فى أطراف الدنيا ، و غنت بشعره القينات ، و ترنمت بأقواله النساء و البنات ، فعظم ذلك على أبى ليلى و أهلها و كبر لديهم ، و قال كل منهم : قد فضحنا قيس بن معاذ بشعره ، و حيرنا فى أمره . ثم خرج أبوليلى ، ركب ناقتـــه ، و لم يزل بها سائرا حتى أتى دمشق ، و توسل إلى أن وقف بين يدى أمير المؤمنين مروان بن الحكم[1]، و كان الخليفة يومئذ ، فشكا إليه حاله و ما يقوله قيس ابن أخيه فى ابنته من الشعر ، و أنشده شيئا من شعره فيها ، فاستحسن مروان شعر قيس و قال له : يا مالك ! إن الشعر لا يرده شيء إذا تمكن الحب فى القلب . فقال مالك : يا أمير المؤمنين ! إنه يهجم علينا ، و يهتك حجاب أعراضنا المكية ، و هتك شعره بناتنا المصونة ، و قد استجرنا بك منه ، و استعنا بك عليه ، فانا رعيتك ، وكل مسؤل عن رعيته ! قال : فأمر مروان أن يكتب كتاب[2] لعامله ، و هو الأمير على قبيلة بنى عامر حينئذ ، و هو يقول : أما بعد ! إذا ألم قيس بن معاذ بديار مالك [3] أبى ليلى[3] العامرية ، فخذه أشد أخذ ، فانى قد أهدرت[4] دمه لهم . و أعطى الكتاب لمالك بعد أن وضع عليه مروان علامته . فأخذه مالك و أتى بــه لعامل مروان ، و كان العامل من أكبر محبى قيس لرقة شعره و فصاحته و حسن

(١) مروان الأول من بنى أمية و خلافته ٦٤ - ٦٥ ﻫ / ٦٨٣ - ٦٨٥ م .
(٢) فى الأصل : كتابا .
(٣-٣) فى الأصل : ابو ليلة .
(٤) فى الأصل : هدرت .

تغزله ، وكان يطرب على سماع شعره كثيرا . فلما قرأ الكتاب قال له :
يا قيس ! لا تعد[1] تلم بديار ليلى و لا تدن منها و لا تقربها . و أوقفه / على لف
كتاب مروان ، فأنشأ يقول :

لقد حجبوا ليلى و آلى أميرها
علىّ يمينا برة لا أزورها
فكيف و قلبي فى هواها معذب
و فى مهجتى نار يشب زفيرها
و فى كبدى منها لهيب و حرقة
و قد سال من أجفان عينى زفيرها[2]
و أصبحت و لهانا كئيبا بحبها
حريق الحشى عبدا لليلى أسيرها
و فيها جفانى كل خل و صاحب[3]
فيا ليت شعرى ما يكون مصيرها
و من أين لى صبر و لا لى سلوة
و قد عدمت روحى الغداة سرورها

(١) فى الأصل : لا تعود .

(٢) تكررت الكلمة فى القافية و أغلب الظن أنها غير ذلك و لم نستطع تحقيقها من المصادر المطبوعة لقلة الوارد من مستخرجات النويرى فيها .

(٣) فى الأصل : و صاحى .

وقد أظلمت عيني من الدمع والبكا
وعنها ضياها قد نفاها ونورها
فلا تعذلوني تكسبون خطيئتي
فحالة مثلي للممات مصيرها

وقيل: إن معاذا والد قيس لما رأى حاله تغير، وقد اصفر لونه، وارتعد كونه، ورق عظمه، ونحل جسمه، من محبة ليلى، قال له أبوه: اتق الله يا بني في نفسك! واعلم أنك إن تمادى بك الحب، وأفرطت في العشق، خرجت على وجهك مجنونا، وقلبك مفتونا، وبقيت ضحكة للنظارة. فقال: يا أبت! وسيبلغ أكثر من ذلك، أتقدر أن ترد قضاء الله؟ قال والده: لا والله! ثم قال له: يا بني! ما أنا ممن يرضاها لك، لأن أمها رومية. فقال: رضيت بها يا أبت ولو كانت أمها مجوسية. ثم بكى وقال:

أيها العائب الذي عاب ليلى
قد رضينا بها بكل العيوب
والهوى يطمس العيوب جميعا
لا[1] يرى من يحب غير الحبيب

فقال له أبوه: يا بني! ما عبتها إلا حتى أزوجك بأحسن منها، وتكون أمها عربية لا رومية، فان الروميات جوار للعربيات. فأنشأ يقول:

تعشقت ليلى وابتليت بحبها
وأصبحت منها في القفار أهيم

(١) في الأصل: لم.

كلفت بها حتى أذابنى الهوى
وصير عظمى بالغرام رميم
وأصبحت فيها عاشقا ومولها
مضى الصبر منى والغرام مقيم
يقول أبى يا قيس عندى خلافها
وأكثر منها بهجة ونعيم
أرى أمها كانت من الروم أصلها
وقصدى أنا[1] أصل يكون كريم
٢٦٢/ ب /رضيت التى قد عبت يا أبتى بها
ودع أصلها بين النساء ذميم
فيا أبتى إن كنت حيا تريدنى
وترجو حياتى بينكم وأقيم
فجد لى بليلى واصطنعنى لقربها
أصير لها زوجا وأنت سليم
إلى الله أشكو حب ليلى كما شكا
إلى الله فقد الوالدين يتيم
وإن زمانا فرق الدهر بيننا
وبينك يا ليلى فذاك ذميم

---

(١) فى الأصل : لنا .

ثم

ثم صاح : وا كبداه ! وا قلباه ! وا مهجتاه ! ثم أغمى عليه ، فظن أبوه و إخوته أنه قضى نحبه ، فداروا حوله ، و لطموا به ، حتى أفاق من غشيته ، فحملوه إلى منزله ، و هو يهدر بذكر ليلى و غرامه بها و محبته لها . فانظر يا هذا من إلى مقاساة قيس فى محبته ، و غمه و غشيته ، و فتنته و محنته ، فالمحبة تشغل البال ، و تهيج البلبال .

فلنذكر ما قيل فيها إن شاء الله تعالى — سئل الشيخ تاج الدين عن المحبة فقال : أغصان تغرس فى القلب ، فتثمر على قدر العقول ، و أنشد يقول :

غرست لأهل الحب غصنا من الهوى
و لم يك يدرى ما الهوى أحد قبلى
فأورق أغصانا و أينـــع صبوة
و أعقب لى مرا من الثمر المحلى
فكلَّ جميعَ العاشقين هواهم
إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

و قيل : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شىء . و قيل : المحبة إيثار المحبوب على كل مصحوب . و قيل : المحبة نار فى القلب ، تحرق ما سوى مراد المحبوب .

جلس أبو بكر الشبلى فى المارستان ، فدخل عليه أحباؤه ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : أحباؤك يا أبا بكر ! قال : فأقبل يرميهم بالحجارة ففروا ،

فقال : إن ادعيتم محبتى فاصبروا على بلائى .

و قيل : إن شابا أشرف على الناس فى يوم عيد من سطح فقال : من مات عشقا فليمت هكذا ، لاخير فى عشق بلا موت . و ألقى نفسه من السطح ، فوقع ميتا . و قيل : / إن بعضهم كتب قصة لبعض الخلفاء يسأله[1] ٢٦٣ / الف فيها أن يسمعه فلانة جاريته شيئا من الشعر على عودها ، وأقسم عليه فى القصة بذلك . فقال : أحضروه . فحضر . فقال : ما حملك على ما ذكرت فى قصتك ؟ أما خفت عقوبتى لاجترائك على ما واجهتنى به ؟ قال : هوى غلب علىّ فأعمى عينىّ[2] ، و أطرش أذنى[3] ، و هيج منى ما أعدمنى عقلى . فلما سمع الخليفة منه ذلك رحمه و قال : اجلس . فجلس ، و أمره بتلك الجارية التى ذكرها أن تحضر معها عودها ، فحضرت به ، فأمرها بالجلوس فجلست ، فأمرها أن تغنى بما يقوله لها الفتى . فذكر لها الفتى أبياتا ، فغنتها على عودها ، فلما فرغت من غنائها ، قام الفتى على قدميه ، و مضى إلى مهواة فى القصر ، فرمى بنفسه فيها على أم رأسه فمات . فضرب الخليفة يدا على يد و قال : لا حول و لا قوة إلا بالله العلى العظيم ! أزعم الجاهل أنى كنت أردها إلى قصرى بعد أن أخرجتها ! و نظر إليها [فقال-[4]] : و لو صبر وهبتها له ، فانى فهمت منه ، ما طلبها لينظرها و يسمع غناءها إلا

(١) فى الأصل : يسال .
(٢) فى الأصل : عيناى .
(٣) فى الأصل : اذناى مسامعى .
(٤) ساقطة من الأصل .

أنه

أنه كان محبا لها و هي محبة له قبل ابتياعي إياها، فلو صبر أخذها مع نفقة جزيلة. ثم أمرها بالدخول إلى قصره، فلما دخلت القصر قال: أرجعوها، فانها لم تنتفع بالعيش بعده من حزنها عليه لألفها به فيما تقدم، وبيعوها و تصدقوا ثمنها عنه.

و قيل: راود خطاف خطافة فى قبة سليمان عليه السلام، فامتنعت عليه. فقال لها: لم تمتنعين منى؟ و إن شئت قلبت القبة على سليمان. وكان سليمان يفهم منطق الطير، فدعاه و قال له: أنت القائل كذا و كذا؟ فقال. يا نبي الله! إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم، / و المحبون ٢٦٣
لا يلامون فيما يقولون.

و قال بعضهم: سمعت سمنون و هو جالس يتكلم فى المحبة، إذا بطائر صغير، فقرب منه ثم قرب، فلم يزل يدنو حتى جلس على يده، ثم ضرب بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم ثم مات - انتهى.

نعود إلى أخبار مجنون ليلى و ما قاساه فى محبته لها من العناء و البلاء - حدث رجل من بنى عامر يقال له رياح بن حبيب قال: استعمل أمير المؤمنين مروان بن الحكم رجلا من قريش يقال له عمرو بن عوف على صدقات حى[1] بنى عامر، فلاقاه المجنون فامتدحه بأبيات، فأعجبه شعره فأراد عمرو الخروج إلى حى بنى عامر فقال له المجنون: أسألك حاجة إن قضيتها لى قضى الله لك بها ألف حاجة! فقال له عمرو: و ما حاجتك

(١) فى الأصل: طى.

يا قيس ؟ قال : أريد منك أن تأخـذنى إلى حى بنى عامر ، فانهم بنو عمى و أهلى و قومى ، فأتفرج و أنشرح و أزيل همى و غمى . فقال له : حبا و كرامة يا قيس ! و مضى من عنده ، فبلغ رهط قيس ذلك ، فأتوا إلى عمرو بن عوف و قالوا له : الحذر الحذر أن تدخل بقيس إلى حى بنى عامر ! فانهم مترقبون[1] أن يأتيهم الى الحى . فقال لهم عمرو : و ما سبب ذلك ؟ قالوا : لأن فى الحى جارية يقال لها ليلى ، هى ابنة عم قيس ، وهو لها محب و بها وامق ، و قد شغف[2] بها حبا ، و أضحى فى محبتها كئيبا صبا ، و لو لا هو بها مفتون ، ما سمى بالمجنون ، و إن أباها حجبها عن العيون ، خوفا على عرضه من الظنون ، و قد منعوه من المسير إليهم و القدوم عليهم ، فأتاهم فردوه ، ثم عاد فطردوه ، ثم عاد فهددوه ، ثم عاد فتوعدوه ، فلما زاد أمرهم و شاع فى أحياء العرب ذكرهم ، مضى أبوها الى أمير المؤمنين مروان ، فوقف إليه ، و أظهر سره عليه ، و قال : إن لى ابن أخ قد سطا علينا بفصاحته و بلاغته ، و قد أتلف عرضنا ، فأخرجناه من أرضنا ، و عاد فطردناه ، و عاد فمرّ الكلام أسمعناه . فلم يرتد عنا

٢٦٤/الف / و لم يرجع و نحن حائرون[3] فى أمره . فلما سمع مروان كلام مالك أبى[4]

(١) فى الأصل : مترقبين .

(٢) فى الأصل : أشغف .

(٣) فى الأصل : حايرين .

(٤) فى الأصل : أبو .

ليلى

ليلى ، أجابه للمساعدة عليه ، ثم كتب لعامله المتصرف كتابا يهدر دم قيس حيثما أتاهم ، و حيثما لاذ بحيّهم أو دنا منه ؛ فلا تتعرض بأخذك له ، و لا تستصحبه معك لحيهم ، فتكون سبب إراقة دمه . فلما سمع عمرو ذلك ، رجع عن رغبته فى وصول قيس إلى حى بنى عامر ، فلما أتاه قيس يرجو إنجاز وعده بمضيّه معه ، قال : يا عمرو ! أنجز وعدى ، و بلغنى قصدى ، بدخولى معك إلى حى قومى و عشيرتى و بنى عمى ، فقال له عمرو : ما يمكنى ذلك يا قيس ! ثم أمر له بعشر نوق حمر الوبر سود الحدق . قال : فردها قيس عليه و لم يقبلها ، و غضب لخلف وعده ، و أنشأ يقول :

و لما [1]لم يف[1] عمرو بوعدى ... و أظهر بعد تقريبى صدودى
و أعرض و استحال الود منه ... و أوعدنى و لم يوف[2] وعودى
و عوضنى بعشر من قلاص ... تروقك[3] فى الصدور و فى الورود
فلم أرض بها حنقا و غيظا ... و قلت ردها يا نفس جودى
رددت قلائص القرشى لما ... رأيت النقض منه للعهود
و راحوا مسرعين و خلّفونى ... عديما من فراقهم وجودى

فلما أيس المجنون من الخروج صحبةَ عمرو ، أقطع[4] يأسه ، و زاد

(١) فى الأصل : يفى .
(٢) فى الأصل : لم يوفى .
(٣) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .
(٤) وقع فى الأصل : انقطع ـ مصححا .

وسواسه ، و ضعف إياسه ، و ضاقت أنفاسه ، و صار لا يسمع و لا يعي و لا يأكل و لا يشرب إلا إن ذكرت له ليلى . قال ابن داب : ثم إن عمرو بن عوف[1] عزله أمير المؤمنين مروان عن الصدقات ، و ولى بعده رجل يقال له نوفل ، و كان رجلا أديبا فاضلا لبيبا شاعرا ماهرا . فبينما هو جالس ذات ليلة عشية النهار ، و الإبل ترد الماء بالقرب من حي ليلى ، إذ أقبلت إبل كثيرة ، و معها فتى نحيل الجسم ، مصفر اللون ، بادى السقام ، و هو يتنفس الصعداء ، و يتأوه كمدا ، فأقبل مسرعا حتى كرع
٢٦٤/ب مع الإبل ، فلما رآه نوفل قال لغلامه : ائتنى بهذا الفتى / الأشعث الأغبر الحال . فقال له الغلام : يا مولاى ! ما تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا قيس بن معاذ المعروف بمجنون ليلى العامرية الذى هام بحبها ، و ما فاز بقربها ، و صار بها مفتونا ، إلى أن بقى مجنونا ، و إنه كثير الإنشاد فيها ، و له شعر رائق ، و أدب فائق . فقال نوفل : خذ ثيابى هذه فأفرغها عليه . قال : يا مولاى ! كان يمزقها ، فإنه لا يقبل من أحد شيئا ، و لا يأكل لأحد شيئا ، حتى تذكر له ليلى ، فإذا ذكرت له فعل ما يراد منه . قال : فبينما هو يخاطبه فى حديثه ، إذ أقبلت أخت قيس ، و هى كالقمر حسنا و جمالا ، و بيدها إناء فيه طعام ، فوقفت على رأسه ، و كلمته فلم يتكلم ، ثم نادته ثانيا فلم يتكلم . فأنشدت تقول ، بنغمة تسبى العقول :

ألا إن ليلى العامريـــة أصبحت تروم رضا قـيس و إن كان نائيا

(١) فى الأصل : عامر .

فلا تعتبوا قيسا على حبه لهـا ... ولا تعتبوا ليلى لطول التجافيا
فان عليها أهلها رقبا لهـا ... وقد أصبحوا من أجل قيس أعاديا
سقى الله جارات لليلى تتابعت ... بهن النوى حتى طوين المطاويا

فلما سمع المجنون تكرار ذكر ليلى، رفع رأسه إلى أخته وهى تنشد، ثم وضعه[1] على التراب. فقالت أخته: يا قيس! ارفع رأسك، فهذه ليلى واقفة. فرفع رأسه وقال: أين هى؟ فقالت: الساعة تأتى فكل. فاذا جاءتك فوجدتك تأكل فرحت. فأكل حتى شبع، فحينئذ رفعت أخته الإناء من بين يديه وتركته، وانصرف قيس فصرخ فى الإبل، فسعت وسعى خلفها سعيا حثيثا. فقال نوفل: والله ما سمعت بمثل هذه الحكاية ولا أعجب منها. فقال لغلامه: ما تكون هذه المرأة الجميلة التى أنشدت المجنون وأطعمته الطعام حتى اقتات؟ قال: يا مولاى! هى أخته. فقال نوفل: أود لو جلست معه وحادثته وسمعت شعره! فقال له: / يا مولاى! إنه يرجع مع الإبل حين ترد الماء، فان أردت ٢٦٥/أ
أن تسمع كلامه، أو تستنشد نظامه، فاحفظ الأبيات التى قالتها أخته. قال: قد حفظتها حين سمعتها منها. فقال: إذا ورد مع الإبل غدا فأنشده إياها، فانه يكلمك. فلما كان من الغد، أقبلت الإبل وقيس يحدو لها وهى سائرة. قال: فدنا منها نوفل وأنشد الأبيات. فرفع قيس رأسه إلى نوفل وقال له: من أنت يرحمك الله! فقال: أنا نوفل

(١) فى الأصل: وضع.

المتولى على الصدقات . ولم يزل نوفل[1] يلاطفه و يؤانسه حتى أنس به و مال إليه، فسأله نوفل عن أصل محبته لليلى و كيف تمكن هواها منه بعد ما كان شغفا، فصار تلفا ، و كيف ابتلى بهواها و جفاها . فقال قيس: إنه كان ولعا ، ثم صار طمعا ، ثم صار لذة، ثم صار شدة، ثم صار شغل بال، ثم صار فكرة و خبال ، ولم يزل على استرسال ، حتى زال العقل و زال، و استقر الجنون، و دنا المنون . قال: فرقّ له قلب نوفل و رحمه ، و رثى له ، و أمر له بكسوة حسنة ، و سأله قبولها منه، ففعل و لبسها ، ففرح نوفل بذلك ، و قال له: يا قيس! أتريد أن أزوجك بليلى؟ فقال: و من لى بذلك؟ فقال: امض معنا إلى أبيها، و نحن نخطبها منه . و نعطيه عنك ما يطلب، قال: أو يُفعَل ذلك؟ قال: نعم ، قال: فأنشدنى من شعرك! فأنشأ يقول:

قال العواذل لما أن رأوا تلفى
فى حب ليلى و قد أصبحت متبول
ما بال قلبك لا ينفك من شغف
و دمع عينيك فوق الخد مسبول
و أنت يا قيس [2]مشغوف بمعشقها[2]
و صرت فى حبها يا قيس مهبول

(١) فى الأصل: نوفلا .
(٢) فى الأصل: مشغوفا بعشقها .

فقلت ليلى حياتى لو حظيت[1] بها
فان ليلى المنى و القصد و السول
ليلى التى غيرت حالى بهجرتها
و صيرت خاطرى بالبين مشغول
فمن يلم مهجتى فى فرط معشقها[2]
يزيدنى ولعا فيها و تخيل
قلبى بها كلف و النفس فى عدم
إن شئتم فاقصروا فى العذل أو طيلوا

/ فلما فرغ من إنشاده، قال له نوفل: أحسنت و الله يا قيس! ثم إنه ٦٥' استصحبه معه إلى ديار ليلى، فلما نظر[3] القوم نوفلا[4] قد أقبل عليهم بجماعته و قيس معهم، لبسوا أسلحتهم و خرجوا لقتال نوفل، و قالوا له: يا نوفل! إنك أتيتنا بما لا نريد، و إنا لا نلبس العار لأجلك، فان قيسا قد هتك أعراضا بقوله الشعر فى بناتنا، و قد شكوناه لأمير المؤمنين و أهدر[5] لنا دمه، و أباحنا قتله، فما مساعدتك له علينا؟ قال نوفل: ما جئت به إلا خاطبا راغبا، و لكم من المهر ما طلبتم و اخترتم، و أنا لكم موافق فيما تطلبون منه، قائم[6] بكل ما أحببتم عنه. فقالوا:

(١) فى الأصل: حضيت.
(٢) فى الأصل: عشقها، و يستقيم الوزن بما أثبتناه.
(٣) فى الأصل: نظروا. (٤) فى الأصل: نوفل.
(٥) فى الأصل: هدر.
(٦) فى الأصل: قائما.

هذا أمر لا يكون أبدا! فلما أيس نوفل من قلة قبول القوم قوله فى قيس، التفت إلى المجنون و قال له: يا قيس! سمعت ما قلت للقوم و ما قالوه. قال: فتركه قيس و مضى، و عاد إلى ما كان عليه من الوجد و الهيام، و التوله و الغرام. ثم إن رجلا[1] من العرب يقال له فلان الكلبى خطب ليلى، فزوجها أبوها له، فبلغ المجنون ذلك، فهام على وجهه، واندهل فى عقله، و زاد به الحال، و انطلق فى قلبه النار، فأنشأ يقول هذا:

أعالج من نفسى بقايا حشاشة
على رمق و الروح فىّ تجود
و فى لحد عشقى قد دُفِنْت و لم تزل
قبور محبين الملاح لحود

و قيل: جلس يوما[2] مع جماعة من قومه يصطلى على جمر فى يوم شات، فبينما هم كذلك و إذا بزوج ليلى الكلبى قد أقبل إلى الجمع يتدفأ معهم، فلما جلس رفع المجنون طرفه و أنشأ يقول:

بحقك هل ضممت إليك ليلى
قبيل الصبح أو قبّلت فاها
و هل رفت[3] عليك قرون ليلى
رفيف[4] الأقحوانة فى نداها

(١) فى الأصل: رجل.
(٢) فى الأصل: قوم.
(٣) من الأغانى ٢/٢٤، و فى الأصل: رمت.
(٤) من الأغانى، و فى الأصل: رقيق.

فقال الكلبي : أما أنا إذا أقسمت عليّ فنعم ، فقبض المجنون بكفيه قبضتين من الجمر و طبق عليهما ، / فما أرسلهما إلا و لحمهما قد سقط مع ٦٦
الجمر ، [1]فلام الحاضرون قيسا[1] على فعله ذلك . فقال :

فلا تعذلوني في الخطار بمهجتي
هوى كل نفس أين حل حبيبها

فقالوا لزوجها : قم عنا . فنهض[2] قائما و مضى إلى حال سبيله ، فأنشد المجنون يقول :

أيا بعل ليلى هل لك الآن أن ترى
شبيها لليلى في البرية ناشيا
أيا بعلها الكلبي لا عشت سالما
و لا زلت طول [الدهر-[3]] تلق الدواهيا
تداويت من ليلى بليلى فلم أجد
سوى حب ليلى من بلاى مداويا

[خبر كثير عزة و اجتماعه بالمجنون -[4]]

فلنذكر الآن خبر كثير عزة [و اجتماعه بالمجنون ، و ما قاسى هو في محبته لعزة من الفتون و الغبون - كثير عزة[5]] أحد عشاق العرب ،

(١-١) في الأصل : فلامت الحاضرون قيس .

(٢) في الأصل : فنهظ .

(٣) ساقطة من الأصل .

(٤) العنوان مشتق من النص ، و ليس في الهامش .

(٥) الجملة المحجوزة ساقطة من الأصل و وردت في هامشه بقلم المراجع .

له فى عزة أشعار كثيرة ، فمن ذلك قوله فيها هذا :

قضى كل ذى دين فوفى غريمه
وعزة ممطول معنّى غريمها

يقال : إن عزة دخلت على أم البنين زوجة عبد الملك أمير المؤمنين فقالت لها : أرأيت قول كثير فيك ؟ و أنشدتها البيت المذكور ، [فقالت - [1]] ما كان هذا الدين يا عزة ؟ قالت : وعدته قبلة فخرجت منها . فقالت أم البنين : أنجزيها و علىّ إثمها .

و كان لكثير غلام عطار بالمدينة ، و ربما باع نساء العرب بالنسيئة ، فأعطى عزة - و هو لا يعرفها - شيئا من العطر فماطلته أياما و حضرت إلى حانوته فى نسوة فطالبها ، فقالت : حبا و كرامة ، ما أقرب الوفاء و أسرعه ! فأنشد الغلام متمثلا :

قضى كل ذى دين فوفى غريمه
وعزة ممطول معنى غريمها

فقالت النسوة : أ تدرى من غريمتك ؟ فقال : لا و الله ! فقلن : هى و الله عزة . فقال : أشهدكن الله أنها فى حل مما لى قبلها . ثم إنه مضى إلى سيده فأخبره بذلك . فقال : و أنا أشهد الله أنك حر لوجهه و لك جميع ما فى حانوت العطر . فكان ذلك من عجيب الاتفاق .

و لكثير فى مطالها بالوعد شىء كثير ، فمن هذلك قوله هذه

(1) ساقطة من الأصل .

الأبيات :

/ أقول لها عزيزُ مطلت ديني ٦ا

و شر الغانيات ذوو المطال

فقالت ويح غيرك[1] كيف أقضى

غريما ما ذهبت له بمال

و روى أهل الأخبار أن عزة هجرت كثيرا[2] مدة لم تره حتى كانت فى الحج ، فلما قفل الناس من منى و هى مع قومها ، لقيت كثيرا راكبا جملا مع جملة الناس ، فحيت الجمل و لم تحى كثيرا ، فأنشد كثير يقول :

حيتك عزة بعد الهجر و انصرفت

فحى ويحك من حياك يا جمل

ليت التحية كانت لى فأشكرها

مكان يا جمل[3] حييت يا رجل

معنى تحيتها أنها قالت : السلام عليك يا جمل ! و لم تقل : يا كثير ، خوفا على نفسها من قومها .

قال بعض مسامرى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : كنت جالسا ذات يوم فى حضرة عبد الملك إذ دخل عليه الحاجب يستأذنه فى دخول كثير عزة عليه ، فأذن له فحضر ، فسلم بالخلافة و وقف ،

(١) من وفيات الأعيان ٣/٢٦٧ ، و فى الأصل : عزك .
(٢) فى الأصل : كثير .
(٣) من الدر المنثور ص ٣٤٤ ، و فى الأصل : جملا .

فقال له عبد الملك: أنت كثير عزة؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! قال: سمعت أنك قلت فيها شعرا، فأنشدنا منه شيئا. فأنشأ يقول هذه الأبيات:

خليلىّ هذا ربع عزة فأنزلا قلوصيكما[1] ثم انزلا حيث[2] حلت
و مسّا[3] ترابا كان قد مس رجلها و باتا و قيلا حيث قالت و باتت
و فى وصل من تهوى هواها[4] اسألا بها[4] و قولا لها عن حالتى و تشتقى
و قولا لها ذاك المعنّى بحاله و لا تنسيا أنى أموت بحسرتى
و ما كنت أدرى قبل عزة ما البكا و لا موجعات القلب حتى تولت
لقد بخلت حتى لو أنى سألتها قذى العين من سافى التراب لضنت[5]
يقر لعينى ما يقر لعينها و أحسن شىء ما به العين قرت
فللعين إهمال إذا ما ذكرتها و للنفس وسواس إذا ما تجلت
و فى حبها أنى سقيم متيّم حليف[6] الأسى دامى الجفون لشقوتى

فقال له عبد الملك: إن شعرك يبكى العيون يا كثير! فهل فعل العشق

(١) من الأغانى ٩/٢٨٠، و فى الأصل: قلوصكما.
(٢) من الأغانى، و فى الأصل: حين.
(٣) فى الأصل: بوسا ـ و لا معنى له.
(٤ - ٤) فى الأصل: استلابها.
(٥) فى الأصل: لظنت.
(٦) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى.

بأحد من المتيمين ما فعل بك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! قال: من هو؟ قال: أعلمك يا أمير المؤمنين أنى خرجت ذات يوم على نجيب لى، فلما سرت به و صرنا فى وسط البرية، و إذا أنا بانسان جالس على تلّ من الرمل يتكلم وحده، و يجيب نفسه / بنفسه، و لا يلتفت إلى أحد، و هو ٦٧ نحيف الجسم، مصفر اللون، أشعث مسبول، لا يكاد ينظر من قدامه و لا خلفه، قال: فدنوت منه و سلمت عليه، فرد علىّ السلام. فقلت له: إنسى أم جنى؟ فقال: ولم ذلك؟ و ما أنكرت من حالى؟ قلت: إنى رأيتك فى هذه البرية وحدك بين هذه الوحوش النافرة، و الضباع الكاسرة، و أنت بينهم جالس، و بوحدتك مستأنس. قال: فنظر إلىّ مليا، و أجال بصره قويا، و أنشأ يقول:

أنست لوحدتى حتى لو أنى رأيت أبى إذا لمررت منه
و لم تدع التجارب لى صديقا أميل إليـــه إلا ملت عنـه

قال: فأقمت عنـده ثلاثة أيام، و هو كلما اصطاد ظبية أطلقها. فلما أردت الانصراف عنه، قلت له: أريد [أن-[1]] أعرف من أنت! قال: جعلت فداك! أنا قيس بن معاذ، قتيل حب ليلى. قلت: أنت المجنون بحب ليلى؟ قال: نعم، أنا ذاك و قد عرفتنى، فمن أنت حتى أعرف أنا. قلت: أنا كثير عزة. قال: إنك صاحب عزة؟ قلت له: نعم، فقال: الحمد لله الذى جمع بينى و بينك، لقد كنت مشتاقا إلى لقائك. فلعلك

---

(١) ساقطة من الأصل.

أن تمضى معى إلى الحى لأقضى من حقك ما يجب قضاؤه . قال : فأتيت معه إلى منزله ، فقال له أبوه : يا بنى من هذا ؟ فقال : يا أبت ! هذا كثير عزة ، فعجل يا أبت باكرامه . قال : فهيا لنا أبوه ضيافة هائلة ، و نحر لى جزورا ، و قال : أنتم المساكين العشاق المتيمون[1] . و لما رآه[2] أهله قد أنس بقربى ، قالوا : يا كثير ! إن قيسا أنس بك و بقربك ، فلعلك تعزله عن هوى ليلى و غرامه بها ؟ فقلت له : يا أخى ! يا قيس ! أقصر من ذكرك لليلى و أقل مما أنت فيه من هواها ، و دع ذكراها . قال : فنظر إلىّ و استغرق ، و بكى و تشهق ، و دمعه تدفق ، و قلبه يخفق ، و أنشأ يقول :

رأيت فتى أمسى يفارق قلبه أ تصلح أحشاء بغير قلوب
أيا ليل أعيانى هواك و هدّنى و دائى أعيى طب كل طبيب

٢٦/ ب / ثم إنه أعطانى أكتافه و ولى . قال : فبقيت حائرا فى أمره ، متعجبا فى فعله . ثم انصرفت يا أمير المؤمنين و أنا متفكر فيه و فيما أصاره الهوى إليه . فتعجب أمير المؤمنين عبد الملك مما سمع ، و خلع[3] علىّ خلعة سنية ، و أجازنى جائزة حسنة و صرفنى .

قال إبراهيم بن عبد الله : خرجت إلى أرض بنى عامر أطلب قيسا[4]

(١) فى الأصل : المتيمين .
(٢) فى الأصل : رأوه .
(٣) فى الأصل : اخلع . (٤) فى الأصل : قيس .

المجنون ، فلما أتيت أرضهم ، استدللت على حيهم ، فأتيته فاذا أبوه شيخ كبير و إخوته كهول ، فنزلت عندهم و سألتهم عن قيس المجنون ، فقال أبوه : لقد كان أبر أولادى حتى عشق جارية من بنات قومه يقال لها ليلى ، و كانت لا تطمع فى مثله ، فلما فشا أمره معها ، كره أبوها أن يزوجها له ، فتشوش[1] بحبها ، و اعتراه الجنون لأجلها ، و خرج هائما على وجهه فى القفار ، و ألف الوحش و ألفته ، و صار مجنونا بها ، و زوجها أبوها برجل من بنى كلاب ، فحملها الكلبى إلى أهله ، و بقى قيس فى القفر هائما بوجده ، و قد ألفه الوحش لطول مقامه بينها ، و ربما ذهب بعض إخوته بطعام فأبى أن يأكله ، و يتركه بعيدا منه ، تارة يأكله و تارة يتركه ، و يأكل من نبات الأرض و عشبها . قال إبراهيم : فقلت لهم : قصدى رؤيته . فمضوا معى ، فطفنا الجبال ، وكثبان الرمال ، فبينما نحن سائرون[2] ، و عليه دائرون[3] ، إذ رأيناه جالسا على تل عال من الرمل و الغزلان حوله ترتع ، و هو بالحصى يولع ، و قد خط على الرمل بإصبعه هذه الأبيات :

ألا أيها القصاد نحوى ليعلموا ... بحالى و ما أصبحت فى القفر أصنع
ألم يعلموا أن القضا قد ألفته ... و أن وحوش القفر حولى ترتع

---

(١) فى الهامش : فتوسوس .

(٢) فى الأصل : سائرين .

(٣) فى الأصل : دايرين .

و عيشك آتى حيلة غير أننى بلقط[1] الحصى والخط فى الرمل مولع
٢٦٨/الف / و أن وحوش البر يسأتلفون بى ذكور و أنثى ثم خشف و مرضع
وهذا مقامى فى الفلاة و وحدتى وعشقى لليلى للهموم مجمــــع

فلما رآه أبوه و إخوته على هذا الحال ، بكوا رحمة له ، و رقوا لحاله و ما حل بـه من غرامه بليلى و ما صار إليه من الجنون ، بعد العقل و السكون . فقال له أبوه : يا بنى ! و بلغ بك الحب إلى ما أرى و تركت أهلك ، و أذهبت عقلك ، و سكنت القفار ، بعـد المنازل و الديار ، و رتعت مع الوحش النافر ، و لزمت الهواجر فى المحاجر ! و إن دمت يا قيس على ما أنت عليه ضربت بك الأمثال ، و تحدث بأمرك النساء و الرجال ، و شاع ذكرك فى الأقطار و البلاد و المنازل ، و تحدثت بك البنات عـلى المغازل . فقال : يا أبت ! إن دام علىّ هجر ليلى لأعدمن نفسى و قولى ، و قوتى وحولى ، و هذا كله قليل فى حب ليلى . فقال له رجلان[2] من القوم مازحان معه : ماتت ليلى و أنت بالحياة . فلما سمع منهما ذلك ، صرخ صرخة عظيمة ، و وقع مغشيا عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

أيا ناعيا ليلى أما كان واحد[3] من الناس ينعاها[4] إلىّ سواكما
فلا عشتما إلا حليفا بليـــة و لا متّما حتى اشترى كفنا كما

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .
(٢) فى الأصل : رجلين .
(٣) فى الأصل : واحدا . (٤) فى الأصل : يناعاها .

قال إبراهيم: فوثبت إليهما و شتمتهما و أوسعتهما سبا، و قلت: لا جزاكما الله خيرا! ما كفاه ما هو فيه حتى أحزنتماه و قلتم: ماتت - وهى بالحياة، لقد قتلتماه. ثم إن المجنون مثّل قبرا فى الرمل وكنس حوله. و جعل يقول:

أيا قبر ليلى لا شنأت و لم تزل ... بلادك يسقيها من الوابل الديم
و يا قبر ليلى إن فى القلب غصة ... تكاد الحشا منها على النار تضطرم
و يا قبر ليلى كم جمال حميته ... وحسبك[1] منها من كمال ومن كرم
و يا قبر ليلى إن ليلى دفينة ... بلحدك[1] لا خال شهدها ولا ابن عم

/ ثم إنه تنفس الصعداء و أنّ كذا، و شهق شهقة عظيمة، و خفتَ أنينه، و سكت حنينه، فأتيت لأحركه أو لأقيمه، فوجدته قد قضى نحبه، و لحق بربه. فلما بلغ ليلى موته بكت و لطمت و صرخت و باتت تلك الليلة فى بكاء و عويل، و حزن طويل. فلما كان الصباح خمد حسها، فأتوها فوجدوها قد ماتت، فأتى أهل الحى لأبيها، يعزونه فيها، إذ سمعوا صوتا، ولم[2] يروا شخصا، و هو يقول: /٢٦٨

يا بنى عامر مضى العاشقان ... [3]واستراحا[3] من ذلة وهوان
قد بكى الجن و الأناس لقيس ... و بكته وحوش كل مكان
إن يكونا فى هذه الدار قاسوا ... [3]من بلاء[3] الهجر و الأحزان

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى.

(٢) فى الأصل: و لا.

(٣-٣) نقلنا الكلمتين من الشطر الأول للثانى.

فهما اليوم فى جنان من الخلد   كريمان[1] عند ذى الغفران .

و قيل : كان مجنون ليلى من الصالحين المحبين لله تعالى ، و كان هواه بليلى سترا لحاله . قال ابن الفارض فى معنى ذلك :

فكل مليح حسنه من جمالها   معار له أو حسن كل مليحة
بها قيس لبنى هام بل كل عاشق   كمجنون ليلى أو كثير عزة
و يظهر للعشاق فى كل مظهر   من اللبس فى أشكال حسن بديعة
ففى مرة لبنى و أخرى بثينة   و آونة تدعى بعزة عزت[2]
ولسن[3] سواها لا[4] و لا كُنّ[4] غيرها   و ما ان لها فى حسنها من شريكة
و ليسوا سوائ[5] فى الهوى لتقدم   علىّ لسبق[6] فى الليالى القديمة
و ما القوم غيرى فى هواى و إنما   ظهارى[7] بهم للّبس فى كل هيئة
ففى مرة قيس و أخرى كثير   و آونة أبدو جميل[8] بثينة

(١) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

(٢) من هامش ديوان ابن الفارض ١/١٩٧ طبعة الأزهر ، و فى الأصل : عزة .

(٣) من هامش الديوان ، و فى الأصل : ليس .

(٤-٤) من هامش الديوان ، و فى الأصل : و لكن .

(٥) فى هامش الديوان : بغيرى .

(٦) من هامش الديوان ، و فى الأصل : اسبق .

(٧) فى هامش الديوان : ظهرت .

(٨) من هامش الديوان ، و فى الأصل : جمال .

تجليت[فيهم -[1]]ظاهرا واحتجبت با … طنا[بهم -[1]]فاعجبْ لكشف بسترة

و ما زلت إياها و إياى لم تزل … و لا فرق بل ذاتى لذاتى أحبت

إذا أسفرت[2] فى يوم عيد تزاحمت … على حسنها أبصار كل قبيلة

فأرواحهم تصبو لمعنى جمالها … و أحداقهم من حسنها فى حديقة

و عندى عيدى كل يوم أرى به … جمال مُحيّاها بعين قريرة

و كل الليالى ليلة القدر إن بدت[3] … كما كل أيام اللقا يوم جمعة

/ و سعيى لها حج به كل وقفة … على[4] بابها قد عادلت كل وقفة ٢٦٩

و أى بـلاد الله حلت بها فما … أراها و فى عينى حلت غير مكة

و أى مكان ضمها حرم كما … أرى[4] كل دار أوطنت دار هجرة

و ما سكنته فهو بيت مقدس … بقرة عينى فيه أحشاى قرت

و مسجدى الأقصى مساحب بردها … و طيبى ثرى أرض عليها تمشت

فلـى فيها كله[5] سحر إذا … سرى[4][لى -[1]] منها فيه عرف نسيمة

و إن طرقت ليلا فشهرى كله … بها[4] ليلة البدر انتهاجا بزورتى[6]

---

(١) زيد من هامش الديوان .

(٢) من هامش الديوان ، و فى الأصل : سمرت .

(٣) فى هامش الديوان : دنت .

(٤) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

(٥) من هامش الديوان ، و فى الأصل : كل .

(٦) من هامش الديوان . و فى الأصل : بزورة .

و إن قربت داری فعامی کله   ربیع اعتدال فی ریاض أریضة
و إن رضیت عنی فعمری کله   زمان الصبا طیبا و [1]عصر الشبیبة[1]

و فی بضع و أربعین و أربعمائة[2] توفی المجنون البغدادی الذی رآه الشبلی عند جامع الرصافة يقول: أنا مجنون الله. فقال له الشبلی: لا تستتر و تدخل الجامع و تصلی، فأنشأ يقول:

یقولون زرنا و اقض واجب حقنا
و قد أسقطت حالی حقوقهم عنی
إذا هم رأوا حالی و لم یألفوا لها
و لم یأنفوا منها أنفت لهم منی

مر القاضی بكار فی بعض الطرق، فرأی مجنونا و الصبیان یضربونه بالحجارة. فقال القاضی بكار: كفوا عنه. فقالوا: إن هذا یزعم أنه رأی ربه. فقال: أحق ما قال هؤلاء؟ فقال له: و أظنك من جملة الصبیان. فقال القاضی بكار له: إن كنت صادقا فمن أنا؟ قال: أنت بكار بن قتیبة الذی علقت قیود الناس فی عنقك. فحرك القاضی بكار رأسه و بكی و مضی و تركه - انتهی.

فلنذكر الآن ما قیل فی شرح حال سمنون المحب إن شاء الله تعالی - [قال له قومه -[3]]: یا سمنون! المحبة نار تذیب الفؤاد، و تفتت الأكباد،

(١-١) من هامش الدیوان، و فی الأصل: عطرا لشیبة.
(٢) سنة ٤٠٤ هـ یقابلها ١٠٤٨ - ١٠٤٩ م.
(٣) زید لاستقامة العبارة.

و تسلب الرقاد، و تحرق الأجساد، و تلعب بالعقول، و تدمر الفحول، فان كنت كما تقول، فأين الذبول؟ و أين النحول؟ فلو كان قلبك محزون، و جسدك بنيران السقم مرزون، / لما رجحت بالسمن حتى ٦٩
سميت سمنون، فهلا كنت فى القياس كقيس المجنون، الذى باح بسره المكنون، حتى سمى بالمجنون؟ فقال: يا قوم! الحديث شجون، و الجنون فنون، و ما كل محب على الحقيقة مأمون، ذلك حب من هو فى المحبة مغبون، و بعشقه مفتون، تارة يشبه حبيبه بالغصون، و تارة يمثله بهلال العرجون، و تارة يحليه بالغزال فى العيون، و أقوى ما يصفه بالحاجب المقرون، و نسى "انك ميت و انهم ميتون" فلا عجب لمن رضى بالدون، و وصف حبيبه بالحركة و السكون، أن يقال له مجنون، "فستبصر و يبصرون بايكم المفتون" و أنا الذى أحببت وحدانى، و ألفت فردانى، و هويت من ليس له ثانى، إن تقربت ناجانى، و إن بعدت نادانى، و إن ظمئت أسقانى، و إن جعت غذانى، فغذاؤه الروحانى، صلح به جثمانى، و لطفه الربانى، هو الذى ربانى، غذيت بذكره، و ربيت بسره، فقلبى بحبه يسمو، و جسدى بقربه ينمو، و متى صحت القلوب، صحت القوالب، و متى عطف المحبوب، كان الشفاء غالب، و قد خلعت رداء السمن، و شفاء البدن، سترا على سره المؤتمن، و طويت عليه قلبى المرتهن، فلا يعلم بمن و لا لمن[1].

فان لم أكن فى حبه سمينا فلست على سره أمينا[2]

---

(١) فى القطعة السابقة مثل واضح من أمثلة إعراق النويرى فى السجع المصطنع.
(٢) هذا البيت مكسور.

أما و الذى عذب العاشقينا لقد أخذ الحب منى يمينا
فلو أن مستخبرا قال لى تريد الشمال لقلت اليمينا
و لو باح سرى بأسراره لما كنت يوما لسر أمينا
يغالطنى القلب صونا له و فى القلب مثواه حقا يقينا
أسائل بالله أين الحبيب ليجلو[1] صدى القلب[2] بالله أينا
و أبدى حنينا لفرط الجوى و أخفى صوتى أبى الحنينا
أستر بين الورى حالتى و أدفن فى القلب داء دفينا
و أبدى سرورا إذا ما حضرت و فى الليل أبدى الجوى و الأنينا
٣/ الف / يلام الحزين على حزنه و ما يعرف الحزن إلا الحزينا
و كيف يلام و أحشاؤه على جمرات الأسى قد طوينا
يودع عينيه[3] طيب الكرى و يستودع الله قلبا رهينا

و قال الشيخ أبو العباس بن العريف:

ألا قل لمن يدعى حبّنا و يزعم أن الهوى قد علق
و لو كان فيما ادعى صادقا لكان على الغصن بعض الورق
فأين النحول و أين الذبول و أين الغرام و أين القلق

---

(١) فى الأصل: ليجلى.

(٢) فى الأصل: للقلب.

(٣) فى الأصل: عينا - كذا.

و أين

وأين الخضوع وأين الدموع   وأين السهاد وأين الأرق
أين[1] الخائضون بحور الهلاك   إذا لمعت ناره فى الغسق
فهم شاخصون إلى صوتها   وقد أحدقوا نحوها بالحدق
فأتوا على قدر أحوالهم   فهم فى الوصول إليها فرق
فقوم على البعد فى ضوئها   يسيرون فى واضحات الطرق
وقوم أتوا يخطون الوهاد   إليها بقطع جميع العلق
إلى أن تبدى لهم لائح   من[2] الوجد أبدى كمين الحرق
فغابوا عن الوحد عند الوجود   وكل إلى نحوها مستبق
فأين ولا أين حيث انتهوا   وكيف وأكبادهم تحترق
فما برحوا خائضى لجها   وأمواجها حولهم تصطفق
إلى أن ترنم حاديهم   بيتين[2] قالهما مَنْ سبق
تولع بالعشق حتى عشق   فلما استقل به لم يطق
رأى[3] لجة ظنها موجة   فلما توسط فيها غرق
فخطوا إحسال مراسيهم   وغطوا فغطاهم وانطبق

روى أن الجنيد قال: بت ليلة عند خالى سرى السقطى. قال: فلما صلى سرى ورده، استند فى محرابه فنام، ثم أفاق فقال: يا جنيد!

(١) كذا فى الأصل، وربما كانت «وأين».
(٢) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى.
(٣) فى الأصل: راوا.

[أنائم أنت أم يقظان ؟ فقلت : بل يقظـان . فقال : يا جنيد ـ [1]] رأيت فى المنـام الحق سبحانـــه و تعالى ، فقال لى : يا سرى ! فقلت : لبيك سيدى و مولاى ! فقال : لما خلقت الخلق قلت لهم : ادعوا محبتى ، و عرضتهم على الجنة ، فهرب منى تسعة أعشارهم ، و بقى العشر ، فجزأت[2] ذلك العشر عشرة أجزاء ، ثم عرضتهم على النـار ، فهرب منى من خوفها تسعة أعشارهم ، و بقى عشر العشر ، فجزأت[2] العشر الثانى أجزاء ، و عرضتهم على الدنيا ،/ فطلبتها تسعة أعشارهم ، و بقى عشر عشر العشر ٢٧٠/ ب فجزأت[2] العشر الثالث عشرة أجزاء و سلطت عليهم من البـلاء وزن درة ، فهرب منى تسعة أعشارهم ، و بقى عشر عشر عشر العشر ، فقلت للباقى : يا خاصتى ! لا إلى الجنة طلبتم ، و لا من النـار هربتم ، و لا فى الدنيا رغبتم ، و لا من البلاء فررتم ، فما الذى تريـدون ؟ قالوا : إنك لتعلم ما نريد ، ما نريد أحدا سواك ، فقلت لهم : إذا كنتم لا تريدون سواى ، فوعزتى و جلالى لأصبن عليـكم البلاء صبا ! قالوا : إذا كنت مبتليا فاصنع ما شئت ! يا سرى ! أولئك الذين دارت عليهم كأسات أشربة الولاية فأسكرتهم ، و تلقتهم سيوف الرهبـة فذبحتهم ، و نسمت عليهم رياح المحبة فأنعشتهم . قال الجنيد : ثم خر السرى مغشيا عليه ، فلم يفق إلى صلاة الفجر – انتهى .

(١) الجملة المحجوزة ساقطة من الأصل و واردة بالهامش بخط المراجع .
(٢) فى الأصل : بجزيت .

[ولاية صلاح الدين بن عرام الإسكندرية -[1]]

فلنرجع إلى ذكر ولايات ملوك الأمراء بالإسكندريـة ، ذكر ولاية ملك الأمراء صلاح الدين بن عرام الإسكندرية ، و لمع من أخباره المرضية .

و فى اليوم السادس و العشرين من شعبان سنة سبعين و سبعمائة[2] ورد مرسوم السلطان الملك الأشرف شعبان[3] من القاهرة إلى الإسكندرية بطلب ملك الأمراء طيدمر البالسى ليصير فى خدمته ، و ولاية صلاح الدين خليل بن علاء الدين على الشهير بابن عرام عوضه بالإسكندريه . و كان قبـل ذلك حاجب الحجاب بها . و زوج بنت ملك الأمراء طيدمر ، ففرحت بولايته أهلها لارتفاع منزلته ، و علو رتبته . فقلت فى الوقت و الساعة[4] أبياتا مربعة أمدحه بها و هى :

ملك الأمرا . كهف الفقرا ٭ بشرى بشرى . حقا بيقـين
نلت التمكين . بطول سنين ٭ صلاح الدين . حميت الدين
/ و إلى عرام . نسمت دوام ٭ طول الأعوام . بمر سنين ٢٧١ / ا
إن السلطان . له الإحسان ٭ على الإنسان . صلاح الدين
ولاه الثغر . أقام الأمر ٭ عداد الجمر . و كالسكين

---

(١) العنوان مشتق من مقدمة النص ، و ليس بالهامش .
(٢) يقابله ١٥ مارس سنة ١٣٦٩ م .
(٣) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .
(٤) فى الأصل : السعة .

على الكفار . بلا إنكار ✽ حفظا للدار . و نصر الدين
إن الأمرا . لما ذكرا ✽ آتوا[1] خبرا . عليه متين
فعلا ورقا . كالغصن رقا ✽ فسق غدقا . ظمأ المسكين
بذل المعروف . جبر الملهوف ✽ صرف المصروف . نقدا بيمين
و بعد قراه . إلى فقراه ✽ انظر فتراه . للخير يعين
جازاه الله . برحمته ✽ سكنى الفردوس . بعليين

فأقام ملك أمراء يحكم بالإسكندرية[2] البيضاء السنية ، التى قال فيها بعض واصفيها هذه الأبيات :

أرى الإسكندرية ذات حسن   بديع ما عليه من مزيد
هى الثغر الذى يبدى ابتساما   لتقبيل العفاة من الوفود
إذا وافيتها لم يبق مما   بقلبك مذ تراها من بعيد
من الهم الذى [قد –[3]] خمت منه   و قلبك منه فى أمر شديد
حللت بظاهر منها كأنى   حللت إذاً بجنات الخلود
فلا بئر معطلة و كم قد   رأيت[4] هناك من قصر مشيد
بياض يملأ الآفاق نورا   يبشر برقه سحاب جود

(١) فى الأصل : ائتوا .

(٢) زيد بعده فى الأصل : الديه الملغيه _ كذا .

(٣) ليس فى الأصل .

(٤) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

فأقسم لو رأتها مصر يوما   لـكادت أن تغيب عن الوجود
فكم قصرا[1] بها أضحى كحصن   منيع لا كزرب من جريد
يرص فصوصه بانيه رصا   يفـضله عـلى نظم العقود
لها سور إذا لاقى الأعادى   يقابلهم بوجـه من حديد
هو الفلك استدار بها[2] وكم قد[2]   رأينا [فيه - [3]] من برج سعيد
أحاط بسورهـا بحر أجاج   و منهل أهلهـا عذب الورود
هم السادات لا يرجى و يخشى   سواهم عنـد وعد أو وعيد

فانظر كيف مدحت الإسكندرية و أهلها أيضا ، ثم إنهم ما سلموا من هجو هاج ، كما قال بعضهم تورية حيث قال :

نزيل سكندريـة ليس يقرى   سوى[4] بالماء أو ظل السوارى
/ ولا تطمع بنظرة حرف خبز   فما فيهم لذاك الحرف قارى   /٢٧١

و الإسكندرية مدينـــة عظيمة من بلاد مصر ، بناها ذو القرنين ، و هو الذى سار مشارق الأرض و مغاربها . وأول أمره أنه غلام من الروم أعطى ملكا ، وسار حتى أتى ساحل البحر الملح من أرض مصر ، فابتنى بها الإسكندرية . وكان يـكتب إليه التاريخ قبل الإسلام ، و كان مؤدبه أرسطاطاليس الحـكيم – و قد تقدم ذكرهما و أخبارهما ، فأغنى عن إعادتهما . وكان مدة ملك الإسكندر الذى بلغ المشرق و المغرب خمسة عشر سنة . و لما بنى الإسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها و أرضهـا . وكان

(١) فى الأصل : قصر .
(٢-٢) نقلنا الكلمتين الأوليين للشطر الأول .
(٣) ساقطة من الأصل .
(٤) نقلنا الكلمة من الشطر الأول للثانى .

لباس أهلها السواد من نصوع بياض الرخام . و إذا كانت ليلة مقمرة يدخل الخياط الخيط فى خرم الإبرة من بياض رخامها . و قيل : إنها أقامت سبعين سنة لا يدخلها أحد إلا و على بصره خرقة سوداء من بياض رخامها . و لم يحتج فيها إلى سراج بالليل من ضيائها[1] . و قيل : كانت ثلاث مدن يحيط بها سور .

و قال ابن جبير[2] : ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك و لا أعلى مبنى و لا أعتق و لا أحفل من الإسكندرية ، و أسواقها فى نهاية الاحتفال ، و من أعجب ما فى وضعها أن بناءها تحت الأرض كبنائها فوقها و أعتق ، لأن الماء إذا جاء من النيل خرق جميع ديارها و أزقتها تحت الأرض ، فتتصل آبارها بعض ، و يمد بعضها بعضا ، و فيها من سوارى الرخام و ألواحه كثرا و علوا و اتساعا و حسنا ما لا يتخيل الوهم ، حتى أنك تلقى بعض سواريها يغص بها الجو صعودا ، لا تدرى معناها ، و لا لأى [شىء -[3]] وضعت إلا ما يتحدث أنه كان عليها فى القديم / بناء للفلاسفة — ٢٧' / الف
و قد تقدم فى هذا الكتاب ما قيل فى الإسكندرية و صفة بنائها و منارها و عجائبها ، فأغنى عن إعادتها هنا .

و بظاهر الإسكندرية موضع يعرف بالقصرين فى أرض رمل ، و هو مكان[4] نزه تجتمع به فى الصيف أهل الإسكندرية ، يتنزهون به ، قال بعضهم :

---

(١) فى الأصل : ضياها .

(٢) الرحالة و الجغرافى الأندلسى ولد سنة ٥٤٠ ﻫ / ١١٤٥ م ، و مات سنة ٦١٤ ﻫ / ١٢١٧ م .

(٣) ساقطة من الأصل .

(٤) فى الأصل : ما كان .

سلام على القصرين من جانب الرمل
سلام مشوق للـديار و للأهل[1]
يحن إليها كلما هبت الصبا
و يشتاقها شوق المحب إلى الوصل
منازل قوم شتت الدهر شملهم
و كم مثلهم قد شتت الدهر من شمل
نمر كما مروا و يبقى حديثنا
و كم مر من قوم و كلهم مثلى
و إنى لأبكى حسرة و تأسفا
علىّ كما أبكى على من مضى قبلى
لئن درست آثارهم و ديارهم
فقد درست من بعدهم آية الفضل

ـ انتهى .

نعود - فصارت الإسكندرية بتوليـة ملك الأمراء صلاح الدين كالروضة الخضرة ، و الحديقة النضرة . قد وقع الصلح بين المسلمين و الفرنج فى أيامه ، و طاب العيش بطول مقامه ، فوصل إحسانه لأهل الثغر من العلماء و الفقراء و القراء ، و صادرت أسمطته ممدودة لمشايخ الصالحين و الفقراء ، و اجتهد فى جمع تاريخ جديد ، حوى كل معنى فريد ، فجاء حسن التاريخ ، و ارتفع قدره كارتفاع المريخ ، محتوٍ على ذكر

(١) فى الأصل : الاهل .

الخلفاء . و القضاة و الفقهاء[1] ، و المقرئين و المحدثين و الصوفيين[1] و الأدباء و الشعراء ، فمما ذكر فيه من الشعر قول بعضهم حيث قال :

يا أيها السائل عن مذهبى ليقتدى منه بمنهاجى
منهاجى العدل و قمع الهوى فهل لمنهاجى من هاجى

و فى أيامه أتى إلى مينة الإسكندرية قازان الجنوى ، فلنذكر خبره كما تقدم ذكره إن شاء الله تعالى ـ قد تقدم / فى هذا الكتاب[2] خبر ب سفر قازان الجنوى من الإسكندرية بعد قدومه إلى مصر فى الرسلية[3] ، بسبب إتيانه من أرض الفرنج بجميع أسارى الإسكندرية ، و ذلك بعد أن ضمنه بالعودة بهم تجار الفرنج المسجونون[4] بالقاهرة ، كما تقدم ذكر سبب سجنهم ، ليتخلصوا بعد رجوعهم بالأسارى المسلمين من ضيق السجون .

فلما سافر قازان المذكور ، غاب ثلاثة أشهر ، و أتى إلى مينة الإسكندرية بثلاثة أغربة ، و لم يأت معه فيهم سوى دون العشرين أسيرا و أسيرة ، فيهم قاضى مدينة أنطاليا[5] الماسور بقبرس من حين أن ظهر

(١ - ١) فى الأصل : و المقرئون و المحدثون و الصوفيون .
(٢) انظر ما قبل من هذا المجلد صفحة ٢٧٧ و ما يتلوها و راجع الفهارس .
(٣) بمعنى السفارة .
(٤) فى الأصل : المسجونين .
(٥) أنطاليا وردت فى « معجم البلدان » لياقوت (ج ١ ص ٣٨٨) بلد كبير على ساحل بحر الروم قرابة أنطاكيه .

بها ربيير بطرس صاحب قبرس ، و ذلك قبل ظفره بالإسكندرية ، كما تقدم ذكره . فأقام قازان بالأسرى فى البحر ، و لم ينزل بهم البر ، و امتنع هو أيضا من النزول . فقيل له : انزل من غربانك ، و امض إلى السلطان بلغه الرسالة التى سافرت بسببها . فامتنع من ذلك . فقيل: انزل بالأسارى التى استصحبتهم معك . فقال : أعطونى تجار الفرنج و غلمانهم ، و خذوا ما معى من أسارى المسلمين . و طولع السلطان بوصوله و مقالته ، و عدم نزوله من مراكبه . فورد المرسوم الشريف بأن ينزل و يبلغ رسالته إن كان أتى رسولا . و إن كان تاجرا يبيع و يشترى ، و إلا يرجع من حيث أتى . فلما قرئ عليه مرسوم السلطان تحير فى أمره ، و لم ينتفع بمكره . فقال لقاضى أنطاليا الأسير الذى أتى به : أرسل و اطلب من قاضى قضاة المسلمين عمامة تتعمم بها . فأرسل مع المكلمين الذين يأتون لقازان فى كل يوم بالضيافة ، يطلب منه عمامة يستتر بها رأسه لعدمها على رأسه ، [فلم يرسلها المسلمون -[١]] نكاية فى قازان . فقال قازان: تخلوا عليه بعمامة يتعمم بها ، و أنا ورثت لصاحب / قبرس فيه أربعة آلاف دينار ليصير عند قضاة المسلمين . فلما بلغ قوله ٢٧٣/الف ذلك لملك الأمراء صلاح الدين ، أرسل يقول له : خذ فيه الزيادة على ما ذكرت ، و انزل به بكسوة أجلّ الكساوى ، و نوليه الحكم و نفعل به

---

(١) العبارة ساقطة من الأصل ، و احتمال وجودها بهامش المخطوط ، أضفناها لاكتمال السياق .

كل فعل جميل، فخاف قازان الملعون إن هو نزل به تكلم عند السلطان بما لا يعجبه من مكره وحيله [١]التى أتى بها[١] ليخلص أصحابه الفرنج. وكان امتناع قازان أيضا من النزول من مراكبه خوفا على نفسه من الأسر، وأنه لا يعود يرى بلاده أبدا لكذبه وعدم إتيانه بأسارى الإسكندرية الدين[٢] كان [تعهد-[٣]] بحضورهم بأجمعهم. والملعون كبير فى بلاده، له فيهم الأمر والنهى والتقدمة على عشرة آلاف مقاتل كما قيل.

وقيل أيضا: إنه كان السبب فى أخد مدينة القرم[٤] بأرض التركية من أهلها المسلمين، نهبها وسبى ما قدر عليه من أهلها. فحينئذ انضرب الملعون فى رأسه حين منع[٥] المسلمون إرسال عمامة لقاضى مدينة أنطاليا. وكان زعمه أن يأخذ به جميع أسارى النصارى التى بأيدى المسلمين لعزة القضاة عليهم، وخاف أن يرجع إلى ملوك النصارى الذين[٢] التزم لهم بخلاص تجارهم من أيدى المسلمين بمكايده التى زعم بها أن

(١-١) فى الأصل: الذى اتى به.

(٢) فى الأصل: الذى.

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل وهى لازمة من السياق.

(٤) مستعمرة cafa الجنوية واقعة على بحر آزوف المتفرع من البحر الأسود فى جنوب روسيا.

(٥) فى الأصل: منعت.

يخلصهم منهم، فيلومه[1] ملوك النصرانية، ويعجزوا رأيه وسعيه فيما نهض فيه، ولم يصعد معه [أحد -[2]]، فحار فكر الملعون فيما ذا يفعل، وكان قد أتى بالثلاثة أغربة فيها رجال الحرب، خشية من محاربة المسلمين له إذا امتنع من النزول منها، فيجد معه من يستنصر بهم من رجاله. فأقام مدة شهر فى المينة، والضيافة تأتى إليه فى كل يوم من الإسكندرية تطمينا له لينزل من مراكبه؟ وكلما سئل فى النزول يمتنع منه / خوفا على نفسه، فلما يئست المسلمون من نزوله، قالوا ٢٧٣/ب له: وأين أسارى الإسكندرية الذين ادعيت إحضار ألف أسير منهم والتزمت بذلك. قال: وجدتهم قد تنصروا، وما فى الديانة أن يؤمروا بترك ما اختاروه لأنفسهم، ولا يجبروا على رجوعهم للاسلام، فان رجعوا باختيارهم عن دين النصرانية يقتلوا فى شرع الملة المسيحية، فقال[3] المسلمون له: وكذلك تجار النصارى الأسارى، أسلموا هم وغلمانهم، وما فى الديانة أن يؤمروا بترك دين الإسلام، ويعودوا لعبادة الصلبان والأصنام، فان ارتدوا يكون ارتدادهم سببا لعقابهم وضرب رقابهم.

فلما سمع قازان ذلك ضلت مكايده، وعميت سبله، وضاعت

(١) فى الأصل: فيلوموه.

(٢) ليست بالأصل، وذكرها لازم لاكتمال الجملة والمعنى.

(٣) فى الأصل: فقالت.

حيله . ثم إن مرسوم السلطان ورد بالقبض على رجاله الذين ينزلون من مراكبه فى كل يوم يتسوقون من الإسكندرية ما يحتاجونه من الهدايا التى يحملونها معهم إلى بلادهم ، و يختمون أيضا على بضائع تجار الفرنج المأسورين بالقاهرة المخرونة بفنادق الإسكندرية . فقبض على أربعين علجا من أصحاب قازان ، فلما علم قازان بقبض رجاله و منع الضيافة عنه كجارى عادته ، رجع بالخيبة مقهورا مدحورا ، و رجع بالأسارى معه ، إذ لم تنجع له حيلة ، و لا صحت معه مكيدة .

فلما كان بعد رجوعه إلى بلاده بمدة قريبة ، قدم غراب[1] من قبرس إلى مينة الإسكندرية ، فطلب منه صاحب قارب الخيمة نزول واصله من الفرنج على جارى العادة يخبر بما أتوا بسببه . فقالوا له : إن معنا رسلا[2]، و معنا أيضا الأسارى التى رجع بهم قازان، و إن ربير بطرس صاحب قبرس قُتل ، و ولى الملك بعده أخوه البرنز[3]، و نادى بالأمن و الأمان ، و حصلت التهانى بقتل ربير الذى أفنى البلاد ، و أهلك العباد . و قال الملك البرنز[3] : أنا غلام ملك مصر و مملوكه ، و يريد أن تأتوا بسلورة[4] تأخذون[5] فيها قاضى أنطاليا و الأسارى التى بصحبته ، فان الملك

(١) فى الأصل : عرابا .

(٢) فى الأصل : رسل .

(٣) فى الأصل : البرنز . و الكلمة من الأصل الفرنجى Prince

(٤) راجع موضوع السمن (ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٥) فى الأصل : تأخذوا .

غضب على قازان بسبب / رجوعه بأسارى المسلمين إلى قبرس . فرجع ٢٧٤ / الف صاحب قارب الخيمة لملك الأمراء صلاح الدين بلّغه ما قيل له . فقال: ارجع إليهم و قل لهم: إن كان معكم أسارى كما ذكرتم ، فارموهم بأرض المنار يأتوا إلينا مشاة على سيالته[1] . فرجع إليهم صاحب قارب الخيمة ذكر لهم دلك ، فلم يرموا غير رجلين مسلمين ، ذكر ملك الأمراء أنهما استيسرا من جهة بلـد طرسوس[2] بالشام ، فعوقهما ملك الأمراء عنده .

فلما كان فى اليوم الثانى من قدوم الغراب المذكور قدمت مركب من الشام ، فلما رآها[2] أصحاب العراب ، خرجوا إليها ، و زحفوا عليها ، قاتلوا أهلها المسلمين[3] ، و أخذوها بوسقها و رجالها ، و مضت النصارى بها ، فعلم مكرهم و حيلهم . فأمر ملك الأمراء عند ذلك بسفر الأربعين علجا ـ و هم أصحاب قازان ـ إلى القاهرة فى السلاسل و الأغلال ، مشاة حفاة ، معهم الرحلان اللدان ادعيا الإسلام ، و ترك ملك الأمراء بسجن الإسكندرية أرناط بن مرك البندق[4] و أسلين قنصل الجنوية ، يستعين بهما على من يأتى من الإفرنج إلى مينة الإسكندرية لمعرفتهما باللغة العربية

---

(١) فى « البستانى » (ج ١ ص ١١٧٧) « انعطاف فى البحر حيث يميل » و فى دوزى (ج ١ ص ٧١٤) Tuyau de descente .

(٢) فى الأصل : رأوها .

(٣) فى الأصل : المسلمون .

(٤) راجع الفهارس تحت هذه الأسماء .

لينزلوا من مراكبهم عند رؤيتهم لهما .

ثم إن البحر قذفت أمواجـه رجلين مسلمين و امرأة مسلمة الى الساحل قتلى من أصحاب مركب الشام المأخوذة ، فعلم أنهم لم يسلموا أنفسهم للأسر إلا أن قتلوا بعد أن قاتلوا ، فرزقوا الشهادة ، و ختم لهم السعادة ، فطولـع السلطان بما فعل أصحاب الغراب المذكور ، فبرزت مراسيمه إلى الشام بالقبض على كل من فيه من تجار الفرنج و غلمانهم ، فقبض عليهم و على أموالهم ، و أودعوا السجون فى القيود .

ثم لما كان يوم الأربعاء سادس ذى الحجة من السنة المذكورة ، ورد إلى مينة الإسكندرية الشرقية ثلاثة أغربة كبيرة المقادير و طريدة[1]
٢/ب كبيرة و سلورتان[2] ، ذكر بعض التركمان الذين أتوا من بر التركية / تجارا إلى الإسكندرية أن سنجوان دمرف[3] القبرسى أتى [4]بها فيها[4] ألف علج ، و هذا سنجوان دمرف المذكور هو ابن ريوك[5] صاحب قبرس الذى رزقه من امرأة بوطا[6] ، و البوطا بلغة الإفرنج هى الفاجرة التى كانت

(١) طريدة ـ انظر ما قبل موضوع السفن (ج ٢ ص ٢٣٣) .
(٢) تثنية سلورة ـ انظر حاشية سابقة، راجع الفهارس، وفى الأصل : سلورتين .
(٣) و هو Jeon de Marf راجع ما قبل (ج ١ ص ٨ حاشية ٣) و انظر الفهارس .
(٤ ـ ٤) فى الأصل : بهم فيهم .
(٥) الملك هوج Ray ugo ـ راجع الفهارس .
(٦) راجع ما قبل (ج ١ ص ٨) و انظر الفهارس .

عند ريوك يزانيها قبل أنَ يرزق من زوجته أولاده : ربير الذى ظفر بالإسكندرية و البرنز[1] و جاكلك المذكور فى أول هذا الكتاب[2] .

فكان سنجوان دمرف ولد زنى ، و أولاد الزنى عند النصارى لا يكونون[3] ملوكا أصلا ، و لا يكون ملكا إلا من كان أبوه ملكا و أمه حرة بنت ملك ، كلل القسيس عليها لزوجها الملك فى الكنيسة بالإكليل الموضوع على رأسها ، و يتسلمها زوجها من القسيس بمحضر من القسيسين و الرهابين بعد أن قرأ[4] عليهما سورا من مزامير داود و الزبور و الإنجيل .

و أما نصارى الحبوش فالزنى عندهم محرم . و من زنى قتل . فهم يمتنعون منه خوفا من القتل ، و لهم نهر يجرى يقال له فوج ، تأتى بناتهم و نسوتهم إليه يستقون منه الماء بجرارهم ، و يأتيه العزّاب ، فكل من كسر منهم جرّتها [كان زوجها بحكم سلطانه و سنة بلادهم ، فيمضى بها إلى الكنيسة عند القسيس ، يزوجها له بعد[5]] أن يقول : أنت كسرت جرتها عند الفوج . فيقول : نعم ، و تصدقه هى فى ذلك فيمضى بها إلى منزله و لا يفارقها و لا تفارقه إلا بالموت ، و الذى بيده بيدها . و الذى بيدها بيده ، فكل نساء النصارى عندهم باديات الوجوه ليعلم الزوج بمن يتزوجها - انتهى .

---

(١) فى الأصل : البرنز انظر حاشية سابقة .

(٢) انظر نفس المكان بالحواشى السابقة و راجع الفهارس .

(٣) فى الأصل : لايكونوا .

(٤) فى الأصل : قرى .

(٥) الجملة المحصورة ساقطة من الأصل ، و وردت فى الهامش بخط المراجع .

نعود - فلما أتى سنجوان دمرف ولد الزنى بغربانه وطريدته والسلورتين يستقون بها فى مينة اسكندرية الشرقية ، فلم يأت منها إلى الساحل خبر ، و نزل جماعة منهم ساحل المنار ، فسار إليهم على سيالة المنار بهاء الدين أصلان الحاجب بأجناده ، فلما رأتهم الفرنج الذين بساحل المنار قاصديهم[1] رموا عليهم بالسهام ، فرمى الحاجب هو و جنده عليهم أيضا بالسهام ، أذهلوا عقولهم بها بتواتر الرمى ، فبادروا هربا فى قواربهم إلى غربانهم ، /الف حصلوا بها . فلما كان وقت العصر أرسلوا قاربا / إلى القرب من الساحل ، فيه جماعة من الفرنج ، قالوا لمن بالساحل من المسلمين المعتدين لحربهم : إن معنا كتبا للسلطان نعطيها لكم ترسلونها له و نريد جوابها . فقال المسلمون : هاتوها . فقالوا : فى غداة غد نعطيها لكم . فقال[2] المسلمون لهم : كيف يكون معكم كتب للسلطان و رميتم على المسلمين بالسهام ؟ فقالوا : خفنا منكم عند إتيانكم إلينا ، توهمنا أنكم جئتم تأسروننا . فقال المسلمون : و ما تريدون الآن ؟ فقالوا : نريد الأكل و الشرب ، و فى غد ندفع إليكم الكتب . فقال[2] المسلمون . إذا دفعتم إلينا الكتب أطعمناكم و سقيناكم بعد أن تعطونا بكل قربة ماء رجلا منكم يكون عندنا تصديقا لمقالتكم ، و نرسل إليكم فى كل يوم الضيافة إلى أن يأتى جواب كتبكم . فرجعوا إلى غربانهم ، أخبروا بذلك أصحابهم ، فباتوا و بات[3] المسلمون على الساحل مستيقظين ، و لحربهم

(١) فى الأصل : قاصديبهم .
(٢) فى الأصل : فقالت .
(٣) فى الأصل : باتت .

متأهبين

متأهبين . فلما كان سحر يوم الخميس سابع ذى الحجة ، انتظرهم[1] المسلمون يأتونهم بالكتب ، فلم يأت منهم خبر . فبينما هم كذلك ، و إذا بهم قد رفعوا مراسيهم ، و خرجوا من المينة الشرقية .

و كان بالمينة الغربية المعروفة بحر السلسلة[2] قرقورة فارغة و غراب[3] و سلورة للسلمين . فقال[4] المسلمون عند جدفهم لغربانهم و طريدتهم : إنهم قد ذهبوا إلى حال سبيلهم ، و كفانا الله شرهم . فقال الرائس إبراهيم التازى رائس دار صناعة الإسكندرية المتقدم ذكره : ليسوا[5] و الله راحلين عنكم ! و إنما هم قاصدون[6] بحر السلسلة بسبب القرقورة و الغراب و السلورة . فلما خرجوا من المينة الشرقية ، تركوا صدر البحر ، و عطفوا طالبين المينة الغربية . فلما عاينهم[7] المسلمون نحوها منعطفين[8] ،

(١) فى الأصل : انتظرتهم .

(٢) بحر السلسلة سمى كذلك لإغلاق مدخله بالسلاسل ليلا ، و هو فى العصور الوسطى الميناء الغربية بخلاف ذلك فى العصر الحديث حيث السلسلة شبه الجزيرة المحيطة بالميناء الشرقية - راجع الفهارس .

(٣) فى الأصل : و غرابا - راجع الفهارس فى موضوع السفن .

(٤) فى الأصل : فقالت .

(٥) فى الأصل : ليس .

(٦) فى الأصل : قاصدين .

(٧) فى الأصل : عاينتهم .

(٨) فى الأصل : منعطفون .

حققوا قول الرائس إبراهيم، و لسان حالهم يقول:

و لا بد أنا بكم نلتقى فاما علينـا و إما لنا

٢/ب / ثم إنهم تهيأوا[١] لقتالهم، و حربهم و نزالهم، فحصلوا المجانيق بأحجارها، و هيأوا المدافع للرمى بهـا، و صعدت[٢] القواد[٣] و الرماة الجرخ إلى القرقورة، و صعد إبراهيم التازى[٤] الغراب هو و رجاله، و صعدت أيضا القواد[٣] [و - [٥]] الرماة الجرخية بقسيهم المنكســية إلى السلورة، و تعمر جهة السور بالرماة، و وقفت الرماة المجردة و الأجناد و التركمان المركزة على الساحل، و فى المطرق[٦] المتقدم ذكر عمارته بقسيهم العربية، و تستر[٧] الرماة المتطوعة بطوارقها على ضفة البحر يرمون من جوانبهـا بسهامهم، و تهيأوا للقتال، و الحرب و النزال، و الفرنج تجذف بغربانها إلى أن أتوا قاصدين أخذ القرقورة والغراب و السلورة، فرموا على المسلمين يريدون تنفيرهم منهم، ليتمكنوا من أخذهم لها بكلاليبهم التى يجرونهـا بها. و زعموا أن فعلهم ذلك كفعلهم حين الواقعة التى كانت فى أواخر

(١) فى الأصل: هيئوا.
(٢) فى الأصل: و أصعدت.
(٣) فى الأصل: القياد.
(٤) فى الأصل: الرازى - راجع الفهارس عنه.
(٥) الواو ساقطة من الأصل.
(٦) مكان بالإسكندرية، و فى الأصل: المطرف.
(٧) فى الاصل: سترت.

المحرم سنة سبع و ستين و سبعمائة[١] ، و نفر[٢] المسلمون منهم برميهم عليهم ، ففروا من بين أيديهم، فبذلك ظفروا بالإسكندرية . فتخيل للفرنج أن هذه مثل ذلك ، فلما رموا على المسلمين ، رمى[٣] عليهم، لذعوهم وثبتوا لهم، فتقهقرت الفرنج لورائهم ، مما أصابهم من جراحهم بسهام المسلمين . فأقاموا نحو ساعتين ، و جذفوا قاصدين الساحل يعاودون[٤] القتال ، فرمتهم الترك بالقسى العربية ، و رمتهم القواد[٥] و الرماة المتطوعة بالقسى الجرخيـــة ، فلذعوهم ثانيا ، فتقهقروا أيضا . فلما كان بين الظهر و العصر ، اصطفت عوام المسلمين المتفرجين عـلى شراريف السور ينظرون إليهم من غير قسى بأيديهـــم ، و جلست رماه السور خلف كواه بقسيهم الجرخ ، فتيقنت الفرنج أنهم لم يصبهم[٦] ضرر من أصحاب الشراريف ، إذ لم يروا معهم [٧]قسيا و لا سهاما[٧] ، بل متفرجين / لا غير ، وخفى عنهم أمر الرماة التى ٢٧٦/ الف
خلف كوى السور الكامنين لهم عند مرامه ، فعند ذلك رمت الفرنج على من بالساحل بمدفع ، فتعداهم حجره و وقع بالجزيرة ، فلم يصب أحدا من المسلمين منه ضرر . و رمى[٣] المسلمون عليهم بالمدافع فأخطأتهم

(١) يقابلها نوفمبر سنة ١٣٦٥ م .
(٢) فى الأصل : و نفرت .
(٣) فى الأصل : رمت .
(٤) فى الأصل : يعاودوا .
(٥) فى الأصل : القياد .
(٦) فى الأصل : لا يصيبهم .
(٧-٧) فى الأصل : قسى و لا سهام .

حجارتها ووقعت فى البحر .

ثم إن غراب الفرنج التقدمة الذى حوى الرجال الشجعان الأبطال تقدم بعد أن ربطوه بالسرياقات فى الغراب الذى خلفه بعيدا منه ، و ربطوا بقية المراكب بعضها فى بعض ، كل غراب بعيد عن الآخر . و قصد غراب التقدمة أن يرمى كلاليبه فى غراب المسلمين ، فيرمى المسلمون أنفسهم منه إلى الساحل ، فينجز لهم الغراب . و إن غلب[1] المسلمون الفرنج ، جرّت الفرنج الغربان الثلاثة المربوطة بعضها فى بعض بالسرياقات ، غراب التقدمة و غراب المسلمين أيضا المكلب بالكلاليب بما يبقى من المسلمين المتأخرين عن الهروب منه .

ففهم إبراهيم الرائس قصدهم ، و قرأ حسابهم ، لمعرفته بحربهم ببلاد الغرب ، فعمل مرمّة ينجو بها مما[2] قصدوه . و ذلك [أنه - [3]] أوثق غراب المسلمين بالسرياقات فى مراسى الحديد المركوزة شعبها فى الأرض و فقس الغراب بعرضه من جهة الفرنج ليتقى بذلك هو و رجاله سهام الفرنج ، فصار من جهة الفرنج عاليا ، و من جهة البر واطئا . و قال لرجاله : من فيكم يطلب الجنة يبيت الليلة بها ، و يعيّد عيد النحر بساحتها . فقالوا بأجمعهم : كلنا نريدها ، و لا نعمل عيدنا إلا بها . فقال لهم عند

---

(١) فى الأصل : غلبت .

(٢) فى الأصل : ما .

(٣) ساقطة من الأصل .

ذلك : إذا رمت الفرنج الكلاليب فى غرابنا هذا ، و التقى[1] الجنب على الجنب، اصعدوا كلكم فى غرابهم دفعة واحدة كلمح البصر، نأخذهم حينئذ بقوة الإيمان ، و ضعف الكفر و الطغيان ، فمنكم من يقاتلهم ، و لا يقدرون هم على جر غرابنا لتوثقته بسرياقاته / التى هى مشدودة ٢٧٦/ب بحلق المراسى الموثوقة شعبها بالأرض ، و فلان و فلان و فلان يكونون[2] معتدين لقطع سرياقات غراب الفرنج المربوطة بغربانهم الثلاثة ، فاذا انقطعت سرياقاتهم ، أخذناهم بغرابهم ، فقالت القواد[3] : هذا هو المراد ، افعل ، لك ذلك أيها الرائس ! وكان عدة القواد المسلمين مائتين و خمسين ، ففهمت الفرنج مرمة المسلمين ، فامتنعوا من رمى كلاليبهم ، و قالوا : إن تكليبنا لغرابهم مضرة علينا .

ثم إن الفرنج قربوا من مراكب المسلمين ، و رموا عليهم ، فرمى[4] المسلمون عليهم أيضا ، و الفرنج يأخذون[5] رمى المسلمين فى درقهم المانعة ، و وجوههم تقابل جهة البر و ظهورهم للبحر ، و إذا رماة السور اندفعت عليهم بالرمى من كواه ، فمن وقع بظهره سهم خرق مصفحه و ركز فى صلبه ، و اندفع عليهم أيضا من شراريف السور من النظارة جلاميد الحجارة ، و صار الرمى عليهم من الساحل و المطرق[6] و السور بالسهام

(١) فى الأصل : و التقت .

(٢) فى الأصل : يكونوا .

(٣) فى الأصل : القياد .

(٤) فى الأصل : ورمت .

(٥) فى الأصل : يأخذوا .

(٦) فى الأصل : المطرف ـ انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

و الحجار كوابل الأمطار ، فانطلقت فى قلوبهم جحيم النار ، و أحاط[1] بهم البلاء من خلفهم و من بين أيديهم ، و عن ايمانهم و عن شمائلهم ، و رمى المنجنيق المقابل لهم بحجره الضخم عليهم ، فلم يصادف سوى بعض مجاذيفهم ، كسرها ، و لو وقع فى نفس الغراب خرقه و غرقه ، فقتل من شجعانهم أكثرهم ، و تلحمت نواتيتهم ، و بطل من الجذف مجاذيفهم ، و صار كل علج يأخذ طارقته المقابلة له ، بسبب التستر عليه ، يرميها على جسده و يرقد تحتها ، فيأتيه سهم الجرخ من كوة السور ، يخرق الطارقة و يركز فى الراقد تحتها ، فيستمر الكلب معها ، فصار كل من بالغراب يصرخ من حرارة وقع النشاب الذى احتاط بهم من كل جانب و مكان ، ٢/الف فحينئذ حرت / الغربان الثلاثة لغراب التقدمة بتلك السرياقات بقوة جذف قوادهم[2] لها ، فما بعدوا عن رمى المسلمين لهم بالسهام إلا و أجسام الفرنج حطام ، فأقاموا داخل البحر بحيث يراهم[3] المسلمون ، فجمعوا الغربان بعضها إلى بعض ، يداوون الجرحى ، و يرمون فى البحر القتلى . فلما أصبح يوم الجمعة ثامن ذى الحجة الحرام ، رفعت الفرنج صوارى غرابين ليقلعوا بهما ، و حروا الاثنين خلفهما ، لعدم رحالها المقتولين سهام المسلمين .

فلما رآهم الرائس إبراهيم التازى فعلوا ذلك ، رفع صارى غراب المسلمين ، و صار يشير إليهم ببرنسه الأسود و يصيح : تعالوا قاتلونا ،

(١) فى الأصل : واحيط .

(٢) فى الأصل : قيادهم .

(٣) فى الأصل : تراهم .

و للحرب عاودونا . و كان قال لهم حين هجموا على غراب المسلمين : لست[1] الآن بسوى جناح واحد ، و لو كنت بجناحين ، أخذتكم الأربعة فى أقل من ساعتين ، يعنى لو كان معه غراب ثان معمر برجاله ، كان خرج بهما إليهم ، قاتلهم داخل البحر ، و أخذهم الأربعة سرعة بمعرفة قتاله و قتال رجاله ، لأن الفرنج ليس يقهرهم سوى المغاربة ، و ذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس ، يعرفون طرق حربهم ، و طعنهم و ضربهم ، فى بر و بحر . ولو كان[2] بالإسكندرية من المغاربة [3]جمع كبير[3] بجوامك مرتبة ، و غربان مجهزة بعددها و أزوادها ، كانوا يحربون[4] حزرا كثيرة ، و صارت الفرنج معهم فى حيرة[5] .

و لما أقام[6] الفرنج صوارى الغرابين ، و جروا خلفهم الاثنين ، رجعوا من حيث أتوا خاسرين ، لعنة[7] الله عليهم أجمعين . فصار الملعون سنجوان دمرف ولد الزنى قد امتلأ رعبا و حزنا ، لما قتلت رجاله ، و جرحت أبطاله ، و خسر أمواله ، و بطلت أعماله ، و غضب الله عليه ، فاللعنة / واصلة ٢٧٧/ ب دائما عليه .

---

(١) فى الأصل : ليس ، و بهامشه « لعله : لست » و هو الأصح .

(٢) زيد بعده فى الأصل : منهم .

(٣-٣) فى الأصل : جمعا كبيرا .

(٤) فى الأصل : يخربوا .

(٥) فى الأصل : حزيرة . و بهامشه « لعله : فى حيرة » و هو الأصح .

(٦) فى الأصل : أقاموا .

(٧) فى الأصل : لعنت .

و لما كان وقت القتال ، كان سنجوان المذكور فى الغراب الرابع ، الذى هو آخر الثلاثة المربوطة بالسرياقات ، و عن يمينه راهب و عن شماله راهب أيضا قد لبس الجوخ الأحمر ، و على الراهبين القطعان السود ، و البرانس ذوات البنود ، و القلانس ذوات الآذان ، و الزنانير
٥ التى بها الصلبان يتشوشون و يدعون بالسر لأصحابهم ، فكان دعاؤهم و بالا عليهم بالقتل و الجراح ، و الحزن و النواح . و الثلاثة[1] كلاب ، يشاهدون ما حل بأصحاب الغراب من العذاب .

ثم إن المسلمين لم يصب منهم غير رجلين بسهمين ، فتداويا[2] من تلك الجراح . و حصل للمسلمين بهذه الغزوة الفلاح و النجاح . ثم إن
١٠ ملك الأمراء هو و الأمراء المجردين أرسلوا حجر مدفع الإفرنج الذى وقع خارج باب البحر ، و سهامهم المعوضة عن الريش بالورق ، إلى السلطان ، و أخبروه بخبر الأربعة أغربة ، حين القتال و المحاربة . و كان ذلك الحجر مطوقا[3] بالرصاص ، أسود اللون من حجارة الطواحين ، المدور المتين . فوصل الخبر ، مع السهام و الحجر ، بعد عصر يوم الوقفة ، فبث[4] السلطان

---

(١) فى الأصل : و الثلاث .

(٢) فى الأصل : فتداووا .

(٣) فى الأصل : مطوق .

(٤) فى الأصل : لبث . و بهامشه « لعله . فبث » و هو الأقرب للصواب .

النقباء فى الأمراء و الأجناد ، فخرجوا بعد المغرب ليلة الأحد . المسفر صباحها عن يوم عيد النحر ، فأتوا الإسكندرية ثانى العيد .

و كان قد أشيع بالقاهرة أن الإسكندرية محاصرة بمائة غراب ، فخافت عيال الأمراء و الأجناد عليهم ، و عيدوا ذلك العيد فى حزن شديد . فلما وصلوا الإسكندرية لم يجدوا لما قيل صحة . فأرسلوا الكتب ، طمّنوا بها عيالهم و أولادهم ، فزال ترحهم . و تجدد فرحهم . و أما أهل الإسكندرية فلم يحصل لهم فى عيدهم حزن و لا خوف ، بل انشرحوا فى عيدهم بدورهم و ذبائحهم ، و تنزهوا بفرجهم فى بساتينهم .

/ ثم بعد ذلك اجتهد ملك الأمراء صلاح الدين ابن عرام فى ٢٧٨ / الف
تغريق الأحجار بالمينة الغربية المعروفة ببحر السلسلة لحفظ مراكب المسلمين بالحجارة الكبيرة المقدار ، فصارت[1] كالسور الدائر عليها ، و عمل على فوهتها أبنية محكمة بسلسلة متينة مقفلة[2] بقفل ثقيل ، و بموضع القفل كوى مهيأة للرمى بالسهام على من يقصد السلسلة من الفرنج الطغام . و كان عمله لتلك المينة المصونة لمراكب المسلمين فى أوائل سنة إحدى و سبعين و سبعمائة[3] .

و لما كان فى تاسع ربيع الأول من السنة المذكورة ، قدم إلى مينة

---

(١) فى الأصل : فصار .

(٢) فى الأصل : مقفولة .

(٣) يقابلها سنة ١٣٦٨ م .

الإسكندرية الشرقية غراب فيه رسل من صاحب قسطنطينية إسطنبول، على رؤسهم أطباق الصوف[١] الرفيع الملبد، و معهم خمسة من الرهبان، قيل: إن بالقسطنطينية المذكورة أربعين[٢] ألف كنيسة، فيها اثنتا عشرة ألف عامرة، و الباقي خراب[٣] دائرة، و فيها كنيسة لشمعون الصفا لها[٤] ثلاثمائة و ستون بابا. و قيل: إن هذه الكنيسة بقدر الإسكندرية ثلاث مرات، و في وسطها سبعة[٥] جبال و الكنيسة المذكورة بها عمد كثيرة - انتهى.

نعود - فلما قدمت رسل صاحب القسطنطينية، ذكروا أنهم رسل جميع ملوك الفرنج إلى ملك مصر. معهم الهدايا[٦]. فحملوا إلى القاهرة بعد المشاورة.

ثم قدم بعدهم في الرابع عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة إلى مينة الإسكندرية ثمانية[٧] غربان كبار المقادير أرسوا بها، ولم ينزل لهم واصل على جاري العادة. فتأهب المسلمون لهم، و ركب الأمراء

(١) في الأصل: الصرف.

(٢) في الأصل: اربعون.

(٣) في الأصل: خرابا.

(٤) في الأصل: له.

(٥) في الأصل: سبع.

(٦) في الأصل: الهدايات.

(٧) في الأصل: ثمان.

المجردون و الأجناد المركزون بالإسكندرية عليهم آلات حربهم ، و رموا عليهم بحجارة المدافع ، فبرزت[1] غربانهم خارج المينة خوفا منها . ثم إنهم باتوا خارجها / و دخلوها بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة . ٢٧٨/ ب فخرجت إليهم قوارب المسلمين بالمدافع ، فصاروا يرمونهم بأحجارها . فأبعدوا بغربانهم خارج المينة ، فحين حصلوا بها تهيأت لهم الأمراء والأجناد و أهل البلد و القواد[2] لحربهم و قتالهم . فعند ذلك كشفت الفرنج رؤسها و صاروا يقولون : سلام سلام! لسنا نريد الحرب ، و إنما نريد الصلح . و أنزلوا من غربانهم [3]تاجرا مسلما[3] معه مملوكه ، و طلبوا الماء ليشربوا ، فمنعوا منه .

و كان[4] المسلمون [لما -[5]] عاينوا تلك الغربان الثمانية ، جروا مركب النصارى[6] القسطنطينيين الرسل المقيمين الآن بالقاهرة إلى الساحل . رفعوا منها ما فيها إلى البر ، [7]و أدخلوا قوادها[7] الإسكندرية خوفا بأن يخبروا

(١) فى الأصل : فبرروا .

(٢) فى الأصل : القياد .

(٣-٣) فى الأصل : تاجر مسلم .

(٤) فى الأصل : كانت .

(٥) ساقطة من الأصل .

(٦) فى الأصل : نصارى .

(٧-٧) فى الأصل : و دحلوا قيادها .

أصحاب الغربان بخبر المسلمين . فحارت أفكار أصحاب الغربان لعدم رؤيتهم للنصارى القسطنطينيين ، و قالوا للمسلمين : نحن رسل من عند ملوك النصارى : الجنوى و البندقى و الرودسى و القبرسى . فقيل لهم : فلِمَ لم تقولوا ذلك حين قدومكم ؟ فقالوا : إن القسطنطينيين تقدمونا ، و لم نرهم الآن ، و رأينا مراكبهم فارغة مائلة على جنبها بالقرب من الساحل خالية منهم . فخفنا ندخل الساحل يصيبنا ما أصابهم . فقال[1] المسلمون : إن السلطان طلبهم ، فحملوا إليه بأجمعهم ، فان كنتم كما زعمتم رسلا ، فانزلوا من مراكبكم ، و امضوا إلى السلطان ، بلغوه رسالاتكم ، و إن كنتم تقصدون الحرب حاربناكم ، و إلا فارجعوا من حيث أتيتم . فقالوا : بل نحن رسل الملوك . و أنزلوا علجا واحدا معه كتب مختومة . فحمل العلج إلى السلطان ، و رجع إليهم معه مرسوم السلطان بنزولهم من غربانهم الف يبلغون[2] رسالاتهم ، / فنزل منهم عشرة مثلوا بين يدى ملك الأمراء صلاح الدين بن عرام . فقال لهم : أراكم مترددين فى أموركم فى النزول و عدمه ، كل من نزل منكم أرسلته لمولانا السلطان يرى فيكم رأيه ، فقد بان لنا مكركم و حيلكم و مكايدكم ، فلو كنتم كما زعمتم رسلا ، تركتم أربعة من غربانكم حين قدومكم خرجت من المينة الشرقية ، [بل - [3]]

(١) فى الأصل : فقالت .

(٢) فى الأصل : يبلغوا .

(٣) ساقطة من الأصل .

كشفت المينة العربية ، أقامت بها نصف يوم ، كأنكم قصدتم الأذى ، فلما رأيتم مراكب المسلمين محصنة بتغريق الحجارة حولها ، رجعتم إلى أصحابكم ، عرفتموهم بأنهم ليس لهم على مراكب المسلمين سبيل[1] ، فصرتم تتحيلون[2] بكل حيلة تخلصون بها أصحابكم الأسارى المسجونين بالقاهرة ، هيهات هيهات ! ضلت و الله حيلكم ، و خاب سعيكم .

فلما سمعت العشرة علوج من ملك الأمراء ذلك ، عاد كل منهم هالكا[3] ، و صاروا يضربون يدا على يد نادمين على نزولهم من غرابهم. ثم إن ملك الأمراء دعا[4] فى الوقت بخيل البريد حملهم عليها إلى القاهرة ليرى السلطان فيهم رأيه ، فسافروا ليلة الجمعة المسفر صباحها عن الثانى و العشرين من ربيع الآخر سنة إحدى و سبعين و سبعمائة[5] .

فلما أصبح يوم الجمعة نزل من الغربان علج[6] ، قال للملك الأمراء : إنا طلبنا منكم الماء لنشرب ، معتمونا إياه ، و نسأل إحسان مولانا ملك الأمراء مرسومه الكريم سفرنا إلى فوهة النيل ببلد رشيد ، نملأ الماء

(١) فى الأصل . سبيلا .

(٢) فى الأصل : تتحيلوا .

(٣) فى الأصل : هالك .

(٤) فى الأصل : ادعى .

(٥) يقابلها ١٨ سبتمبر سنة ١٣٦٩ م .

(٦) فى الأصل : علجا .

منها و نرجع ، فانا قد عطشنا ، فرسم لهم بذلك و نطق الى المركزين برشيد يعلمهم أن ثمانية أغربة واصلة إليكم ، تملأ الماء من مصب النيل فى البحر الملح ، فلا يروعكم أمرهم ، و اتركوهم يملأون الماء ، فانا نحن معناهم ب الماء من جهتنا حتى نعلم / أخبارهم ، و عندنا عشرة من أكابر أصحابهم ، أرسلناهم لمولانا السلطان ، فلا تخشوهم ، و لا تتعرضوا لهم بحرب . فلما صار العلم عندهم ، لم يتعرضوا لهم ، و تركوا حتى ملأوا كفايتهم من الماء . و رجعوا إلى مينة الإسكندرية ، أقاموا بها الى أن رجعت إليهم أصحابهم من القاهرة . فقيل : إنهم قالوا لما سئلوا : نحن غلمان الرسل التى بالغربان . و فى الصلح عمارة البلاد ، و إزالة الفساد[1] . فقيل : إن الترجمان قال لهم على لسان السلطان : إنهم ينزلون[2] من مراكبهم ، و يأتون إلينا مطمئنين آمنين .

فلما رجعت العشرة و صاروا بغربانهم ، رفعوا مراسيهم ، و رجعوا من حيث أتوا ، وكأنهم ـ و الله أعلم ـ ما أتوا إلا أن[3] يجروا مراكب المسلمين من مينة بحر السلسلة . فلما رأوا ما حوط عليها من الحجارة المغرّقة فى الماء ولم يجدوا إليها سبيلا ، تحيروا إذ لم تتم لهم حيلتهم ، فرجعوا خائبين ـ لعنة الله عليهم أجمعين .

---

(١) فى الأصل : الفصاد .

(٢) فى الأصل : نزلوا .

(٣) فى الأصل : انهم .

وقد كانوا مدة إقامتهم يبيتون فى كل ليلة خارج المينة، خوفا على أنفسهم فى الليل من المسلمين، فاذا طلعت الشمس دخلوها. فلما سافروا صبح يوم الجمعة، وجد[1] المسلمون على السور المجاور لدار الإمارة أقبية جندى وعمامته موضوعة، وفى أحد الشراريف حبلا مرخى إلى جهة البحر، فعلم أن جاسوسا كان بين المسلمين من الجند، فعل ذلك وسار مع الفرنج، فتشوش المسلمون لذلك، وخاصوا فى الكلام، وقالوا بقول الفرنج: إنهم لم يحفظوا سورهم، حتى أن جاسوسا نزل من أكبر مواضع الحفظ وهو دار الإمارة، فكيف ببقية السور. فعند ذلك أمر ملك الأمراء بتفتيش البر والبحر، فوجد فى بطن مركب الرسل القسطنطينيين المائلة على جنبها جندى عريان، فقبض عليه، وإذا هو من الأسارى الذين قدم بهم الرائس إبراهيم التازى وقت هروبهم من مينة الإسكندرية وقت القائلة فى قارب، وسار خلفهم، قتل رائسهم ورجع بهم فى العشر الأول من ذى الحجة سنة تسع / وستين وسبعمائة، كما تقدم ٢٨٠/الف
ذكر ذلك مفصلا.

وكانوا حملوا إلى القاهرة فأسلموا وفرقوا على الأمراء، صاروا عندهم جندا. فلما أتى الأمير الشهير بابن رقطية إلى الإسكندرية مجردا مع جملة الأمراء المجردين بها، كان ذلك الجندى من جملة أجناده، فلما نزل فى الليل من السور عريانا، اختفى بمركب القسطنطينيين ينتظر الثمانية أغربة تدخل[2] المينة مثل جارى عادتهم خارجها فى مدة إقامتهم ليصعد

(١) فى الأصل: وجدت.

(٢) فى الأصل: يدخلوا.

إليهم بالعوم ، يفرحون[1] به و يكسونه و يستخبرونـــه عن أمور الفرنج المسجونين ، و الروم القسطنطينيين الذين هم عند المسلمين ، و ينجو بنفسه إلى وطنه ، و يرجع إلى ملته وكفره .

فلعدم سعادتـــه بتركه دين الإسلام ، و ارتداده إلى دين الكفر ، و ثبوت شقاوته ، لمحبته لدين الصليب ، ساورت الغربان الثمانية فى صبح ذلك اليوم ، فقبض عليه ، و دخل بـه إلى دار الإمارة من الطرف الشرقى المتقدم ذكر عمارته عريانا[2] مكشوف العورة ، فلما أوقفوه بين يدى ملك الأمراء صلاح الدين سأله من هو و أى أمير هو معـه مضاف إليه ، فقال : إنه من أجناد الأمير ابن رقطية . فأرسل له يعرفه بما اتفق منه ، فقال : إنه من الأسارى الأسالمة[3] الذين أسرهم الرائس إبراهيم التازى وقت هروبهم من مينة الإسكندرية ، فقولوا لملك الأمراء : اقتله أشرقتلة ، و اجعله[4] بين الفرنج مثلة ، لتركه دين الإسلام ، و ارتداده لدين الصليب و الأصنام ، فلو علمت أنه زنديق يسر الكفر و يظهر الإيمان ، كنت قتلته فيما مضى من الزمان ، و لكن قد ظهرت الآن زندقته ، و انكشفت سريرته ، فالواجب ضرب رقبته . فلما أخبر ملك الأمراء بمقالة أستاذه ، أمر بقتله ، فشقت الأعوان به شوارع الإسكندرية عريانا[2] على الحالة التى وجد عليها ، مهتوك العورة ، أخرجوه من باب البحر إلى الجزيرة ، فقطع بالسيف

(١) فى الأصل . يفرحوا .

(٢) فى الأصل : عريان .

(٣) أغلب الظن أن المقصود بالأسالمة الذين ادعوا اعتناق الإسلام .

(٤) فى الأصل : يجعلهم .

ثلاث قطع ، فضربت رقبته ، و قطع جسده قطعتين ، و علق / على حشبتين ، ٢٨٠ / ب و صار المسلمون يرمونه بالحجارة ، فرأيته و رجله اليمنى قد شقت من عند عرقوبه ، و علق برجليه الاثنتين[1] على خشبة ، بعد أن أدخل طرف الحبل فى المكان المشقوق ، و علق على الخشبة الثانية نصفه الأعلى بيده الواحدة ، و صارت اليد الأخرى مسدولة ، قد علق فيها رأسه المقطوع بأذنه ، و قد قطع ذكره و أنثياه[2] ، و رمى بسهم فى جبهته ، و قلع السهم منه ، فصار مكانه مثقوبا ، و كان شابا أمرد ، ثم أحرق بعد ذلك بالنار - فهذا جزاء الكفار .

هذا ما جرى ، و أما تجار الإفرنج و غلمانهم المستأسرون[3] بالقاهرة ، فإنهم استعملوا فى العمائر السلطانية ، بعد أن كانوا قد استشروا بقدوم من أتوا من القسطنطينية ، و بقدوم الثمانية أغربة ، لما قيل لهم : إنهم أتوا بسبب خلاصهم . فلما لم يتم ذلك ، صاروا على عادتهم ، بأرجلهم القيود ، و على أجسادهم مقطعات اللبود ، و مبيتهم فى كل ليلة بخزانة البنود ، حتى كأنهم الموتى فى اللحود ، قد نصحت منهم الكبود ، و صارت وجوههم كلون الغرابيب السود ، فعاد السمين منهم كالعود المجرود ، و الهزيل من كثرة العمل على الأرض ممدود ، و هو بنفسه يجود .

حدث أحمد المعروف بمرزبان التاجر بسوق السلاح بالإسكندرية بعد قدومه من القاهرة إليها ، قال : رأيت نحو مائة و خمسين من تجار

(١) فى الأصل : الاثنين . (٢) فى الأصل : و أنثييه .

(٣) فى الأصل : المستأسرين .

الفرنج و غلمانهم، يعملون فى العمائر السلطانية و [هم - [1]] فى عيشة رديئة ، و حالة غير مرضية . فعرفت من تجارهم الذين كانوا قبل ذلك بالإسكندرية جزرين ومرك بلطون و أسلبن[2] و برشون و فرنسسك كاتب جوان جنك و غيرهم ، بأرجلهم القيود ، مع كل واحد منهم قفة يحمل فيها التراب ، و قد صاروا من الإهانة[3] البالغة فى أليم العذاب .

لف / و فى يوم الاثنين السادس و العشرين من المحرم سنة اثنتين و سبعين و سبعمائة[4] ، قدمت الثمانية أغربة المتقدم ذكرها إلى مينة الإسكندرية أيضا بسبب خلاص الفرنج المأسورين بالقاهرة . فلما سمعت أسارى الفرنج بقدومهم استغاثوا ، فسمع السلطان استغاثتهم ، فسئلوا عن ذلك ، فقالوا : نريد أن يسافر منا اثنان[5] إلى أرض الفرنج ، يكلمون الباب[6] و الملوك فى إيقاع الصلح و الطاعة لمولانا السلطان ، و نعد[7] مولانا السلطان بأن كلبين منا قد هلكا إذا لم يرجعا . فرسم السلطان بذلك ،

(١) ساقطة من الأصل .

(٢) فى الأصل : و اسلبن . و قد وردت فيما قبل مشكولة « اسلبن » و راجع الفهارس .

(٣) فى الأصل : اهبة .

(٤) يقابل هذا التاريخ ٢١ أغسطس سنة ١٣٧٠ م .

(٥) فى الأصل : اثنين .

(٦) أى بابا رومه فى رياسة الكنيسة الكاثوليكية .

(٧) فى الأصل : و يعد .

فأرسلوا أرناط بن مرك[1] البندقى و آخر معه فى الغربان الثمانية التى[2] لم يقبل السلطان كلامهم [3]فيها، فغاب[3] العلجان نحوا من عشرة أشهر، و وردا إلى مينة الإسكندرية و معهما الثمانية أغربة المذكورة، و هى[4] اثنان من الجنوية، و اثنان من البدقية، و اثنان من الرودسية، و اثنان من القبرسية، فيها[5] رسل ملوكهم، فأما رسل البنادقة و رسل الجنوية فنزلوا من غربانهم، و حملوا إلى القاهرة، و أما الروادسة[6] و القبارسة، فلم يمكنهم ملك الأمراء صلاح الدين من نزول رسلهم من مراكبهم حسب مرسوم السلطان له فى ذلك. فلما حضرت رسل البنادقة و الجنوية لإيقاع الصلح قالوا: إن الصلح إذا وقع معنا، و لم يقع مع القبارسة و الروادسة، يصيروا يتحرفون[7] فى البحر، و يعود العائد علينا بسببهم، و المصلحة تقتضى مصالحتهم و إتيانهم إلى الإسكندرية بمتاجرهم، فان الذى كان السبب فيما فعله بالإسكندرية قتل و مضى أمره، و أخوه البرنز[8] المتملك بعده بجزيرة قبرس طائع[9] لمولانا السلطان، و قد صار من جملة الغلمان، و الماضى لا يعاد، و الصلح يقع على السداد / و الرشاد. ٢٨١/ ب

(١) ورد هذا الاسم قبلئذ ـ انظر عاليه.

(٢) فى الأصل: الذين.

(٣ ـ ٣) فى الأصل: فيهم غابا.

(٤) فى الأصل: و هم.

(٥) فى الأصل: فيهم.

(٦) فى الأصل: الروادسية. (٧) فى الأصل: يتحرموا.

(٨) فى الأصل: البرير. (٩) فى الأصل: طايعا.

فحينئذ رسم السلطان بنزولهم من مراكبهم، و حملهم إلى القاهرة، فصار للبنادقة و الجنوية لهم عليهم اليد العاليـــة لشجاعتهم فيهم بسبب الصلح، فوقع الصلح معهم على أنهم يأتون[1] ببقية أسارى الإسكندرية، و أن يقيم رسل الجنوية و البنادقة و تجارهما رهائن إلى أن يسافر معهم فى قطائعهم رسول السلطان مستصحبا معه بعض الشهود، يحلفون ملوك الفرنج على الإنجيل فى الكنائس بعقد الصلح، و إرسال بقية الأسارى إلى الإسكندرية .

فسافر رسول المسلمين، و هو الأمير سيف الدين طقبغا خازندار[2] العلائى بمن تبعه من شاهد و غلمان . فلما وصل إلى قبرس، لم يتركه الريز صاحبها يسير منها إلى غيرها، و رجع معه أسارى من غير الإسكندرية. فقيل له : و أين اسارى الإسكندرية ؟ فقال : دكروا أنهم رغبوا فى دين النصرانية و تنصروا ، و صار للنسوان منهم الأولاد ، و قد ألفوهم و تزيوا[3] بزيهم فى أحوالهم و ملبوسهم ، و توطنوا عندهم ، و صاروا يخفون أنفسهم . خشية مفارقة النصارى ، و نزعوا الإسلام من قلوبـــهم ، و صاروا بعد الإسلام و الإيمان ، يعبدون الصلبان . فالله تعالى يعافينا مما ابتلوا به ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا و هب لنا منك رحمة إنك الوهاب .

---

(١) فى الأصل: يأتوا .

(٢) فى الأصل : خزندار .

(٣) فى الأصل : و تزايوا .

[حكاية الشيخ على البكاء - [1]]

فلنذكر الآن حكايــة تدهل العقل و تسلبه، و تورث الحزن و تجلبه . و هى أن الشيخ الصالح عليا[2] البكاء صاحب الزاوية المجاورة لبلد الخليل عليه السلام، كان مشهورا بالعبادة، مداوما للبكاء، حتى جعله له عادة، فلذلك شهر بالبكاء . و كان الملك المنصور قلاوون[3] سلطان الديار المصرية و الشامية و غيرهما يثنى عليه و يذكر / أنــه ٢٨٢ / الف
احتمع به، و كاشفه فى أشياء وقعت . و سئل عن سبب كثرة بكائه حتى سمى البكاء، فقال : إنه صحب رجلا له أحوال، و إنه خرج معه من بغداد، فانتهيا فى ساعة واحدة إلى بلد بينها و بين بغداد مسيرة سنة، و إن ذلك الرجل قال للشيخ على البكاء : سأموت فى الوقت الفلانى، فاحتضر عندى فى ذلك الوقت فى البلد الفلانى . قال الشيخ على . فلما كان ذلك الوقت حضرت عنده و هو فى السياق، و قد استدار إلى الشرق، فحولته إلى القبلة، فعاد فاستدار إلى الشرق . ثم قال لى : لا تتعبوا فانى لا أموت إلا على هذا الوجه . و جعل يتكلم بكلام حتى مات . فحملناه فجئنا بــه إلى دير هناك، فوجدناهم فى حزن عظيم . فقلنا لهم : ما شأنكم ؟ فقالوا : كان عندنا شيخ مسن، بلغ من العمر مائة سنة، فلما كان اليوم مات على دين الإسلام، فقلنا : خذوا هذا بدله،

(١) العنوان مشتق من النص، و ليس بالهامش .

(٢) فى الأصل : على .

(٣) انظر حاشية سابقة و راجع الفهارس .

فقد مات على دينكم، و سلموا لنا الذى مات على ديننا . فتسلمناه منهم، و تولينا غسله و كفنه، و صلينا عليه و دفناه . قال الشيخ على: فحصل لى مداومة البكاء على الخاتمة، و ما أدرى ما يختم لى! فنسأل الله تعالى بمنه و كرمه و فضله و جوده و جزيل إحسانه أن يتوفانا[1] على كتابه و سنة نبيه محمد صلى الله عليه و سلم، بلا فتنة و لا محنة، و أن لا يشمت بنا الشيطان عند الموت، و أن يحشرنا فى زمرة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم، و أن لا يخالف بنا عن طريقته و ما جاء به، إنه على ذلك قدير، و بالإجابة جدير .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: لا تؤيس[2] مذنبا، فكم من عاكف على الذنب يختم له بخير! و كم من مقبل على عمله [3]مفسد له[3] ب فى آخر عمره، صار إلى النار! و لله در القائل حيث قال:

/ وكيف تنام الطير عن وكناتها إذا نصبت للمرقدين[4] الحبائل

فليس كل قاصد يبلغ المقاصد، و لا كل وارد يستعذب الموارد، و لا كل متواجد واجد، و لا كل نديم مشاهد، كم من عليل لا يحاد[5]! كم من قتيل لا يعاد! كم من مريد لا يراد! و كم من قريب حظه البعاد!

(١) فى الأصل: يتوفنا .

(٢) فى الأصل: لا يويس .

(٣-٣) فى الأصل: مفسدات .

(٤) فى الأصل: العرقدين .

(٥) كذا فى الأصل، و لعله: لا يجاد ـ بالجيم .

موائد أهل الخصوص لا يجلس عليها إلا من طهر بطهور " و نزعنا ما فى صدورهم من غــل " و طيب بطيب "سلم عليكم طبتم"، و غذى بلبان " فاذكرونى اذكركم " و سقى من شراب "و سقٰهم ربهم شرابا طهورا " و خلع عليه خلعة " يحبهم و يحبونه " و عقد له لواء " نحن اولئٰيؤكم "، وكتب له توقيع " يختص برحمته من يشاء " و حمى بحماية " ان عبادى ليس لك عليهم سلـطٰن"، فمن سبق له هذا الإنعام، غاص فى بحر الصفاء و عام، و من حرم ذوق هذا الطعام، ما ينفعه علمه و لو بعد ألف عام .

ما كل مقبل يقبل و لا إلى أصلى وصل
مضى زمان القسمة و جفت الأقلام
ما كل منزل يصلح لعز سلطان الملك
و لا عروس المحبة تجلى لمن قد سام
ما النورمثل الظلمة ولاالجوهر[1] مثل الصدف
إن كنت عارف تدركم بين سام و حام

روى عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس و هو من أهل النار ، و إن الرجل ليعمل عمل [أهل -[2]] النار فيما يبدو للناس و هو من أهل الجنة .

قال بعض الوعاظ : سابق القدر جرى على قوم بعز " سبقت لهم

(١) فى الأصل : الجواهر .
(٢) زيد من مراجع الحديث .

منا الحسنى" وعلى قوم بذل "غلبت علينا شقوتنا" نورت قلوب الجن فقالوا "انا سمعنا قرآنا عجبا ... فآمنا به" وعميت أبصار بصائر قريش فقالوا "اساطير الاولين ٭" إذا اهتزت صوارم القدر، تقلقلت قلوب المقربين، غضب على قوم فلم تنفعهم الحسنات، ورضى عن قوم / فلم تضرهم السيئات، ما نفعت عبادة بلعام، ولا ضر عناد[1] السحرة. ب هبت عواصف الأقدار بقلل الذُكران فقيدت الوجود، فلما كرت الريح إذا أبو طالب فى لجة الهلاك، وسلمان الفارسى على ساحل السلامة، سبق القدر من القدير، ونفذ الحكم من الحكيم. وجرت القسم "فريق فى الجنة وفريق فى السعير ٭" ولو كان الأمر آنفا لامتدت الأطماع إلى الحيل، واطّردت[2] المكايد فى العمل، لكن الطامة الكبرى بارتباط الأمر بمشيئته، ولا يبالى «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار ولا أبالى» سبقت السعادة لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومضت الشقاوة لأبى جهل قبل وجوده.

واعلم أن القلب إذا عمى لم يفد نظر العين. أما سمعت أصحاب النار إذ يقولون: "لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحب السعير ٭"! وكانوا يرون الآيات، ويسمعون الأصوات، ولكنهم أحياء كالأموات. ولله در القائل حيث يقول:

يا واحدا قد جل عن تقديرى[3] إنى برئت إليك من تدبيرى

(١) فى الأصل: هناد.
(٢) فى الأصل: وطردب.
(٣) فى الأصل: تقدير.

و خلعت طرف تعرضي و أزلته   و فنيت عن وجدي وعن تقصيري
و برئت من حولي إليك و قوتي   علما بأنك خالقي و نصيري
هيهات كيف يضيع عبد عاجز   أو هل يليق تحرز بفقير
ذلي إليك تذللي و تقللي   و العز عندي أن تكون مجيري
وجهت كتب تضرعي لجلالكم[1]   حتى يوافق بالقبول بشيري
أنت الجليس إذا عدمت مؤانسي   و لذيذ ذكرك في الظلام سميري
لو كنت تسمح للعبيد نظرة   ما كان في هذا الوجود نظيري
و رضاك سؤلي و التقرب جنتي   ورجاء جودك في الخطوب ظهيري

[خبر بعثة السلطان لصاحب قبرس -[2]]

فلنذكر الآن ما أخبر به الشاهد الذي سافر مع الأمير رسول السلطان إلى قبرس - لما سئل: كيف كان دخولكم على صاحب قبرس و ما قلتم له و ما قال لكم؟ فقال: لما دخلنا عليه / وجدناه جالسا على ٢٨٣/ب
سرير لطيف، و إلى جانبه راهب محلوق اللحية، و عنده علوج جالسون[3] على كراسي صغار، فتكلموا بما وقع عليه الاتفاق من أمر الصلح، و ذكرنا له اليمين فلم يحلف، و قال: إن الأسارى تنصرت، ثم إنه

(١) في الأصل: لجالكم.
(٢) العنوان مشتق من النص و لم يرد بهامشه، و هو استمرار فصل سابق.
(٣) في الأصل: جالسين.

أكرمنا، و رجعنا فى مراكب الفرنج إلى الإسكندرية . ثم بعد ذلك تتابعت مراكب الفرنج بمتاجرها إلى الإسكندرية شيئا فشيئا، إلى أن كثر الخير بها، فباع[1] المسلمون بضائعهم عليهم ، و تعوضوا عنها من بضائعهم، و اطمأنت الناس ، و ما فات فات .

و فى يوم الاثنين ثانى شهر ذى الحجة سنة اثنتين[2] و سبعين و سبعمائة[3]، عاد إلى الإسكندرية ملك الأمراء سيف الدين طيدمر البالسى بعد عزل ملك الأمراء صلاح الدين بن عرام ، فحين حضر ابن عرام بين يدى السلطان معزولا ، أنشد لسان حاله يقول :

دخلت على السلطان فى حال عزه
بفقر و لم أجلب بخيل و لا رجل
و قلت انظروا ما بين فقرى و عزكم
بمقدار ما بين الولاية و العزل

اعلم أن السيد إذا أحب عبدا من عبيده و أراد أن يزيل طمع الغير منه، عابه بعيب، فيقطع الغير طمعه منه، و يزول عن العبد عجبه. فلذلك قدر على عبده المؤمن ليزول عجبه و يقطع طمع الغير، ألا ترى أن يوسف عليه السلام لما أراد إمساك أخيه بنيامين عليه السلام عبده

---

(١) فى الأصل : فباعت .

(٢) فى الأصل : اثنين .

(٣) يقابله ١٧ يونيه سنة ١٣٧١ م .

و رماه بالسرقة بالصواع الذى دس فى رحله و أخرج منه، فلامه[1] إخوته على ذلك و قالوا له: كيف فضحتنا و فضحت أباك الصديق و أزريت بنفسك؟ فقال بنيامين: يا إخوتى! اسمعوا منى و لا تعجلوا علىّ حتى آتيكم ببرهان تعرفون به براءتى، ألستم تعلمون أن بضاعتكم ردت إليكم فى رحالكم يوم صدرتم من عند الملك و أنتم لا تعلمون حتى قلتم لوالدكم: هذه بضاعتنا ردت إلينا. فان كنتم سرقتم البضاعة فأنا سرقت صواع الملك، و إن كنتم براء فأنا برىء. فظهرت حجته لديهم، و سكتوا عن ملامتهم - انتهى.

[عزل ابن عرام ثم توليته -[2]]

نعود - ثم إن السلطان / جعل صلاح الدين بن عرام بعد عزله ٢٨٤/الف من الإسكندرية أحد حجابه، الواقفين ببابه. فلما كان بعد ذلك، قصد الاعتزاز بعزة الله تعالى، و قال لسان حاله:

ليكن بربك كل عزك[3] يستقر و يثبت
فاذا اعتززت بمن يموت فان عزك ميت

فخلع ملبوس الأمراء، و تزيى بزى الفقراء، أهل التجريد، و أقام بزاوية كالمريد. ثم إنه عاشر من الفقراء طوائف، منهم البحرية

(١) فى الأصل: فلاموه.
(٢) العنوان مشتق من النص و ليس بالهامش.
(٣) فى الأصل: عزل.

و الأحمدية و التونسية و الجزارية [1] و الصوفية ، فصاروا يذكرون الله كثيرا ، فجعلوه صدرهم و شيخهم . فسمع بـه الشيخ حسن الرفاعى ، فأجازه بالمشيخة ، فعظم شأنه ، و ظهر إحسانه . فطلبه السلطان و ولاه الإسكندرية ملك أمرائها كما كان . فقال : إذ قد لبست خرقة الفقراء ، فكيف أصير بعد ذلك ملك الأمراء ؟ فقيل : الواجب عليك طاعة السلطان ، لقول الله تعالى [2] : " و اطيعوا الله و اطيعوا الرسول و اولى الامر منكم " . أمر بطاعة اولى الأمر جزما . فقبل الولاية ، و لبس ملبوس أهل الولاية ، و ذلك فى شعبان سنة أربع و سبعين [3] و سبعمائة . و دخل الإسكندرية يوم الخميس رابع عشر رمضان المعظم قدره من السنة المذكورة ، ففرحت به القراء ، و العلماء و الفقراء ، فصار مجلسه كما كان أولا بمده السماط ، الذى صيره كزاوية و رباط ، لابسا للحندات [4] ، مرخيا للعذبات ، فى مجلس الجلسات ، ذاكرا لله كثيرا . و مصليا على رسوله و آله الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا ، فالله تعالى يزيده من فضله ، و يمده باحسانه و طوله ، و يؤيده بقوته و حوله ،

---

(١) فى الأصل الجزيرة . و ربما كانت الكلمة خطأ قلميا و الدليل من السياق. و هى فرق عديدة تحتاج إلى تحقيق .

(٢) قرآن كريم سورة ٤ آية ٥٩ .

(٣) فى الأصل : و ستين . و بهامشه : لعله : و سبعين . وهو الأصح ، ويقابله يناير ـ فبراير سنة ١٣٧٣ م .

(٤) كذا فى الأصل ، و لعلها بمعنى لباس الجنديين .

إنه

إنه على ما يشاء قدير، و بالإجابة جدير، فالفقير قد يكون فى ظاهره [1]أمير، و هو فى باطنه فقير[1]. ثم إن ملك الأمراء صلاح الدين بن عرام أقام أشهرا و عزل فى المحرم سنة خمس و سبعين و سبعمائة[2]، ثم أعيد إليها ملك أمراء أيضا، فدخلها فى ليلة الجمعة تاسع عشر رجب سنة سبع و سبعين و سبعمائة[3]، و قرئ تقليده بمنبر[4] الجيوش بعد صلاة الجمعة، زاده الله من فضله و كرمه. آمين - انتهى.

نعود - و قد يكون حجاب الرجل الصالح / كثرة الغنى و انبساط ٢٨٤/ب
الدنيا عليه حتى لا يظهر باطن فقره. قال بعض المشايخ: كان بالمغرب رجل من الزاهدين فى الدنيا، و من أهل الجد و الاجتهاد، و كان عيشه مما يصيده من البحر، و كان الذى يصيده يتصدق ببعضه و يتقوت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب، فقال له هذا الشيخ: إذا دخلت إلى مدينة كذا، فاذهب إلى أخى فلان، فاقرئه[5] منى السلام، و تطلب الدعاء منه، فانه ولى من أولياء الله تعالى. قال: فسافرت حتى قدمت تلك المدينة، و سألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك، فتعجبت من

(١) فى الأصل: أميرا ... فقيرا.

(٢) يقابل هذا التاريخ يونيه - يوليه سنة ١٣٧٣ م.

(٣) و يقابله نوفمبر سنة ١٣٧٧ م.

(٤) بعده بياض بالأصل قدر كلمة من غير إخلال بالمعنى.

(٥) فى الأصل: فاقره.

ذلك ، فطلبته فقيل لى : هو عند السلطان ، فازداد تعجبى أكثر من الأول . قال : فهممت بالرجوع و عدم الاجتماع به . ثم قلت : لا يمكننى مخالفة الشيخ . فاستأذنت فأذن لى . فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد و الخدم و الشاورة[1] الحسنة . فقلت له : أخوك فلان يسلم عليك . قال : جئت من عنده ؟ قلت : نعم . قال : إذا رجعت إليه فقل له : إلى كم اشتغال بالدنيا ، و إلى كم إقبال عليها ، و إلى متى لا تنقطع رغبتك فيها ؟ فقلت فى نفسى : هذا و الله أعجب من الأول . فلما رجعت إلى الشيخ الصياد قال : اجتمعت بأخى فلان ! قلت : نعم . قال : ما ذا الذى قال لك؟ قلت : لا شيء . قال : لابد أن تقول . فأعدت عليه ما قال . قال : فبكى طويلا و قال : صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا ، و جعلها فى بدنه و على ظاهره ، و أنا آخذها من يدى ، و عندى إليها بقايا التطلع - انتهى .

[أحوال الفقراء الصالحين -[2]]

فلنذكر الآن أحوال الفقراء الصادقين إن شاء الله تعالى - قوله تعالى[3] : " يايها الناس انتم الفقراء الى الله و الله هو الغنى الحميد " . و قال النبى صلى الله عليه و سلم : اتخذوا مع الفقراء أيادى ، فان لهم غدا دولة و أىّ دولة ! و قال بعض المشايخ : الفقر أفضل من الغنى

(١) كذا فى الأصل ، و واضح أن المقصود المستشارون .
(٢) العنوان مشتق من النص و لم يرد بالهامش .
(٣) قرآن كريم سورة ٣٥ آية ١٥ .

إذا كان مقرونا بالرضى . و قال الشاعر :

/ الفقر سر و عنك النفس تحجبـه ٢٥٨/الف

وارفع حجابك تجلو ظلمة السرف

قالت الفقراء المخلصون : مذهبنا مذهب العجائز إلمام المحراب ، و عقيدتنا أن الله تعالى رب الأرباب ، و مسبب الأسباب ، و منزل الغيث و مزجى[1] السحاب . و نؤمن بالله و بما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ، و طريقتنا أننا فقراء أبناء وقتنا . إن جعنا صبرنا ، و إن شبعنا شكرنا ، لا نحمل للدنيا هما . و لا نفقد حطامها غما . من أسدى إلينا خيرا شكرناه ، و من أبدى لنا شرا عذرناه . و اتكلنا على الله حق الاتكال ، و أصلحنا معاملتنا معه في كل حال . و قمصنا من الزهد في الدنيا قمصانا ، فلهذا عدنا كالطير تغدو خماصا و ترجع بطانا ، و فهمنا الإشارة إلى هذا المقام . من قصة مريم عليها السلام . إذ لما كانت مجردة الهمة لله تعالى ، كان رزقها متيسرا هنيا . فلما مزجت الهمة بعيسى ، قيل لها "و هزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا[2]" و اقتصرنا من اللباس على الخلقان . لعلمنا أن كل من عليها فان ، و أتعبنا أنفسنا و أشقينا أبداننا . لقوله صلى الله عليه و سلم . اعرورروا و اخشوشنوا و امشوا حفاة أحيانا . و رضينا بهذه الهيئات المرقعة ، و الثوبيات

---

(١) في الأصل . مزج .

(٢) قرآن كريم سورة ١٩ آية ٢٥ .

المقطعة، لأنها تدفع الحر و القر[1]، و لا مطمع فيها لأهل الشر، و لأن فيها إهانة[2] للنفس و دفعا للكبر. ثم أنشدوا:

ما ضرنا لبس أطمار مرقعة كالدر ما ضره مخلوق الصدف

فهذا مذهبنا و طريقتنا، و مكارم الأخلاق و الوفاء بالعهد و الميثاق شيمتنا، فليس فينا متكبر و لا شرير و لا متحير، و لا نذكر أحدا [إلا - [3]] بما يرتضيه، و لا نعيره بما هو فيه، و لا نستخدم رفيقنا، و لا نرائى عدونا و لا صديقنا، نصلى الخمس فى الجماعة، و نؤثر الإخوان على قدر الاستطاعة، و لا يبرح أحدنا إلا على وضوء، و يزجر نفسه فى الدنيا عن طلب العلو، و لا نستعير المشط و المسواك، و لا نعتمد[4] النجوم و الأفلاك، و نغتسل فى كل اثنين و جمعة اقتداء بالتابعين، و نقلم أظفارنا[5]

(١) فى الأصل: القر.

(٢) فى الأصل: اهنة.

(٣) ساقطة من الأصل.

(٤) زيد هنا لفظة « الا » بالأصل و هى لا تتفق بالسياق فحذفناها.

(٥) بهامشه ما يلى: اعلم أن قص الأظافر - على ما قاله الشاعر - أمان من الرمد، و هو قوله:

ابدأ بيمناك و بالبنصر فى قصك الأظفار و استبصر
و ثن بالوسطى و ثلث بما قد جاء بالإبهام و بالخنصر
و افعل بسبابتها هكذا فى اليد و الرجل و لا تمتر
و كذا بيسراك بإبهامها و ثن بالوسطى و بالخنصر
و افعل بسبابتها هكذا بنصرها خاتمة الأيسر

فى

فى كل أربعاء مبتدئين[1] باليمين، و نعتقد أن الله واحد أحد، فرد صمد، منزه عن الصاحبة و الولد، مسمى بما سمى به نفسه، بالمعنى الذى أراده، و أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، متلو بالألسنة، مكتوب فى المصاحف، محفوظ فى الصدور . و أن الجنة و النار و الصراط و الميزان حق، و أن الساعة آتية لا ريب فيها، و أن الله يبعث من فى القبور، و أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير حرف و صوت، و أن منكرا و نكيرا يسألان العبد بعد الموت، و أن محمدا صلى الله عليه و سلم أسرى بجميع جسده و نفسه، و أنه رأى الله تعالى بعين رأسه، و أن الله مستو على العرش استواء منزها عن المجاسة و الاستقرار، و أنه تعالى مرئى فى الآخرة بالأبصار، و أنه تعالى كان و لا شيء معه، و هو الآن على ما هو عليه كان، و أنه خالق الموجودات، و مكون الأكوان، و أن عذاب القبر حال على الروح و الجسد، خلافا لمن أنكر و جحد، و أن الخير و الشر بقضاء من الله و قدر، و أن النبى صلى الله عليه و سلم أفضل البشر، و أنه ليس بعده أفضل من أبى بكر، ثم عمر، ثم عثمان ذى النورين، ثم على أبى الحسن و الحسين، ثم بقية الصحابة العشرة، و رضى الله عن الصحابة أجمعين، و عن التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين - انتهى .

فلنذكر ما جاء فى فضل الفقراء الصالحين . قال الله تعالى "للفقراء

(١) فى الأصل : مبتدئا .

الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيٰمهم لا يسئلون الناس الحافا[1] » . الف

و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الفقراء الصبُر هم جلساء الله يوم القيامة . و قال صلى الله عليه و سلم : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام .

و اعلم أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر . و كذلك قوله صلى الله عليه و سلم لرجلين أحدهما فقير و عليه خلقان ، و الآخر غنى : هذا خير من [2]ملء الأرض من مثل[2] هذا . و قال : صاحب الدرهمين أشد حسابا من صاحب الدرهم . و قال الحسن البصرى : إن مما كتب الله لإبراهيم عليه السلام فى الصحف الأولى : إن أحب عبادى إلى الفقراء الذين يبتغون مرضاتى و أمرى ، و يحفظون وصيتى . و إن من كرامتهم علىّ أنى أرزقهم ما لا يشتغلون به عن طاعتى . و يروى فى حديث آخر : يقول الله عز و جل : عبادى و أصفيائى ! ما رويت عنكم الدنيا لهوانكم علىّ ، و لكن أردت أن ترد أصواتكم إلىّ و أسمع منكم النداء ، فهذه دارى فانزلوها ، وهذا حوارى فتحججوا . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : رأس الدين ترك الدنيا ، و القربة من الله عز و جل حب المساكين و الدنو منهم .

---

(١) قرآن كريم سورة ٢ آية ٢٧٣ .

(٢ - ٢) من مسند الإمام أحمد ٥ / ١٥٧ ، و فى الأصل : أهل الأرض .

روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يقول الله عز و جل يوم القيامة : أين صفوتي من خلقي ؟ فتقول الملائكة : من هم يا ربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعين برزقي ، القائمين بطاعتي ، الراضين بقدري ، أدخلوهم الجنة . فيدخلون فيأكلون و يشربون ، و الناس في الحساب يترددون .

و دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم على رجل فقير فلم يجد له شيئا فقال لأصحابه لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم . و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ألا أخبركم / بملوك أهل الجنة ؟ قالوا : ٢٨٦ / ب
بلى يا رسول الله ! قال[1] : كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره . و قال صلى الله عليه و سلم : الفقر على المؤمن أحسن من العذار الجديد على خد[2] الفرس .

و قيل : لو لم يكن للفقير فضيلة غير إرادته سعة المسلمين و رخص أسعارهم لكفاه ذلك لأنه يحتاج إلى شرائها ، و الغني يحتاج إلى بيعها و زيادة سعرها . هـــذا لعوام الفقراء فكيف بخواصهم و أخص خواصهم .

و قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أ تريد أن يكون لك يوم القيامة مثل حسنات الخلق أجمع ؟ قال : نعم . قال : عد المريض ،

(١) في الأصل : قل .
(٢) في الأصل : اخد .

و كن لثياب الفقراء فاليا[1] . فحمل موسى على نفسه فى شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يفلى ثيابهم و يعود المرضى .

و قال سهل بن عبد الله : خمسة أشياء من جوهر النفس : فقير يظهر الغنى ، و جائع يظهر الشبع ، و محزون يظهر الفرح ، و رجل بينه و بين رجل عداوة فيظهر المحبة ، و رجل يصوم النهار و يقوم الليل فلا يظهر ضعفا . و قال بشر الحافى : أفضل المقامات الصبر على الفقر - انتهى .

[عود إلى ولاية ابن عرام و غيره الإسكندرية[2]]

نعود - و لما ولى ملك الأمراء صلاح الدين بن عرام الإسكندرية ثانى ولاية ، لم يقم متوليا غير خمسة أشهر . و عزل منها فى أوائل سنة خمس و سبعين و سبعمائة[3] . و ولى مكانه ملك الأمراء سيف الدين بجك ، أقام بها أشهرا و عزل . و ولى بعده ملك الأمراء سيف الدين أرغوان اللالا المعروف بالأحمدى[4] ، دخلها - أعنى الإسكندرية[5] - يوم الاثنين خامس شوال سنة خمس و سبعين و سبعمائة ، [6]فأتاه الطحانون[6] بألف دينار ليزيد لهم فى الخبز خردبة[4] ، فأخذها منهم و أبقى الخبز على

(١) فى الأصل : قاليا .
(٢) العنوان مشتق من النص و لم يرد فى الهامش .
(٣) يقابلها سنة ١٣٧٣ م .
(٤) بعده بياض بالأصل قدر كلمتين من غير إخلال بالمعنى .
(٥) زيد بعده فى الأصل : يعنى .
(٦-٦) فى الأصل : فاتته الطحانين .

ما كان عليه شفقة على الرعية . ثم وضع الذهب المذكور فى بيت / مال المسلمين . ثم إنه أقام متوليا بها أربعين يوما ، و توفى و دفن برباط الشاطبى ظاهر الإسكندرية من شرقيها . و وليها بعده ملك الأمراء سيف الدين الشعبانى . ٢٨٧/ الف

[عن الموت الأسود - [1]]

و فى سنة خمس و سبعين و سبعمائة[2] بدأ الفناء[3] من شهر شوال منها ، و تتابع إلى ربيع الأول سنة ست و سبعين و سبعمائة[4] ، فصار يتدرج إلى أن صار يموت فى كل يوم نحو المائتين ، و كان أكثره فى الولد الأطفال . قيل : إنه مات فى ذلك الوباء بها سبعة عشر ألفا ، منها ولدان ذكور و إناث اثنا عشر ألفا . و الباقى رجال و نساء ، و عبيد و إماء . و كل[5] ذلك نحو ثلاثين ألفا ، و تبع الفناء الغلاء ، فصار يزداد ثمن القمح و الدقيق و الخبز إلى أن بيع القمح بالإسكندرية بكيلها و هو سبع ويبات و ربع ويبة بالكيل المصرى بمائة و عشرين درهما نقرة الإردب ، و بيع[6] الدقيق العلامة فيها بثلاثين نقرة البطة . و الخبز

(١) العنوان مشتق من النص ، و لم يرد بالهامش .

(٢) انظر الحاشية السابقة رقم ٣ ص ٤٢٢ .

(٣) الطاعون المعروف بالموت الأسود .

(٤) يقابله أغسطس سنة ١٣٧٤ م .

(٥) فى الأصل : كل .

(٦) فى الأصل : و أبيع .

الخشو بنصف و ربع نقرة الرطل بالجروى ، و هو رطلان[1] و سدس رطل بالمصرى ، مع أن النيل المبارك قد عم البلاد ، و زاد زيادة بلغ فيها سبعة عشر ذراعا و نصف ذراع ، و ذلك بعد كسر الجسور على البلاد مع إطلاق الخلجان و الترع عليها لتشرب الأرض و الرى سريعا لأجل تقصير النيل فى العام الذى قبله . فلما رويت أرض مصر بأجمعها زرعت الناس ، و تحيلوا فى شراء البذر بالثمن الغالى و بذروه حتى فى البساتين و الكروم . و لطف الله بأهل مصـــر برخاء الشام فى سائر الحبوب ، فصارت التجار تشترى منـــه القمح و الحبوب و تسير به فى البر و البحر إلى مينة الإسكندرية و غيرها . حتى صار الناس يتبلغون[2] بما يجدونه[3] منه . و افتقر غالب الناس ، و انكشفت أحوالهم ، و ضاقت
ب أسبابهم ، / و رخصت اقمشتهم و أمتعتهم ، فباعوها بالثمن البخس ، ليشتروا بأثمانها الخبز ، و ازدحمت الناس على الخبازين مدة شهور ، حتى صار الخباز لا يلحق إلا بالغصب و القوة ، و صغروا الأرغفة ، و باعوها معاددة بربع درهم نقرة الرغيف . و ذلك مع تتابع المراكب بالقمح و الشعير من الشام و برقة ، و لو لا ذلك لكان غير ذلك ، و لم يزل الخبز بنصف و ربع الرطل إلى أن ضج النـاس فى ذلك الغلاء و القحط الشديد ، و ضاق بهم الحال لقلة المكاسب مع وجود القمح و الشعير

(١) فى الأصل : رطلين .
(٢) فى الأصل : تتبلغ
(٣) فى الأصل : يجدوه .

و الخبز . فقيل فى ذلك : قال بعضهم [1] فى ذلك [1] .

[فى الزهد - [2]]

ذكر الزهد فى الدنيا الفانية، و الرغبة فى طلب الآخرة الباقية، قوله تعالى [3] : " قل متاع الدنيا قليل و الأخرة خير لمن اتقى و لا تظلمون فتيلا ه " . و قال النبى صلى الله عليه و سلم : لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا [4] منها شربة ماء . و قال بعضهم :

إذا كان شيء لا يساوى جميعه جناح بعوض عند من أنت عبده
تملك جزء منك كلك ما الذى يكون على ذى [5] الحال قدرك عده

قال يحيى بن معين : كان قوت أحمد بن حنبل فى كل شهر درهم و دانق ، و صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة . قال بعض الصالحين : رأيت أحمد بن حنبل بعد وفاته فى المنام فى الجنة و عليه ثياب خضر و هو يخطر فى مشية لم أكن أعرفها له فى دار الدنيا . فقلت له : يا أبا عبد الله ! ما هذه المشية ؟ فقال : هذه مشية الخدام فى دار السلام . فقلت له : أخبرنى ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى و رحمنى و أكرمنى و أكسانى

(١-١) كذا بالأصل - و هو تكرار ، و وقع بعده بياض ، و بهامشه : بياض الأصل ثلاثة أسطر .
(٢) العنوان مشتق من النص ، و ليس بالهامش .
(٣) قرآن كريم سورة ٤ آية ٧٧ .
(٤) من جامع الترمذى - الزهد ، و فى الأصل : كافر .
(٥) فى الأصل : ذا .

و حلاني و ألبسى نعلين من ذهب، و قال: يا أحمد! هذا بقولك القرآن ب / كلامي غير مخلوق . فالسعيد من ترك الدنيا الفانية، و طلب الآخرة الباقية، و سأل الكريم أن يدخله جنة النعيم، و التخلف هو الفرح بالدنيا، و الساعي فيها بالكد و التعب و الجد و النصب ليجمع لزوج حليلته، و يحاسب هو على جمعه، و المصيبة كل المصيبة! إن كان منع حق الله منه، بعدم إخراج زكاة ماله . و بخله به على مستحقيه . فقد قيل: مصيبتان لم [1]يسمع الأولون و الآخرون[1] أعظم منهما[2] عند موت صاحب المال . و ذلك أنه يؤخذ منه ماله كله . و يحاسب عنه كله، فيلزم العبد أن يكون متيقظا أوابا، ليسلم في الآخرة من العذاب، قال الله تعالى: "فانه[3] كان للاوابين غفورا." و إذا حصل للعبد من ربه المغفرة، فاز بالجنة . و الاواب هو الذي أقلع عن الذنب فلم يعد إليه، و قد سمي داود عليه السلام أوابا و غيره من المرسلين .

قال الغزالي في كتاب «الدرة الفاخرة، في كشف علوم الآخرة»: إن داود عليه السلام بأمره الله تعالى يوم القيامة يرقى منبرا و يتلو الزبور، فيرقى يقرأ و هو أحسن الناس صوتا، و في الصحيح أنه صاحب مزامير أهل الجنة، فيسمع صوته أوريا المقتول أمام تابوت السكينة، فيقتحم

(١-١) في الأصل: تسمع الاولين و الآخرين .
(٢) في الأصل: منها .
(٣) في الأصل: انه - راجع القرآن الكريم سورة ١٧ آية ٢٥ .

الجوع، و يتخطى الصفوف، حتى ينتهى إلى داود عليه السلام، فيتعلق به و يقول: أما وعظك الزبور حتى نويت لى ما نويت حتى قتلت؟ فيخجله و يسكت مفحما، ويرتج الموقف لما يرى الناس من شأن داود. ثم يتعلق أوريا به و يسوقه إلى الله تعالى، فيرخى عليهما ستره، فيقول أوريا: يا رب! أصفنى منه، فانه [1]تعمد لى[1] الهلاك و جعلنى أقاتل أمام التابوت ثم قتلت، و تزوج امرأتى، عنده يومئذ تسع و تسعون امرأة. فيقول: يا رب! قد كان ذلك. و هو منكس الرأس حياء من الله تعالى و توقعا/ لما ينزل به من العذاب و رجاء فيما يرجو من المغفرة، وأن الله ٢٨٨ / ب
كريم، فاذا نكس رأسه حياء من الله تعالى و إذا طمع رجاه، فيقول الله تعالى لأوريا عند[2] ذلك: لك كذا وكذا من القصور، و الولدان و الحور. فيقول: رضيت يا رب! ثم يقول الله تعالى لداود: اذهب فقد غفرت لك. و أما الظالم الأواب فأنه يؤتى به إلى الله تعالى يوم القيامة فيخرج عليه المظالم و يتعلق به المظلوم، فيقول الله له: التفت أيها المظلوم فوق رأسك. فيلتفت فاذا هو بقصر عظيم تحار فيه الأبصار. فيقول: ما هذا يا رب؟ فيقول جلت قدرته: إنه للبيع و الشراء فاشتره[3]، فيقول له: يا رب! ما معى شيء أشتريه به. فيقول له: إن تركت مظلمة أخيك

(١-١) فى الأصل: تعمدنى.

(٢) فى الأصل: عن.

(٣) فى الأصل: فاشتريه.

فالقصر لك . فيقول : يا رب ! قد فعلت ذلك . هكذا يفعل الله تعالى بالظالمين الأوابين ، و هو قوله تعالى " فانه[1] كان للاوابين غفورا ﴿ " و قد تقدم [أن -[2]] الأواب هو الذى أقلع عن الذنب فلم يعد إليه . فالسعيد من ترك الدنيا الفانية ، و طلب الجنة الباقية ، فيها المستقر و المقر الدائم ، فيا سعادة من دخلها و متعه الله بنعيمها !

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا أعلم فى الجنة قصرا إلا و فى وسطه أربعون نهرا جاريا[3] ، على شاطئ كل نهر ألف شجرة ، بعضها أحسن من بعض ، أصول الأشجار من مسك ، و أغصانها من كافور ، و أوراقها دنانير ، تحمل بعض الأشجار الجوارى ، و يحمل بعضها الحلل ، و يحمل بعضها الثمار ، كل لون مما يشتهيه[4] أولياء الله ، و هو فوق منبر من ذهب ، و فى وسطه ألف حوراء ، و حولها ثمانون ألف وصيفة ، كل واحدة أحسن من الأخرى ، و أولياء الله فيما بينهن من نعيم لا يفنى ، و عيش لا يخافون فيه الموت ، و إن الجنة كما قال الله تعالى[5] " و فيها ما تشتهيه[6] الانفس و تلذ الاعين و انتم فيها خلدون ﴿ " . اللهم اجعلنا / من أهل الجنة بمنك و كرمك يا أرحم الراحمين - انتهى .

---

(١) فى الأصل : انه - راجع القرآن الكريم سورة ١٧ آية ٢٥ .
(٢) ساقطة من الأصل . (٣) فى الأصل : جارين .
(٤) فى الأصل : يشتهون . (٥) قرآن كريم سورة ٤٣ آية ٧١ .
(٦) من القرآن الكريم ، و فى الأصل : تشتهى .

و إلى هنا انتهى ما قصدنا أن نورده فى هذا الكتاب . و سنختمه بالدعاء النافع إن شاء الله تعالى . اللهم ! صل على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون ، و غفل عن ذكره الغافلون ، و على آله و أصحابه و أزواجه و ذريته و سلم تسليما كثيرا . خرج مسلم فى صحيحه أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يقول: اللهم ! أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، و أصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، و أصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، و اجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، و اجعل الموت راحة لى من كل شر .

قال الشيخ أبو العباس القرطبى فى كتابه « المفهم فى[1] صحيح مسلم » حين تكلم على هذا الحديث : هذا دعاء عظيم ، جمع خير الدنيا و الآخرة و الدين[2] ، حق على كل سامع له أن يحفظه و يدعو به آناء الليل و النهار ، لعل الإنسان يوافق ساعة إجابة فيحصل على خير الدنيا و الآخرة ، و يقول معه " ربنا آتنا فى الدنيا حسنة و فى الآخرة حسنة و قنا[3] عذاب النار " - انتهى .

دعاء آخر : اللهم ! إن ذنوبنا عظيمة ، و إن قليل عفوك أعظم منها . اللهم اغفر لنا بقليل عفوك عظيم ذنوبنا ! اللهم ! ما تقلدنا من

(١) من كشف الظنون ، و فى الأصل : على .

(٢) زيد هنا : و الدنيا ، و الكلمة مكررة فحذفناها .

(٣) من الوقاية .

ذنب أو زلل أو خطايا أو إثم أو نسيان[1] أو غيبة أو كدب[2]، فاعف عنا بعفوك ، و اغفر لنا بمغفرتك اليوم قبل يوم القيامة ، و لا تدع لنا عندك دنبا مخبيا تريد أن تعدبنا به فى قبورنا ، و لا تجعلنا فى القبور من النادمين و لا من الخاسرين ، و أوجب لنا الخلود فى جنات النعيم ، و لا تجعلنا شماتة للشامتين ، و لا تبسط علينا ألسنة الطاعنين ، و أعطنا من فضلك الذى لا ينقص ، و رحمتك التى لا تفرغ ، / و أعطنا النضرة / ب و السرور ، برحمتك يا عفو يا غفور — انتهى .

دعاء آخر : اللهم ! إنا نسألك باسمك الذى شق الصخر ، و أبرم الأمر ، و أرسل القطر ، و أنزل الرزق و نور البدر ، و نسألك باسمك الذى شق القلم ، و أغسق الظلم ، و برأ الأمم ، و أسبغ النعم ، و صرف النقم ، و اختار الأمم ، و فتح الأعين ، و أنطق الألسن ، أن تعطينا خير الدنيا و الآخرة . و تصرف عنا شرنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

اللهم يا رب ! كل شيء بقدرتك على كل شيء ، اغفر لى كل شيء ، و لا تسألنى عن شيء

يا رب هيئ لنا من أمرنا رشدا و اجعل معونتك الحسنى لنا مددا
و لا تكلنا إلى تدبير أنفسنا فالنفس تعجز عن إصلاح ما فسدا

اللهم إنا نعوذ بنور قدسك ، و عظمة طهارتك ، و بركة جلالك من

(١) فى الأصل : نسيانا .
(٢) فى الأصل : كذا .

كل آفة و عاهة و طارق الجن و الإنس إلا طارق يطرق بخير يا رحمن! اللهم أنت عياذنا فبك نعوذ و أنت ملاذنا فبك نلوذ، يا من ذلت له رقاب الجبارة، و خضعت له مقاليد الفراعنـــة، نعوذ بجلال وجهك و كرم جلالك من خزيك و كشف سترك، و نسيان ذكرك، و الإضراب عن شكرك، ذكرك شعارنا، و ثناؤك دثارنا، لا إله إلا أنت، تنزيها لوجهك و تكريما لسبحات قدسك، أجرنا من خزيك، و اضرب علينا سرادقات حفظك و حياطتك، و أدخلنا في عنايتك، و قنا سيئات عذابك يا أرحم الراحمين! اللهم تقبل منا دعاءنا، و تجاوز عن سيئاتنا و سيئات آبائنا و أمهاتنا و إخواننا و أخواتنا و أزواجنا و ذرياتنا و جميع المسلمين! اللهم صل على ملائكتك المقربين، و على أنبيائك المرسلين الطاهرين المطهرين و على عبادك الصالحين، و سلم عليهم و علينا كما سلمت على آل يس! صلى الله على نبينا محمد و عليهم أجمعين، صلاة تعمنا بركتها و تعمها إلى
٢٩٠/الف
يوم الدين. و رضي الله عن الصحابة أجمعين، و سلم تسليما كثيرا. و حسبنا الله و نعم الوكيل و الحمد لله وحده.

(* * * *)

تم كتاب الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية، الواقع بها فى سنة سبع و ستين و سبعمائة[١]، و عودها إلى حالتها المرضية . مع ما أضيف إلى ذلك من الواردات المستطردات . و كان الفراغ من كتابته من نسخة بخط مؤلفه رحمه الله تعالى فى يوم الأحد المبارك الموافق لسابع عشرى شهر ربيع الأول الذى هو من شهور سنة أربع و ستين و ألف[٢] على يد أفقر العباد و أحوجهم إلى رحمة ربه الكريم الهادى أحمد درويش الوقادى ، و الحمد لله وحده !

و إن تجد عيبا فسد الخللا * جل من لا فيه عيب و علا

دار الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ تاريخ

———(* * * *)———

(١) يقابل هذه السنة ١٣٦٥ - ١٣٦٦ م . و المقصود تاريخ الوقعة لا تاريخ الانتهاء من تحرير الكتاب .

(٢) يقابل هذا التاريخ ٦ فبراير سنة ١٦٥٤ م .

خاتمة الطبع

الحمد لله العزيز العلام، و الصلاة و السلام على سيد الأنام، محمد المصطفى و آله النجباء البررة الكرام، و أصحابه الأعلام، أئمة الهدى و مصابيح الظلام؛ و بعد فقد وقع الفراغ من طبع الجزء السادس من «كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام» للشيخ الإمام الهمام، محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني - رحمه الله - يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٩٣هـ = ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٧٣م؛ تحت مراقبة مدير الدائرة و عميدها أحد أعلام الهند من أولي الألباب، «أفضل العلماء» بروفيسور السيد عبد الوهاب، البخاريّ حين الانتساب، إلى آبائه الكرام ذوي الأحساب و الأنساب، وفّى الله أجره بغير حساب! نعم العبد انه اواب!

اعتنى بتصحيحه و تحقيقه و التعليق عليه ميزة الأماثل، الأستاذ الفاضل، المستشرق الدكتور عزيز سوريال عطية، أعانه الله في خدمته العلمية العلية! و عني بتنقيحه خادم العلم و العلماء راقم هذه الخاتمة - غفر الله له و لوالديه - بمساعدة رفيقه العزيز مصحح الدائرة محمد عمران الأعظمي العمري (الحامل شهادة أفضل العلماء من جامعة مدراس) حفظه الله! على المراجعة في المراجع و المصادر المتعلقة، بعد إعادة المعارضة و المقابلة بالأفلام الصغيرة لمخطوطة القاهرة.

و في الختام ندعو الله تعالى أن ينفعنا به و يوفقنا لما يحبه و يرضاه، و هو المسؤول لحسن الخاتمة، و نصلي و نسلم على من علم فواتح الخير و خواتمه، سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه أجمعين، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى رحمة الله الغني الحميد
السيد محمد حبيب الله القادري الرشيد
(كامل الجامعة النظامية)
رئيس قسم التصحيح من دائرة المعارف العثمانية

DA'IRATU'L-MA'ARIFI'L-OSMANIA PUBLICATIONS
NEW SERIES, No. IX/xiii/vi



KITĀBU'L ILMĀM

BY

Muḥammad B. Qāsim al-Nuwairy al-Iskandarāni
(Died after the year 775 A.H./1372 A.D.)

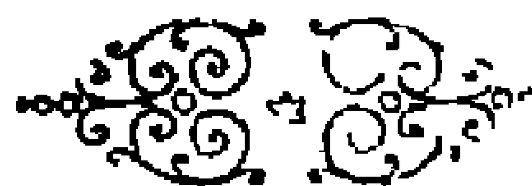
Vol. VI

Edited by

DR. AZIZ SURYAL ATIYA

(From the Cairo MS.)

Printed
Under the Auspices of the Government of India
&
Under the Supervision of
Prof S.A. Wahab Bukhari
Director, Da'iratu'l-Ma'arifi'l-Osmania



Published by

THE DA'IRATU'L-MA'ARIFI'L-OSMANIA
(OSMANIA ORIENTAL PUBLICATIONS BUREAU)
OSMANIA UNIVER

(1393

DA'IRATU'L-MA'ARIFI'L-OSMANIA PUBLICATIONS
NEW SERIES, No. IX/xiii/vi



KITĀBU'L ILMĀM

BY

Muḥammad B. Qāsim al-Nuwairy al-Iskandarāni
(Died after the year 775 A.H./1372 A.D.)

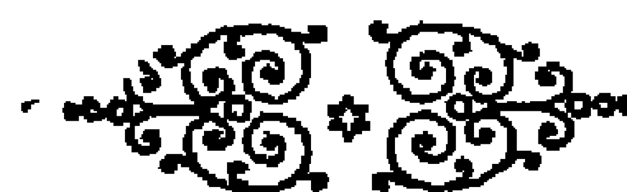
Vol. VI

Edited by

DR. AZIZ SURYAL ATIYA

(From the Cairo MS.)

Printed
Under the Auspices of the Government of India
&
Under the Supervision of
Prof. S.A. Wahab Bukhari
Director, Da'iratu'l-Ma'arifi'l-Osmania



Published by
THE DA'IRATU'L-MA'ARIFI'L-OSMANIA
(OSMANIA ORIENTAL PUBLICATIONS BUREAU)
OSMANIA UNIVERSITY, HYDERABAD—500007
INDIA
(1393 A.H. / 1973 A.D.)